العقائد السلفيّة بأدلتها النقليّة والعقليّة

لمؤلفها وناظمها

أحمد بن حجر آل بوطامي البنعلي

الجزء الأوّل

١٤١٥ هـ ١٩٩٤ م

الطبعة الأولى

رقم الإيـــداع
بدار الكتب القطرية ٦٧/١٩٩٢ م



بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــــد

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لانبي بعده ، وعلى آله وصحبه ومن اقتفى نهجه ، أما بعد :

فإن علم توحيد الإله بأقسامه الثلاثة أشرف العلوم وأجلها ، إذ هو الدين الصحيح الذي لا يقبل الله دينا سواه ، وهو المقصود بقول الله تعالى : (**ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**)[1] .

ولفشو البدع والضلالات والديانات والمذاهب والنحل الباطلة ، واختلاط الحق بالباطل ، فقد أصبحت حاجة المسلمين إليه فوق كل حاجة ، والضرورة إليه فوق كل ضرورة ، إذ لا نجاح في الدنيا ، ولا سعادة في الآخرة إلا بالعقيدة الصحيحة ، وهي الموافقة للكتاب والسنة .

هذا وكنت قد شرعت في شرح منظومتي المسماة (الدرر السنية في عقد أهل السنة المرضية) في سنة ١٣٥٣ هـ وأنا بالإحساء لطلب العلم وسميته : (العقيدة السلفية بأدلتها النقلية والعقلية) ، ولقلة المصادر وقتذاك لم أتمكن من مواصلة الكتابة .

وعندما كنت في رأس الخيمة ، واقتنيت بعض الكتب ، واصلت الكتابة في الشرح حتى جئت قطر ، وقد منّ الله علي بالكتب ، فاستأنفت الكتابة في فترات متقطعة حتى سنة ١٣٩٠ هـ ،

---

(١) آل عمران : ٨٥ .

أكملت الجـزء الأول وطبعتـه في بيروت ، ثم فتـرت عن الـكتابة لانشـغالي بالقضاء وبعض المؤلفات الأخرى .

وقبل سنتين أو ثلاث تقريباً ، يسر الله عليّ حتى أكملت الجزء الثاني في شهر ذى الحجة سنة ١٤١١ هـ ، مع إضافات عديدة في الجزء الأول ، أسأل الله العظيم أن ينفع بهما عباده المسلمين ، وأن يثيبني يوم الدين ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

هذا ولا أبـرىء نفسي من الخـطأ والقصور ، لأن العصمة للأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، وما أحسن من قال :

وإن تجـد عيبـاً فسد الخللا فجـل من لاعيب فيـه وعـلا

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .
الدوحة في غرة جمادى الأولى عام ١٤١٢ هـ .
الموافق ٨ نوفمبر ١٩٩١ م .

أحمد بن حجر آل بوطامي البنعلي

المقدمــــة

قبـل الدخـول في شرح الدرر السنيـة في عقـد أهل السنة المرضية ، فإنه من الأجدر بي أن أقدم مقدمة في أحوال العقيدة السلفية وأطوارها حتى عصرنا ، ومزايا هذا الشرح بالنسبة لأكثر الكتب المؤلفة في هذا العلم ، فأقول وبالله التوفيق وبيده أزمة التحقيق :

غير خاف ما لعلم التوحيد من شرف عظيم ، وفضل شامخ ، ودرجة سامية على سائر العلوم ، وكيف لايكون كذلك ، وهو علم أصول الدين ، وزبدة رسالات المرسلين ، ومن أجله نصبت القبلة ، وشرعت سيوف الجهاد ، وعليه أسست الملة .

ولذا كانت حاجة العباد إليه فوق كل حاجة ، وضرورتهم إليه فوق كل ضرورة ، لأنه لا حياة حقيقية ولا سعادة ولا نجاة إلا بمعرفة العبد ربه ومعبوده بألوهيته وأسمائه وصفاته .

إذ على هذه المعرفة تبنى مطالب الرسالة كلها ، من أولها إلى آخـرها ، وقد كانت الصحابة رضى الله عنهم في عصر الرسول ﷺ يتلقون القرآن منه ، ويقرأونه ويتفقهونه ، وما أشكل عليهم سألوا الرسـول ﷺ عنـه ، واطمـأنـوا إلى تفسـيره وائتمروا بأوامره ، واستـرشـدوا بإرشـاداته ، فأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، ولم يتجاوزوا حدوده ، وآمنوا بما فيه من أسماء الله وصفاته ، كما آمنوا بما أخبر الرسول ﷺ عن الله وأسمائه وصفاته وعن الدار الآخرة ، وعما اشتملت عليه من بعث وحساب ، ونعيم وعذاب ، وأذعنوا لأوامره ﷺ وائتمروا بها ، وانتهوا عما نهاهم ، وهم في كل ذلك في غاية الخضوع والامتثال ونهاية الإيقان والإيمان ، مع كمال فهمهم للمبنى وللمعنى من القرآن والسنة ، لم يفرقوا بين آيات

الأوامر والنواهي وبين آيات توحيده تعالى ونعوته بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وزادهم الرسول ﷺ بما وصف لهم ربهم بالأوصاف التي وصف بها نفسه في كتابه العزيز - الذي نزل به على قلبه الروح الأمين - بما أوحي إليه من ربه ، فلكمال فهمهم عن معبودهم ، وجودة قريحتهم بما نعت به نفسه في كتابه المجيد ، وبما وصفه به رسوله ، لم يسألوه عن أي الصفات كما كانوا يسألونه عن أمر الصلاة والزكاة والحج ، وكما سألوه عن أحوال القيامة والجنة والنار ، لأن معاني صفاته تعالى ثابتة في أذهانهم ، وراسخة في قلوبهم ، من أجل أن القرآن نزل بلغتهم .

فما كانت هناك حاجة إلى السؤال والخوض في هذا الأمر ، ولا عهد أن حصل بينهم جدال ونقاش حول آية أو حديث أو صفة من الصفات ، ولو وجد شيء من ذلك لنقل كما نقلت الأحاديث الواردة عنه ﷺ في أحكام الحلال والحرام والترغيب والترهيب ، وذلك أن الفطرة - التى لم تفسدها البيئة المزيجة بالأهواء والضلالات والمجتمع الفاسد - مجبولة على الاعتراف بالله وبأسمائه وصفاته ، مع كونه فوق مخلوقاته ، ويعلم ما كان وما يكون ، وهو السميع البصير والعليم الخبير .

بل الرسول ﷺ سأل الجارية الخرساء : أين الله ؟ فأجابت بما فطرت عليه من علوه على مخلوقاته ، وقالت : في السماء .

على هذا الصراط المستقيم والنهج القويم ، والجمع بين العقيدة الصحيحة والعمل الصالح والعلم النافع ، كان الزمن الذي فيه عاش الرسول ﷺ حتى فارق الدنيا ، ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة مما يقرب العبد إلى ربه في أمور دينه ، من أصوله وفروعه ، وأمور دنياه وأخراه ، إلا وقد أمرهم وأخبرهم ، حتى قال ﷺ : « تركتكم على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك » .

حالة العقيدة في عصر الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة والتابعين

أما عصر الخلفاء : فإن الصحابة رضوان الله عليهم قد ساروا على ما سار عليه الرسول ﷺ من الاهتمام بما أمر الله به ، وترك ما نهى عنه ، وجروا على الأمور الاعتقادية على ما كانوا عليه في حياة الرسول ﷺ ، ولم يتعرضوا لها بتأويل ، ولم يحصل بينهم اختلاف كما حصل في بعض الفروع العملية ، بل كانوا كلهم متفقين على إثبات ما جاء في كتاب الله وفي سنة رسوله الصحيحة من أوصاف الله سبحانه وتعالى بما يتفق وذاته المقدسة ، ثم جاء التابعون فسلكوا مسلك الصحابة في أصول الدين وفروعه ، ولم يحدثوا بدعة ولا تأويلاً .

حتى في أواخر عصرهم ، وفي عصر مروان بن محمد الأموي ، أظهر الجعد بن درهم رأيه بالقول بخلق القرآن ، ونفي الصفات - وهو التعطيل - ، وأنه أول من حفظ عنه هذه المقالة في الإسلام ، وهو الذي ابتدع بدعة القول في القدر ، وتتلمذ عليه الجهم بن صفوان ، وأخذ عنه آراءه .

وجاء دور المعتزلة في أوائل الدولة العباسية في عصر المأمون ، فأخذوا هذه الآراء وتأثروا بعلم الفلسفة ، فزادوا ونقصوا ، واخترعوا لهم مذهباً جديداً ، وأغروا بعض خلفاء العباسيين كالمأمون والمعتصم ، حتى دعوا الناس إلى القول بخلق القرآن ، وذاعت هذه المعتقدات الفاسدة ، وشاعت بين الأنام ، والسياسة تؤيدها من ورائها بالترغيب والترهيب ، ونصر السنة إذ

ذاك الإمام أحمد بن حنبل ، ووقف موقفاً حميداً ، سجل له التاريخ بقلم من النور ، وأيد الله به الدين ـ كما تأيد الدين أيام الردة بأبي بكر ـ بالرغم مما نال الإمام من سجن وتعذيب .

ثم جاء الإمام أبو الحسن الأشعري ، وكان تلميذاً لأبي علي الجبائي المعتزلي فهداه الله ، وترك مذهب الاعتزال ، وأتى بمذهب مزيج بين عقائد أهل السنة وعقائد المعتزلة ، وكافح المعتزلة ورد عليهم ، وفند شبههم ، وكلما اشتدت عنايته في البحث والدراسة ، وسبر منهج السلف الصالح ، تبين له خطأ ما كان عليه ، حتى أنه رجع إلى مذهب السلف تماماً وألف كتاب الإبانة وكتاب مقالات الإسلاميين ، وهما مطبوعان ومتداولان بأيدي الناس في سائر أرجاء العالم ، فقد صرح في هذين الكتابين بأنه على مذهب السلف الصالح ، وعلى ما كان يعتقده الإمام أحمد بن حنبل ، وأثبت جميع الصفات الواردة لله تعالى في القرآن والسنة الصحيحة ، ورد على الجهمية والمعتزلة ، ونصر السنة ، فرحمه الله رحمة واسعة .

ولكن أكثر الأشاعرة لم يتبعوا الإمام أبا الحسن في عقيدته الصافية النقية ، وأخذوا بالمبدأ الذي كان عليه الإمام أوائل تركه مذهب الاعتزال ، ولم ينظروا إلى رجوعه في الآخر إلى مذهب السلف الصالح ، وتمسكوا بمبدئهم ، وألفوا الكتب الكثيرة ، وقد انتشرت .

ودان بهذه العقائد أكثر الشافعية والمالكية وقليل من الحنابلة ، كما دانت الحنفية بمذهب أبي منصور الماتريدي ـ رحمه الله ـ .

وقد مضت القرون العديدة والمسلمون المنتسبون إلى أهل السنة والجماعة لا يعرفون سوى هذين المذهبين ، وكانت المدارس في بغداد ، وفي القاهرة ، وفي الشام ، وفي اليمن ، وفي الهند ، وفي المغرب ـ وبالاختصار في سائر أنحاء الدنيا ـ لا يدرسون إلا في

كتب هذين المذهبين وهي مليئة بالتأويلات الفاسدة والأقاويل الضعيفة والاصطلاحات المنطقية الفلسفية ، الأمر الذي أدي إلى أن يقف القارىء الذكي ذي الفطرة النيرة موقف الحيرة والاضطراب من هذه المذاهب والآراء والاصطلاحات المختلفة الأجنبية والعبارات المعقدة المنفرة ، مما لو أفنى عمره في قراءتها ، والبحث فيما حوته ، لخرج منها ـ بعد ذلك العناء الشديد ، والعمر الطويل الذي أمضاه في تلك البحوث في ثنايا تلك الكتب ـ وهو متزلزل العقيدة ، ضعيف الإيمان والإيقان ، يتمنى أنه لم يخض في غمار تلك البحوث وفي بحر ذلك العلم الذي سموه علم التوحيد وعلم الكلام .

والحال أنه ليس فيه من التوحيد الخالص إلا النذر اليسير ، بل فيه الشكوك والحيرة والتعطيل والاضطراب ، حتى قال بعضهم :

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وغاية دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

قلنا : قد مضت القرون والناس المنتسبون إلى السنة لا يعرفون سوى مذهبي الأشعرية والماتريدية ، وكانوا يعتقدون أن ما سوى هذين المذهبين باطل ! ومؤد إلى الهلاك أوالنار ، وصاحبه إما مبتدع أو كافر .

وكان العارفون بمذهب السلف قليلين ، لا يمكنهم إظهار ما يعتقدونه ، اللهم إلا للخواص من أصحابهم ، أو يكتبونه في مؤلفاتهم .

حتى جاء شيخ الإسلام أحمد بن تيمية الحراني ـ رحمه الله ـ في القرن الثامن الهجري ، ونشر مذهب السلف بعد تضلعه من

العلوم العقلية والنقلية ، وتحمل الأذى من خصومه ، وقد حبس مراراً حتى توفاه الله وهو مسجون في قلعة دمشق سنة ٧٢٨ هـ .

ثم قام تلميذه العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ ، ونشر الدعوة كشيخه ، ومن قيام الشيخ بهذا الأمر ، وكثرة تآليفه ، ونشره بين الناس مذهب السلف وتوحيد العبودية ، تأثر كثير من الناس ، وعرف الحق ، ودان به ، ولكن كانوا قليلين لا يستطيعون أن يجاهروا بذلك ، لأن أكثرية العلماء والملوك من ورائهم بضد هذا المذهب السلفي .

حتى جاء القرن الثاني عشر ، وظهر الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ ، فقام بدعوته الإصلاحية ، ونشر توحيد الألوهية والربوبية وتوحيد الأسماء والصفات ، وألف الرسائل النافعة ، وهدى الله به أهل نجد وكثيراً من غيرهم ، وأيد الدعوة آل سعود الكرام ، وجرى ما جرى مما سجله التاريخ .

ومما سجله التاريخ أنهم كانوا يضطهدون كل عالم سلفى ، ومن كان يعلن عقيدته السلفية يلقبونه بالوهابي تارة وبالمجسم تارة أخرى ، وأحياناً يطلقون عليه لفظة كافر ومارق .

ومن تلك الخزايا والفضائح : أن الشريف حسيناً قد سجن الشيخ أبا بكر بن خوقير ، لأنه كان يدين بمذهب السلف ، ولأن عنده كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الحافظ ابن القيم ، ولم يخرج من السجن إلا بعد دخول الملك عبد العزيز الحجاز .

وقصارى القول : كان أكثر العلماء فضلا عن العوام بضد العقيدة السلفية وتوحيد العبودية ، يحقرون أمر ذي العقيدة الصحيحة ، وينفرون الناس عنها ، ويسمون المعتقد بها خارجياً وهابياً ، بل قد يؤذونه إذا أمكنهم .

حتى بزغت شمس الملك الراحل عبد العزيز بن عبد الرحمن

ابن فيصل آل سعود ـ رحمه الله ـ ، ودانت له نجد والحجاز وعسير ، واشتهر أمره ، وذاع صيته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكروأمَّنَ الطرق ، وأقام الحدود ، ونشر العدل بين الناس .

طفق هذا العبقري يطبع الكتب النافعة ، وينشرها بين الناس ، ويدعو إلى مذهب السلف الصالح ، ورأى الناس علماء نجد وما هم عليه من التمسك بالسنة والعقيدة الصحيحة ، فتيقن كثير من الناس أن ماسمعوه عنهم كان من الافتراءات والأكاذيب التي لا أصل لها ، وعرفوا خطأ ما كان عليه آباؤهم ومشايخهم ، كما عرفوا أخطاء تلك الكتب التي ألفت باسم أصول الدين ! وهي ليست من الدين في شيء .

هذا وقد كان أيام قراءتي بالإحساء ، يحصل بيني وبين زملائي ـ في بعض الأحيان ـ جدل ونقاش في موضوع العقائد ، وكنت متأثراً بما علمني أستاذي الشيخ أحمد نور بن عبد الله ـ رحمه الله ـ حيث قرأت عليه في الكتاب الذي ألفه في الفرق الإسلامية ، وفي العقائد النسفية ، وكان الشيخ سلفياً يزيف آراء المؤولة ، ويصرح بإثبات الصفات لله كما جاء به القرآن والسنة .

ومن أجل ذلك كنت أنتصر لعقيدة السلف ، وجرني ذلك إلى قراءة بعض الكتب السلفية ، ومن شدة التأثر وحرارة النقاش ، نظمت منظومة من بحر الرجز ، سميتها (**الدرر السنية في عقد أهل السنة المرضية**) ، وشرعت إذ ذاك في تعليق شرح عليها ، ولكن لقلة المصادر في ذلك اليوم ، لم أتمكن من مواصلة الكتابة ، حتى منّ الله علي بشراء الكتب ، فكتبت هذا الشرح الذي سيراه القاريء بين الإيجاز المخل والتطويل الممل ، وأودعت فيه من النقول المفيدة والأبحاث القيمة الممتعة والبراهين الساطعة ، ما يستلذ به القاريء ، وتطمئن به نفسه ، وتقر به عينه ، ويخرج بعد القراءة ـ في أي بحث أراد ـ عارفاً معرفة حقيقية جازمة بذلك

البحث ، مطمئناً به كل الاطمئنان ، ومؤمناً به كمال الإيمان ، بعيداً عن كل شك وارتياب ، لأني أسسته على قواعد السنة والكتاب .

وقد ألف العلماء كتباً لا تعد ولا تحصى ، بين مختصر ومطول في هذا الفن ، ولهم الفضل في السبق والعلم ، ولكن يمتاز هذا الشرح بمميزات كثيرة ، يعرفها القارىء إذا قارن بينه وبين الكثير من تلك الكتب التي ألفها العلماء الأعلام .

وإليك بعض تلك المزايا :

١ – ذكرت توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ، زيادة على ما تحتوي المنظومة عليه من توحيد الأسماء والصفات ، وقصدي ألا يحتاج القارىء بعد ذلك إلى كتاب آخر فيما تمس الحاجة إليه ، أما إذا أراد زيادة التوسع والاطلاع فذلك أمر راجع إليه .

٢ – أتيت بالأدلة النقلية في جميع المباحث ، وبالأدلة والعقلية في أكثرها .

٣ – بينت بعض الأخطاء التي نسبت إلى مذهب السلف الموجودة في كتب الخلف .

٤ – أوضحت بدع بعض الصفات التي أطلقت على الله ، كالقول بمخالفته للحوادث .

٥ – عقدت فصلاً خاصاً للاستواء ، وأتيت فيه بآيات الكتاب وأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام ، وأقاويل الصحابة والتابعين ، وتابعيهم من الأئمة المعتبرين ، وأقاويل المفسرين والمحدثين واللغويين والصوفيين .

كما أني دحضت شبههم العقلية والنقلية في الاستواء وغيره .

٦ - أتيت بالفروق بين الأنبياء والفلاسفة والمصلحين .

٧ - ذكرت الدلائل الدالة على صدق نبوة سيدنا محمد ﷺ ورسالته وحاجة العالم إذ ذاك إلى بعثته .

٨ - ذكرت شهادة الغربيين بنبوة سيدنا محمد ﷺ ورسالته .

٩ - ذكرت الوحي وأقسامه ، ورد الشبهات على الوحي .

١٠ - ذكرت معجزات الرسول ﷺ بنوع من البسط .

١١ - ذكرت الخلفاء ، كما ذكرت الأدلة على صحة خلافتهم رضي الله عنهم ، ورد شبهات المخالفين .

إلى غير ذلك مما يعز علي استقصاؤه ، وبالمقارنة ـ كما قلت بينه وبين أكثر الكتب ـ تعرف خصائص هذا الكتاب .

وأسأل الله أن يجعله عملاً خالصاً نافعاً ، موجباً للفوز بجنات النعيم ، وأن ينفع به الخاص والعوام ، ويغفر لي الذنوب والآثام ، ولا أبرىء نفسي من الخطأ والقصور ، والحمد لله أولا وآخراً ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

المؤلف

أحمد بن حجر آل بوطامي البنعلي

٢٥ جمادى الأولى سنة ١٣٩٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على الإنعام ... بنعمة التوحيد والإسلام
ثم صلاة ربنا العلام ... على النبي سيد الأنام
وآله وصحبه ذوي الهدى ... والتابعين نهجهم في الاهتدا
وبعد : قد نظمت ذي العقيدة ... أرجوزة وجيزة مفيدة
على الذي جرى عليه السلف[1] ... مجانباً لما عليه الخلف
سميتها بالدرر السنية ... في عقد أهل السنة المرضية
أرجو بها أن تنفع الأناما ... لكي أنال الأجر والإكراما

---

(١) المراد بمذهب السلف ما كان عليه الصحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ ، وأعيان التابعين لهم بإحسان وأتباعهم ، وأئمة الدين ممن شهد له بالإمامة ، وعُرف عظم شأنه في الدين ، وتلقى الناس كلامهم خلفاً عن سلف ، كالأئمة الأربعة ، والسفيانين ، والليث بن سعد ، وابن المبارك ، والنخعي ، والبخاري ، ومسلم ، وسائر أصحاب السنن ، دون من رمي ببدعة ، أو شهر بلقب غير مرضي مثل : الخوارج ، والروافض ، والمرجئة ، والجبرية ، والجهمية ، والمعتزلة ، وسائر الفرق الضالة .

تعريف التوحيد

وبيان مبادىء هذا العلم

الكلام على البسملة، والحمدلة ، والصلاة والسلام على الرسول ، شهير ومعلوم لكل طالب علم .

وأما التوحيد : فهو لغة : العلم بأن الشيء واحد(١) .

وشرعاً : اعتقاد الوحدانية لله ذاتاً وصفة وفعلا .

ويطلق بمعنى الفن المدون ، ويعرف بأنه علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية ، مكتسب من أدلته اليقينية ، يعني من الأدلة النقلية الصحيحة المفيدة للعلم(٢) ، ومن البراهين العقلية ، واستمداده من القرآن والحديث الصحيح والإجماع والنظر .

---

(١) **يقول ابن الأثير في (النهاية) في أسماء الله الواحد** : هو الفرد الذي لم يزل ولم يكن معه آخر .

قال الأزهري : الفرق بين الواحد والأحد : أن الأحد بني لنفي لايذكر معه العدد ، تقول : ما جاءني أحد ، والواحد اسم بني لمفتتح العدد ، تقول جاءني واحد من الناس ، ولا تقول : جاءني أحد .

فالواحد منفرد بالذات في عدم المثل والنظير ، والأحد المنفرد بالمعنى ، وقيل : الواحد هو الذي لا يتجزأ ولا يثنى ولا يقبل الانقسام ولا نظير له ولا مثل ، ولا يجمع هذين الوصفين إلا الله تعالى . ا هـ .

(٢) **المنقول قسمان : متواتر وآحاد :**

فالمتواتر : هو خبر عدد يمتنع معه لكثرتهم تواطؤهم على الكذب عن محسوس أو عن عدد كذلك ، إلى أن ينتهي إلى محسوس من مشاهدة أو سماع ، وهنا ينتهي إلى السماع عن الرسول ﷺ ، أو مشاهدة أفعاله .

ومسائله : القضايا النظرية الشرعية الاعتقادية ، ككون العلم صفة من صفاته تعالى :

وغايته : أن يصير الإيمان والتصديق بالأحكام الشرعية متقناً محكماً ، لاتزلزله شبهة من شبه المبطلين .

ومنفعته : سعادة الدنيا والآخرة .

وواضعه : هو الله ثم رسوله ﷺ ، وبالترتيب المدون : الأئمة كالإمام أحمد والإمام الأشعري ، وغيرهما .

واتفق العلماء على أن المتواتر يفيد العلم والعمل معاً ، وهو عندهم حجة لا نزاع فيها ، والتواتر من حيث هو قسمان : لفظي : كحديث : « من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » ، رواه عن النبي ﷺ نيف وستون صحابياً ، ومعنوي : وهو تغاير الألفاظ مع الإشتراك في معنى كلي ، كحديث الحوض ، وسخاء حاتم ، وشجاعة علي ، وعدل عمر .

وأما الآحاد : فهو ما عدا المتواتر ، فالجمهور أنه حجة يجب العمل بها وإن أفاد الظن ، وذهب قوم : منهم الإمام أحمد ، والحارث بن أسد المحاسبي ، والحسين بن علي الكرابيسي ، وأبو سليمان ، وروي عن مالك : أنه قطعي موجب للعلم والعمل معاً .

قال العلامة السفاريني في لوامع الأنوار : يعمل بخبر الآحاد في أصول الدين .

وحكى الإمام ابن عبد البر الإجماع على ذلك .

قال الإمام أحمد : لا نتعدى القرآن والحديث .

قال القاضي أبو يعلى : يعمل به في الديانات إذا تلقته الأمة بالقبول .

قال العلامة ابن قاضي الجبل : مذهب الحنابلة أن أخبار الآحاد المتلقات بالقبول تصلح لإثبات أصول الديانات ، ذكره القاضي أبو يعلى في مقدمة المجرد ، والشيخ تقي الدين في عقيدته . ا هـ .

ومن الأدلة على قبول خبر الآحاد في أصول الديانات وقيام الحجة به:

الأول : إن الرسول ﷺ قد كتب إلى الملوك يدعوهم إلى الدخول في دين الإسلام ، وكان يرسل رسله لتعليم الناس دينهم ، ومعلوم أن إرساله الكتب وإرساله الرسل من قبيل خبر الأحاد .

الثاني : إن التفريق بين العقيدة والأحكام العملية ، وإيجاب الأخذ بحديث الآحاد في هذه دون تلك ، إنما بني على أساس أن العقيدة لا يقترن معها عمل ، والأحكام العملية لا يقترن معها عقيدة ، وكلا الأمرين باطل .

قال بعض المحققين : المطلوب في المسائل العملية أمران : العلم والعمل ، والمطلوب في العلميات : العلم والعمل أيضاً ، وهو حب القلب وبغضه ، حبه للحق الذي دلت عليه وتضمنته ، وبغضه للباطل الذى يخالفها ، فليس العمل مقصوراً على عمل الجوارح ، بل أعمال القلوب أصل لعمل الجوارح ، وأعمال الجوارح تبع ، فكل مسألة علمية فإنه يتبعها إيمان القلب وتصديقه وحبه وذلك عمل ، بل هو أصل العمل ، وهذا مما غفل عنه كثير من المتكلمين في مسائل الإيمان ، حيث ظنوا أنه مجرد التصديق دون الأعمال ، وهذا من أقبح الغلط وأعظمه ، فإن كثيراً من الكفار كانوا جازمين بصدق النبي ﷺ غير شاكين فيه ، غير أنه لم يقترن بذلك التصديق عمل القلب من حب ما جاء به والرضا به وإرادته والموالاة له والمعاداة عليه ، فلا تهمل هذا الموضوع فإنه مهم جداً ، فبه تعرف حقيقة الإيمان ، فالمسائل العلمية عملية ، والمسائل العملية علمية ، فإن الشارع لم يكتف من المكلفين في العمليات بمجرد العمل دون العلم ، ولا في العلميات بمجرد العلم دون العمل .

ومما يوضح لك أنه لابد من اقتران العقيدة في العمليات أيضاً : أنه لو افترض أن رجلا يغتسل أو يتوضأ للنظافة ، أو يصلي تريضا ، أو يصوم تطبيباً ، أو يحج سياحة ، لا يفعل ذلك معتقداً أن الله تبارك وتعالى أوجبه عليه وتعبده به ، لما أفاده ذلك شيئاً ، كما لا يفيده معرفة القلب إذا لم تقترن بعمل القلب الذى هو التصديق ـ كما تقدم ـ .

فإذن كل حكم شرعي عملي يقترن به عقيدة لابد وأن ترجع إلى الإيمان بأمر غيبي لا يعلمه إلا الله تعالى ، ولولا أنه أخبرنا في سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، لما وجب التصديق به والعمل به ، ولذلك لم يجز لأحد أن يحرم أو يحلل بدون حجة من كتاب أو سنة ، قال الله تعالى في سورة النحل ـ ١١٦ (**ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون**) ، فأفادت هذه الآية الكريمة أن التحريم والتحليل بدون إذن منه كذب على الله تعالى وافتراء عليه ، فإذا كنا متفقين على جواز التحليل والتحريم بحديث الآحاد ، وأننا به ننجو من التقول

على الله ، فكـذلك يجوز إيجاب العقيدة بحديث الآحاد ولا فرق ، ومن ادعى الفرق فعليه البرهان من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ودون ذلك خرط القتاد .

الثـالث : إن القائلين بهذه العقيدة الباطلة لو قيل لهم : إن العكس هو الصواب ، لما استطاعوا رده ، فإنه من الممكن أن يقال :لما كان كل من العقيدة والعمل يتضمن أحدهما الآخر ، فالعقيدة يقترن معها عمل ، والعمل يقترن معه عقيدة ـ على ما سبق بيانه آنفاً ـ ولكن بينهما فرقاً واضحاً من حيث أن الأول إنما هو متعلق بشخص المؤمن ولا ارتباطه بالمجتمع ، بخلاف العمل فإنه مرتبط بالمجتمع الذي يحيا فيه المؤمن ارتباطاً وثيقاً ، فبه تستحل الفروج المحرمة في الأصل ، وتستباح الأموال والنفوس ، فالأمور العملية من هذه الوجهة أخطر من الأمور الاعتقادية .

ولنضرب على ذلك مثلا موضحاً : رجل يعتقد أن سؤال الملكين في القبر أو ضغطة القبر حق بناء على حديث آحاد ومات على ذلك ، وآخر يعتقد استباحة شرب قليل من النبيذ المسكر كثيره ، أو يستحل التحليل ويقول بإباحته بعض المذاهب لدليل بدا لهم طبعاً ولـكنه ظني طبعاً ومات على هذا ، ولنفرض أن كلا من الرجلين كان مخطئاً ، فأيهما كان حاله أخطر على المجتمع ؟ فهل الذي كان واهماً في اعتقاده ؟ أم الآخر الذي كان واهماً في استباحة الفروج والشراب المحرمين ؟ .

ولذلك فلو قال قائل : إن الحرام والحلال لا يثبتان بخبر الآحاد ، بل لابد فيهما من آية قطعية الدلالة ، أو حديث متواتر قطعي الدلالة أيضاً ، لم يجد المتكلمون وأتباعهم عن ذلك جواباً .

أما نحن ، فلو كان لنا أن نحكم عقولنا في مثل هذا الأمر ، ونشرع لها ما لم يأذن به الله ، كمـا فعـل المتكلمون حينما قالوا بهذا القول الباطل ، لقلنا بنقيضه تماماً ، لأنه أقرب إلى المنطق السليم من قولهم ، ولكن حاشا أن نقول به أو بنقيضه ، إذ أن لكل شرعاً ، فلا نفرق بين ما سوى الله ـ تبارك وتعالى ـ ولا نسوي بين ما فرق ، بل نؤمن بكل ما جاء به رسول الله ﷺ وصح الخبر به عنه آحاداً أو تواتراً ، اعتقاداً أو عملاً ، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

الرابع : إن المسلمين لما أخبرهم العدل الواحد وهم بقباء في صلاة الصبح أن القبلة قد حوّلت إلى الكعبة ، قبلوا خبره وتركوا الجهة التي كانوا عليها

واستداروا إلى القبلة ، ولم ينكر عليهم رسول الله ﷺ ، بل شكروا على ذلك ، وكانوا على أمر مقطوع به من القبلة الأولى .

فلولا حصول العلم لهم بخبر الواحد ، لم يتركوا المقطوع به المعلوم لخبر لا يفيد العلم ، وغاية ما يقال فيه : إنه خبر اقترن به قرينة ، وكثير منهم يقول : لا يفيد العلم بقرينة ولا غيرها ، وهذا في غاية المكابرة .

ومعلوم أن قرينة تلقي الأمة له بالقبول وروايته قرناً بعد قرن من غير نكير من أقوى القرائن وأظهرها ، فبأي قرينة فرضتها كانت أقوى منها .

الخامس : قوله : (**ولا تقف ما ليس لك به علم**) الإسراء : ٣٦ ، أي لا تتبعه ولا تعمل به ، ولم يزل المسلمون من عهد الصحابة يقفون أخبار الآحاد ، ويعملون بها ، ويثبتون لله تعالى بها الصفات ، فلو كانت لا تفيد علماً لكان الصحابة والتابعون وتابعوهم وأئمة الإسلام كلهم قد قفوا ما ليس لهم به علم .

السادس : قوله تعالى : (**يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته**) المائدة : ٦٧ ، وقال تعالى : (**وما على الرسول إلا البلاغ المبين**) النور : ٥٤ ، وقال النبي ﷺ : « بلّغوا عني ولو آية » ، وقال ﷺ لأصحابه في الجمع الأعظم يوم عرفة : « أنتم مسؤولون عني ، فماذا أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك بلّغت وأديت ونصحت » .

ومعلوم أن البلاغ هو الذي تقوم به الحجة على المبلغ ، ويحصل به العلم ، ولوكان خبر الواحد لا يحصل به العلم لم يقع به التبليغ الذي تقوم به حجة الله على العباد ، فإن الحجة إنما تقوم بما يحصل به العلم .

وقد كان رسول الله ﷺ يرسل الواحد من أصحابه يبلغ عنه ، فتقوم الحجة على من بلّغه .

وكذلك قامت حجته علينا بما بلّغنا العدول الثقات من أقواله وأفعاله وسنته ، ولو لم يفد العلم ، لم تقم علينا بذلك حجة ولا على من بلّغه واحد أو اثنان أو ثلاثة أو أربعة أو دون عدد التواتر ، وهذا من أبطل الباطل .

فيلزم من قال : إن أخبار رسول الله ﷺ لاتفيد العلم أحد أمرين :

(١) **إما أن يقول** : الرسول ﷺ لم يبلغ غير القرآن ، وما رواه عنه عدد التواتر ، وما سوى ذلك لم تقم به حجة ولا تبليغ .

(٢) **وإما أن يقول** : إن الحجة والبلاغ حاصلان بما لا يوجب علماً ولا يقتضي عملا ، وإذا بطل هذان الأمران بطل القول بأن أخباره ﷺ التي رواها الثقات العدول الحفاظ وتلقتها الأمة بالقبول لا تفيد علماً ، وهذا أمر ظاهر لاخفاء به .

السابع : قوله تعالى : (**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون**) النحل : ٤٣ ، فأمر من لم يعلم أن يسأل أهل الذكر وهم أولوا الكتاب والعلم ، ولولا أن أخبارهم تفيد العلم ، لم يأمر بسؤال من لايفيد خبره علماً ، وهو سبحانه وتعالى لم يقل : سلوا عدد التواتر ، بل أمر بسؤال أهل الذكر مطلقاً ، فلو كان واحداً لكان سؤاله وجوابه كافياً .

الثامن : إن هؤلاء المنكرين لإفادة أخبار النبي ﷺ العلم ، يشهدون شهادة جازمة قاطعة على أئمتهم بمذاهبهم وأقوالهم أنهم قالوا ، ولو قيل لهم : إنها لم تصح عنهم لأنكروا ذلك غاية الإنكار ، وتعجبوا من جهل قائله ، ومعلوم أن تلك المذاهب لم يروها عنهم إلا الواحد أو الاثنان والثلاثة ونحوهم ، لم يروها عنهم عدد التواتر ، وهذا معلوم يقيناً .

فكيف حصل لهم العلم الضروري أو المقارب للضروري بأن أئمتهم من قلدوهم دينهم أفتوا بكذا وذهبوا إلى كذا ، ولم يحصل لهم العلم بما أخبر به أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وسائر الصحابة - رضي الله عنهم - عن رسول الله ﷺ ، ولا بما رواه عنهم التابعون وشاع في الأمة وذاع ، وتعددت طرقه وتنوعت ، وكان حرصه عليه أعظم بكثير من حرص أولئك على متبوعيهم ، إن هذا لهو العجب العجاب .

وهذا وإن لم يكن نفسه دليلا لكنه يلزمهم أحد أمرين :

إما أن يقولوا : أخبار رسول الله ﷺ وفتاواه وأقضيته تفيد العلم وهو المطلوب .

وإما أن يقولوا : إنهم لا علم لهم بصحة شيء مما نقل عن أئمتهم ، وأن النقول عنهم لا تفيد علماً .

وإما أن يكون ذلك مفيداً للعلم بصحته عن أئمتهم دون المنقول عن رسول الله ﷺ ، فهذا من أبين الباطل .

التاسع : قوله تعالى : (**فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**) النور : ٦٣ ، وهذا يعم كل مخالف بلغه أمره ﷺ إلى يوم القيامة ، ولو كان ما بلغه لم يفده علماً لما كان متعرضاً بمخالفة مالا يفيد علماً للفتنة والعذاب الأليم ، فإن هذا إنما يكون بعد قيام الحجة القاطعة التي لا يبقى معها لمخالف أمره عذر .

العاشر : إن خبر العدل الواحد المتلقى بالقبول لو لم يفد العلم لم تجز الشهادة على الله ورسوله بمضمونه ، ومن المعلوم المتيقن أن الأمة من عهد الصحابة إلى الآن لم تزل تشهد على الله وعلى رسوله بمضمون هذه الأخبار جازمين بالشهادة في تصانيفهم وخطابهم ، فيقولون : شرع الله كذا وكذا على لسان رسوله ﷺ ، فلو لم يكونوا عالمين بصدق تلك الأخبار جازمين لها ، لكانوا قد شهدوا بغير علم ، وكانت شهادة زور وقولاً على الله ورسوله بغير علم ، ولعمر الله هذا حقيقة قولهم وهم أولى بشهادة الزور من سادات الأمة وعلمائها . ا . هـ . من (نقض كلام المفترين على الحنابلة السلفيين) للمؤلف .

وهناك أدلة أخرى كثيرة ذكرت في كتب عديدة تركناها للاختصار .

وبهذا تعرف ضعف قول الكثيرين : إن خبر الآحاد لا يفيد إلا الظن ، والظن لا يعمل به في العقائد .

أقســـام التوحيـــد

ينقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام :

توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات .

القســـم الأول

توحيـد الربوبية

أما توحيد الربوبية : فهو توحيده بأفعاله تعالى ، مثل اعتقاد أن الله هو الخالق الرزاق المحيي المميت .

وقـد اتفقت كلمة أكثر الأمم ـ ومنهم مشركو العرب ـ على الإقرار به ، وعدم الشركة فيه ، كما يخبرنا القرآن بذلك ، كقوله تعالى :

(ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم)[1] .

وقوله تعالى :

(قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أم من يملك السمع والأبصـار ومن يخـرج الحي من الميت ، ويخـرج الميت من الحي ، ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون)[2] .

---

(١) الزخرف : ٩ .

(٢) يونس : ٣١ .

الأدلة النقلية على إثبات وجود الرب ، وهي في نفس الوقت أيضاً عقلية والرد على المنكرين

اتفقت أكثرية البشر الساحقة على وجود الرب تبارك وتعالى ، وعلى أنه الخالق ، ولم ينكر الرب إلا الدهرية والشيوعية .

والفطر والعقول والكتب السماوية تنادي على هؤلاء الجهلاء الكافرين ، بأنهم خارجون عن الحق وعن زمرة العقلاء .

وإليك الأدلة النقلية :

١ - قال تعالى : (**أم خلقوا من غير شيء ، أم هم الخالقون ؟**)[١] .

٢ - قال تعالى : (**أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شيء**)[٢] .

٣ - قال تعالى : (**الله خالق كل شيء**)[٣] .

إلى غير ذلك من الآيات التي لا تكاد تحصى ، وهي تدعو الإنسان إلى أن ينظر ببصيرته وعقله ، وأن يفكر في مخلوقات الله العظيمة ، ليهديه عقله ونظره إلى أنها لم توجد صدفة ، وإلى أنها لابد لها من خالق خلقها .

الأدلة العقلية :

١ - تقرر في بداهة العقول ، أنه لا يوجد أثر بلا مؤثر ، ولا فعل بلا فاعل ، ولا خلق بلا خالق .

---

(١) الطور : ٣٥ .
(٢) الأعراف : ١٨٥ .
(٣) الزمر : ٦٢ .

ومما لايقبل الخلاف أنك إذا رأيت بناءً لم تشك في أن له بانياً .

وإذا رأيت ساعة تشير إلى الأوقات ، أيقنت أن لها صانعاً رتب أجزاءها .

وإذا كان من المسلم أن ساعة حقيرة ، بل إبرة لا توجد بلا صانع ، فكيف بهذا الكون العظيم الذي يبهر العقول ، ويحير الألباب ، قد وجد بلا موجد ، ونظم بلا منظم .

وكان كل ما فيه من نجوم وغيوم ، وقفار وبحار ، وليل ونهار ، وظلمات وأنوار ، وأشجار وأزهار ، وشموس وأقمار ، إلى أنواع لايحصيها العد ، ولا يأتي عليها الحصر ، قد وجدت بلا موجد يخرجها من العدم .

ويستحيل في العقل أن يوجد الشيء نفسه ، كما يستحيل وجود أبسط شيء بلا موجد .

٢ - وجود هذا النظام الدقيق المتمثل في هذه السنن الكونية في الخلق والتكوين والتنشئة والتطور لسائر الكائنات الحية في هذا الوجود ، فإن جميعها خاضع لهذه السنن ، متقيد بها ، لا يستطيع الخروج عنها بحال من الأحوال .

فالإنسان مثلا : يعلق نطفة في الرحم ، ثم تمر به أطوار عجيبة ، لا دخل لأحد غير الله فيها ، يخرج بعدها بشراً سوياً ، هذا في خلقه وتكوينه .

وكذلك الحال في تنشئته وتطويره ، فمن صبا وطفولة ، إلى شباب وفتوة ، إلى كهولة وشيخوخة .

وهذه السنن العامة في الإنسان والحيوان ، هي نفسها في الأشجاروالنباتات ، ومثلها الأفلاك العلوية والأجرام السماوية ،

فإنها جميعها خاضعة لما ربطت به من سنن ، لا تحيد عنها ، ولا تخرج عن سلكها ، ولو حدث أن انفرط سلكها أو خرجت مجموعة من الكواكب عن مداراتها لخرب العالم ، وانتهى شأن هذه الحياة .

وإليك بعض الأمثلة [1] :

أ – لو أن نسبة الهيدروجين والأوكسجين اختلفت في الماء عما عليه الآن ، لما كان الماء صالحاً للشرب ، ولقتل الناس العطش .

ب – لو كانت قشرة الأرض أسمك مما عليه الآن بمقدار بضع أقـدام ، لامتص ثاني أكسيد الكربون والأوكسيجين ، ولما أمكن وجود حياة .

ت – ولولا قوانين الحرارة لما بردت الأرض ، ولما كانت صالحة للحياة .

ث – ولولا الجبال لتناثرت الأرض ، ولما كانت لها مثل هذه القشرة الصالحة للحياة .

ج – ولولا أن في الأرض أرزاقها ، لما استطاعت الحياة أن تبقى .

ح – ولو كانت مياه البحار حلوة ، لتعفن الماء الموجود فيها ، وتعذرت بعد ذلك الحياة على الأرض .

خ – ولو كان الأوكسجين في الهواء بنسبة ٥٠ في المائة بدلا من ٢١ في المـائة ، فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال لأدنى شرارة ، وكان في ذلك هلاك الحياة ، ولو كانت نسبة الأوكسجين ١٠ في المائة ، لتعذر أن يكون التمدن الإنساني على ما هو عليه اليوم .

---

(١) بدء الكلام من (شبهات وردود) لعبد الله علوان .

هذه الظواهـر الكـونية وغيرها لا يمكن بحال من أن تكون مصـادفات ، بل لابد لها من مدبر حكيم ، وخالق مبدع ، وضع الأشياء في مواضعها ، وقدرها حق قدرها ، فجاءت على هذا النحو البديع ، والنظام المحكم .

فهل بعد هذه الأدلة القاطعة يظن عاقل منصف يتحرى الحق والحقيقـة ، أن هذا الكـون بما فيه من نواميس ثابتة ، وأسرار عجيبة ، ونظم دقيقة محكمة ، وآيات باهرة مدهشة ، كان وليد مصادفة عمياء ؟ .

لا يقول بهذا إلا من سد على قلبه وعقله منافذ الهداية ونور الحق والإيمان ، وراح يتخبط في الحياة تخبط المهووس المجنون ، لا يدري ماذا يفعل ، ولا يدري ماذا يقول ؟

قال تعالى : **(ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لايسـمعـون بهـا ، أولئـك كالأنعـام بل هم أضل أولئك هم الغافلون)**[1] ا . هـ .[2]، [3] .

---

(١) الأعراف : ١٧٩ .

(٢) المصدر السابق (شبهات وردود) .

(٣) وقد مر في ثنايا هذا الدليل أسماء علمية لبعض الغازات ، فأحببت أن أذكر عنها نبذة بسيطة لعلها توضح معنى هذه الأسماء العلمية التى ربما تخفى على بعض القراء ، وإليك البيان :

(أ) النتروجين (الأزوت) :

هو عنصـر كيميائي غازي ، عادم اللون والطعم والرائحة ، رمزه (ن) ، ويدخل في تركيب الهواء ، وهو أحد العناصر الضرورية لحياة الحيوانات والنباتات .

(ب) الأكسجين :

هو عنصر كيميائي غازي ، رمزه (أ) وهو أكثر العناصر انتشاراً في الطبيعة ، لا لون له ولا طعم ولا رائحة ، يتحد مع أكثر العناصر ولاسيما مع الهيدروجين

٣ - إيمان البلايين من البشر واعتقادهم بوجود الرب سبحانه وتعالى ، وعبادتهم له وطاعتهم إياه ، في حين أن العادة البشرية جارية بتصديق الواحد والإثنين ، فضلا عن الجماعة والأمة ، والعدد الذي لايحصى من الناس مع شاهد العقل والفطرة على صحة ما آمنوا به .

كما يحيل العقل تواطؤ هذه البلايين من البشر على الكذب ، وإخبارهم بما لم يعلموا ويتحققوا .

بل يحيل العقل كذب خبر تواطأ على الإخبار به عشرات من الناس ، فضلا عن هذه الأمم العظيمة منذ خلق الله آدم إلى يومنا[1] .

الفطرة دليل وجود الله :

٤ - والكون وما فيه من نظام وإحكام ، وجمال وكمال ، وتناسق وإبداع ، ليس وحده الشاهد الوحيد على وجود قيوم السموات والأرضين ، وإنما هناك شاهد آخر ، وهو الشعور المغروس في النفس الإنسانية بوجوده سبحانه ، وهو شعور فطري

لتكوين الماء ، وهو غاز يعتبر أحد مقومات الماء والهواء وعماد الحياة الحيوانية والنباتية ، وهو عامل التنفس والاحتراق .

(ت) **الهيدروجين** :

عنصر كيميائي ، رمزه (يد) ، وهو غاز شديد الاحتراق ، لا لون له ولا طعم ولا رائحة ، يوجد في الماء متحداً مع الأكسجين ، وفي جميع المواد العضوية .

(ث) **ثاني أكسيد الكربون** :

غاز ناتج عن إتحاد الكربون بالأكسجين وهو موجود في الهواء ، وكذلك ذائب في الماء ، ورمزه (ك أ٢) . ا - هـ من بهجة المعرفة (موسوعة علمية مصورة) .

(١) الرقم الثالث من كتاب (منهاج المسلم) بزيادة .

فطر الله الناس عليه ، وهو المعبر عنه بالغريزة الدينية ، وهو المميز للإنسان عن الحيوان .

وقد يغفو هذا الشعور بسبب ما من الأسباب ، فلا يستيقظ إلا بمثير يبعث على يقظته ، من ألم ينزل به ، أو ضر يحيط به ، وإلى هذا تشير الآية الكريمة :

(وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه) . ا . هـ .[1] .

وما كان ينبغي أن يدور حول هذه الحقيقة أدنى ريب وخلفٍ ، لأن ذلك مما يدركه الحيوان فضلا عن الإنسان ، فإنك إذا ضربت الحمار مثلا ، التفت ليرى من ضربه ، لأنه مركوز في فطرته أن الأثر لا يكون بلا مؤثر .

ولكن منذ وجدت الخليقة ، وجد معها التخالف والتباين ، وتغاير الآراء .

ولا عجب ! فإن أناساً زعموا أنهم من العقلاء أو الحكماء ، دانوا بإنكار حقائق الأشياء الثابتة ، كالجبال ، والأرضين ، والمياه ، والأشجار ، بل وحتى نفوسهم وأبدانهم .

مثلا : يقولون : لا حقيقة لهذا الجبل ، يحتمل أن يكون ماء ونحن نراه جبلا ، وهكذا قالوا في سائر الأشياء .

٥ - ظاهرة الإلهام والهداية :

نوضح هذه الظاهرة بالأمثلة التالية :

أ - خطر لعالم أمريكي أن يستفرخ البيض في جهاز خاص

---

(١) من (العقائد الإسلامية) ، والآية من سورة يونس رقم : ١٢ .

للتفريخ ، وذلك بوضع البيض في نفس الحرارة التي ينالها البيض من الدجاجة الحاضنة له ، فلما جمع البيض ووضعه في الجهاز ، نصحه فلاح أن يقلب البيض في كل فترة ، إذ أنه رأى الدجاجة تفعل ذلك ، فسخر منه العالم وأفهمه أن الدجاجة إنما تقلب البيض لتعطي الجزء الأسفل من حرارة جسمها ، أما هو فقد أحاط البيض بجهاز يشع حرارة ثابتة لكل أجزاء البيضة .

واستمر العالم في عمله حتى جاء دور الفقس ، وفات ميعاده ، ولم تفقس بيضة واحدة ، وكرر التجربة بلا جدوى ، وأخيراً استمع إلى نصيحة الفلاح ، فصار يقلب البيض حتى إذا جاء ميعاد الفقس خرجت الفراريج .

وآخر تعليل علمي لهذه الظاهرة : أن الفرخ حينما يخلق في البيضة ترسب المواد الغذائية في الجزء الأسفل من جسمه إذا بقي بدون تحريك فيؤدي إلى موته .

ولولا هذه الهداية التى أودعها الله في الدجاجة ، لما بقى نوع الدجاج في العالم .

ب - الزنبور يصيد حشرة الجندب النطاط ، وينخزه بإبرته في مكان مناسب ، بحيث يفقده وعيه مع بقائه حيا كنوع من اللحم المحفوظ ، وبعد ذلك يعد حفرة في الأرض ، ثم تأتى أنثى الزنبور وتضع بيضاً في مكان مناسب من الحفرة ، ثم تغطيها وترحل بعد أن أمنت وسيلة القوت والحياة لأولادها الصغار .

ولولا هذه الهداية التى أودعها الله في الزنبور ، لما بقيت زنابير على وجه الأرض .

جـ - حيوان (الأكسيلوكوب) يعيش منفرداً في فصل الربيع ، ومتى باض مات ، فالأمهات لا ترى صغارها ، ولا تعيش لتساعدها في غذائها ودفاعها عن نفسها ، وهؤلاء الصغار

لا تستطيع الحصول على الغذاء لمدة سنة كاملة ، لذلك ترى الأم تعمد إلى قطعة خشب فتحفر فيها حفرة مستطيلة ، ثم تجلب طلع الأزهار وبعض الأوراق ، وتحشو بها تلك الحفرة ، ثم تبيض بيضة ، ثم تأتي بنشارة خشب ، وتجعلها عجينة لتكون سقفا لهذه الحفرة ، فإذا فقست البيضة ، وخرجت الدودة ، كفاها الطعام المدخر سنة كاملة .

ولولا هذه الهداية التي أودعها الله في هذا الحيوان ، لقضي على نسله نهائياً .

والذي نخلص إليه بعدما تقدم ، أن ظاهرة الإلهام والهداية التي أودعها الله في هذا الكون ، هي أكبر الظواهر التي تدل على خالق حكيم مبدع أحكم كل شيء ، وأتقن كل شيء[1] .

والبراهين العقلية على وجود الله سبحانه وتعالى وخالقيته للأكوان لا تعد ولا تنحصر ، بل كل ذرة من ذرات الكون تشهد بأن الله هو الخالق لهذه الكائنات كما قيل :

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

ولو فكر العاقل في نفسه من أي شيء خلق ، خلق من ماء مهين في قرار مكين إلى قدر معلوم ، كما قال تعالى : (**ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه في قرار مكين ، إلى قدر معلوم ، فقدرنا فنعم القادرون**)[2]، وقال تعالى : (**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن**

---

(١) ا ـ هـ الرقم الخامس من (شبهات وردود) لعبد الله علوان .
(٢) المرسلات : ٢١ .

الخالقين) [١] ، فليتأمل العاقل أصله الذي خلقه الله تعالى من قطرة صغيرة لا ترى بالعين ، حفظه الله في رحم أمه ، ومرت تلك النطفة الحقيرة القذرة بتلك الأطوار التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم ، وجاء الطب الحديث يشرح ذلك شرحاً دقيقاً ، بحيث يفهم المنصفون أن القرآن سابق لكل النظريات الحديثة ، ثم إذا خرج من بطن أمه ، يتطور من طور إلى طور حتى يخرج بشرا سوياً عاقلا كاملا ، ويكون إما حاكماً أو عالماً أو طبيباً ، وقل ما شئت في الأوصاف التي يكتسبها من علوم ومهارات ، أليس في ذلك دليل على قدرة الله تعالى وعظمته ، وصدق الله تعالى إذ يقول : **(وفي أنفسكم أفلا تبصرون)**[٢] .

ومع هذه البراهين الساطعة والأدلة القاطعة ، هل يكون وجوده سبحانه وتعالى مورد شك أو جحد أو إنكار ؟

وبالجملة : فالبراهين (٣) على ربوبيته تفوق الحصر ، وهنا فروض ثلاثة ، يمكن أن نفرضها في تعليل الأصل الذي صدر عنه هذا الكون ، وليس ثمة فرض وراء هذه الفروض :

١ - أن يكون صدر هذا الكون من العدم .

---

(١) المؤمنون : ١٤ .

(٢) الذاريات : ٢١ .

(٣) من أقواها : هذا القرآن العظيم الذي أنزله الله تعالى على سيد العالمين ، المعجز ببلاغته وفصاحته ، وتناسقه وعلومه ، وفنونه ونظرياته العلمية ، وغير ذلك .
ذلك الكتاب الذي فاق الكتب السالفة ، والذي تحدى الله به فرسان البلاغة ، وفطاحل الفصاحة ، بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا ، وبرهنوا عن عجزهم ، وعن تفوقه في ميدان البلاغة ، كيف لا وقد أخبر الله عن عجز الإنس والجن عن معارضته ؟ ، فقال الله تعالى : **(ومن أصدق من الله قليلا)** ، وقال سبحانه وتعـالى : **(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)** .

٢ - أن تكون الصدفة وحدها هي التي نشأ عنها هذا الكون البديع .

٣ - أن يكون ثمة موجداً أوجد هذا الكون وأنشأه .

ولنمض في مناقشة كل فرض من هذه الفروض .

فالفرض الأول :

باطل من أساسه ، لأن المسببات مرتبطة بأسبابها ، والنتائج مرهونة بمقدماتها .

ولا يتصور العقل أن يوجد معلول بدون علة ، ولا مسبب دون أن يسبق بسبب ، ولا نتيجة من غير أن يكون لها مقدمات .

فصدور الكون من العدم ، معناه وجود المعلول بدون علة ، والمسبب دون سببه ، والنتيجة دون مقدماتها .

= وقد مضى على تنزيله أربعة عشر قرناً ، وتلاه المسلمون وغيرهم ، ولم يستطع أحد أن يعارضه بمثل سورة صغيرة .

ومن عارض كمسيلمة الكذاب ، بان سخفه وجهله ، وأصبح أضحوكة بين العالمين .

وإذا عجز العرب ، فغيرهم من باب أولى أن يعجز عن معارضته .

ولم تنقض فيه أدنى نظرية من تلك النظريات العلمية ، ولم يختلف فيه غيب واحد مما أخبر به من الأمور الغيبية ، ولم يجرؤ مؤرخ كائناً من كان على أن ينقض قصة من القصص التي ذكرها ، فيكذبها ؟ .

أما كان هذا من أقوى البراهين على وجوده تعالى ؟ ، إذ الكلام لابد له من متكلم ، ولما كان كلامه ، كان خارجاً عن طوق البشر ، ولاشك أنه لو كان كلام بشر ، لأمكن أن يعارضه بعض الفصحاء ، إن لم نقل كلهم ؟ .

وإذا بطل أن يكون كلام بشر ، فهو كلام خالق البشر ، وكما أنه يدل على وجوده تعالى وعلمه وقدرته، فإنه يدل من ناحية أخرى على صحة نبوة سيدنا محمد ﷺ ، الذي كان القرآن أكبر معجزة له ، ولا يستريب في هذا البرهان ولا يجادل فيه إلا من كان منسلخاً عن عقله ، متجرداً عن إنسانيته .

أي أن الكون وجد من نفسه ، وصدر منقطعاً عن أسبابه ، وهـذا محـال عقـلا وواقعـاً ، لأن وجود الأشياء من نفسها مع انقطاعها عن أسبابها ترجيح لجانب الوجود على جانب العدم بدون مرجح ، وترجيح جانب الوجود على جانب العدم بدون مرجح محال .

إننـا إذا قلنـا : إن الكـون وجد من نفسه ، منقطعاً عن سببه ، كان ذلك مساوياً لقولنا : إن العدم سبب الوجود ، وهذا في غاية البطلان .

لأن العدم لا يتصور أن يكون مصدراً للوجود ، ففاقد الشيء لا يعطيه .

وهذا هو ما أشارت إليه الآية الكريمة : ﴿ **أم خلقوا من غير شيء أم هم الخـالقـون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون** ﴾ [1] .

أي : هل وجـدوا من غير خالق ، أم خلقـوا أنفسهم فلا يحتاجون لأحد يخلقهم ؟ ، كل هذا مستحيل .

والفرض الثاني :

هو أعظم تهافتاً من الفرض الأول ، فإن الصدفة لا يمكن أن ينبثق عنها هذا النظام ، ولا أن يصدر عنها هذا الإحكام .

فهل الصدفة هي التى خلقت الذكر والأنثى ، وألفت بينهما هذا التأليف الجميل ؟ .

وهل هي التي خلقت الأرض وما فيها من إنسان وحيوان ، ونبات وجماد ؟ .

---

(١) الطور : ٣٥ ، ٣٦ .

وهل الصدفة هي التي أوجدت العناصر التي يتألف منها هذا الكون ؟ وهي التي تنسقها تنسيقاً دقيقاً صالحاً للاستقرار والدوام إلى المدى الذي أراده الله ؟!

إن الذرة ـ وهي أصغر الأشياء ـ يحار العقل والعلم في تركيبها المحكم ، وتناسقها العجيب ، وتآلف أجزائها بعضها مع بعض .

فهل هذا التركيب والتأليف والتناسق صدفة ؟! سبحانك هذا بهتان عظيم .

وإذا بطل الفرض الأول والثاني لأنهما خارجان عن دائرة العقل والمنطق والعلم ، لم يبق إلا ..

الفرض الثالث :

وهو أن لهذا الكون خالقاً ومدبراً .

وهذا هو مقتضى العقل والمنطق السليم ... ا هـ[١] .

وأما ما يقوله بعض الملاحدة ، من أن لو كان للكون خالق لأدركناه بإحدى الحواس الخمسة ؟ .

فجوابه : ما كل ما لا يدرك يصح أن ينفى ، هذه الروح السارية فينا التى ما نأتي وما نذر من الأعمال من أثرها ، فهل تدرك بإحدى الحواس ؟

فإذا كانت لا تدرك ـ بلا خوف ولا جدل ـ فهل يصح لأحد أن يقول : ليس للروح حقيقة ، ولا وجود لها ؟ .

---

(١) بتلخيص وتصرف من (العقائد الإسلامية) .

وقل مثل ذلك في العقل والتفكير ، وذات الله تعالى أجل وأكبر من أن تدرك بالحواس أو بالعقول ، أو تحيط بها الأفكار .

قال تعالى : (**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير**)[1] .

ومن المتفق عليه عند جميع العقلاء ، أن العجز عن معرفة حقيقة الأشياء لا ينفي وجودها ، ولله در القائل بقوله :

تبصر حيث كان لك التبصر وفي ذات الإله دع التفكر
وإن ترد المهيمن حين تذكر تأمل في رياض الأرض وانظر
إلى آثار ما صنع المليك

فأنوار المهيمن ساطعات وأفكار الخلائق حائرات
ولكن الأدلة واضحات أصول من لجين زاهرت
على أغصانها ذهب سميك

شموس في البرية مشرقات نجوم في الدياجي لامعات
بطول الدهر دوماً سابحات إلى ما لست أدري طائرات
يطير بها الجرم السميك

رياض مونقات منعشات وألوان لعينك مدهشات
وأغصان تسرك ناضرات على قضب الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريك

(١) الأنعام : ١٠٣ .

القسم الثاني
توحيد الألوهية

توحيد الألوهية ، ويسمى توحيد العبادة ، وهو توحيد الله بأفعال العباد .

وأصل العبادة في اللغة : التذلل والخضوع ، وسميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات ، لأنهم يلتزمونها ويفعلونها خاضعين ومتذللين لله تعالى .

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ :

العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة . ا هـ .

وتلك الأقوال والأعمال التي قالها شيخ الإسلام تشمل جميع العبادات المطلوبة من العبد ، فرضاً كان أو نفلا ، كالصلاة والصيام والطواف ، والنحر والنذر والحلف ، والاستعانة والاستغاثة ، والتوكل والرهبة والخشية ، إلى غير ذلك .

وفي هذا التوحيد وقعت الخصومة بين الرسل وأممهم من عهد نوح إلى عهد سيدنا محمد ﷺ ، وما خلق الله الخلق من الجن والإنس إلا لعبادته وإفراده بالطاعة والقصد .

قال تعالى : **(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)** [١] .

---

(١) الذاريات : ٥٦ .

وقال تعالى : (**تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور**)[1] .

ومن هاتين الآيتين : تعلم أيها القاريء ، أن ما تقوله الصوفية ، ومن تأثر بآراءهم ، أن الله تعالى ما خلق الخلق والأكوان إلا لأجل سيدنا محمد ﷺ ، محتجين في هذا بحديث موضوع : لولاك ، لولاك ، ما خلقت الأفلاك ، هو قول باطل ، وزور وبهتان مبين .

وقد انتشرت هذه الفكرة الخاطئة عند بعض الفقهاء المقلدين للصوفية والمحبذين لهم والتابعين لهم ، حتى قال البوصيري وهو من الصوفية :

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من
لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

وقال أكثر من ذلك :

فإن من جودك الدنيا وضرتها   ومن علومك علم اللوح والقلم

ومعنى البيت الأول :

إن النبى ﷺ لم يكن محتاجاً لضرورات المعيشة الدنيوية ، لأن هذه الدنيا لم توجد إلا لأجله .

وقد أخطأ الشاعر في شطري هذا البيت ، فإن النبى ﷺ كان محتاجاً لضرورات المعيشة كسائر البشر ، ولم يخلق الله الدنيا لأجل محمد ﷺ ، بل خلق الدنيا والخلق لعبادته جل وعلا ، كما في الآيتين السالفتين .

---

(١) الملك : ١ ، ٢ .

وأخطأ أيضاً في البيت الثاني :

فالدنيا والأخرى من خلق الله جل جلاله ، وليست من وجود النبي ﷺ كما زعم هذا الشاعر .

وهذا عدوان على مقام الله ، فإن الله تعالى يقول : (**ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم**)[١] ، ويقول تعالى : (**قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً ، قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً**)[٢] .

وأما علم اللوح والقلم ، فذاك مما تفرد به الله ، ولا يعلم الرسول ﷺ إلا ما أوحى الله به إليه ، كما قال سبحانه وتعالى : (**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول**)[٣] ، وقال تعالى : (**قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب**)[٤] .

وقد غلا بعضهم غلواً فاحشاً ، وزعم أن الله تعالى خلق محمداً ﷺ قبل العالم نوراً ، كما قال الحلواني في قصيدته :

أنشاك نوراً ساطعاً قبل الورى   فرداً لفرد والبلية في العدم
ثم استمد جميع مخلوقاته من   نورك الساجي فياعظم الكرم

ثم جاءت البريلوية ، وهي الطائفة التى أسسها أحمد رضا خان البريلوي ، وأتى بمعتقدات غريبة في الرسول ﷺ ، بل هي كفريات سخيفة .

---

(١) آل عمران : ١٢٨ .
(٢) الجن : ٢١ .
(٣) الجن : ٢٦ .
(٤) الأنعام : ٥٠ .

وقد ذكر الشيخ الأستاذ الفاضل محمد أنور كليم الباكستاني في كتابه (بين الديانة البريلوية ودين الله الإسلام) كثيراً من سخافات هذه الفرقة الضالة واعتقاداتهم المنافية لدين الإسلام ، حتى قال كما نقل عنه الشيخ أنور من كتاب البريلوي (صلة الصفا من نور المصطفى) : إن النبي ﷺ كان نوراً مجرداً من حيث ذاته وشخصه ، ومما لا ريب فيه أن سيدنا محمداً المصطفى ﷺ قد خلق من نور الله عينه .

وقال : لقد خلق الله نبيه الأكرم من نفس نوره الذي هو عين ذات الله ، أي خلقه من ذاته نفسه وبدون واسطة .

وزعم هذا المفتري أن الرسول ﷺ قال : يا جابر ، إن الله خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره .

كما روي كذلك أنه عليه الصلاة والسلام قال : أول ما خلق الله نوري ، ومن نوري خلق كل شيء .

وهذان الحديثان مكذوبان لا يشك في وضعهما إلا من يشك في وجود نفسه .

بل قال هذا الرجل أكثر من هذا وأكبر كما ذكر الشيخ أنور أنه قال : إن النبي ﷺ هو النائب المطلق لله ، فكل العالم قد أعطي في تصرف الرسول ﷺ ، فهؤلاء الضالون من الصوفية الباطلة لا المحقة والبريلوية ، لما زعموا أن الله تعالى خلق الدنيا وما في الكون لأجل الرسول ﷺ ، حاولوا بعد ذلك أن يخرجوه من نطاق البشرية ، وإنكار كونه من سلالة آدم عليه السلام ، فزعموا أن الله جل وعلا خلق محمداً ﷺ من نوره كما سبق بيانه ، وعند هؤلاء أن الرسول ﷺ لم يمت ، وأنه حاضر في كل مكان وزمان ، كما زعموا أن جميع الخلائق مخلوقة من جزء من نوره .

وهاك ما رووا في تأييد عقيدتهم حديثاً موضوعاً عن النبي ﷺ قال : يا جابر إن الله تعالى قد خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره ، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله ، ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ، ولا جنة ولا نار ، ولا ملك ولا سماء ، ولا أرض ولا شمس ولا قمر ، ولا جن ولا إنس ، فلما أراد الله أن يخلق الخلق ، قسم ذلك النور أربعة أجزاء ، فخلق من الجزء الأول القلم ، ومن الثاني اللوح ، ومن الثالث العرش ، ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء ، فخلق من الأول حملة العرش ، ومن الثاني الكرسي ، ومن الثالث باقي الملائكة ، ثم قسم الرابع أربعة أجزاء ، فخلق من الأول السموات ، ومن الثاني الأرضين ، ومن الثالث الجنة والنار ، ثم قسم الرابع أربعة أجزاء ، فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين ، ومن الثاني نور قلوبهم وهي المعرفة بالله ، ومن الثالث نور أنسهم ، وهو التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ولم يذكر الجزء الرابع ا . هـ .

وهذا الحديث الباطل ، تصوره يكفي في فساده ، ولا أدري أخفي على هؤلاء الحديث الصحيح المتواتر : « من كذب علي متعمداً ، فليتبوأ مقعده من النار » ؟ أم أتوا بذلك من جهلهم وضلالهم ،ولا يبعد أنهم تعمدوا هذا الافتراء لتضليل الناس وإغوائهم ، وإخراجهم من الحق إلى الباطل ، ومن النور إلى الظلام .

الأدلة النقلية على توحيد الألوهية :

قال الله تعالى : **(يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً ، وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون)**[1] .

---

(١) البقرة : ٢١ ، ٢٢ .

أي : وحــدوا ربكم وأفردوه بالعبادة ، لأنه هو الذي خلقكم من العدم ، وأسبغ عليكم جزيل النعم ، وخلق من قبلكم من الأمم ، وهو الذي مهد لكم الأرض ، وجعلها صالحة للإفتراش والعمل عليها .

وهو الذي كون السماء بنظام متماسك كنظام البناء .

وهــو الذي أنزل من السماء مطراً يسقي به الزرع ، ويغذي به النبات ، فالخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة عقلا وفطرة ووجداناً .

فلا تجعلوا لله أنداداً : أي شركاء تخضعون لهم ، وتخصونهم بالعبادة وأنتم تعلمون بطلان ذلك ، لأنكم إذا سئلتم : من رزقكم من السموات والأرض ، ومن يدبر الأمر ؟ تقولون : الله .

فلم إذاً تدعون غيره بهذه الوسائط وتستشفعون به ؟ .

ومن أين أتيتم بهذه الوسائط التي لا تضر ولا تنفع ؟

ومن أين جاءكم أن التقرب إلى الله يكون بغير ما شرعه الله ، حتى قلتم :

كما قال تعالى : (**ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**)[1]، وقد قال تعــالى : (**ولقــد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبــدوا الله واجتنبوا الطاغوت**)[2][3] من معبود أو متبوع أو مطاع ؟ .

---

(١) الزمر : ٣ .

(٢) النحل : ٣٦ .

(٣) الطاغــوت : مشتق من الطغيــان ، وهــو مجاوزة الحد ، ويطلق على الشيطان والكهان ، وكل ما عبد من دون الله .

وقد حده العلامة ابن القيم رحمه الله حداً جامعاً ، فقال : الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده ، من معبود ، أومتبوع ، أو مطاع .

فطاغوت كل قوم : مَنْ يتحاكمون إليه غير الله ورسوله ، أو يعبدونه من دون الله ، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله ، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله . ا هـ .

=

= فإذا تأملت هذا التعـريف ، عرفت أن حكم القـانون من الطاغوت ، وأن الحـاكم القانوني طاغوت ، لأنه يحكم بتشريع وضعي ، لا يستند إلى القرآن والسنةولا إجماع الأمة .

وقد ذكر الله تعالى في عدة آي من القرآن أن الحكم لله ، وأن مرد النزاع إلى الله ، ثم إلى رسوله ﷺ ، قال تعالى : (إن الحكم إلا لله) .

وقال تعالى : (**ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون**) .

وقال تعالى : (**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لايجـدوا في أنفسـهم حرجاً مما قضيت ، ويسلموا تسليماً**) .

وقـال تعـالى : (**فإن تنـازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا**) .

ومن المحال أن يحيل الله فصل النزاع إلى من ليس عنده ذلك الفصل .

فالشريعة المطهرة وإن لم تنص على كل جزئية من المسائل ، فقد أتت بقواعد مرنة يستطيع المجتهد أن يستنبط منها أحكام الحوادث المستجدة .

وعجباً لمن يزعم بأنه مسلم ، ويظهر حب الله وحب رسوله ، ثم يترك التحـاكم إلى الشريعة ، ويهرع إلى القانون الوضعي بحجة أن المحاكم الشرعية اختصاصها الأحوال الشخصية والميراث ، وأن القوانين الحديثة أنسب لأهل العصر .

وأين هؤلاء من قوله تعـالى : (**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكـافـرون**) ، وقـوله تعـالى : (**ومن لم يحكم بمـا أنـزل الله فأولئك هم الظالمـون**) ، وقـوله تعـالى (**ومن لم يحكم بمـا أنـزل الله فأولئـك هم الفاسقون**) ، ومن الآيات المارة ؟ .

فأي إسلام وإيمان لِمن يمنح البشر ما هو اختصاص الربوبية والرسالة من حق التشريع والخضوع والإذعان التام لغير الله ورسوله ؟ .

فإن قيل : قوله تعالى : (**ومن لم يحكم بما أنزل الله**) الآيات الثلاث نزلت في اليهود والنصارى ؟ .

فالجـــواب :

أولا : أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ثانيـاً : أنـه إذا حكم الله على أهل الكتابين بالكفر والفسق والظلم إذا لم يحكمـوا بالتـوراة والإنجيل ، فنحن المسلمين ـ من باب أولى ـ إذا لم نحكمِ

وأخبر الله تعالى أنه بعث في كل طائفة من الناس رسولا بهذه الكلمات : (**أن اعبدوا الله ، واجتنبوا الطاغوت**) .

أي اعبدوا الله وحده ، واتركوا عبادة ما سواه .

كما قال تعالى : (**فمن يكفر بالطاغوت ، ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها**)(١) .

فلم يزل سبحانه وتعالى يرسل للناس الرسل بذلك ، منذ حدث الشرك في بني آدم في وقت نوح الذين أرسله إليهم ، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم برسوله محمد ﷺ الذي أرسله الله إلى الإنس والجن ، وانتشرت دعوته في المشارق والمغارب ، وكل الرسل جاؤوا بهذا التوحيد .

كما قال تعالى : (**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**)(٢) .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : قلت يا رسول الله ، أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قلت :

= بالقرآن فسيحكم الله علينا بالكفر والفسق والظلم ، على أن الصحيح أن الآيات عامة تشمل أهل الكتاب وغيرهم .

وهل يكفر الحاكم القانوني أو المتحاكم إليه ؟ .

فالجواب : يكفر إذا جحد أحقية حكم الله ورسوله ، أو اعتقد أن حكم غير الله ورسوله أحكم أو أتم أو أشمل ، أو اعتقد أنه مثلها ، أواعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله ، أما إن اعتقد أن حكم الله هو الصواب وهو الأحسن ، ولكن حملته شهوته وهواه على التحاكم إلى غير ما أنزل الله أو الحكم به ، فلا يكفر كفر اعتقاد ، ولكنه كفر نعمة ، ومعصية عظمى ، وهو أكبر الكبائر .

(١) البقرة : ٢٥٦ .

(٢) الأنبياء : ٢٥ .

إن ذلك لعظيم ، قلت : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك ، قلت : ثم أي : قال : أن تزاني حليلة جارك .

والآيات والأحاديث في بيان استحقاق الله للعبادة وتحريم الشرك كثيرة ، بل القرآن كله في التوحيد كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

وأما الحجج العقلية :

فأولا : العقل يحكم بأن الخالق الرازق ، المحيي المميت ، الضار النافع ، هو الذي يستحق أن يعبد ويرجى ، ويخشى ويدعى ، لا من كان مخلوقاً ضعيفاً مفتقراً معرضاً لحوادث الدهر ونوائب الزمان والتغير والموت والفناء ، ولوكان رسولا أو ملكاً ، لأن غير الله لا يستحق أن يعبد ، مهما علت درجته ، وسمت منزلته ، وبعد صيته .

ثانياً : أن العبادات التي شرعها الله لعباده ، من حكمها أنها تمثل خضوع العبد وامتثاله لذي السلطة المطلقة ، والإرادة التامة ، والقوة القاهرة ، والعلم الشامل ، وهذه الصفات لا توجد إلا في الإله العظيم .

ومن حكمها : أنها بمثابة الشكر للمنعم ، لأن الله تعالى أوجده من العدم ، ورباه بصنوف النعم ، وميزه بالعقل ، والنطق ، والإرادة ، والعلم ، وكرمه على سائر المخلوقات ، وفضله تفضيلا .

ومن المسلم به أن المحسن ينبغي أن يقابل بالإحسان .

وحيث أن العبد عاجز عن مكافأة خالقه ، شكره على قدر طاقته ، باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وهذه هي العبادة .

والمخلوق لم يفعل شيئاً من الخلق والرزق والإيجاد والإحياء والإماته حتى يستحق أن يعبد .

قال تعالى : (قل أرأيتم [1] ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض ، أم لهم شرك في السموات ، ائتوني بكتابٍ من قبل هذا ، أو أثارةٍ من علم إن كنتم صادقين) [2] .

---

(١) **أي قل لهم أيها الرسول** : أخبروني عن حال آلهتكم بعد التأمل في السموات والأرض وما بينهما ، والنظام القائم فيهما المنبيء عن الحكمة ودقة الصنع والإبداع في التكوين ، هل تعقلون لهم مدخلا في خلق جزء من هذا العالم السفلي ، فيستحقون من أجله العبادة ؟ .

ولو كان لهم ذلك لظهر التفاوت في هذا النظام ، والمشاهد أنه على حال واحد ، أم هل تظنون أن لهم شركة في العالم العلوي ، شموسه وأقماره ونجومه ؟ وقصارى ذلك نفي استحقاق آلهتهم للمعبودية على أتم وجه ، فقد نفى أن لها دخلاً في خلق شيء من أجزاء العالم السفلي استقلالا ونفى ثانياً أن لها دخلا على سبيل الشركة في خلق شيء من أجزاء العالم العلوي ، ونفي ذلك يستلزم نفي استحقاق المعبودية أيضاً .

وتخصيص الشركة في النظم الجليل بقوله : (في السموات) ، مع أنه لا شركة فيها ،ولا في الأرض أيضاً ، لأن الغرض إلزامهم بما هو مسلم لهم ، ظاهر لكل أحد ، والشركة في الحوادث السفلية ليست كذلك لتملكهم وإيجادهم بعضها على حسب الصورة الظاهرة ، وبعد أن عجزهم عن الإتيان بسند عقلي ، عجزهم وبكتهم عن الإتيان بسند نقلي .

قال تعالى : **(ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين)** ، أي إن كان ما تقولون حقاً ، فأتوني بكتاب من قبل هذا كالتوراة والإنجيل يشهد بصحة ماتدعون لآلهتكم ، أو ببقية بقيت عندكم من علم الأولين المفكرين في خلق السموات والأرض ترشد إلى استحقاق الأوثان للعبادة ، وتدل على صحة المسلك الذى سلكتموه .

والخلاصة : أن الدليل إما وحي من الله ، أوبقية من كلام الأوائل ، وإما إرشاد من العقل ، **فإن كان الأول** : فأين الكتاب الذي يدل على أنهم شركاء ؟ **وإن كان الثاني** : فأين هو ؟ . (ا هـ من المراغي) ، **وإن كان الثالث** : فإن العقل لا يسوغ عبادة من لايملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولاموتاً ولا حياة ولا نشوراً ، بل العقل يوجب علينا عبادة من خلقنا ورزقنا وأحياناً ويميتنا ، عبادة من وسع علمه كل المخلوقات ، وبيده الضر والنفع والإسعاد والإشقاء ، وبيده الحياة والموت والذل والعز والفقر والغنى ، لا يستريب في مثل هذا من له مسكة من عقل .

والآيات التي جاءت للتنديد بعباد الأصنام أو بعباد غير الله كلها تشير إلى أنه ينبغي الإنكار على حسب نور العقل كما ترى الآيات في سورة النمل : **(أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً) .. الآيات** .

(٢) الأحقاف : ٤ .

ثالثاً : أن العابد كما أنه يشكر مولاه بعبادته ، فهو في نفس الوقت يطيعه بالامتثال بما أمر ، والانتهاء عما نهى ، راجياً رحمته ، وخائفاً من عذابه ، لأنه يعلم أنه لابد أن يحييه الله ويجازيه بأعماله .

وهل للمخلوق أن يجازي من لايعبده بعقاب ، أو يثيبه إن عبده بنعم ؟ . والحال أن العابد والمعبود كليهما تحت قبضة الله ، وكلاهما مكلفان ومعرضان للثواب والعقاب ، فبأي شيء استحق أن يعبد ؟

رابعاً : لو كانت عبادة غير الله جائزة ، لما أرسل الله الرسل ، وأنزل الكتب ، وأمر بجهاد المشركين ، وأباح دماءهم وأموالهم .

خامساً : إليك هذا الدليل العقلي الذي أتى به القرآن بصورة ضرب مثل ، فقال تعالى : (**ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون**)[1] .

أي : هل يرضى أحد منكم أن يكون عبده شريكه في ماله وأهله ، حتى يساويه في التصرف في ذلك ، فهو يخاف أن ينفرد في ماله بأمر يتصرف فيه ، كما يخاف غيره من الشركاء الأحرار .

فإذا لم ترضوا ذلك ، فلم عدلتم بي من خلقي من هو مملوك لي ؟! .

فإن كان هذا الحكم باطلا في فطركم وعقولكم ، مع أنه جائز عليكم مما في حقكم ، إذ ليس عبيدكم ملكاً لكم حقيقة ، وإنما هم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، وأنتم وهم عبيد لي ، فكيف

---

(١) الروم : ٢٨ .

تستجيزون مثل هذا الحكم في حقي ، مع أنه من جعلتموهم لي شركاء عبيدي ، وملكي ، وخلقي ؟!

سادساً : هاك هذا البرهان العقلي الذي جاء به القرآن الكريم ضارباً مثلا لبطلان عبادة غيره ، هذا الدليل الذي يجتث شجرة الشرك من جذورهـا ، ويـأتي على بنيـانه من القواعد ، قال الله تعالى : (**يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له * إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذبـاب شيئـاً لا يستنقـذوه منـه ، ضعف الطالب والمطلوب * ما قدروا الله حق قدره * إن الله لقوى عزيز**)[1] .

وجه الدليل : هو أن الآية توجه الخطاب إلى المشركين الذين ألّهوا الأصنام والأوثان ، بأن الذين تعبدونهم بصرف العبادات لهم وتخضعون لهم ، لو اجتمعوا كلهم سواء كانوا من أهل السماء ، أو من أهـل الأرض ، وتكاتفوا وتعاضدوا بأن يخلقوا ذباباً ، أو يقدرون على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئاً ، لا يقدرون على ذلك ، وهم أقل مما هنالك ، فعلام تعبدونهم ؟

والحال أن المعبود أقل درجاته ، أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده ، ودفع ما يضره .

والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق الذباب ، الذي هو أهون وأضعف الحيوانات ، ولو اجتمعوا كلهم لخلقه فكيف ما هو أكبر منه ؟

بل ولا يقدرون على استنقاذ ما يسلبهم من طيب ونحوه ، فلا أعجز من هذه الآلهة ، ولا أضعف منها ، فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله ؟

---

(١) الحج : ٧٣ ، ٧٤ .

قال الحافظ ابن القيم - رحمه الله تعالى - في كتابه (إعلام الموقعين) :

وهـذا المثـل من أبلغ ما أنزل الله لبطلان الشرك ، وتجهيل أهله ، وتقبيح عقولهم ، والشهادة على أن الشيطان قد تلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة. ا هـ .

ولا فرق بين عبادة أولئك المشركين للأصنام والأوثان ، وهؤلاء القبوريين الذين يعبدون الأنبياء والصالحين(١).

لأن كلمة (تدعون من دون الله) أو كلمة (غير الله) ، تشمل كل ما عبد من دون الله ، من كوكب ، أو شمس ، أو شجر ، أو حجر ، أونار ، أو نبي ، أو ولي .

إذ القصد إفراد الله بالعبادة ، وترك عبادة ما سواه كائناً من كان وما كان ، وجاء القرآن صريحاً في النهي عن عبادة الأنبياء والمرسلين ، فقال تعالى مخاطباً لعيسى بن مريم ، وموبخاً ومبكتاً للمسيحيين الذين ألهوا المسيح وعبدوه : **(وإذ قال الله لعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ، قال**

---

(١) عبـادتهم للأنبيـاء والصـالحـين بخضوعهم وتذللهم أمام قبورهم ، والطواف حولهـا ، وبـالنذور إليها ، وبطلب حوائجهم ، كشفاء مرضاهم ، أو إعطائهم ولداً ، أو ما شاكل ذلك .

فهذه الأمور هي من أنواع العبادة ، فمن صرفها لغير الله أصبح عابداً لغيره ومشركاً به حتى وإن قال بلسانه : أنا مسلم لا أرضى بالشرك ، وحتى إن سماه توسلا ووسيلة ، لأن هناك فرقا بين التوسل وبين الاستغاثة وطلب الشفاء من المخلوق أو دفع الضر ، فالتوسل أن يسأل الله بحق غيره ، كأن يقول : أسألك بحق الرسول ، وأما سؤال المخلوق كأطلب من هذا الشيخ كذا وكذا ، أو أسألك أيها الرسول أن تعطيني كذا وكذا ، والنحر والنذر لغير الله ، والطلب من النبي أو الولي مما لايقدر عليه إلا الله ، فهذه الأمور شرك لا ريب فيه ، وأما التوسل المار ذكره فبدعة فقط ، فتنبه للفرق بينهما .

سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ، إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم ، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ، إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم)[1] .

وقال تعالى (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) [2] .

فالأنبياء وغيرهم من المخلوقين لا يستحقون ما يستحقه الله من خصائص ، فلا يشرك بهم ، ولا يتوكل عليهم ، ولا يستغاث بهم كما يستغاث به ، ولا يقسم على الله بهم ، ولا يطلب منهم ما لا يقدر عليه إلا الله كشفاء مريض أو رد غائب ، ولا يتوسل بذواتهم .

وإنما يتوسل بالإيمان بهم ، وبمحبتهم وموالاتهم ، وتعزيزهم ، وتوقيرهم ، ومعاداة من عاداهم ، وطاعتهم فيما أمروا ، وتصديقهم فيما أخبروا ، وتحليل ما حللوه ، وتحريم ما حرموه .

إذا علمت ذلك ، فاعلم أنه كما وقعت الخصومة بين الرسل وأممهم من عهد نوح إلى عهد سيدنا محمد ﷺ ، فقد وقعت أيضاً بين المصلحين من هذه الأمة وبين القبوريين وأدعياء العلم ، ولم يكن لأولئك المشركين ولا لهؤلاء القبوريين والجاهلين حجة سوى تقليد الآباء والخضوع للعادات .

وكلا الصنفين يزعم أنه بتلك العبادات المصروفة للآلهة

(١) المائدة : ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ .

(٢) آل عمران : ٨٠ .

المزعومة ، وللقبور المقدسة ، والأشجار المؤلهة ، التقرب[1] إلى الله .

كما في قوله تعالى : (**ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**)[2] .

وكما قال الله تعالى : (**ويعبدون من دون الله ما لايضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون**)[3] .

أفعال القبوريين الشنعاء وشركهم :

والقبوريون اليوم وقبله بقرون وقعوا فيما وقع فيه المشركون السالفون ، بصرفهم جل العبادات للقبور المقدسة لديهم ، كالنحر لها ، والطواف حولها ، والاستغاثة بها ، والتبرك بترابها ، وطلب الشفاء منها ، وشد الرحال إليها .

فكم شدت لتلك القبور الرحال ، وصرفت من أجلها الأموال ، وعفر على أعتابها الخدود ، وسكبوا العبرات ، وكثرت منهم الاستغاثات ، وطلبوا الحاجات من الغائبين والأموات ، حتى آل الأمر في بعض الأمصار أن يقدم هؤلاء الجهلاء عرائض الشكوى وطلب الحاجات إلى أولئك المقبوريين الرفاة .

فترى هذا يكتب بعد التحية التي لا تصرف إلا لله يقول : أريد أيها الشيخ ولداً ، ويريد الآخر وظيفة ، وذاك يستغيث من ظالم ظلمه ، وتلك ولداً أو زوجاً ، وهكذا دواليك .

---

(١) مفعول به ليزعم .
(٢) الزمر : ٣ .
(٣) يونس : ١٨ .

ولا أدري ، أيعتقدون أن الله لا يعلم بحاجاتهم ، أو لا يجيب دعواتهم ؟ ، أو أنه وكل هؤلاء الموتى بقضاء حوائج السائلين[1] ؟ .

---

(١) وبالفعل قال الشعراني رحمه الله في الميزان : إن الله وكل ملائكة بقبور الأولياء تقضي حوائج السائلين ، وقال بعض الصوفية : قبر معروف الكرخي ترياق مجرب ، وقال بعضهم ما معناه : لا خير فيمن يحجب بينه وبين أصحابه شبر من التراب ، ومعناه أنه حي في قبره ، يسمع كلامهم ويجيب نداءهم ، ويقضي حوائجهم ، بل صرح بعضهم أن بعد الموت يكون الإنسان أكمل من حال الحياة ولاسيما الأولياء ، أي يقدرون أن يتصرفوا أكمل مما كان في حياتهم ، وما أدري أي تصرف كان لهم في الحياة حتى يكون بعد الموت أكمل ؟ وبمثل هذه الكلمات ومئات من أمثالها نشرت الصوفية وبعض من انتسب إلى علم الفقه ـ ممن تأثر بآراء المتصوفة ـ نشروا الشرك بين العباد ، وأراد هؤلاء ـ والله أعلم ـ أن يجذبوا قلوب الناس إليهم ، وتكون لهم المنزلة عند الناس ، سواء كانوا أحياء أم أمواتاً ، فلهذا تراهم في حال الحياة تخضع لهم العامة ، وقد يركعون لهم ، وينذرون لهم ، ويأتونهم بالأموال باسم النذور والصدقات ، وبعد موتهم تشيد لهم القباب ، ويهرع الناس إليهم زرافات ووحداناً ، ويطوفون بقبورهم ، ويستغيثون بهم في النوائب ، ويقولون جهراً من غير حياء ولا خجل : المدد ياسيدي الرفاعي ، المدد يا حسين بن علي ، المدد يا عبد القادر الجيلاني ، إلى غير ذلك من الكلمات الشركية التي يخجل العاقل من النطق بها ، وكل هذه الأعمال الشركية الشنعاء يحسبها الجاهلون من صميم الدين ، والمبتعد عنها والمنكر لها خارج من زمرة المسلمين ومبتدع من الوهابيين .

فإذا رأى الأجانب هذه الأعمال من تلك القباب وما حولها ، وتلك الاحتفالات والأعياد التي شرعوها بمناسبة ولادة الولي الفلاني ، وما في تلك الاحتفالات من اختلاط الرجال بالنساء ، والرقص والتصفيق ، واختلاط الشباب والمردان والنساء ، وما إلى ذلك من الحركات المخالفة ، والأعمال المبتدعة ، والأذكار الغير واردة ، والاستغاثات الشركية ، والنداءات لسكان القبور وما شابه ذلك ، ويرون مع ذلك ويشاهدون كثيراً من أصحاب العمائم وذوي الفضيلة ممن اتسم بسمة العلم ـ وهو منه بريء ـ مع أولئك الجهلاء ، مع أولئك الراقصين والذاكرين بزعمهم ، ورأوهم مختلطين مع الشباب والنساء والمردان والرذلاء والسفهاء مستحسنين ذلك ومعترفين بما هنالك ، قالوا : إن

أما قرع سمعهم قوله سبحانه وتعالى : **(وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان)**(١) ، وقوله تعالى **(ادعوني أستجب لكم)**(٢) ، ولم يقل ادعوا أوليائي أو أنبيائي ؟ :

أما سمعوا قوله تعالى : **(أمن يجب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض)**(٣) ؟

أما فهموا أن الله لم يرسل الرسل ـ وأفضلهم سيدنا محمد ﷺ إلا لمحو الوثنية من الأرض ، وإقامة صرح التوحيد ؟

أما كان كل رسول يقرع أسماء قومه أول مرة ، قال تعالى : **(يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره)** ؟.

أما أبطل الله عبادة المسيح ، وسفه أحلام عابديه(٤) ؟ .

أما قال تعالى : **(ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون)**(٥) .

= كان هذا هو الدين الإسلامي الذي نسمع به فلا خير فيه ، لأن هذه الأعمال لا يقرها عقل صحيح ، ولا ينبغي أن يأتي به نبي مثل سيدنا محمد ﷺ ، الذي قال المسلمون عنه : إنه أتى بأحسن الأديان وأتمها وأكملها .

فهؤلاء وأمثالهم مع كونهم أضلوا كثيراً من الناس بدعوى حب الصالحين والأنبياء والمرسلين ، وبإخفائهم حب الرئاسة وجمعهم الحطام ، فقد أصبحوا حجباً مانعة لدخول غير المسلمين في الدين بل وتنفيرهم عن هذا الدين الحنيف ، اللهم إلا أن يكون ذلك الأجنبي ممن درس حقيقة هذا الدين ـ وكثير منهم كذلك ـ وعرف الغث والسمين ، عرف أن ما عليه هؤلاء : **(متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون)** ، اللهم إن ديننا الحنيف بريء من هؤلاء كبراءة الذئب من دم يوسف ، اللهم اهد عبادك إلى صراطك المستقيم .

(١) البقرة : ١٨٦ . (٢) غافر : ٦٠ . (٣) النمل : ٦٢ .

(٤) **(وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله)** والآية رقم ١١٦ من سورة المائدة .

(٥) آل عمران : ٨٠ .

شبه بعض الجاهلين في تبرئة القبوريين من الشرك بدعوى أنهم ينطقون بالشهادتين ويأتون بشرائع الإسلام

وقول بعض الجاهلين : إن هؤلاء يقرون بالخالق ، ويعتقدون بشرائع الإسلام ، وبيوم الجزاء ، وغاية ما هنالك أنهم يتوسلون بهؤلاء الصالحين ، ولا يرضون بلقب الشرك ، بل ينفرون منه . فكيف يمكن أن يقال : إنهم مشركون ؟.

فجواب تلك الشهادة - وهي أنهم مشركون - أن نقول :

إن الكفر والشرك شعب وأنواع ، كما أن الإيمان له شعب ، فإذا ما أتى بكثير من شعب الإيمان ، وأتى معه بشيء من شعب الشرك ، فيقال : إنه مشرك .

مثلا : لو صلى وصام ، واعتقد بالرسالة وبالقيامة ، واتصف بالزهد ومكارم الأخلاق ، لكنه اعتقد في كوكب بأن له تأثيراً ، أو أن بيده نفعاً أو ضراً ، أو اعتقد في ملك أو رسول ما لايجوز اعتقاده إلا في الله ، فنسميه مشركاً - وإن أتى بتلك الأعمال الصالحة .

وإلا فما معنى كتاب الردة ؟ ولا يلزم أن يحكم على أحد بكفر أو شرك إلا إذا أتى بجميع خصاله وأنواعه ، وتوسلهم لاعتقادهم بأنهم مذنبون وهؤلاء أقرب عند الله ، فيوسطونهم بينهم وبين الإله ، هذا هو شرك العرب بعينه .

أول من عرف بالشرك وسببه الغلو في الصالحين :

فقد قال المحدثون والمفسرون : إن أول من عرف بالشرك قوم نوح عليه السلام .

وقالوا : إن وداً ، وسواعا ، ويغوث ، ويعوق ، ونسرا ، كانوا قوماً صالحين ، بين آدم ونوح ، فنشأ قوم بعدهم يأخذون كأخذهم في العبادة ، فقال لهم إبليس : لو صورتم[1] صورهم فكنتم تنظرون إليهم ، فصوروهم ، ثم ماتوا فنشأ قوم بعدهم .

فقال لهم إبليس : إن الذين كانوا من قبلكم كانوا يعبدونهم ، ويستسقون بهم ، فعبدوهم .

وهناك روايات أخرى تصرح بهذا المعنى ، من أن الشرك ابتدأ من القبوريين المنصرفين بقلوبهم إلى الموتى من صلحائهم كما في فتح المجيد .

ونفرتهم من اسم الشرك مع تحليهم بوصفه لا تجدي ، لأن المشرك مشرك شاء أم أبى ، فلسنا مكلفين برضاهم .

وأما تشهدهم بالشهادتين فهو منتقض بأعمالهم المنافية لهما ، كالحدث بعد الضوء ، وإقرارهم بالخالق لا يفيد ، لأن المشركين كانوا مقرين بالربوبية ولم يدخلهم في الإسلام .

وأما قول من يقول : إن مشركي العرب كانوا منكرين للبعث ؟ .

فالجواب : إن هذا الاعتقاد من جملة المكفرات ، والرسول ﷺ كفرهم وأباح دماءهم لأمور كثيرة : أعظمها عبادتهم للأوثان ، ومنها إنكارهم للبعث .

ولا يقبل من الإنسان أن يؤمن ببعض ويكفر ببعض ، بل الواجب عليه أن يذعن معتقداً بكل ما أتى به القرآن ، وجاء به الرسول ﷺ ، ويعمل بهما .

---

(١) وقال ابن القيم : قال غير واحد من السلف : لما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم من دون الله .

فمن آمن ببعض ولم يؤمن بالبعض الآخر فهو كافر ، كما قال الله تعالى مخبراً عنهم : (**ويقولون نؤمن ببعض ، ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقاً**)[1].

ولا ينفعه مجرد النطق بكلمة الشهادتين حتى يعمل بمقتضاها ، من البراءة مما يعبد من دون الله ، وصرف جميع العبادات ـ كائنة ما كانت ـ إلى الله .

فمن صرف شيئاً لغير الله ، من حجر أو شجر ، أو حيّ أو ميت ، معتقداً النفع أو الضر لديه ، أو أنه يقربه إلى الله ، فإنه قد أشرك مع الله غيره ، واعتقد ما لا يحل اعتقاده ، كاعتقاد المشركين في أوثانهم ، فضلا عمن يقدم النذور بماله أو ولده أو يريق الدماء لميت أو حي ، أو يستنجد ويستغيث بغائب أو مقبور ، أو يطلب منه ما لا يطلب إلا من الله ، من عافية مريض ، أو قدوم غائب ،أو نزول مطر،أو إعطاء ولد ، أو أى مطلب من المطالب ، فإن هذا هو الشرك بعينه الذي كان عليه عباد الأصنام [2] .

استفهام عن تكفير الشخص المعين أو الطائفة المخصوصة :

ولكن هل يحكم على الشخص المعين ، أو الطائفة المخصوصة المتلوثة بتلك الخصال المنافية للتوحيد بالشرك والكفر ؟ مع أنها مؤمنة بالله والرسول ، وآتية بسائر الشرائع ؟

الجواب :

يقال : هذا العمل شرك أو كفر مثلا ، كالسجود لولي ، أو الطواف بقبره ، أو النذر له .

---

(١) النساء : ١٥٠ ، ١٥١ .

(٢) من (تطهير الإعتقاد للصنعاني) .

ولكن الشخص المعين ، أو الطائفة المخصوصة ، لانبادرها بالتكفير ، بل الواجب تبليغها بآيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ ، المبينة للشرك ، والمحذرة عنه ، وأن ليس لصاحبه نصيب من الجنة ، وأن هذه الأعمال هي شرك .

فإذا أصر الشخص المعين ، أو الطائفة المخصوصة ، وعاندت ولم تقبل ، فعند ذلك يحل عليها إطلاق الشرك أو عليه إن كان فرداً معيناً ، وليكن الشخص ذا تفرقة بين الشرك الأصغر والشرك الأكبر ، فالرياء شرك أصغر ، والسجود والنذر لغير الله شرك أكبر .

والقرآن مملوء من الدعوة إلى التوحيد ، والتنفير من الشرك وأهله ، والإخبار عما أحل بذويه ، وعما يثيب الموحدين ويجزيهم خير الجزاء ، بل القرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه .

وبيانه : أى القرآن : إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته ، وهو التوحيد العلمي الخبري .

وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له ، وهو التوحيد الإرادي الطلبي .

وإما أمر ونهي ، وإلزام بطاعته ، فذلك من حقوق التوحيد .

وإما عن إكرامه لأهل التوحيد ، فهو جزاء توحيده .

وإما خبر عن أهل الشرك وما يعاقبهم به ، فهو جزاء من نبذ التوحيد .

والرسالة المحمدية كسائر الرسالات مؤسسة على بناء التوحيد ، وهدم الشرك ، وحسم مادته .

الرجوع إلى الوثنية ومن أين تسربت :

ولكن سرعان ما كثر في الأكثرين الرجوع إلى الوثنية

الجاهلية ، وتسرب إليهم ذلك من بعض الأمم المغلوبة الداخلة في الإسـلام ، إما لعدم تمكن الإيمان في قلب بعضهم ، وإما نفاقاً وكيداً من البعض الآخر ، ومن بعض آراء الصوفية المنحرفة .

وبالجملة : فقد أخذت هذه الأمة مأخذ الأمم من قبلها شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع .

أخذ هذه الأمة مأخذ الأمم من قبلها وما ورد في ذلك :

وقد وردت عدة أحاديث في أن هذه الأمة لابد أن تأخذ مأخذ الأمم السالفة :

منها ما في الصحيحين ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لتتبعن سنن[١] من كان قبلكم ، حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ، قالوا : يا رسول الله ، اليهود[٢] والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » .

وفي حديث آخر « .. حتى كان لو فيهم من يأتي أمه علانية ، لكان في أمتي من يفعل ذلك » .

وروى أبو داود بسنده إلى أبي قلابة ، عن أبي أسماء ، عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ـ أو قال ـ إن ربي ـ زوى لي الأرض ، فأريت مشارق الأرض ومغاربها ،

---

(١) أي : طريق من كان قبلكم ، قال المهلب : الفتح أولى ، حذو القذة ، بنصب حذو على المصدر ، وبضم القاف ، واحدة القذو وهو ريش السهم ، أي لتتبعن طريقهم في كل ما فعلوه ، وتشبهوهم في ذلك كما تشبه القذة السهم الأخرى .

(٢) هو برفع اليهود خبر مبتدأ محذوف ، أي : أهم اليهود والنصارى الذين نتبع سننهم ؟ ويجوز النصب بفعل محذوف تقديره (تعني) .
وقوله (فمن) استفهام إنكار ، أي : فمن غير أولئك ؟ .

وإن ملك أمتي سيبلغ مازوي[1] لي منها ، وأعطيت الكنزين الأحمر[2] والأبيض .

وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة ، ولا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم ، فيستبيح بيضتهم[3] .

وإن ربي قال لي : يا محمد ، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، ولا أهلكهم بسنة عامة، ولا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم ، فيستبيح بيضتهم .

ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها ـ أو قال بأقطارها ـ حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، وحتى يكون بعضهم يسبي بعضاً .

وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين .

وإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة .

ولا تقوم الساعة حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين ، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان ، وورد حتى تعبد فئام[4] من أمتي الأوثان » . الحديث .

فإن قيل : يلزم من قولكم تكفير الأكثرين من الأمة المحمدية ، حيث أنهم يعملون ما تقولون بأنه شرك ، مثل النذور للأولياء والنحر لهم ، والاستعانة بهم ؟

---

(١) قال التوربشتي : زويت الشيء : جمعته وقبضته ، وحاصله أنه طوى له الأرض ، وجعلها مجموعة كهيئة كف في مرآة ينظرها .

(٢) الأحمر : هو كنز قيصر ، لأن الغالب عندهم كان الذهب .

والأبيض : هو كنز كسرى ، لأن الغالب عندهم كان الجوهر والفضة ، ووجد ذلك في خلافة عمر رضي الله عنه .

(٣) معظمهم وجماعتهم .

(٤) الفئام بكسر الفاء : الجماعات الكثيرة .

منع الحكم بالشرك على المعين لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة سوى من بلغته النصوص وقامت عليه الحجة

الجواب :

أولا : إن القول بالعموم مغاير للقول بالخصوص .

ثانياً : غلبة الجهل ، وقلة العلم بالتوحيد والسنة المطهرة ، ومعرفة الشرك وأقسامه وذرائعه في كثير من الأماكن والبلدان ، هو المانع للحكم بالشرك على المعين ، إلا من بلغته النصوص وقامت عليه الحجة ، ثم أصر معانداً ، فذاك يحكم عليه بالشرك .

وقد سبق لنا قريباً من هذا المعنى ، وزدناه هنا بسطاً وتوضيحاً ، لأن كثيراً من المشاغبين وذوي الأغراض يشنعون على الدعاة المصلحين ، وينفرون الناس عن قبول دعوتهم ، بدعوى أنهم يكفرون المسلمين ، ويجعلونهم في صف المشركين ، مع أنهم من المؤمنين والمصلين الخاشعين .

تبرئة السنيين الموحدين من تكفير مسلم موحد :

والحال أنه لم يقل أحد من أهل السنة ـ سلفاً وخلفاً ـ بتكفير مسلم موحد ، بل ينهون عن ذلك أشد النهي ، وإنما يقولون : إن عبادة المخلوق عادة جاهلية ، وشرك في الألوهية ، كما تقدم .

أول من قام بهذه الدعوة :

وأول من قام بهذه الدعوة الإصلاحية ، شيخ الإسلام[1] ابن تيميــة الحــراني في القــرن الثــامن بعد الرسول ﷺ والصحابة والتابعين وتابعي التابعين ـ رحمهم الله ـ .

وتلاه أناس آخرون ، لكن أخف منه وطأة .

وفي القرن الثاني عشر قام بهذه الدعوة المباركة المجدد الكبير والمصلح الشهـير الشيخ محمد[2] بن عبد الوهاب بن سليمان ، واجتهد في ذلك قولا وفعلا وتأليفاً وسيفاً ، وأيده آل سعود الكرام .

وعلى أساس دعوته قامت الدولة العربية السعودية ، وما زالت إلى يومنا تؤيد الدعوة بشتى الوسائل والتعليم ، وقد انتشرت دعوته في سائر الأقطار .

وفي هذا العصر كثر المصلحون والداعون ، أيدهم الله بالقوة والثبات والنصر .

تقرير شبهة ودفعها :

شبهة لبعض المعارضين القائلين إن كفر الأولين من حيث إنكار الربوبية :

---

(١) ولد في سنة ٦٦١ هـ ، وتوفي سنة ٧٢٨ هـ .

(٢) ولد سنة ١١١٥ هـ في بلدة العيينة ، وتوفي سنة ١٢٠٦ هـ في الدرعية ، وألفت في تاريخه وبيان دعوته وعقيدته ، مؤلفاً وسطاً ، وسميته الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، عقيدته السلفية ، ودعوته الإصلاحية ، وثناء العلماء عليه ، طبع في مصر بمطبعة المدني سنة ١٣٨٤ هـ ، ثم طبع عدة طبعات في بلدان أخرى .

كما ألفت في سنة ١٤٠٨ هـ كتاباً آخر بعنوان الشيخ محمد بن عبد الوهاب المفترى عليه ، ودحض تلك المفتريات ، وطبع في قطر مرتين .

أورد بعض المعارضين شبهة وتقريرها : إن المشركين كان كفرهم من أجل إنـكارهم للربوبية ، لا من حيث صرف العبادة لغـير الله ، مستدلين بقوله تعالى : (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن)[1] .

وبقوله تعالى : **(وهم يكفرون بالرحمن)** [2] .

والجـــواب :

إن الآية الأولى : فيها استفهام عن الرحمن ، والاستفهام عن الشيء لا يكون جحداً له .

على أننا لوقلنا استفهام إنكاري ، فإنه إنكار للتسمية بالرحمن لاغير ، كما يوضحه كتابة صلح الحديبية[3] .

والآية الثانية : فيها الكفر بالرحمن ، والكفر بالشيء لا يكون إنكاراً له ، تقول لمن فعل فعـلا كفرياً : كفر فلان ، وهذا لا يـــدل على أنه منكـر للرب ، على أنه معارض بالآيات المنبئة عن اعترافهم بالربوبية كقولـــه تعـــالى : **(ولئن سـألتهم من خلق السموات**

---

(١) الفرقان : ٦٠ .

(٢) الرعد : ٣٠ .

(٣) وملخص القصة : إن الرسول صلى الله عليه وسلم ذهب في أواخر سنة ست من الهجرة قاصداً مكة المكرمة للعمرة ، فصده المشركون ، وجرت الرسل بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم حتى جاء آخرهم سهيل بن عمرو ، وبعد نقاش تم الاتفاق على الصلح بشروط منها : وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، فلما تم الصلح دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب ، فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل : لا أعرف هذا ، اكتب باسمك اللهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب باسمك اللهم ، فكتب .

فتأمل : إن المشركين ما كانوا ينكرون الإله ولا الرب ، إنما كانوا ينكرون اسم الرحمن .

=

والأرض ، ليقـــولن الله ، قل الحمـــد الله بل أكثرهم لا يعلمون) [1] .

وقوله تعالى : **(ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم)** [2] .

ويـزيده إيضـاحاً : أن تسـمية الشخص بالمشرك تدل على اعترافه بذلك .

من نسميه مشركاً ومن نسميه كافراً ؟

فظاهر ما تقدم ، أن من أنكر الرب نسميه كافراً ، لأن الكفر بمعنى الجحد والستر ، وكذا حكم من أنكر البعث ، أو نبياً من الأنبياء ، أو كتاباً من الكتب السماوية ، أو أحل محرماً ، أو حرم مباحاً مجمعاً عليهما .

والـكفر أنـواع :

كفـــر عناد ككفر أبي جهل ، وكفر إباء ككفر إبليس ، وكفر جحد ككفر فرعون .

ومن تقـرب بعبادة لغـير الله ، من نبي ، أو صـالح ، أو ملك ، أو كوكب ، وما أشـبه ذلك ، نسميه مشركاً [3] .

= وقد قال المفسرون في تفسير قوله تعالى : **(قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى)** قال ابن عباس : سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فجعل يقول في سجوده يا رحمن ، فقال أبو جهل : إن محمداً ينهانا عن آلهتنا وهو يدعو إلهين ، فأنزل الله هذه الآية ، ومعناه أنهما اسمان لله تعالى .

(١) لقمان : ٢٥ .

(٢) الزخرف : ٩ .

(٣) أي وكافراً ، لأن كل شرك كفر ، وبالعكس .

لأن الشرك شيء واحد ، وهو جعل شريك مع الله ، أو عبده دون الله ، لأنه مأخوذ من الشركة .

ولا يقتضي الشرك ـ شرعاً ـ مساواة الشريك لله في جميع صفاته أو في صفة منها ، بل يسمى المرء مشركاً عند الشارع بإثباته شريكاً لله ، ولو جعله دونه في القدرة والعلم مثلا .

وأما حكايته عن المشركين قولهم : (**تالله إن كنا لفي ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين**)[1] . فالتسوية فيه تسوية في الطاعة والانقياد ، أو في المحبة والوداد ، لا في الخلق والإيجاد .

فهذه الآية كآية البقرة ، وهي قوله تعالى : (**ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله**)[2] .

ومن أتى بما صيره مشركاً فمحكوم عليه بالشرك وإن تلفظ بالشهادتين ، لأن الشرك ينافي الإسلام ، كما ينافي الحدث الوضوء .

الشرك شرك وإن قال صاحبه بأنه محبة للصالحين :

ولا ينفعه تسميته للشرك بمحبة الصالحين وتوقيرهم ، لأن العبرة بالحقائق لا بمجرد الأسماء .

فبائع الخمر باسم العسل يعاقب ، ولا يرفع عنه العقاب بتلك التسمية المكذوبة ، بل يضاعف عليه العذاب لكذبه وتدليسه .

---

(١) الشعراء : ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) البقرة : ١٦٥ .

شبهة على تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام :
دحض الشبهة على تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام

أورد بعض المتعصبين : إن ذلك التقسيم لم يقل به النبي ﷺ؟ .

الجواب :

أولا : أن يقال له : إن تُرد أن النبي ﷺ لم يقل به لا لفظاً ولا معنى فباطل ، فإنه قال ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله .. » .

وهذا هو توحيد الألوهية ، والنبي ﷺ وأصحابه علموا الداخلين في الإسلام بأن لا يعبدوا إلا الله ، وهو ما نريده .

وأكثر القوم كانوا معترفين بالربوبية ، فكانوا عارفين بمعاني الألفاظ ، لا يحتاجون إلى تفرقة .

فإذا قيل لهم : لا إله إلا الله ، ولا خالق ولا رازق إلا الله ، عرفوا ما تدل عليه الجملة الأولى والثانية ، وأنت حين توازن بين قوله تعالى إخباراً عنهم : (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله)[1] ، وقوله تعالى : **(أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب)** [2] ، يظهر لك ما قلناه بجلاء ووضوح .

على أنه لا يضرنا أن النبي ﷺ وصحبه لم يصطلحوا هذا الاصطلاح ، لأننا نقول : تؤخذ الأشياء بمعانيها ، ولا يلزم أن

---

(١) الزخرف : ٨٧ .
(٢) ص : ٥ .

يكون النبي ﷺ وصحابته رضي الله عنهم يمشون على هذا النهج المصطلح عليه .

وغاية قولنا : إن معنى الرب في اللغة غير معنى الإله ، يدل الأول : على الإحاطة والخلق والإيجاد والتربية ، والثاني : على المعبود بحق أو باطل .

ونقول في الجواب ثانياً : إن لم يقسم النبي ﷺ التوحيد إلى أقسام ثلاثة ، فلم يحصره في قسم واحد ـ كما تزعم ـ ، ومعنى الألفاظ الواردة في القرآن والسنة واللغة تساعدنا على ذلك ، وليس معك ما يناصرك على دعواك .

بيان الشرك وأنواعه من كتاب (هداية المريد)

وبعد أن انتهيت من الكلام على توحيد العبودية ، رأيت من الجدير أن أذكر فصلا في الشرك وأنواعه من كتاب هداية المريد إلى سبيل الحق والتوحيد ، للعلامة الشيخ أحمد بن محمد العبادي اليماني ، قال :

والكفر والإشراك بالإلـه ... من أعظم الذنوب والمناهي
ثم الخلود واجب في النار ... للمشركين الكل والكفار
فمن يقل غير الإله يوجد ... في الكون موجود بحق يعبد
ومن لغير ربه طوعاً سجد ... من غير إكراه فذا شرك يعد
كمن نفى وجود مولانا علا ... أو قال بالتشبيه أو من عطلا
أو قال بالتجسيم أو من كيفا ... أو علمه بكل جزئي نفى
أو أثبت الإبن له والصاحبة ... أو قال في نفي الصفات الواجبة
أو أنكر المعلوم بالضرورة ... أو قال في إباحة الكبيرة
أو جحد القرآن والرسولا ... ومثل ذا ميكال أو جبريلا
ومن يقل غير الإله يملك ... ضراً ونفعاً فهو أيضاً مشرك
ومن ينـاد ميتا أو غائبا ... ويرتجيه راغبا أو راهبا
في دفع ضر أو حصول نفع ... فذاك شرك عند أهل الشرع[1]
كمن ينادي مستغيثا بأحد ... أو مستعينا أو رجى منه الولد
إذ ذاك في العادة ليس يقدر ... عليه إلا الواحد المقتدر

---

(١) لأن بعض الناس يقول : إما عن اعتقاد خبيث أو إرغاما للسنة وأهل التوحيد : إن الأولياء يضرون وينفعون من دون الله ، فنعوذ بالله من هذا القول الفظيع ، والله تعالى يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم : (**قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا**) . الجن : ٢٢ .

وكل ما استحال في العادات كطلب الإحيا من الأموات
فلم يجز لمسلم أن يفعله وأنكر الشرع على من فعله
وحلقه للرأس عند القبر مثل الطواف حوله والنحر[1]
ومن يك اعتكافه تعظيما للقبر أضحى مشركا ظلوما
أو موهما لسائر العوام جوازه في ملة الإسلام
ليستمد الرشد والهداية من صاحب المقام والولاية
لأن هذه كلها عبادة لا يمتري فيه ذوو الشهادة
ومن يكفر مسلما فقد كفر من غير برهان على الكفر ظهر
كمن ينادي مسلما يا كافر أو يا يهودي فكفر ظاهر[2]
لأنه قد حول الإسلاما كفرا وسمى نوره ظلاما
أو قال لا أقبل حكم الشرع أو زعم شرع الكفر خير شرع
أو قال إن المرسلين خانوا أو كتموا أو غيروا أو مانوا
أو ليس هذا الشرع يكفي الخلقا أو ما ينافيه يراه حقا
فكل ذا كفر صريح معتبر فافهمه واهجر من تولى وكفر

(١) إن بعض العامة إذا التمس الولد منهم ، فإنه يذهب إلى بعض القبور وينذر لصاحبه - إن هو حظي بولد ذكرا كان أو أنثى - بقربة لا يجوز التقرب بها إلا إلى الله تعالى ، فمن ذلك أنهم يقولون : يا شيخ فلان بفضلك ومقامك عند الله ، أنذر لك بربع رأس ابني أو ابنتي إن عاش وسلم من الآفات .

فإذا بلغ الطفل السابعة من عمره ، ذهب به أبواه المشركان إلى ضريح المنذور له ، فحلقا رأسه ، وجعلا في شعره من أنواع الطيب شيئاً كثيراً ودفناه إلى جانب القبر ، وذبحا هناك كبشا يتحريان سلامته أكثر مما يتحريانها لذبحه في الأضحية والعقيقة ، وإذا كان الولد أنثى جعلا نصف دفعها حين زواجها لذلك الشيخ الصالح ، وينفقانه عليه في إقامة الحضرات ، وتسريج قبته وضريحه ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

(٢) في الحديث الشريف ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا قال الرجل لأخيه يا كافر ، فقد باء بها أحدهما . رواه أحمد والبخاري .

والمعنى : أنه إذا كان القائل صادقاً وإلا فهو كافر ، كما يشهد له حديث من كفر مسلماً فهو كافر .

القسم الثالث
توحيد الأسماء والصفات

وهو اعتقاد ثبوت ما وصف الله به نفسه ، أو وصفه به رسوله ﷺ ، كالعلم والقدرة والإرادة ونحوها ، ولم يقع في هذا خلاف في القرن الأول ، بل كانوا مطبقين على ذلك كما ستعرفه إن شاء الله تعالى من الأبحاث الآتية ، وإنما وقع النزاع في أوائل القرن الثاني .

أول من عرف عنه القول بنفي الأسماء والصفات :

وأول من عرف عنه القول بنفي الأسماء والصفات هو الجهم ابن صفوان ، تابعاً للجعد بن درهم .

وفي أوائل المائة الثالثة فشت هذه المقالة ، وكان المتصدر لنشرها والدعوة إليها بشر المريسي ـ في عصر المأمون ـ وأحمد بن أبي دؤاد .

والقدرية من حيث رأيهم في القدر كانوا أسبق من الجهم ، لأنهم أخذوا مذهبهم من غيلان القدري ، ثم من معبد الجهني ، ولكن في نفي الصفات وإنكار الرؤية وافقوا جهماً ، كما وافقه كثير من الشيعة والخوارج والأشعرية ، لكن في بعض الصفات لا في كلها ، وعرف هؤلاء باسم المتكلمين .

وقد جرت بينهم وبين الأثريين حملات كلامية ، ولكل منهما أحزاب وشيع يعادي بعضهم بعضاً ، ويسمه بالفسق والضلال أو الكفر والمروق ، وكثرت الردود من الجانبين .

حكم من أول في الصفات :

والحق الذي لا ينبغي العدول عنه ، أن من كان مؤمناً بالله والملائكة والكتب والنبيين واليوم الآخر ، ومقراً بفرضية شرائع الإسلام الظاهرة كالصلاة والصيام والزكاة والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومعتقداً تحريم ما علم تحريمه من الدين بالضرورة كحرمة الزنا والربا وشرب الخمر ، ولكن مع هذا قد أول في الصفات ـ بزعم التنزيه ـ كما فعلت الجهمية والقدرية ، أو أنكر القدر بالمعنى المعروف ـ وهو تقدير الله للخير والشر ـ بعد الإقرار بأن الله عالم بما كان وما يكون ، أو أنكر الرؤية مؤولا للآيات بزعمه تنزيه الله عن مماثلة المخلوق ، فهذا مع كونه مخطئاً وضالا لا ينبغي تكفيره ، لأنه لم يكن معانداً لله ولا للرسول ، إلا أن يكون داعية ، فقد تحرر من كلام أهل العلم .

« إن المقلد في نفي الصفات ، أو نفي الرؤية ، أو خلق القرآن ، فاسق » .

« والداعية كافر » .

واختار الموفق عدم كفره لقول الإمام أحمد للمعتصم : يا أمير المؤمنين .

فصـــــل

ما يجب لله ، وفي ما يجوز ، وما يستحيل

أول [1] واجـب عـلى الأنـام معرفة الإلـه ذي الإنعـام
من واجـب وجائز وممتنـع كذا لرسـله الكرام فاتبـع

ش : أول واجب على العبد معرفة الله شرعاً[2] لا عقلا ـ كما زعمت المعتزلة ـ وهي أسمى المعارف وأجلها ، وهي الأساس الذي تقوم عليه الحياة الروحية كلها .

ولا يستـطيـع المخلوق مهما بلغ من العلم الوقوف على كنه حقيقة الإله ، فأين الطريق الموصل لتلك المعرفة الواجبة ؟ .

الجـــواب : لنا طريقان نصل بهما للمعرفة بالله .

الأول : المعرفة عن طريق العقل بالتأمل والنظر والتفكير في هذه المخلوقـات العـظام والآيـات الجسـام ، كالسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والكواكب والبحار والأشجار ، وما إلى ذلك من المخلوقات المنادية على وجود ربنا وخالقنا .

لأن العاقل إذا نظر إلى هذه الموجودات هداه نظره وعقله إلى أنها لابد لها من خالق ، وقد سبق في شرح توحيد الربوبية بيان هذا المرام بأبسط مما في هذا المقام .

---

(١) أقسام الحكم العقلي ثلاثة : الوجوب ، والجواز ، والاستحالة ، فبدأ بالوجوب ثم الجواز ثم الإستحالة .

(٢) وقال بعض الأشعرية : إن وجوب معرفة الله بالعقل والشرع معاً .

الثاني : نعرفه بأسمائه وصفاته الحسنى المذكورة في القرآن والسنة ، لأن الأسماء والصفات هي الوسائل التي تعرف الله بها إلى خلقه ، وهي النوافذ التي يطل منها القلب على الله مباشرة ، وهي التي تحرك الوجدان ، وتفتح أمام الروح آفاقاً فسيحة ، تشاهد فيها أنوار الله وجلاله .

ولاسيما الأسماء الحسنى التي أمرنا أن ندعوه بها ، كما في قوله تعالى : (**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها**)[1] .

روى البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « إن لله تسعة وتسعين اسما [2] ، من حفظها[3] دخل الجنة ، وإن الله وتر يحب الوتر » .

---

(١) الأعراف : ٨٠ .

(٢) ١ ـ هو الله الذي لا إله إلا هو . ٢ ـ الرحمن . ٣ ـ الرحيم . ٤ ـ الملك . ٥ ـ القدوس . ٦ ـ السلام . ٧ ـ المؤمن . ٨ ـ المهيمن . ٩ ـ العزيز . ١٠ ـ الجبار . ١١ ـ المتكبر . ١٢ ـ الخالق . ١٣ ـ الباريء . ١٤ ـ المصور . ١٥ ـ الغفار . ١٦ ـ القهار . ١٧ ـ الوهاب . ١٨ ـ الرزاق . ١٩ ـ الفتاح . ٢٠ ـ العليم . ٢١ ـ القابض . ٢٢ ـ الباسط . ٢٣ ـ الخافض . ٢٤ ـ الرافع . ٢٥ ـ المعز . ٢٦ ـ المذل . ٢٧ ـ السميع . ٢٨ ـ البصير . ٢٩ ـ الحكم . ٣٠ ـ العدل . ٣١ ـ اللطيف . ٣٢ ـ الخبير . ٣٣ ـ الحليم . ٣٤ ـ العظيم . ٣٥ ـ الغفور . ٣٦ ـ الشكور . ٣٧ ـ العلي . ٣٨ ـ الكبير . ٣٩ ـ الحفيظ . ٤٠ ـ المقيت . ٤١ ـ الحسيب . ٤٢ ـ الجليل . ٤٣ ـ الكريم . ٤٤ ـ الرقيب . ٤٥ ـ المجيب . ٤٦ ـ الواسع . ٤٧ ـ الحكيم . ٤٨ ـ الودود . ٤٩ ـ المجيد . ٥٠ ـ الباعث . ٥١ ـ الشهيد . ٥٢ ـ الحق . ٥٣ ـ الوكيل . ٥٤ ـ القوي . ٥٥ ـ المتين . ٥٦ ـ الولي . ٥٧ ـ الحميد . ٥٨ ـ المحصي . ٥٩ ـ المبديء . ٦٠ ـ المعيد . ٦١ ـ المحيي . ٦٢ ـ المميت . ٦٣ ـ الحي . ٦٤ ـ القيوم . ٦٥ ـ الواجد . ٦٦ ـ الماجد . ٦٧ ـ الواحد . ٦٨ ـ الصمد . ٦٩ ـ القادر . ٧٠ ـ المقتدر . ٧١ ـ المقدم . ٧٢ ـ المؤخر . ٧٣ ـ الأول . ٧٤ ـ الآخر . ٧٥ ـ الظاهر . ٧٦ ـ الباطن =

وليس في وسع البشر ـ كما قلنا ـ معرفة كنه الحقيقة الإلهية ، لهذا لما سأل بعض المشركين النبي ﷺ عن حقيقة الإله : أمن حديد أم من نحاس أم من ذهب ظناً منهم أنه من جنس آلهتهم الباطلة ؟ ، فأنزل الله على نبيه جوابهم بقوله تعالى : (**قل هو الله أحد ، الله الصمد**[1]) ، فأجابهم بصفاته .

فإنه تعالى يقول : قل يا محمد : أدعوكم إلى عبادة إله موصوف بالأحدية والصمدية وعدم الكفء له .

ومعلوم أن القلب يؤله من تلك صفاته .

فإن قال ملحد : هذا الرب الذي تدعون أنه خالق هذا الكون ، وأنه المعبود لم يره أحد ، ولا يدرك بإحدى الحواس الخمس ، فكيف يمكننا الإقرار بهذا الرب ؟

الجواب :

أولا : قد قلنا غير مرة : إن كل مخلوق لابد له من خالق ، وكل صنعة لابد لها من صانع ، فكيف بهذا الكون العظيم ؟ .

ثانياً : إن من المسلم به لدى العقلاء أنه لا يسوغ للشخص إنكار ما لا يدركه بحواسه ، فكل شخص لابد أن يقر أن أباه وطأ أمه ، وأنها ولدته ، فهل أحس بشيء من ذلك ؟ .

= ٧٧ ـ الوالي . ٧٨ ـ المتعالي . ٧٩ ـ البر . ٨٠ ـ التواب . ٨١ ـ المنتقم . ٨٢ ـ العفو . ٨٣ ـ الرؤوف . ٨٤ ـ مالك الملك . ٨٥ ـ ذو الجلال والإكرام . ٨٦ ـ المقسط . ٨٧ ـ الجامع . ٨٨ ـ الغني . ٨٩ ـ المغني . ٩٠ ـ المانع . ٩١ ـ الضار . ٩٢ ـ النافع . ٩٣ ـ النور . ٩٤ ـ الهادي . ٩٥ ـ البديع . ٩٦ ـ الباقي . ٩٧ ـ الوارث . ٩٨ ـ الرشيد . ٩٩ ـ الصبور جل جلاله .

(٣) أي : وعاها واستحضر معناها ، واستشعر في نفسه آثارها .

(١) الإخلاص : ١ ، ٢ .

كما يعرف أنه ولد صغيرا ، وربي بالتغذية والحضانة ، فهل أحس بشيء من ذلك ؟

ويعرف كثيراً من المدن ولم يرها ، ولم يدركها بحواسه ، فهل يمكنه الإنكار ؟

وهـذا عالم الميكـروبـات قد كان خفياً ، واكتشف من عهد قريب ، فهل يمكن أن يقال : إنه لم يكن فيما سلف من الأزمان ؟

وبالجملة : فمنكر هذه الضروريات أحق باسم الجنون عن اسم العقل .

هل معرفته فطرية ، أم نظرية ؟

قد رجح كثير من السلف أن معرفته تعالى ممكنة بالفطرة ، أي : بلا استدلال ولا نظر ، بمعنى أنه لو ولد إنسان بعيداً عن الناس ، ولم تفسد فطرته بتعليم أبويه أو البيئة التي يعيش فيها ، لأمكن أن يعرف الله بفطرته الصافية بمساعدة عقله ونظره وتفكره فيما خلق الله .

وقال بعضهم : أول واجب النظر الموصل إلى المعرفة [١] .

وقال البعض : من فسدت فطرته بتقليد آبائه وقومه ونحو ذلك ، وجب عليه النظر الموصل للمعرفة ، ومن لا ، فلا .

وحيث قلنا سابقاً : إن الأسماء والصفات هي التي تعرف الله بها إلى خلقه ، وكان هذا الفصل معقوداً لما يجب وما يجوز وما يستحيل ، فإلى القارىء الآن بيان ذلك :

فالواجب : ما لا يصح تجرده ومفارقته كالعلم والقدرة .

والمراد بالجائز : ما استوت الكفتان ، خلق العالم وعدم خلقه .

والمراد بالممتنع : المستحيل ، وهو ما لا يصح اتصافه به كالجهل والعجز .

---

(١) **قال في شرح الطحاوية** : الصحيح أن أول واجب يجب على المكلف شهادة أن لاإله إلا الله ، لا النظر والقصد إلى النظر ولا الشك ، كما هي أقوال لأرباب الكلام المذموم ، بل أئمة السلف كلهم متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان ، ومتفقون على أن من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتجديد ذلك عقيب بلوغه ، بل يؤمر بالطهارة والصلاة إذا بلغ أوميز عند من يرى ذلك . اهـ .

وهذا القول من الوجاهة بمكان لا يخفى ، والحديث الصحيح : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .. » صريح في ذلك .

حصر الصفات في عدد معلوم من بدع القوم

فواجب محتم نعتقد / بأنه الرب العظيم الأحد
ليس له كفء ولا مثيل / معبودنا سبحانه الجليل
في الذات والصفات والأفعال / الملك القدوس ذو الجلال
متصف بأحسن الصفات / كما أتى في محكم الآيات
وفي الأحاديث عن المختار / تلك التي صحت لدى الأبرار
لا تحصر الصفات في عشرينا / بل آمنا بما أتى يقينا
فحصرها في عدد معلوم / من بدع القوم من المعلوم
إليك من صفات ذي الآلاء / مقدماً العشرين بالإحصاء
وبعدها بعض صفات الباري / مما أتى في الآي والأخبار
وهي التي أولها من قد خلف / فحاد عن نهج الصواب وانحرف

ش : لما ذكرنا أول واجب على العبد ، وهو معرفة الله ، وبيّنا الطريقين الموصلين إلى معرفته تعالى ، شرعنا الآن في بيان الواجب من قسميه وهو : الجائز والمستحيل كما سبق تعريفهما .

فنقول :

إنه يجب على كل شخص أن يعتقد بربنا العظيم ، خالقنا من العدم ، ورازقنا بأصناف النعم ، الذي ليس له كفء ولا شريك ولامثيل ، لا في الذات، ولا فى الصفات ، ولا في الأفعال .

وهو الملك في الدنيا والآخرة ، القدوس ذو العظمة والجلال ،

المتصف بأحاسن الصفات التي جاءت بها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة .

وسيأتي إن شاء الله تعالى بيان كثير منها .

فصفاته جل جلاله لا تعد ولا تحصى ، فعليك أن تؤمن بما جاء في القرآن من صفاته ، وبما جاء عن رسول الله ﷺ ، من غير تكييف ولا تمثيل ، ولا تشبيه ولا تأويل ، ولا تحصر صفاته في عشرين صفة ـ كما تقول الأشاعرة ـ ، بل آمن أيها المسلم وأذعن بكل صفة ثابتة لله تعالى ، فحصرها في عشرين من بدع الخلف .

قال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ : آمنت بالله ، وبما جاء عن الله ، على مراد الله ، وآمنت برسول الله ﷺ ، وبما جاء عن رسول الله ﷺ ، على مراد رسول الله ﷺ . ا . هـ :

وهكذا قول سائر الأئمة : لا يحصرون الصفات ، ولا يكيفونها ، ولا يمثلونها .

وليس للخلف دليل على حصر الصفات في عشرين ، بل القرآن والسنة يردان ذلك الحصر المزعوم ، ولكن لما عربت الكتب اليونانية [1] الفلسفية ، واشتغل بها قوم من علماء المسلمين ، وتشبعوا بمبادئها ، ورسخت في أذهانهم قواعدها ، نظروا فوجدوا أن هناك آيات وأحاديث تنص على صفات لله سبحانه وتعالى ، وبحسب ما قرأوا وفهموا من تلك العلوم أن هذه الصفات لا تنبغي أن تكون لله ، ذلك الإله الذي تصوروه بحسب معلوماتهم الفلسفية ، فبقوا متحيرين بين الكفر بالله وبين الإيمان ، فقالوا : لابد من التوفيق بين القرآن وبين معلوماتهم العقلية .

وعند ذاك اختاروا منهج التأويل لآيات الصفات زاعمين

---

(١) في أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية ، لاسيما في زمن المأمون .

تنـزيهـه عن مشـابهة المخلوقات ، واتخذوا المجاز مطية لهم[1] ، وأسسوا قاعدة هي : إذا تعارض العقل والنقل ، قدم العقل على النقل .

وبهذه الأقاويل الساقطة والشبه الواهية ردوا آيات الصفات ، وقابلوها بالتأويلات الباطلة .

وأما الأحاديث : فردوا أكثرها بحجة أنها آحاد لا تعارض القطعي .

---

(١) زاعمـين أنهم بذلك قد وفقوا بين العقل ـ أي علومه التي استقوها من منابع الفلسفـة ومصادر اليونان ـ وبين النقل : وهو القرآن وبعض الأحاديث التي آمنوا بها ، وادعوا أن العقل يلجؤهم إلى التأويل ، لأنه لا يسوغ ظواهر تلك الآيات والأحاديث ، لأنها يفهم منها مماثلته للمخلوقات .

وغـاب عنهم أن الشرائع لا تأتي بمحالات العقول ، بل تأتي بما تسلم به العقـول أو تحـير فيـه ، وأن قوله تعالى : (**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**) يرد صدر الآية وهو : (**ليس كمثله شيء**) على من يمثل الله بخلقه ، ويثبت بقوله تعالى : (**وهو السميع البصير**) الصفتين الواردتين في الآية ، وينفي قول المعطلة الذين زعموا أنهم قد وفقوا بين العقل والنقل .

بيـان العشرين صـفة
على رأي الأشاعرة

واحدة نفسية ، وخمس سلبية ، وسبع معاني ، وسبع معنوية .

وسنبينهـا ـ إن شاء الله تعالى ـ على طريقة أهل الكلام ، ونقفيها بالنقد وبيان الصحيح من غيره ، لكي يفهم القاريء إذا قرأ الكتب الموضوعة في هذا الفن اصطلاحاتهم ، وما يعنون بهذه الصفات ، ولا مشاحة في مجرد الاصطلاح ولا ضرر في ذلك .

له الوجود[1] وهي النفسية — وخمسة قد زعموا سلبية[2]
أولهـا البقاء ثم القدم — مخالف لحادث فلتعلمـوا
قيامـه بالنفس وحدانيـة — فربنـا صفاتـه عليـة
إليك نقـد قولهم فيما يلي — بوأك الله رفيع المنزل
قدمـه وقولـهم قـديم — ما قـاله نبينـا الكريم
لكن هـو الأول في القرآن — وسـنة المختـار من عدنان
مخالف لحـادث مبتـدع — ليس كمثـله هـو المتبـع
قيامـه بالنفس ما قد وردا — عن ربنـا أو النبي أحمـدا
لكن هو القيوم في الكتاب — فاسـلك هديت منهج الصواب

(١) أي : يجب له الوجود الذاتي ، بحيث يستحيل في العقل عدمه .

(٢) وسميت هذه الصفات الخمس بالصفات السلبية لاعتبار السلب في مفهومها .
فالمعتبـر في مخـالفتـه للحـوادث ـ على حد تعبيرهم واصطلاحهم ـ سلب مشابهته تعالى لمخلوقه في الحدوث وغيره ، وفي البقاء سلب الآخرية لوجوده ، أي عدم ذلك ، وهكذا الـكلام في البقية .

الصفة النفسية والصفات السلبية[1] :

ش : معنى النفسية : كونها منسوبة إلى نفس الشيء وذاته ، فهي من حيث أنها صفة مغايرة للذات ، ومن حيث الحقيقة متحدة ، أي : هي نفس الذات .

والبقاء : هو امتناع لحوق العدم ، إذ لو جاز عليه العدم ، لاستحال عليه القدم .

---

(١) **صفات الله تنقسم إلى قسمين : ثبوتية وسلبية** .

فالثبوتية : ما أثبته الله تعالى لنفسه في كتابه ، أو على لسان رسوله الله صلى الله عليه وسلم ، وكلها صفات كمال ، لا نقص فيها بوجه من الوجوه ، كالحياة ، والعلم ، والقدرة ، والاستواء على العرش ، والنزول إلى السماء الدنيا ، والوجه ، واليدين ، ونحو ذلك .

فيجب إثباتها لله تعالى حقيقة على الوجه اللائق به بدليل السمع والعقل .

أما السمع : فمنه قوله تعالى : (**يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً**) .

فالإيمان بالله يتضمن الإيمان بصفاته ، والإيمان بالكتاب الذي نزل على رسوله يتضمن الإيمان بكل ما جاء فيه من صفات الله ، وكون محمد صلى الله عليه وسلم رسوله يتضمن الإيمان بكل ما أخبر به عن مرسله وهوالله عز وجل .

وأما العقل : فلأن الله أخبر بها عن نفسه ، وهو أعلم بها من غيره ، وأصدق قيلا ، وأحسن حديثاً من غيره ، فوجب إثباتها له كما أخبر بها من غير تردد ، وقد سبقت الأدلة العقلية في الشرح فلا حاجة إلى الإعادة .

والصفات السلبية : ما نفاه الله عن نفسه في كتابه ، أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، وكلها صفات نقص في حقه ، كالموت ، والنوم ، والجهل ، والعجز ، والتعب ، فيجب نفيها عن الله مع إثبات ضدها على الوجه الأكمل ، لأن النفي المحض الذي لا يتضمن صفة ثبوتية لا يأتي القرآن والحديث به ، لأن النفي ليس بكمال إلا أن يتضمن ما يدل على الكمال ، وذلك لأن النفي عدم ، والعدم ليس بشيء ، فضلا عن أن يكون كمالا ، ولأن النفي قد يكون لعدم قابلية المحل له كما لو قلت مشيراً لجماد : هذا لا يظلم ، وقد يكون للعجز كما لو أشرت إلى جبان ، فيكون نقصاً وليس بكمال .

قال اللقاني :

وكل ما جاز عليه العدم عليه قطعاً يستحيل القدم [1]

والقدم : أي لا أول لوجوده ، وإلا لكان من غيره ، فيفتقر إلى موجد ، فيلزم التسلسل ، وهو محال .

= ومثال النفي المتضمن لإثبات ضده قوله تعالى : (**وتوكل على الحي الذي لايموت**) ، فنفي الموت عنه يتضمن كمال حياته .

وقوله تعالى : (**وما كان الله ليعجزه شيء في السموات والأرض**) ، فنفي العجز عنه يتضمن كمال علمه وقدرته ، لهذا قال بعده : (**إنه كان حليماً قديراً**) .

وقد سبق في الشرح الأدلة العقلية على الصفات السلبية .

والصفات الثبوتية تنقسم إلى قسمين: ذاتية وفعلية .

فالذاتيـــة : هي التى لم يزل ولا يزال متصفـاً بهـا ، كالعلم ، والقـدرة ، والسمــع ، والبصر ، والعزة ، والحكمة ، والعلو ، والعظمة ، ومنها : الصفات الخبرية ، كالوجه ، واليدين ، والعينين .

والفعلية : هي التي تتعلق بمشيئته ، إن شاء فعلها ، وإن شاء لم يفعلها ، كالاستواء على العرش ، والنزول إلى السماء الدنيا .

وقد تكون الصفة ذاتية فعلية باعتبارين كالكلام ، فإنه باعتبار أصله صفة ذاتيـة ، لأن الله تعـالى لم يزل ولا يزال متكلما ، وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية ، لأن الكلام يتعلق بمشيئته ، يتكلم متى شاء بما شاء كما في قوله تعالى : (**إنمـا أمـره إذا أراد شيئـاً أن يقول له كن فيكون**) ، وكل صفة تعلقت بمشيئته تعالى ، فإنها تابعة لحكمته ، وقد تـكون الحكمة معلومة لنا ، وقد نعجز عن إدراكها ، لـكننا نعلم علم اليقين أنه سبحانه لا يشاء شيئاً إلا وهو موافق للحكمة ، كما يشير إليه قوله تعالى : (**وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيماً**) .

(١) **وهنا قال الشيخ البيجورى ـ رحمه الله ـ تحت قوله** : « وكل ما جاز عليه العدم » : أى وكل شيء جاز عليه العدم ، أى الفناء عليه قطعاً يستحيل القدم ، أى ما جاز عليه العدم يمتنع عليه القدم جزماً من غير تردد .

وقـد أشار المصنف ـ يعنى اللقاني ـ إلى قياس تركيبه هكذا : العالم من عرشه لفرشه جائز عليه العدم ، وكل ما جاز عليه العدم استحال عليه القدم =

ومعنـاه عنـد المتكلمـين : أن الله تعالى مخالف لغيره من المخلوقين في صفاته وأفعاله ، بمعنى أن ليس له شبيه ولا نظير في الصفات والأفعال .

ومعنى قيـامه بالنفس : أنه لا يفتقر إلى ذات يقوم بها ، كصفـات المعـاني والمعنـوية ، فإنها مفتقرة إلى ذات تقوم بها ، والدليل السمعي على ذلك قوله تعالى : **(هو الحي القيوم)** .

والبرهان العقلي أن يقال : لو لم يكن قائماً بنفسه ، لكان قائمـاً بغـيره ، فيكـون صفـة ، ولو كان صفـة لم يكن متصفاً بالصفات ، وقد ثبت أنه متصف بها .

فينتج ما قلنا ، أي : قيامه بالنفس .

= فينتج هذا المقياس : إن العالم من عرشه إلى فرشه استحَال عليه القدم ، فثبت حدوثه ، وإذا ثبت حدوثه ، فلابد له من محدث وهو المطلوب ، لأن أصل الكلام في النظر الموصل لمعرفة الله ، فطوى المصنف الصغرى ـ يقصد بقوله الصغرى ـ : العالم من عرشه لفرشه جائز عليه العدم ، وذكر الكبرى بقوله : وكل ما جاز عليه العدم .. إلخ .

والحاصل : أنك تثبت أولا حدوث الأعراض بمشاهدة تغيرها من عدم إلى وجود وعكسه ، فنقول : الأعراض شوهد تغيرها من عدم إلى وجود وعكسه ، وكل ما هو كذلك فهو حادث ينتج أن الأعراض حادثة .

ثم نثبت حدوث الأجـرام واستحـالة القـدم عليهـا بمـلازمتهـا للأعراض الحادثة ، فنقول : الأجرام ملازمة للأعراض الحادثة ، وكل ما كان كذلك فهو حادث ، ويستحيل عليها القدم ، فينتج أن الاجرام حادثة ، ويستحيل عليها القدم . ا هـ .

هذا الـكلام الطويل العريض ـ المبني على قواعد المناطقة ـ يقصد به إثبات الخالق ، وأنه الموجد للأكوان كلها ، وأن العالم حادث ، وقد سبقت الأدلة بما أغنى عن هذا القياس المنطقي ، لكن لا بأس بذلك أن يخاطب من لا يفهم إلا بمثل هذه الأقيسة ، ولكن العجيب الغريب في قول الشيخ البيجوري بعد هذا الكلام : واعلم أن لهم هنا مطالب سبعة نظمها بعضهم في قوله :

زيـد ما قام ما انتقـل ماكمـنـا   ما انفـك لا عدم قديم لاحنـا

=

= فشرح هذا البيت بما يلي :

فقوله : زيد رد لقول الفلاسفة : لا نسلم ثبوت زائد عن الأجرام حتى يصح الاستدلال على حدوث الأجرام ، ودليل ثبوت الزائد الذي هو العرض المشاهدة .

وقوله : ما قام بحذف ألف ما للوزن رد لقولهم : لا نسلم عدم العرض بجواز أنه يقوم بنفسه إذا لم يتصف بالجرم ، ودليل أنه لا يقوم بنفسه أنه لا يعقل صفة من غير موصوف ، فلا تعقل حركة من غير محرك .. إلخ ما ذكره في شرح البيت .

وختم شرح هذا البيت بقوله : وهذه المطالب السبعة لا يعرفها إلا الراسخون في العلم ، ويقصد ـ والله أعلم ـ علم الفلسفة والمنطق .

قال السنوسي : وبها ينجو المكلف من أبواب جهنم السبعة أ . هـ .

قف أيها القارىء ، وتأمل كيف ينطق الشيخ السنوسي بهذا ، ويسجل هذا الكلام المخالف للقرآن والسنة ؟ وكيف يورد الشيخ البيجوري هذه العبارة الغير معقولة ، ولا يعقب عليها باستدراك أو ملاحظة ؟

وهل نجاة المكلف موقوفة على أن يعرف هذه المطالب الفلسفية السبعة ؟ أم أن النجاة تكون بالإيمان وبالأعمال الصالحة الموافقة للكتاب وللسنة ، وبترك الشرك والذنوب والموبقات ؟ وما أدري كيف يصدر هذا الكلام من علماء أجلاء ، ويكتبونه في كتبهم التوحيدية ، تلك الكتب التي يزعمون بها أنهم أقاموا الأدلة على توحيد الله والصفات الواجبة له والجائزة والمستحيلة ؟ والآيات القرآنية أكثر من أن تحصى في بيان السعيد والشقي ، ومن يدخل الجنة ، ومن يدخل النار ،وعلى سبيل المثال لا على سبيل الحصر اقرأ قول الله تعالى في سورة السجدة : (**أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون ، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون ، وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون**) . الآيات ١٨ ـ ١٩ ـ ٢٠ .

وهنا قد يعترض مدافع عن الشيخين السنوسي والبيجوري بما معناه : إن الأعمال الصالحة لا تفيد إلا بالإيمان ، وأصل الإيمان معرفة الله ، وهذه الأدلة للاستدلال على أن الله تعالى هو الخالق ، وأن العالم حادث بما فيه ، فمن هنا تبرز أهمية هذه المطالب السبعة ، ويسلم الشيخان من الاعتراض ؟

والجـــواب : إن البراهين النقلية والعقلية على إثبات وجود الله سبحانه =

ومعنى الوحـدانيـة : أنـه لا نظير له في الذات والصفات والأفعال ، والدليل على ذلك قوله تعالى : (**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**)[١] .

وقـد أطلق المتكلمون عليه سبحانه وتعالى صفة القدم [٢] ، ومخـالفته للحوادث ، وقيامه بالنفس ،وهذه الثلاثة بهذه الألفاظ مبتدعة ، حيث أنها لم ترد في الكتاب ولا في السنة[٣] .

= وتعالى وخالقيته وحدوث العالم أكثر من أن تحصر ،وألفت فيها الكتب العديدة ، وقد ذكرت سابقاً بعض الأدلة الكافية ، فلا حاجة إلى هذه المطالب .

فإن قالوا : إن هذه من الأدلة التى يسلم بهـا الخصم المنكـر لوجود الله وخالقيته ، فنقول : لا بأس ، ولكن كون أن النجاة من النار متوقف على هذه المطالب السبعة غير مسلم به ، وهو محل النقد والاعتراض . وبالله التوفيق .

(١) الشورى : ١١ .

(٢) **قال في شرح الطحاوية** :

وقـد أدخـل المتكلمـون في أسمـاء الله القديم ، وليس هو من أسماء الله الحسنى ، فإن القديم في لغة العرب التي نزل بها القرآن هو المتقدم على غيره .

فيقال : هذا قديم للعتيق ، وهذا حديث للجديد ، ولم يستعمل هذا الاسم إلا في المتقـدم على غيره ، لا فيمـا لم يسبقه عدم ، كما قال تعالى : (**حتى عاد كالعرجون القديم**) .

والعرجون القديم يبقى إلى حين وجود العرجون الثاني ، فإذا وجد الحديث قيـل للأول قديم ، قال تعـالى : (**وإذا لم يهتـدوا به فسيقولون هذا إفك قديم**) ، أي متقدم في الزمان .

إلى أن قال : وجاء الشرع باسم الأول ، وهو أحسن من القديم ، لأنه يشعر بأن ما بعده آيل إليه وتابع له بخلاف القديم ، والله له الأسماء الحسنى ا هـ .

نعم باب الأخبار أوسع من باب الأسماء والصفات ، فمن باب الأخبار يجوز أن يقال : إنه قديم وموجود وباق ، ولكن عدها في أسمائه تعالى لا يجوز لعدم ورودها .

(٣) أما القدم فقد بينت في الشرح وفي التعليق أنه لم يرد ، وإن كان معناه لا أول لوجوده ،ولكن الأولى أن يقال : هو الأول والآخر ، وأما مخالفته للحوادث وإن كان قصدهم عدم مشابهته للمخلوقات في صفاته وأفعاله ، لكن الذي وصف الله =

والقول المختار لدى السلف والخلف أن أسماء الله وصفاته توقيفية .

قال اللقاني - رحمه الله - .

واختير أن أسماءه توقيفية كذا الصفات فاحفظ السمعية

وقال السفاريني - رحمه الله - في الدرة المضيئة :

لكنها في الحق توقيفية لـنا بـذا أدلـة وفيـة

فالأولى إطلاق الصفة الواردة ، فأما القدم وإن كان معناه عندهم أن لا أول لوجوده ، ولكن الوارد في القرآن والحديث هو الأول والآخر .

= به نفسه أنه كما قال تعالى : (**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**) . وفرق بين العبارتين ، لأن عبارة المتكلمين مخالف لغيره ، والقرآن فيه أن أحداً من المخلوقين لا يماثله ولا يكافئه ، فلم يكن اللفظان مترادفين حتى يلزم من صحة إطلاق أحدهما صحة إطلاق الآخر .

وهناك فرق آخر : فإن الظاهر من المخالفة للحوادث أن ما ثبت للمخلوقين من الصفات كالقدرة والعلم والسمع والبصر لا يصح أن يثبت للخالق وليس ذلك مراداً ، فقد ثبت للخالق سبحانه صفات كثيرة ، وثبت للمخلوق ما يناسبه من تلك الصفات ، فللخالق قدرة لا يقف في سبيلها شيء ، وللمخلوق استطاعة محدودة ، وللخالق علم شامل محيط ، ولم يؤت المخلوق من العلم إلا قليلا وهكذا ، ومن ذلك تعلم أن قول بعض المتكلمين : « كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك » غير صحيح باعتبار ظاهره الذي يفهم منه ، كيف ويخطر ببالنا كمالات لله تعالى ؟ ، فالمخلوق وإن ثبت له صفات مشتركة في لفظها مع صفات الرب ، لكن صفاته دون صفاته ، وقد فهم الراغب في قول الله تعالى : (**ليس كمثله شيء**) أن المثل يطلق على الصفة ، ومعناه ليس كصفته صفة ، تنبيها على أنه وإن وصف بكثير مما يوصف به البشر ، فليست تلك الصفات له على حسب ما يستعمل في البشر ، وقوله تعالى : (**للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى**) ، أى لهم الصفات الذميمة ، وله الصفات العلى ا - هـ .
(الشرح الجديد لجوهرة التوحيد) للعلامة محمد أحمد العدوي .

ومخالفته للحوادث لم يرد في القرآن المجيد ولا في سنة النبي ﷺ .

والذي وصف الله به نفسه كما قال تعالى : (**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**)[1] .

وهنـاك فرق بين اللفظ القرآني واللفظ الكلامي ، وبيانه أن الظاهر من المخالفة للحوادث ، أن ما ثبت للمخلوق من الصفات كالقدرة والعلم مثلا لايصح أن يثبت للخالق ، وليس ذلك مراداً .

فقد ثبت للخالق صفات كثيرة ، وثبت للمخلوق ما يناسبه من تلك الصفات ، فللخالق قدرة لا يقف في سبيلها شيء ، وللمخلوق قدرة محدودة .

وللخالق علم شامل محيط ، ولم يؤت المخلوق من العلم إلا قليلا .

ومن ذلك تعلم أن قول بعض المتكلمين : « كل ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك » قول غير صحيح باعتبار ظاهره الذى يفهم منه ، كيف ويخطر ببالنا كمالات لله ؟ !

فالمخلوق وإن ثبت له صفات مشتركة في لفظها مع صفات الرب ، لكن صفاته دون صفاته .

وقيامه بالنفس بالتفسير الذي فسروه ـ وسبق ذكره ـ صحيح المعنى ، ولكن لم يرد إطلاقه عليه لا في كتاب ولا في سنة ـ كما سبق ـ .

والوارد في الكتـاب هو (**الحي القيوم**) ، ومعنى القيوم :

---

(١) الشورى : ١١ .

القائم الحافظ لكل شيء ، والمعطى له ما به قوامه ، وذلك هو المعنى المذكور في قوله تعالى : (**أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت**)[1] .

وقد نبهت في النظم على كون هذه الثلاثة غير واردة بقولي :

إليك نقد قولهم فيما يلي .. إلخ .

(١) الرعد : ٣٣ .

صـفات المعـاني

والعلم والكلام سمع وبصر إرادة ثم الحيـاة واقتـدر
بقدرة تعـرف بالمعـاني وكلـه عنـدهم قسـمان

ش : هذه صفات المعاني[1] ، وإليك بيانها وهي سبعة :

١ - **العلم** : وهـو صفـة أزليـة متعلقـة بجميع الواجبات والجائزات والمستحيلات على وجه الإحاطة من غير سبق خفاء .

والدليـل النقلي على ذلك : قوله تعالى : (**إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو ، وسع كل شيء علماً**)[2] .

وقوله تعالى : (**يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور**)[3] .

وقوله تعالى : (**الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض**

---

(١) إضافة الصفات إلى المعاني بيانية ، أي : صفات هي المعاني ، والمعاني : جمع معنى ، وهو لغة ما قابل الذات ، واصطلاحاً : كل صفة قائمة بموصوف موجبة له حكماً ، ككونه قادراً ، وكونه مريداً ، فإنهما لازمان للقدرة والإرادة ، وهكذا غيرهما .

واعلم أن صفات المعاني ـ لقيامها بالذات ـ تسمى الصفات الذاتية ، وهو ما يوصف الله بها ، ولا يوصف بضدها ، وهي صفات أزلية ـ كما سبق في الشرح ـ ويقابلها الصفات الفعلية ، وهي ما يجوز أن يوصف الله بها وبضدها كالإحياء والإماتة . انتهى من شرح شيخنا الشيخ أحمد نور ـ رحمه الله ـ على منظومته في الفرق الإسلامية .

(٢) طه : ٩٨ .

(٣) غافر : ١٩ .

مثلهن ، يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) [1].

والآيات كثيرة في إثبات صفة العلم له تعالى .

والبرهان العقلي هو أن نقول : إيجاده الأشياء يبرهن لنا على اتصافه بالعلم ، وبيانه أن خلقه الأشياء لابد من إرادة ، والمريد لابد أن يتصور المراد تصوراً تاماً ، ثم يبرزه إلى عالم الوجود .

كما أن من المسلمات تسليماً لا يقبل الجدل : أن في مخلوقاته من هو عالم ، ويستحيل أن يكون واهب العلم فاقده ، وعليه يلزم نقصان الخالق وكمال المخلوق ، وهو باطل .

٢ - **الكلام** : وهو صفة أزلية قائمة بذاته تعالى .

قال أهل الحديث والسنة : إن الله لم يزل متكلماً إذا شاء ، ومتى شاء وكيف شاء .

وفي هذا المقام نزاع طويل ، وسيأتي الكلام عنه في بحث الكلام .

٣ - **السمع** : وهو صفة أزلية قائمة بذاته .

٤ - **البصر** : صفة أزلية قائمة بذاته ، تتعلق بالمبصرات من الذوات والأعراض ، كما أن الأولى تتعلق بالمسموعات من الأصوات ، والدليل عليهما نقلا قوله تعالى :(**وكان الله سميعاً بصيراً**)[2] ، وقوله تعالى : (**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**)[3] .

---

(١) الطلاق : ١٢ .

(٢) النساء : ١٢٤ .

(٣) الشورى : ١١ .

والبرهان العقلي : هو أن كل عاقل يفهم أن فقد هاتين من المخلوق نقص له ، ووجودهما كمال له .

وكل كمال في المخلوق فالله أولى به ، وواهب الشيء لا يكون فاقدا له .

ألا ترى الخليل عليه السلام ـ كما أخبر الله عنه ـ يوبخ أباه بقوله تعالى : (**يا أبت لم تعبد ما لايسمع ، ولا يبصر ، ولا يغني عنك شيئاً**)[1] .

وقال تعالى تبكيتاً لعباد الأصنام : (**هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون**)[2] .

فترى أن في الآيات توبيخاً لقوم يعبدون أصناماً خلت عن هذه الكمالات ، وتجردت عن هذه الخصائص ، وتسفيهاً لأحلامهم .

فدل ذلك : أن المودع في الفطر أن من شأن الإله أن يكون سميعاً يجيب من دعاه ، بصيراً يرى من يعبده .

ولا يسمح عاقل لنفسه أن يعبد إلها أصم ، أو يخضع لإله أعمى ، فوجوب هاتين الصفتين لله تعالى عقلي ، تقضي به الفطر ، وتشهد به الكائنات .

٥ - **الإرادة** : وهي صفة قائمة به تعالى ، تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه ، كالإيجاد والإعدام .

فخرج بالممكن الواجب[3] والمستحيل ، فلا تتعلق الإرادة بهما

---

(١) مريم : ٤٢ .

(٢) الشعراء : ٧٢ ، ٧٣ .

(٣) أقسام الحكم العقلي ثلاثة : الوجوب ، والجواز ، والاستحالة ، فالقدرة والإرادة تتعلقان بالممكن الذي هو الجائز فقط كما لايخفى .

كالقدرة ، لأنها إن تعلقت بإيجاد الواجب أو بإعدام المستحيل لزم تحصيل الحاصل .

وإن تعلقت بإعدام الواجب أو بإيجاد المستحيل لزم قلب الحقائق ، فلا يكون الواجب واجباً ولا المستحيل مستحيلا .

والدليل على إثبات صفة الإرادة : قوله تعالى : (**إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون**)[١] .

والبرهان العقلي : هو أن العقل حاكم أن الضدين بالنسبة إلى القدرة سواء ، فلابد من مخصص ، وإلا لزم ترجيح أحدهما بلا مرجح ، وهذا باطل .

والإرادة قسمان : إرادة قدرية كونية ، وهي الشاملة لجميع الموجودات ، وترادفها المشيئة ، وهي المرادة من قوله تعالى : (**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء**)[٢] .

وقوله تعالى عن نوح عليه السلام : (**ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم**)[٣] .

وقوله تعالى : (**ولكن الله يفعل ما يريد**)[٤] .

وأما الإرادة الدينية الشرعية ، وهي التي تراد منها المحبة والرضا ، فكقوله تعالى : (**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**)[٥] .

---

(١) يس : ٨٢ .
(٢) الأنعام : ١٢٥ .
(٣) هود : ٢٤ .
(٤) البقرة : ٢٥٣ .
(٥) البقرة : ١٨٥ .

وقوله تعالى : (**ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمتـه عليكم لعلـكم تشكرون**)[1] .

وبـين الإرادتـين عمـوم وخصوص مطلق ، يجتمعان في حق المخلص المطيع ،وتنفرد الإرادة الكونية القدرية في حق العاصي .

٦ - **الحياة** : هي صفة أزلية ذاتية ثبوتية ، وتقتضي صحة العلم والقدرة ، لاستحالة قيامهما بغير الحي .

وفي المخلوق صفة يلزمها قبول الحس والحركة والإرادة .

والدليل النقلي : قوله تعالى : (**الله لا إله إلا هو الحي القيوم**)[2] .

وقوله تعالى : (**وعنت الوجوه للحي القيوم**)[3] .

والبـرهان العقلي : هو أن من كان معترفاً بالإرادة والعلم والقدرة ، يلزمه الاعتراف بالحياة .

لأن تلك الثلاثة لا تقوم إلا بمن كان حياً ، وإلا يلزم أن نقول باتصاف الميت بالقدرة والعلم ، وهذا باطل .

على أن حياته جل وعلا مما اتفق عليه العقلاء .

٧ - **القدرة** : هي صفة أزلية ، تؤثر في المقدورات عند تعلقها بها ، فإنه جل شأنه قادر على جميع الممكنات .

والدليل النقلي : قوله تعالى : (**وهو على كل شيء قدير**) ، وقوله تعالى : (**وكان الله عليماً قديراً**) .

---

(١) المائدة : ٦ .
(٢) البقرة : ٢٥٥ .
(٣) طـه : ١١١ .

والبرهان العقلي : لو لم يكن قادراً لم يمكنه إيجاد العالم من العدم إلى الوجود ، فوجود العالم يدل على قدرته تعالى ، وكل فاعل لابد أن يكون قادراً ، وإلا لم يستحق تلك التسمية(١).

---

(١) والجدير بي أن أذكر شبهة سخيفة ، طالما رددها الملحدون والمنكرون للإله الخالق العظيم ، والمشككون وصغار الطلاب الذين لم يتحصنوا بالتوحيد ، ولم يرسخ الإيمان في قلوبهم رسوخاً من شأنه أن يرفضوا مثل هذه الشبهة الضالة وهي : من خلق الله ؟ .

والرد على هذه الشبهة يكون من وجوه :

١ – هذا السائل عمن خلق الله يناقض نفسه بنفسه من حيث يعلم أو لا يعلم ، فكيف يقر على أنه خالق ، ثم يسأل عمن خلقه ؟ فهل يقبل العقل أن يكون الله خالقاً ومخلوقاً في آن واحد ؟ وهل يمكن أن يتصف الله بالمخلوقية بعد أن أقررنا أنه خالق ؟ ألم يعلم هذا السائل أن المخلوقات من صفات الحوادث ، فكيف نصفه بهذه الصفة ، وننسب إليه ما لا يليق به ؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً .

٢ – لو فرضنا أن الله سبحانه قد خلقه خالق ، وأن الخالق قد خلقه خالق ، سينتهي بنا الأمر حتما إلى الدور والتسلسل .

أما الدور فباطل لما يترتب عليه من التناقض والتهافت .

مثال ذلك أن تقول : إن زيداً أوجد عمروا ، وعمرو أوجد زيداً ، فزيد توقف وجوده على عمرو ، وعمرو توقف وجوده على زيد ، وبهذا المفهوم يكون عمرو سابقا لأنه موجد ، ويكون مسبوقا لأنه موجد ، والشيء الواحد لا يكون سابقاً ومسبوقاً في آن واحد للتناقض الصريح والشيء المستحيل ، إذن فالدور مستحيل ، ومنه قول الشاعر :

مسألة الدور جرت بيني وبين من أحب
لولا مشيبي ما جفا لولا جفاه لم أشب

وأما التسلسل فبطلانه أشد ، لأنه يقتضي ألا يكون هناك خالق لتوقف وجود الخالق على الذي قبله ، والذي قبله على الذي قبله إلى ما لانهاية ، فيلزم من هذا التسلسل اللانهائي أن لا خالق لهذا الكون ، وهذا مستحيل للظواهر الكونية التي تدل على الله كما مر معك ، فثبت بطلان التسلسل لثبوت وجود الله سبحانه .

=

= **ومما يوضح لك بطلان التسلسل هذا المثال** :

تعلمت علم النحو من أستاذك ، وأستاذك تعلمه من أستاذه ، وهكذا إلى أن يصل التسلسل إلى واضع علم النحو ، وهو أبو الأسود الدؤلي ، فلو افترضنا أن السلسلة لتعليم النحو لم تنته إلى ما لا نهاية ، فالعقل يحكم أن علم النحو لم يضعه واضع ، وإذا كان لم يضعه واضع ، فمعنى ذلك أن هذا العلم غير موجود ، ولما كان موجوداً إذاً لابد من واضع قد وضعه .

وهنا جواب آخر ـ يتعلق بمبحث الإرادة والقدرة ـ وهو أن شياطين الإنس والجن يقفون من المؤمن موقف التضليل والتشكيك ، لما يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ، ولما يثيرونه من شبهات وأضاليل ، فمن هذه الشبهات التي يثيرونها : هل يستطيع الله سبحانه أن يخلق إلها مثله ؟

تصوراً منهم بأن المسؤول عن هذا إذا أجاب : بنعم ، احتجوا بذلك أنه ليس لهم أن يكفروا من أشرك مع الله غيره ، وإن أجاب : بلا ، فقد أسندوا إلى الله العجز ، وذلك دليل على أنه ليس بإله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً .

وقبل أن نرد على مزاعم هؤلاء المشككين ، نوضح الحقائق التالية :

من الأمور المسلم بها ـ عقلا وشرعاً ـ أن الله سبحانه متصف بصفتي الإرادة والقدرة ، وأن هاتين الصفتين تتعلقان بالممكنات فقط ، أما الواجب والمستحيل فلا شأن لهاتين الصفتين بهما .

ونقصد أنهما متعلقتان بالممكنات ، أي أن الإرادة والقدرة متعلقتان بكل ما هو ممكن عقلا وثابت شرعاً ، كخلق الكون والحياة والإنسان ، وكل ما يتصل بالكائنات حيها وجامدها ، علويها وسفليها ، إنسها وجنها .

ونقصد أنهما غير متعلقتين بالواجب والمستحيل ، أي أن الإرادة والقدرة غير متعلقتين بكل ما هو واجب على الله عقلا وشرعاً ، كوجوده ، وقدمه ، وبقائه ، ووحدانيته سبحانه ، وغير متعلقتين أيضاً بكل ما هو مستحيل على الله عقلا وشرعاً كوجود إله آخر معه ، ومشابهته تعالى للحوادث .

ولنضرب على ذلك مثلا : الله سبحانه متصف بالوحدانية ، ووحدانيته واجبة له عقلا وشرعاً ، فحينما يأتي إنسان ويقول : هل يقدر ربك أن يخلق إلهاً مثله ؟ ، فنقول له : هذا تناقض ، كيف تكون الوحدانية واجبة عليه ، وقد ثبتت بالأدلة العقلية له والشرعية ، ثم يطرح سؤاله المتهافت المتناقض ؟

إذاً ما معنى أنه قد أوجد إلهاً مثله واجب الوجود ، والإله الواجب الوجود

= يستحيل أن يكون مسبوقاً بعدم ،ويستحيل أن يكون عاجزاً ، ويستحيل أن يخلقه غيره ، ويستحيل أن يطرأ عليه الحدوث ؟ .

فالذي نخلص إليـه بعد ماتقدم : أن القدرة والإرادة تعلقهما بالممكنات فقط ، أما ما كان واجباً له سبحانه ، وما كان مستحيلا في حقه تعالى ، فلا شأن لهاتين الصفتين بهما .

وهذا التساؤل يعود في حقيقته ـ كما يقول الدكتور البوطي ـ إلى حمق من نوع عجيب .

فمن المعلوم أن الذي يقول : هل يستطيع الله سبحانه أن يخلق إلهاً مثله ؟ ينبغي أن يتصـور معنى سؤاله ، ولكي يتصور معناه ينبغي أن يكون له معنى ، بأن يتعلق تساؤله في الخلق والإيجاد بقسم الممكنات فقط .

فأمـا إذا لم يكن للسـؤال معنى ، فلا يمكن أن يكـون له صورة في ذهن السائل ، وإذا كان كذلك ، فإن السؤال لا يسمى حينئذ سؤالا إلا من حيث الصورة والأسلوب ، وأما من حيث الموضوع والمضمون فهو هذيان ، والهذيان لا جواب عليـه ، لا عجـزا عن الإجـابة ، ولكن لأن الإجابة لا تكون إلا على سؤال ، والسؤال لم يولد في الحقيقة بعد .

إن الذي يقـول لك : هل تتكـرم بأن تـكون في هذه اللحظة غائباً عني ، مشاهداً أمامي ؟ هو في الحقيقة لا يقدم لك أى سؤال أو رجاء يطلب الإجابة عـنه ، لأنه هو نفسه لا يعلم ما يريد بالضبط ، وليس في ذهنه أى صورة لهذا الذي يريد ، إن الذي يستوقفك ليقول لك : هل يستطيع الله أن يخلق إلهاً مثله أو شخصاً آخر من هذا القبيل ، ليس بأقل هذيانا ممن يقول : هل تتكرم بأن تـكون في هذه اللحظة غائباً عني مشاهداً أمامي ؟ إنه الهذيان والسخف عين السخف .

أجل ، إن مثل هذا السؤال قد يكون له معنى متخيل وهمي عندما يصدر السؤال من طفل صغير عندما يكون في مرحلة السن السؤول ، وعندئذ فلابد من الحكمة والتلطف والإقناع المناسب .

لابد لك من أن تضع أمامه صورة الإجابة ، وإن لم تكن في الحقيقة جوابا ، كما وضع أمامك صورة السؤال ، وإن لم يكن في الحقيقة سؤالا ، كأن تقول له : الله قادر يا بني على أن يخلق كل شيء ، ولكن شريك الله تعالى ليس شيئاً لأنه محال ، والمحال لايسمى شيئاً . =

= ومن المعلوم أن الذين يثيرون مثل هذه التساؤلات هم من أصحاب المذاهب المادية الملحدة والعقائد الضالة الزائفة ، هدفهم من هذه الاستثارات وإلقاء الشبه زعزعة الإيمان بالله في قلوب الزمرة المؤمنة من الشباب .

فعلى الجيل المؤمن أن يحذر أولئك المهووسين الملحدين ، الذين يجهدون ليلا ونهاراً لزرع التشكيك والتضليل في المجتمعات الإسلامية ، ولكن القلب الموصول بالله ، والنفس الموقنة المطمئنة بإبداعه وعظمته سبحانه ، لا يمكن أن تتأثر بتضليل الملحدين ، ولا بتشكيك الضالين ، وسوف يبقى الإيمان قوياً في نفوس المؤمنين إلى قيام الساعة .

فمن اعتراه شيء من هذا ، أو تحسس بشبهة في نفسه أثارها ملحد ، فليتذكر أنه مخلوق لله ، وأن الله سبحانه وتعالى منزه عن صفات المخلوقين ، ليستعذ بالله ، وليقل : آمنت بالله ، فتذهب عنه هذه الخواطر والأفكار ، فإذا هو مبصر. قال تعالى : (**وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ، إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون**) . الأعراف : ٢٠١ ، ٢٠٢ . ا ـ هـ من (شبهات وردود للشيخ عبد الله علوان) .

فصـــــل

حـــدوث العـــالم

غير الإله وصــــفات الباري ... وغير ما الأسما بلا إنكـــار
مخلوقة لربنـــا من العـــدم ... نكفر الذي يقول بالقـــدم
يخلق ما يشـــــاء باختيار ... إلهنا من غير ما اضطرار
لكن ربنا تعـــالى وعــــلا ... لم يخلقن ســــدى ومهلا وبلا
أمرٍ وحكمة وفي النص أتى ... دليل ما قلنا لذاك يا فتى

ش : **نقــول** : غير الإله وصفاته الذاتية والخبرية وأسمائه مخلوق لربنا مسبوق بالعدم ، إذ لايشك عاقل أن كل مُحْدَثٍ لابد له من مُحْدِثٍ ، وكل صنعة لابد لها من صانع ، وهل يصدق عقل أن هناك أثَراً بلا مؤثر ، أو نظاماً بلا منظم ، أو حكمة بلا حكيم ، إن هذا لدى العقل السليم يساوي قولنا : الكل أصغر من الجزء والواحد ربع الإثنين .

ولم ينكـر وجـود الخـالق إلا شرذمـة لا يقام لها وزن من الطبيعيين ، والشيوعيون كالطبيعيين في اعتقادهم .

ولم يقـل بقـدم العـالم إلا بعض الفلاسفة كأرسطو ، وأما أسـاطين الفـلاسفـة المتقدمون فقد كانوا مقرين بحدوث صورة الفلك ، وقـدم شيء من العالم ـ بمعنى أنه لم تبرزه القدرة من العدم إلى الوجود ، بل كان موجوداً فيما لم يزل ـ كفر[1] ، بداهة العقل تحكم أنه لا يصلح أن يكون شيئاً سوى الله غير مخلوق .

---

(١) قدم شيء :مبتدأ ، وكفر : خبر .

وإذا ثبت كونه مخلوقاً كان حادثاً بلاشك ، وما الحدوث إلا الوجود بعد العدم ، والقرآن طافح بذكر تفرده بالخلق ، وأنه الخالق لما سواه كقوله تعالى : **(الحمد لله رب العالمين)** ، **وقوله تعالى** : **(الله خالق كل شيء)** .

وفي آية أخرى قال تعالى : **(يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون)**(١) .

وقال تعالى : **(ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله)**(٢) .

وقال تعالى : **(إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب)** (٣) .

وقال تعالى : (والله خلقكم وما تعملون) (٤) ، إلى غير ذلك مما لايعد ولا يحصى .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء ، أى مقادير الخلائق التي خلقها في ستة أيام إلى أن يدخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم » .

---

(١) البقرة : ٢١ ، ٢٢ .
(٢) العنكبوت : ٦١ .
(٣) آل عمران : ١٩٠ .
(٤) الصافات : ٩٦ .

كما جاء في السنن عن النبي ﷺ أنه قال : « أول ما خلق الله القلم فقال : اكتب ، قال : وما أكتب ؟ قال : ما هو كائن إلى يوم القيامة » .

فقد بين أن القلم كتب كل شيء كائن ، وهذا كما تراه واضحاً ومصرحاً بحدوث كل صغير وكبير وجليل وحقير لجريان القلم بذلك ، وأن القلم أول مخلوق في هذا العالم .

قال شيخ الإسلام : أول من عرف عنه القول بقدم العالم أرسطو ، وكان ضالا مشركاً ، وله في الإلهيات كلام كله خطأ ، قد تعقبه في الرد عليه طوائف المسلمين من الجهمية والمعتزلة والقدرية والرافضة ، وفلاسفة الإسلام أنكروه عليه .

وفي صحيح البخاري من حديث عمران بن حصين قال : « كان الله ولم يكن شيء قبله » .

وفي لفظ غيره : « وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض » .

وفي لفظ : « ثم خلق السموات والأرض » ا. هـ .

وقوله في النظم :

يخلق ما يشاء باختيار   إلهنا من غير ما اضطرار

فقد أشار فيه إلى أنه يخلق مخلوقاته باختيار ، لا لحاجة بمعنى المصلحة والمنفعة .

والاضطرار بمعنى الإلجاء والإلزام والإكراه ، فلا حاجة باعثة له على خلقه للخلق ، ولا مكره له عليه ، بل خلق المخلوقات وأمر بالمأمورات لحكمة محمودة ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

لكن ربنا تعالى وعلا   لم يخلقن سدى ومهلا وبلا

أى : لا يخلق الخلق بلا أمـر ولا نهي ، هذا معنى قوله سدى ، كما لا يخلق بلا حكمة .

وقال تعالى : (**أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون**) [1] .

وقال تعالى : (**أيحسب الإنسان أن يترك سدى**)[2] .

ومن الواضح عند المنصفين من ذوي الطبع السليم ، أن الله لا يفعـل ولا يأمـر ولا ينهى إلا لحكمـة ، كيف لا وهـو الحكيم الخبير ؟ . فما خلق شيئاً ولا قضاه ولا شرعه إلا لحكمة بالغة ، وإن تقاصرت عنها عقول البشر .

وما قلناه فهو قول أكثر النّاس من المسلمين وغيرهم ، وقول طوائف من أصحـاب أبي حنيفة والشافعي ومالك ، وطوائف من المعتزلة والكرامية والمرجئة وأكثر أهل الحديث والتصوف وأهل التفسير .

وقالت طوائف من أتباع المذاهب ونفاة القياس والأشعرية : إن الخلق واقع لمحض المشيئة وصرف الإرادة ، لا لعلة ولا لحكمة .

وقد احتج الفريق الأول المثبت للحكمة والعلة بعدة آيات :

قال تعالى : (**من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل**) .

وقال تعالى : (**كي لا يكون دولة بين الأغنياء**) .

وقال تعالى (**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**) .

وبقـوله تعالى : (**أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن**

---

(١) المؤمنون : ١١٥ .

(٢) القيامة : ٣٦ .

نجعلهم كالذين آمنـــوا وعملوا الصـــالحـــات سواء محيـــاهم ومماتهم ساء ما يحكمون)[1] .

فدل على أن هذا قبيح ينزه الله عنه .

أمـــا النافون فقد قالوا : العلة إن كانت قديمة وجب قدم المعلول وهو محال ، وإن كانت حادثة فتفتقر إلى علة أخرى ، ويلزم التسلسل .

والجـــواب : لا يلزم من قدم العلة قدم معلولهـا كالإرادة فإنها قديمة ، ومتعلقها حادث .

---

(١) الجاثية : ٢١ .

تقسيم صفات المعاني إلى قسمين

فأول فذو تعلق ظهر والثاني لاهو الحياة المعتبر
وقدرة إرادة تعلقاً بكل ممكن بدا لا مطلقاً
والعلم والكلام بالإطلاق تعلقا من غير ما شقاق
بكل موجود فسمع وبصر تعلقاً من غير شك قد ظهر

ش : هذه الصفات السبعة المار ذكرها وتعريفها تنقسم إلى قسمين :

الأول : إلى ما يتعلق بشيء ، وإلى ما لايتعلق بشيء .

والقسم الآخر : الذي لا يتعلق بشيء هو الحياة .

والقسم الأول المعني بقوله : فذو تعلق ظهر ، إليك بيانه :
فالقدرة [1] والإرادة تتعلقان بكل شيء جائز الوقوع ، لا بالواجب ولا بالمستحيل .

والعلم والكلام يتعلقان بكل واحد من الواجب والجائز والمستحيل .

والسمع والبصر يتعلقان بكل موجود ، واجباً كان ، أو جائزاً عيناً كان ، أو معنى كلياً أو جزئياً .

---

(١) اعلم أن القدرة والإرادة والعلم تسمى عندهم بصفات التأثير ، لأن لها تأثيراً في إيجاد الممكنات وإعدامها .

فالقدرة تتعلق بها على وجه الإيجاد أو الإعدام لها .

والإرادة على وجه التخصيص لأحد طرفيها ـ كما سبق في الشرح ـ .

والعلم يتعلق بها على وجه الإحاطة على ما هي عليه .

جميع مشتقاتها فلتثبتا إلا الذي عن ربنا لم يثبتا
حي سميع قادر بصير وعالم سبحانه خبير
وسم هذه أخا العلاء بمعنوية بلا امتراء
أما مريد متكلم فما في الشرع قد أتى فكن مسلِّماً

ش : قد قامت الأدلة النقلية والعقلية على اتصاف الله بالحياة ، والعلم ، والقدرة ، والإرادة ، إلى آخر صفات المعاني ، واشتق أهل الكلام من كل صفة اسماً .

فاشتقوا من الحياة : الحي ، ومن القدرة : القدير ، ومن العلم : العليم : ومن الكلام : المتكلم ، ومن السمع : السميع ، ومن الإرادة : المريد .

وأثبتوها لله تعالى وسموها بالصفات المعنوية[1] ، وهذا معنى قولنا : ثبوت مشتقاتها فلتثبتا .. إلخ .

ولكن جاءت النصوص باسم العليم والقدير والسميع والبصير والحي ، ولم تأت باسم المتكلم والمريد ، فإن هذين الاسمين لم يردا في القرآن ولا في الأسماء الحسنى ، ومعناهما حق ، ولكن الأسماء الحسنى هي التى يدعى بها ، وهي التي جاءت في الكتاب والسنة ، وهي التي تقتضي المدح والثناء بنفسها .

وأما الكلام : فجنسه ينقسم إلى محمود ومذموم ، كالصدق والكذب ، وكذلك الإرادة : منها الممدوح والمذموم .

---

(١) وسميت بالمعنوية ، لأنها منسوبة إلى صفات المعاني ومشتقة منها ، فإن الاتصاف بها فرع الاتصاف بالسبع الأول .
لأن اتصاف محل من المحال بكونه عالماً أو قادراً أو حياً مثلا ، لا يصح إلا إذا قام به العلم أوالقدرة أوالحياة ، وقس على هذا .

فلو سمينا الله بذلك ، لكان معناه الثناء على الله بما يصلح أن يكون ثناء ، وما لا يصلح .

ومن أجـل ذلك نبهنا في النظم بقولنا : أما مريد متكلم فما .. إلخ .

والمختـار عند السـلف والخلف : أن أسـماء الله وصفاته توقيفية كما مضى .

فصـــــل

شبهة الجهمية في إنكار الصفات ، والجــواب عن ذلك

قد أنـكرت الجـهمية الأسماء والصفات جميعـها ، بدعوى أنـها من صفات المحدثات وخصائص المخلوقات ، وقالت : إن ظاهرها يفيد التشبيه بالمخلوق ، أي أن ما يفهم من نصوصـها يماثل ما يفهم من صفات المخلوق ، فظاهر معناها التمثيل وهو مستحيل ، فيجب التأويل .

وقلدت المعتزلة والأشعرية الجهمية فيما أنكرته وأولته ، ولكن لا في كل ما أنكرت الجهمية ،واحتجت بنفس هذه الحجة الواهية .

والجــواب : إن الظاهر المفهوم لو كان المراد به خصائص صفات المخلوقين حتى يشبه المولى بخلقه ، لما خالف أحد في رده ونفيه .

إلا أن هذا ليس مراداً بالاتفاق للقطع بأنه تعالى : (ليس كمثله شيء) لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله .

وليس كما زعموا ، وإنما ظاهرها ما يليق بالخالق جل وعـلا ، وليس في العقـل ولا في السمع ما ينفي هذا ، والصفة تتبع موصوفها[1] .

---

(١) **تنبيــه** : **ذكـر الإمام المحقق ابن القيم في البدائع** : أن الصفة متى قامت بموصوفها لزمها أمور أربعة : أمران لفظيان ، وأمران معنويان .
=

فكما أن ذاته المقدسة ليست كذوات المخلوقين ، فكذلك صفاته ليست كصفات المخلوقين ، فالقول في الصفات فرع عن الكلام في الذات ، وقل في سائر الصفات التي ستمر بك ما قلناه ها هنا ، سواء مع المنكرين لكل الصفات أو البعض .

شبهة المعتزلة في تعدد الصفات والجواب عن ذلك :

والمعتزلة قد أقرت بالصفات المعنوية ، وأنكرت صفات المعاني زاعمة - زيادة على ما زعمه جهم - أن ثبوت هذه الصفات مع كونها قديمة ، يلزم تعدد القدماء ، وهو كفر بإجماع الأمة ، وقد كفرت النصارى بالقول بالتثليث ، فكيف بأكثر ؟ .

والجواب : **أولا** : لا يجوز لمسلم أن ينكر ثبوت ما صح ثبوته نقلا وعقلا ، ويأتي بمثل هذه التشكيكات التي تشم منها رائحة الإلحاد .

ونقول ثانياً : الممتنع تعدد القدماء ، إذا كانت ذواتاً مستقلة ، لا تعدد صفات لذات واحدة .

وما أحسن ما قال شيخنا الشيخ عبد الله الحنفي - رحمه الله تعالى - في منظومته في علم الكلام ، قال رحمه الله تعالى :

والشبهة التى علينا تورد من أنه قد يلزم التعدد
مدفوعة بقولنا يمتنع تعدد الذوات يا من يسمع

ومن الوضوح بمكان ، أنه لا يعقل موجود بدون صفات ، لكن

= فاللفظيان : ثبوتي وسلبي ، فالثبوتي : أن يشتق للموصوف منها اسم ، والسلبي : أن يمتنع الاشتقاق لغيره ، والمعنويان : ثبوتي وسلبي ، فالثبوتي : أن يعود حكمها إلى الموصوف ، ويخبر بها عنه ، والسلبي : أن لا يعود حكمها إلى غيره ، ولا يكون خبراً عنه ، وهذه قاعدة عظيمة في معرفة الأسماء والصفات ، كالكلام والعلم ونحوهما .

قد يفرض الذهن ، لأنه يفرض أشياء مستحيلة الوقوع ، وينبغي أن يعلم أن هناك فرقاً بين التقدير الذهني والوجود الخارجي .

وليس كل ما يفرضه الذهن يكون له وجود في الخارج ، فهل يعقل إله موجود لا علم له ولا إرادة ، ولا سمع ولا بصر ، ولا قدرة ولا كلام ، ولا محبة ولا غضب ، ولا رضى ولا رحمة ، ولا كره ولا بغض ، ولا داخل العالم ولا خارجه ، ولا فوق ولا تحت ، ولا يمين ولا يسار ، فهل هذا إلا معدوم ولا وجود له في الحقيقة ؟

لا يقول بهذا من يتصف بالحجى ، ويعرف ما يقول .

الصفات الخبرية

وزيد الاستواء للرحمن	والعين والنزول واليدان
والوجه والرحمة مع رضاء	إتيانه للفصل والقضاء
ونحوها من كل ما قد وردا	عن ربنا أو النبي أحمدا
نثبته من غير ما تأويل	وغير تمثيل ولا تعطيل

ش : بعد أن أتم الكلام على صفات المعاني والمعنوية ، شرع مبيناً ما ورد من الصفات الخبرية - على حد تعبيرهم - وهي معدودة من قسم الصفات الثبوتية .

وهي صفات كثيرة منها : صفة الاستواء ، وسيأتي الكلام عنها .

ومنها : العين لله تعالى .

نثبت هذه الصفة له من غير تمثيل ولا تكييف ، قال تعالى : (**ولتصنع على عيني**)[1] ، وقال تعالى : (**تجري بأعيننا**)[2] .

والعقل حاكم بكونها صفة كمال ، ونفيها نقص ، وكل كمال في المخلوق ، فالله أولى به .

والدليل على أن نفي العين نقص ما يلي :

١ - حديث ابن عمر ، كما في مسلم ، أن الرسول ﷺ ذكر

---

(١) طه : ٣٩ .
(٢) القمر : ١٤ .

الدجال بين ظهراني الناس فقال : « إن الله ليس بأعور ، إلا أن المسيح الدجال أعور العين اليمنى ، كأن عينه عنبة طافية » ، هذا لفظ مسلم .

٢ - ولفظ صحيح البخاري من حديث ابن عمر ، فقال : ذُكِرَ الدجال عند النبي ﷺ فقال : « إن الله لا يخفى عليكم ، إن الله ليس بأعور - وأشار بيده إلى عينه - وأن المسيح الدجال أعور العين اليمنى ، كأن عينه عنبة طافية » .

أخرجه البخاري في كتاب التوحيد من صحيحه ، في باب قوله : (ولتصنع على عيني) .

قال البيهقي والقرطبي وغيرهما : في هذا نفي نقص العور ، وإثبات العين له صفة ، وعرفنا بقوله تعالى : **(ليس كمثله شيء)** أنها ليست بحدقة .

وقد قال الأشعري في كتابه (الإبانة) .

وإن له عينين بلا كيف ، وإن لله علماً ، ونثبت لله السمع والبصر ، ولا ننفي ذلك ، كما نفته المعتزلة والجهمية والخوارج ا . هـ .

وتأويل المعطلة لهذه الصفة بالرؤيا أو بالحفظ والرعاية ، نفي وتعطيل .

وأما إفرادها في بعض النصوص ، وجمعها في البعض الآخر كقوله تعالى : **(واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا)**(١) ، **وقوله تعالى** : **(ولتصنع على عيني)**(٢) ، فلا حجة لهم فيه على نفيها ،

---

(١) الطور : ٤٨ .
(٢) طه : ٣٩ .

فإن لغة العرب تتسع لذلك ، فقد يعبر عن الإثنين بلفظ الجمع ، ويقوم فيها الواحد مقام الإثنين .

صفة النزول والأجوبة عن تأويل الخلف :

ومن تلك الصفات : صفة النزول :

تثبت لله تعالى صفة النزول لما ورد فيما يلي من أحاديث :

١ - حديث : « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا » .

٢ - ولحديث الإمام أحمد ، ومسلم ، عن أبي سعيد ، وأبي هريرة عن النبي ﷺ :

« إن الله يمهل ، حتى إذا كان ثلث الليل الأخير ، نزل إلى السماء الدنيا ، فينادي : هل من مستغفر ؟ هل من تائب ؟ هل من سائل ؟ هل من داع ؟ حتى ينفجر الفجر » .

قال في (لوامع الأنوار) ، نقلا عن شيخ الإسلام [1] في (شرح الأصفهانية) ، عن الإمام عبد الله بن المبارك :

---

(١) من الجهل الفاضح والتجاهل والعصبية العمياء ، ما نسبه كثير ممن ادعى العلم ، أن شيخ الإسلام ابن تيمية كان يقرر حديث النزول في المسجد الأموي ، وأنه قال : « ينزل ربنا كنزولي هذا » ، ونزل من على منبر الجامع درجة ، يريدون بذلك أنه مشبه مجسم ، وأخذ يروي المتأخر عن السالف هذه الأكذوبة التي منشؤها ابن بطوطة في رحلته ، فياسبحان الله ما أعظم جهل هؤلاء !! أما يقرأون مؤلفات شيخ الإسلام ، ليروا كيف يرد على هؤلاء المشبهة والمجسمة ، كما يرد على الجهمية والمعتزلة وغيرهم ، بل ألف شيخ الإسلام شرحاً لحديث النزول ليس فيه أدنى رائحة من التشبيه والتجسيم ، بل يقرر في شرحه ـ في عدة مواضع ـ تنزيه الله عن التمثيل ،والشرح مطبوع عدة مرات ، متداول بين الناس ، فمن يشك فيما أقول فليقرأه ولو مرة واحدة ، بل ليقرأ صفحات منه ليعلم كذب أولئك القوم ومبلغ تعصبهم ، فما أدري ما قيمة العالم إذا كان كذاباً مفترياً ؟! قال تعالى : (**إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون**) . =

إنــه ســـأله سائـل عن النزول ليلة النصف من شعبان ، فقال : يا ضعيف العقل ، ليلة النصف من شعبان وحدها ؟؟ ينزل في كل ليلة .

فقال الرجل : كيف ينزل ؟ أليس يخلو ذلك المكان ؟ .

فقال عبد الله بن المبارك : ينزل كيف شاء . ا . هـ .

وقد أجاب بعض العلماء لما سئل عن النزول قائلا : النزول معقـول ، والكيف مجهـول ، والإيمـان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، فقد قال هؤلاء العلماء في النزول ، كما قال مالك في الاستواء .

وهكذا القول في سائر الصفات .

وأول الخلف نزوله بنزول رحمته ، فقال : معنى ينزل ربنا : أي أمره أو تنزل رحمته .

والجـــواب : هـل تقـول الرحمـة : من يستغفرني فأغفر

= وأما تمسكهم بما قاله ابن بطوطة :

فالجـواب : يحتمل أن الشيخ ابن تيمية ـ رحمه الله ـ قال : ينزل ربنـا لا كنزولي هذا ، فلم يسمع ابن بطوطة كلمة (لا) ، أو سـمعها وكتبها ، لكن حرفها النساخ ، هذا إذا سلمنا أن ابن بطوطة رأى شيخ الإسلام .

ولكن قال المحقق الشيـخ بهجت البيـطار في كتـابـه (حيـاة شيـخ الإسلام) : إن ابن بطوطة لم يسمع من ابن تيمية ، ولم يجتمع به ، إذ كان وصوله إلى دمشق يوم الخميس التاسع من رمضان عام ست وعشرين وسبعمائة هجرية ، وكان سجن شيخ الإسلام في قلعة دمشق أوائل شهر شعبان من ذلك العام ، إلى أن توفاه الله ليلة الإثنين لعشرين خلون من ذي القعدة عام ثمان وعشرين وسبعمـائـة هجـريـة ، فكيف رآه ابن بطوطة يعظ على منبر الجامع وسمعه ؟! ولم يكن يعظ الناس على منبر الجامع ـ كما زعم ابن بطوطة ، وإنما كان يجلس على كرسي يعظ الناس ، على أن ابن بطوطة لم يكتب رحلته بقلمه ، وإنما أملاه على ابن جزي الكلبي ، فيجوز أن يكون ذلك من تحريف النساخ ، أو وسوسة بعض الخصوم . ا هـ بتلخيص .

له ؟ !! ومعلوم أن الرحمة تنزل كل وقت ، وليس لها وقت محدود ، ويلزم على قولهم أن الرحمة والأمر هما اللذان يدعوان العباد إلى الإجابة والاستغفار بكلامهما دون الله ، وهذا محال عند السفهاء ، فكيف عند الفقهاء ؟

وما بال أمره ورحمته ينزلان من عنده بالليل ، ثم يمكثان إلى طلوع الفجر ، ثم يرتفعان ، لأن رفاعة يقول في حديثه : حتى ينفجر الفجر .

وقال شيخ الإسلام في شرح حديث النزول :

وإن تأول ذلك بنزول رحمته أو غير ذلك ، فيقال : الرحمة التي نثبتها إما أن تكون عيناً قائمة بنفسها ، وإما أن تكون صفة قائمة في غيرها ، فإن كانت عيناً وقد نزلت إلى سماء الدنيا لم يمكن أن نقول : من يدعوني فأستجيب له ، وإن كانت صفة من الصفات فهي لا تقوم بنفسها ، بل لابد لها من محل ، ثم لا يمكن الصفة أن تقول هذا الكلام ، ولا محلها .

ثم إذا نزلت الرحمة إلى سماء الدنيا ، ولم تنزل إلينا ، فأي منفعة لنا في ذلك ؟ .

وإن أريد صفات وأعراض مثل ما يحصل في قلوب العابدين في وقت السحر من الرقة والتضرع وحلاوة العبادة ونحو ذلك ، فهذا حاصل في الأرض ليس منتهاه سماء الدنيا . ا . هـ .

واحتج بعض الخلف برواية النسائي : « إن الله عز وجل يمهل حتى يمضي شطر الليل الأول ، ثم يأمر منادياً ينادي فيقول : هل من داع يستجاب له ؟ هل من مستغفر يغفر له ؟ هل من سائل يعطى ؟ » .

والجواب : إنه لا منافاة بين هذا الحديث وبين سائر

الأحاديث التي تسند النزول إلى الرب وتثبت له قول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له ؟ لأننا نقول : قد يأمر منادياً ينادي : هل من داع يستجاب له ؟ ثم يقول هو سبحانه وتعالى : من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ ، وليس فيه نفي النزول ، وعلى هذا تتفق الروايات كلها عن رسول الله ﷺ ولا نصدق بعضها ونكذب ما هو أصح منه .

على أن الشيخ أبا بطين ذكر عن أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن منده أن حديث : « ثم يأمر منادياً » موضوع ، ولكن حيث صححه بعضهم فقد ذكرنا وجه التوفيق بينه وبين سائر الروايات .

والحاصل أن حديث النزول حديث صحيح ، فقد رواه نحو من ثمانية وعشرين صحابياً عن النبي ﷺ ، واشتملت عليه كتب الإسلام ، كالبخاري ، ومسلم ، ومسند الإمام أحمد ، وموطأ مالك ، ورواه علماء الحجاز وعلماء العراق ، وأطبق على اعتقاد نزوله بلا كيف جميع علماء الأمصار ، كالإمام أبي حنيفة ، والشافعي ، ومالك ، والسفيانين ، والثوري ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وسائر المحدثين والفقهاء ، ولم يخالف في ذلك إلا أهل التعطيل والتأويل ، هدانا الله وإياهم سواء السبيل .

تنبيه :

تأويلهم بنزول أمره أو رحمته يبطل مذهبهم ، لأن نزول الأمر ، أو نزول الرحمة يقتضي أن يكون هو فوق العالم ، وهم لا يقولون بذلك .

ولهذا قال بعض النفاة لبعض المثبتين ، ينزل أمره ورحمته ، فقال له المثبت : فممن ينزل ؟ ، ما عندك فوق شيء ، فلا ينزل منه لا أمره ولا رحمته ولا غير ذلك ، فبهت النافي وكان كبيراً فيهم .

صفة اليدين

ومن تلك الصفات : اليدان ، فقد أجمع السلف الصالح على إثبات هذه الصفة ، وجاء بها الكتاب المجيد في عدة آيات :

كقوله تعالى : **(وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان)**[1] .

وقال الله تعالى : **(ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي)**[2] .

وفي الحديث الصحيح : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » .

كما وصف نفسه باليمين في قوله تعالى : **(وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون)**[3] .

وفي الحديث الصحيح : «المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين » .

وأولت الجهمية والمعتزلة والأشعرية ، أن اليد بمعنى القدرة

---

(١) المائدة : ٨٤ .

(٢) ص : ٧٥ .

(٣) الزمر : ٦٧ .

أو النعمة مجازاً [1] لأن العرب تقول : له عندي يد يجزيه الله بها ، أي : له علي فضل ونعمة .

الأجوبة عن تأويل الخلف لليدين :

والجواب من وجوه :

أولها :إن الأصل الحقيقة ، فدعوى المجاز مخالفة للأصل .

ثانيها : إن ذلك خلاف الظاهر ، فقد اتفق الأصل والظاهر على بطلان هذه الدعوى .

ثالثها : ما هو الدليل الصارف عن الحقيقة ، إذ مدعيها معه الأصل والظاهر ؟ .

رابعها : إنه قدر ورد عن عبد الله بن عمرو : إن الله لم يخلق بيده إلا ثلاثاً :

خلق آدم بيده ، وغرس جنة عدن بيده ، وكتب التوراة بيده .

---

(١) في فتح الباري شرح صحيح البخاري : (**باب قول الله : لما خلقت بيدي**) .
قال ابن بطال في هذه الآية : إثبات يدين لله تعالى ، وهما صفتان من صفات ذاته ، وليستا بجارحتين خلافاً للمشبهة من المثبتة وللجهمية من المعطلة ،ويكفي في الرد على من زعم أنهما بمعنى القدرة ، أنهم أجمعوا على أن له قدرة واحدة في قول المثبتة ، ولا قدرة له في قول النفاة ، لأنهم يقولون أنه قادر بذاته ،ثم ذكر تفضيل آدم على إبليس بكونه خلقه بيده بماذكرناه .
ثم قال : ولا جائز أن يراد باليدين النعمتان لاستحالة خلق المخلوق بمخلوق ، لأن النعم مخلوقة ، ولا يلزم من كونهما صفتي ذات أن يكونا جارحتين .
ونقل عن ابن التين وابن فورك بما هو صريح في ذلك ، وذكر مزاعم أهل التأويل ، أن لليد عدة معان في اللغة ما بين حقيقة ومجاز ، منها : الجارحة ، والقوة ، والنعمة ، والذل ، إلى غير ذلك من المعاني . ا هـ .
ولكن كل تلك المعاني معها من سياق اللفظ أو قرينة المقام ما يبين المرام ، ولا يقدح فيما أوردنا من مذهب السلف ، فلا حجة لمؤول ومعطل .

وفي محـاجة آدم لموسى ، قال موسى : أنت الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء .

فهل يصح في عقل أونقل أن يقال : لم يخلق بنعمته أو بقدرته إلا ثلاثاً ! :

خامسها : إن الله قال لإبليس : (**ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي**)[1] .

فقد قال ذلك في معرض تفضيل آدم وتخصيصه ، فلو كانت اليد بمعنى القدرة ، لم يكن لآدم تخصيص وتفضيل على غيره .

ومعلوم أن جميع المخلوقات وجدت بقدرته ، فما فضل آدم على غيره إذا كانت اليد بمعنى القدرة ؟ .

سادسها : إنه لا يصح استعمال المجاز بلفظ التثنية ، فلا يستعمل إلا مفرداً أو مجموعاً ، كقولك : له عندي يد ، أو أياد .

وأما إذا جاء بلفظ التثنية ، فلا يعرف استعماله قط إلا في اليد الحقيقية ، وليس من المعهود أن يطلق الله على نفسه معنى القدرة والنعمـة بلفظ التثنية ، بل بلفظ الإفراد الشامل لجميع الحقيقة كقوله تعالى :(**إن القوة لله جميعاً**) ، وقد يجمع النعم ومفردها نعمة كقوله تعالى : (**وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة**) .

سابعها : إن يد النعمة والقدرة لا يتجاوز بها لفظ اليد ، فلا يتصرف فيها بما يتصرف في اليد الحقيقية ، فلا يقال : فيها كف ، ولا إصبع ، ولا إصبعان ، ولا يمين .

وقد وردت الأحاديث باتصافه بالكف والإصبح واليمين ، كما

---

(١) ص : ٧٥ .

في الحديث الذي رواه مسلم : « ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن ، إنْ شاء أن يقيمه ، وإن شاء أن يزيغه » .

وحديث : « ما تصدق أحد بصدقة من طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ إلا أخذها الرحمن بيمينه ، وإن كانت تمرة فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من جبل » .

ثامنها : إن اقتران لفظ الطي والقبض والإمساك باليد يصير المجموع حقيقة ، بخلاف اليد المجازية ، فإنها إذا أريدت لم يقترن بها ما يدل على اليد حقيقة ، بل ما يدل على المجاز كقوله : له عندي يد ، وأنا تحت يدهم .

وأما إذا قيل : قبض بيده ، وأمسك بيده ، أو قبض بإحدي يديه كذا ، وبالأخرى كذا ، أو جلس عن يمينه ، أو كتب كذا ، وعمله بيمينه ، أو بيديه ، فهذا لا يكون إلا حقيقة .

قال العلامة ابن القيم : وإنما أتى هؤلاء من جهة أنهم رأوا اليد تطلق على النعمة والقدرة في بعض المواضع ، فظنوا أن كل تركيب وسياق صالح لذلك ، فوهموا وأوهموا ، فهب أن هذا يصلح في قوله : لولا يد لك لم أجزك بها .

أفيصلح في قوله تعالى : (**وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك**)[1] ؟ .

وفي قول عبد الله بن عمرو المار ذكره : إن الله لم يباشر ، أو لم يخلق بيده إلا ثلاثاً . إلخ[2] ؟ .

ومما ينبغي التنبيه عليه : أن لفظ اليد جاء في القرآن على ثلاثة أنواع : مفرداً ، ومثنى ، ومجموعاً .

(١) العنكبوت : ٤٨ .
(٢) من الصواعق المرسلة بتصرف .

فالمفرد كقوله تعالى : (**بيده الملك**) .

والمثنى كقوله تعالى : (**خلقت بيدي**) .

والمجموع كقوله تعالى :(**عملت أيدينا**) .

فحيث ذكر اليد مثناة أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الإفراد ، وعدي الفعل بالباء إليهما .

وحيث ذكرها مجموعة أضاف العمل إليها ، ولم يعد الفعل بالباء ، فهذه ثلاثة فروق [1] ، فلا يحتمل (**خلقت بيدي**) من المجاز ما يحتمل (**عملت أيدينا**) .

فإن كل أحد يفهم من قوله :(**عملت أيدينا**) ما يفهمه من قوله : عملنا وخلقنا كما يفهمه من قوله : (**بما كسبت أيديكم**) .

وأما قوله : (**خلقت بيدي**)فلو كان المراد مجرد الفعل ، لم يكن لذكر اليد بعد نسبة الفعل إلى الفاعل معنى .

فكيف وقد دخلت عليها الباء ؟ وسر الفرق أن الفعل قد يضاف إلى يد ذي اليد ، والمراد الإضافة إليه كقوله : (**بما قدمت يداك**) .

وأما إذا أضيف إليه الفعل ، ثم عدي بالباء إلى يده مفردة أو مثناة ، فهو مما باشرته يده . ا . هـ[2] .

---

(١) **الأولى** : إضافة الفعل إلى نفسه ، يعنى تاء المتكلم الواقع فاعلا في قوله : (**خلقت**) .

الثانيــة : تعدية الفعل إلى اليد مفردة أو مثناة ، فالمفردة في مثل حـديث : (وكتب لك التـوراة بيده) ، والمثنى في مثل (خلقت بيدي) .

الثالثة : تـكون الإضافة بضمير الإفراد ، وهي ياء المتكلم في (يديّ) ، وهاء المضاف إليه في قوله : (كتب لك التوراة بيده) وفي لفظ : (وقد خط لك الألواح بيده) .

(٢) **من الصواعق المرسلة ج ١ .**

وقد بسط العلامة ابن القيم ـ في الصواعق المرسلة ـ بما لا مزيد بعده في هذه الصفة وفي غيرها ، ودحض جميع شبه المعطلة ، وزلزل أقدامهم ، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة .

صفة الوجه

ومن تلك الصفات صفة الوجه ، لقوله تعالى : (**ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام**)(١) ، وقوله تعالى : (**لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه**)(٢) ، أثبتها السلف الأبرار من غير تكييف وهو مذهب الأئمة الأربعة ، وبه قال الحنفية والحنابلة وكثير من الشافعية وغيرهم ، لأن مذهب أولئك الأبرار إجراء الصفات على ظاهرها مع نفي الكيفية والتشبيه عنها ، محتجين بأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات ، فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود ، لا إثبات تكييف ، فكذلك إثبات الصفات .

وقالت المؤولة : إن الوجه عبارة عن الذات .

وقال بعضهم : إن الوجه صلة ، ومعنى القولين واحد .

وقال بعضهم : الوجه بمعنى الثواب ، وذلك بطريق المجاز .

---

(١) **الرحمن** : ٢٧ .
(٢) **القصص** : ٨٨ .

الأجوبة عن تأويل الخلف للوجه (١)

والجواب من وجوه :

أولها : إن المجاز لا يمتنع نفيه ، فعلى هذا لا يمتنع أن يقال : ليس لله وجه ، ولا حقيقة لوجهه ، وهذا تكذيب صريح بما أخبر الله به عن نفسه ، وأخبر عنه رسوله ﷺ .

---

(١) **فإن قيل** : **إن قوله تعالى** : (**فأينما تولوا فثم وجه الله**) ، قد فسره العلماء بمعنى : فثم قبلة الله ، ولم يفسروه بأنه صفة لله كما تدعون أيها السلفيون ؟ .

فالجواب من وجوه :

الأول : إن تفسير وجه الله بقبلة الله ، وإن قاله بعض السلف كمجاهد وتبعه الشافعي ، فإنما قالوه في موضع واحد لا غير ، وهو قوله تعالى : (**ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله**) ، فهب أن هذا كذلك في هذا الموضع ، فهل يصح أن يقال ذلك في غيره في المواضع التى ذكر الله تعالى فيها الوجه ؟ ، فما يفيدكم هذا في قوله تعالى ؛ (**فثم وجه الله**) ؟ ، إنه كقوله في سائر الآيات التي ذكر فيها الوجه ، فإنه قد اطرد مجيئه في القرآن والسنة مضافاً إلى الرب تعالى على طريقة واحدة ، ومعنى واحد ، فليس فيه معنيان مختلفان في جميع المواضع غير الموضع الذي في سورة البقرة ، وهو قوله تعالى : (**فثم وجه الله**) ، وهذا لا يتعين حمله على القبلة والجهة ، ولا يمتنع أن يراد به وجه الرب حقيقة ، فحمله على نظائره أولى ، يوضحه :

الوجه الثاني : إنه لا يعرف إطلاق وجه الله على القبلة لغة ولا شرعاً ولا عرفاً ، بل القبلة لها اسم يخصها ، والوجه له اسم يخصه ، فلا يدخل أحدهما على الآخر ، ولا يستعار اسمه له ، نعم القبلة تسمى وجهة كما قال تعالى : (**ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا**) ، وقد تسمى جهة ، وأصلها وجهة ، لكن أعلت بحذف فإنها كزنة وعدة ، وإنما سميت قبلة ووجهة ، لأن الرجل يقابلها ويواجهها بوجهه ، وأما تسميتها وجهاً فلا عهد به =

ثانيهـا : إن ذلك يستلزم كون حياته وبصره وقدرته وسائر صفاته مجاز لا حقيقة لها .

ثالثها : إنه لما أضاف الوجه إلى الذات ، وأضاف النعت إلى الوجه ، فقال تعالى : (**ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام**) ،

= فـكيف إذا أضيف إلى الله ، مع أنه لا يعرف تسمية القبلة وجهة الله في شيء من الكلام ، مع أنها تسمى وجهة ، فكيف يطلق عليها وجه الله ولا يعرف تسميتها وجهاً .

فإن قيـل : هذا عند اشتباه القبلة على المصلي ، وعند صلاته النافلة في السفر ؟ .

فالجـــــواب :

أولا : اللفظ لا يشعر بذلك ، بل هو عام مطلق في الحضر والسفر ، وحال العلم والاشتباه ، والقدرة والعجز ، فالآية لا تعرض فيها للقبلة ولا لحكم الاستقبـال ، بل سيـاقهـا لمعنى آخر هو بيان عظمة الرب ، وأنه محيط بالعالم العلوي والسفلي ، فذكر في أول الآية بإحاطة ملكه بقوله تعالى : (ولله المشرق والمغرب) ، (ص ١٨٩ ـ الصواعق المرسلة) .

ثانياً : ثم ذكر عظمته سبحانه ، وأنه أكبر وأعظم من كل شيء ، فأينما ولى العبـد وجهه فثم وجه الله ، ثم ختم باسمين دالين على السعة والإحاطة فقال تعالى : (إن الله واسع عليم) .

ثالثاً : إن تفسير القرآن بعضه ببعض أولى التفاسير ما وجد إليه السبيل ، ولهذا كان يعتمده الصحابة والتابعون والأئمة بعدهم ، والله تعالى ذكر في القرآن القبلة باسم القبلة والجهـة ، وذكر وجهه الكريم باسم الوجه المضاف إليه ، فتفسيره في هذه الآية بنظائره هو المتعين .

رابعاً : إن الآية الكريمة لواحتملت كل واحد من الأمرين ، لكان الأولى بها إرادة وجهه الكريم ذي الجلال والإكرام ، لأن المصلي مقصوده التوجه إلى ربه ، فـكان من المناسب أن يذكر أنه إلى أى الجهات صليت ، فأنت متوجه إلى ربك ، وليس من المناسب في اختلاف الجهات ما يمنع التوجه إلى ربك ، فجاءت الآية وافيـة بالمقصود فقال تعالى : (**ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله**) ، فأخبـر أن الجميـع ملكـه وقـد خلقه ا ـ هـ . باختصار وتصرف من (الصواعق المرسلة) .

دل على أن ذكر الوجه ليس بصلة ، لأن قوله تعالى : **(ذو الجلال والإكرام)** ، نعت للوجه ، وأن الوجه صفة للذات ، فتأمل رفع قوله تعالى : **(ذو الجلال والإكرام)** عند ذكر الوجه ، وجره في قوله تعالى : **(تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام)**[1] عندما لم يذكر الوجه .

رابعهـا : إنـه لا يعرف في لغة من لغات الأمم وجه الشيء بمعنى ذاته ونفسه .

وغاية ما شبه المعطل وجه الرب أن قال : **هو كقوله** : **وجه الحائط ، ووجه الثوب ، ووجه النهار .**

الجـــواب : عن تشبيه المعطل وجه الرب بما سبق هو قولنا :

ليس الوجه في ذلك بمعنى الذات .. بل هذا يبطل قوله ، فإن وجه الحائط أحد جانبيه ، وهو مقابل لدبره ، ومثل هذا وجه الكعبة ودبرها ، فهو وجه حقيقة ، ولكن بحسب المضاف إليه .

فلما كان المضاف إليه بناء كان وجهه من جنسه ، وكذلك وجه الثـوب أحد جانبيه وهو من جنسه ، ووجه النهار أوله ولا يقال لجميع النهار ، لأن الوجه في اللغة مستقبل كل شيء ، لأنه أول ما يواجه منه .

وأما تأويلهم بالثواب :

---

(١) إعراب الآية هكذا : تبارك فعل ماض مبني على الفتح ، واسم : فاعل لتبارك، اسم : مضاف ، رب : مضاف إليه ، رب مضاف ، والكاف : ضمير مبني على الفتـح في محل جر مضاف إليه ، ذي الجلال : نعت للرب المجرور بالإضافة مجرور بالياء ، لأنه من الأسماء الخمسة .

فلو كان معنى يبقى وجه ربك أى ذات ربك ، لم يكن ذو الجلال مرفوعاً ، بل يكون مجروراً لكونه نعتا لربك .

فجـــــوابه :

١ - إن حمل الوجه على الثواب من أبطل الباطل ، فإن اللغة لا تحتمل ذلك ، ولا يعرف أن الجزاء يسمى وجهاً .

٢ - إن الثواب مخلوق ، فقد صح عن النبي ﷺ أنه استعاذ بوجه الله ، فقال : « أعوذ بوجهك الكريم أن تضلني ، لا إله إلا أنت الحي الذي لا يموت ، الجن والإنس يموتون » ، ولا يظن برسول الله ﷺ أن يستعيذ بمخلوق .

٣ - إن النبي ﷺ كان يدعو في دعائه : « أسألك لذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك » ، ولم يكن يسأل لذة النظر إلى الثواب ، ولا يعرف تسمية ذلك وجهاً لا لغة ولا شرعاً ولا عرفاً .

٤ - إن الوجه حيث ورد ، إنما ورد مضافاً إلى الذات في جميع موارده .

وأما المضاف إلى الرب نوعان :

الأول : أعيان قائمة بنفسها ، كبيت الله ، وناقة الله ، وروح الله ، وعبد الله ، فهذه الإضافات إضافة تشريف وتخصيص ، وهي إضافة مملوك إلى مالكه .

الثاني : صفات لا تقوم بنفسها كعلم الله ، وحياته ، وقدرته ، فهذه إذ وردت مضافة إليه ، فهي إضافة إلى الموصوف بها .

إذا عرف ذلك ، فوجهه الكريم وسمعه وبصره إذا أضيف إليه ، وجب أن تكون إضافته إضافة وصف لا إضافة خلق ، وهذه الإضافة تنفي أن يكون الوجه مخلوقاً ، وأن يكون حشواً في الكلام .

وفي سنن أبي داود عنه ﷺ ، أنه كان إذا دخل المسجد قال :

« أعـوذ بالله العـظيم ، وبـوجهه الكريم ، وسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم » .

فتـأمل كيف قرن في الاستعاذة بين استعاذته بالذات وبين استعاذته بالوجه الكريم[1] ، وهذا صريح في إبطال من قال : إنه الذات بنفسها ، وقول من قال : إنه مخلوق ، وهناك وجوه أخرى تركناها خوف الإطالة ذكرها العلامة ابن القيم في (الصواعق المرسلة) .

صـفة الرحمـة

ومن تلك الصفـات صفـة الرحمـة ، لقوله تعالى : (**بسم الله الرحمن الرحيم**) ، وقوله تعالى : (**ورحمتي وسعت كل شيء**) ، وقوله تعالى : (**كتب ربكم على نفسه الرحمة**) .

وفي الحديث : « إن رحمتى سبقت غضبي » .

أثبتها السلف على ما تليق بالله .

وتقـول المؤولة : إن الرحمة رقة في القلب ، يستحيل على الله اتصـافـه بهـا ، وغايتها التفضل والإحسان ، فنحن نفسر الرحمة بالإحسان إلى المخلوق والإنعام عليه .

الأجوبة عن تأويل أهل الكلام لصفة الرحمة :

١ – إنه لا يستحيل على الله ما وصف به نفسه ، وتأويلكم هذا

---

(١) فلو كان الوجه صلة بمعنى زائدة ، لما كان معنى لأن يقرن بين الرب والوجه ، واكتفى صلى الله عليـه وسلم بقـوله : أعوذ بالله العظيم ، ولم يذكر وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم .

من باب المجاز[1] ، والمجاز يصح نفيه ،فهل يجوز أن ينفى عن الله الرحمة ؟ ، فمن جوز هذا فقد خالف صريح القرآن ، وصريح الأديان .

٢ - وأما أنها رقة في القلب ، أو خور في الطبيعة ، فهذا بالنسبة للمخلوق ، لا بالنسبة إلى الله ، لأن لله صفات تخصه ، وللمخلوق صفات تخصه ، ولا يجوز أن يقاس الخالق بالمخلوق ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ومنهم من تأول الرحمة بإرادة الإحسان :

فجوابه : إن الرحمة لا تنفك عن إرادة الإحسان ، فهي

---

(١) العجيب من هؤلاء المعطلة أنهم يعتقدون صفة الرحمة للمخلوق حقيقة وفي الخالق مجازا ، فعلى حد قولهم ، فإنه أولا : يلزم أن يكون المخلوق أكمل من الخالق ، وثانياً : المجاز يصح نفيه ، وإذاً يجوز أن يقال : لا يتصف الله بالرحمة ، والحال أن القرآن مملوء بوصفه تعالى بالرحمة ، وكذلك الأحاديث ، كقوله تعالى : (**كتب ربكم على نفسه الرحمة**) وقوله تعالى : (**إنه بهم رؤوف رحيم**) وقوله تعالى : (**فهو الغفور الرحيم**) ، إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصر ، وفي الحديث : « الراحمون يرحمهم الرحمن » .

وأما قوله : إن الرحمة ضعف وخور في الطبيعة .

فالجواب عنه : إن الضعف والخور مذموم من الآدميين ، والرحمة ممدوحة ، وقد قال الله : (**وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة**) ، وفي الحديث الصحيح : « لا تنزع الرحمة إلا من شقي » .

ولما كانت الرحمة تقارن في حق كثير من الناس بالضعف والخور ، كما في رحمة النساء ونحو ذلك ، ظن الغالط أنها كذلك مطلقاً حتى في حق الرب العظيم ، مع أننا لو قدرنا أنها في حق المخلوقين مستلزمة لذلك ، لم يجب أن تكون في حق الله مستلزمة بذلك .

كما أن العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام فينا يستلزم من النقص والحاجة ما يجب تنزيه الله عنه ، فكما أن ذاته المقدسة لا يماثلها ذات غيره ، فكذلك صفاته لا تماثلها صفات غيره ، وسيأتي كلام أبسط في الفصل المعقود لرد شبهاتهم .

مستلزمة للإحسان أو إرادته استلزام الخاص للعام ، فكما يستحيل وجود الخاص بدون العام ، فكذلك الرحمة بدون الإحسان أو إرادته يستحيل وجودها ، فإن كان إثبات الإرادة لا يستلزم تشبيهـا ولاتجسيمـا بزعمهم ، فكـذلك إثبات الرحمة ، لأن الإرادة هي ميل النفس لجلب ما ينفعها ، ودفع ما يضرها .

فإن قالوا : إرادته على ما تليق به ، قلنا : ورحمته على ما تليق به .

وسيأتي زيادة بيان ببطلان جميع شبههم للصفات بأسرها ـ إن شاء الله تعالى ـ .

صفة الرضا

ومن الصفات التي جاء بها القرآن والسنة ، وأثبتها السلف ، صفة الرضا لله تعالى .

قـال الله تعالى : (**رضي الله عنهم ورضوا عنه**)[١] وقال تعالى : (**لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة**)[٢] .

صفة الغضب

كماورد اتصافه بالغضب في قوله تعالى : (**ومن يقتـل مؤمناً متعمـداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضبَ الله عليه ولعنه**)[٣] .

قال الخلف : إن الرضا إرادة الإحسان ، والغضب غليان دم القلب لإرادة الانتقـام ، وعليـه يؤولون الرضـا بإرادة الإحسان ،

---

(١) البينة : ٨ .
(٢) الفتح : ١٧ .
(٣) النساء : ٩٣ .

والغضب بإرادة الانتقام ، ولا يصفون الله بالرضا ولا بالغضب ، وهذا كما ترى نفي لهاتين الصفتين .

الجواب عن تأويل صفة الغضب والرضا :

ويقال لمن تأول الغضب والرضا : لم تأولت ذلك ؟ ، فلابد أن يقول : إن الغضب غليان دم القلب ، والرضا الميل والشهوة ، وذلك لا يليق بالله .

فيقال له : غليان دم القلب في الآدمي أمر ينشأ عن صفة الغضب ، وكذلك الإرادة والمشيئة فينا هي ميل الحي إلى الشيء ، أو إلى ما يلائمه أو يناسبه ، فالمعنى الذي صرفت إليه اللفظ كالمعنى الذي صرفته عنه ، فإن جاز هذا جاز ذاك .

وبالجملة : فصفات الله على ما تليق به ، وصفات المخلوق على ما تليق به .

صفة المجيء للفصل والقضاء

ومن تلك الصفات إتيانه للفصل والقضاء بين العباد يوم القيامة .

والدليل على ذلك قوله تعالى : (**هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل[1] من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور**) .

وقوله تعالى : (**هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة**) [2]

---

(١) جمع ظلة والظلة ما أظلك وسترك ، والغمام : السحاب الأبيض الرقيق ، والآية من سورة البقرة رقم ٢١٠ .
(٢) البقرة : ٢٠٩ .

أي : لقبض أرواحهم ، (**أو يأتي ربك**) أي يوم القيامة لفصل القضاء ، (**أو يأتي بعض آيات ربك**)[1] وهو طلوع الشمس من مغربها .

قال العلامة محمد بن جرير حيث ذكر إتيان الملائكة :

وهو محتمل إتيانهم لقبض الأرواح ، ويحتمل أن يكون نزولهم لعذاب الكفار وإهلاكهم ، وأما إتيان الرب - وهو يوم القيامة - للفصل والقضاء .

وقال الله تعالى في آية أخرى : (**كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً وجاء ربك والملك صفاً صفاً**)[2] .

وقال تعالى : (يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا)[3] .

تنزل الملائكة إلى الأرض فيحيطون بالخلائق في مقام الحشر ، ثم يجيء الرب لفصل القضاء بين عباده .

فقد أفادت الآيات إثبات المجيء والنزول والإتيان لله كما يليق بجلاله وعظمته ، وهذه من صفاته سبحانه الفعلية . ا . هـ .

وأول الخلف مجيئه بمجيء أمره ، ونزوله بنزول أمره أو بعض ملائكته ، ونحو ذلك من التأويلات الفاسدة ، وقد أبطلها العلامة ابن القيم بوجوه عديدة .

منها : إن قولهم في هذه الآيات بمجاز الحذف والتقدير ، جاء أمر ربك ، أو ملائكة ربك ، مردود بأنه إضمار ما لا يدل عليه

---

(١) الأنعام : ١٥٧ .
(٢) الفجر : ٢٠ .
(٣) الفرقان : ٢٤ .

اللفظ بمطابقة ، ولا تضمن ، ولا التزام ، وادعاء حذف بلا دليل يرفع الوثوق من الخطاب ، وقد أبطل المجاز مطلقاً من حيث هو من خمسين وجهاً .

* * *

عدم حصر الصفات ، وإثبات صفة الأصابع والفرح :

ونحـــوها من كل ما قد وردا عن ربنا أو النبي أحمدا
نثبته من غير ما تــأويل وغير تمثيــل ولا تعطيـــل

ش : أي أننـا لا نحصر صفات الباري جل جلاله في عدد معين ، بل نثبت كل صفة جاء بها القرآن ، أو صح بها الحديث إثباتاً بلا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تعطيل .

فمذهب السلف حق بين باطلين ، بين باطل التمثيل وباطل التعطيل .

ومن تلك الصفات التي أثبتها السلف صفة الأصابع ، لما جاء في الحديث : « إن قلوب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن .. » .

وإثبات صفة الفرح للحديث الصحيح : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل قال [1] بأرض فلاة دوية مهلكة ، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه ، فنزل عنها فنام وراحلته عند رأسه ، فاستيقظ وقد ذهبت ، فذهب في طلبها فلم يقدر عليها حتى أدركه الموت من العطش ، فقال : والله لأرجعن لأموتن حيث كان رحلي فرجع فنام فاستيقظ فإذا راحلته عند رأسه فقال : « اللهم أنت عبدي وأنا ربك ـ أخطأ من شدة الفرح .. » .

---

(١) نام القيلولة تحت شجرة .

وصفة الفرح حقيقية لله عز وجل على ما يليق به ، وهي من صفات الفعل التابعة لمشيئته وقدرته .

وفرحه لا يشبه فرح المخلوق ، فالله منزه عن مشابهة المخلوق .

وأما تفسير الفرح بلازمه وهو الرضا ، وتفسير الرضا بإرادة الثواب ، فكل ذلك نفي وتعطيل لفرحه ورضاه ،أوجبه سوء ظن هؤلاء المعطلة بربهم ، حيث توهموا أن هذه المعاني تكون فيه تعالى كما هي في المخلوق .

ومن الصفات التي أثبتها السلف ، وصحت بها الأحاديث ، صفة الضحك ، كما في الحديث المتفق عليه : « يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر ، كلاهما يدخل الجنة » .

فيثبت أهل السنة والجماعة الضحك على المعنى الذي يليق به ، والذي لا يشبه ضحك المخلوقين عندما يستخفهم الفرح أو يستفزهم الطرب ، بل هو معنى يحدث في ذاته عند وجود مقتضيه ، وإنما يحدث بمشيئته وحكمته .

وأما تأويل ضحكه بالرضا أو القبول ، فهو نفي لما أثبته رسول الله ﷺ لربه عز وجل فلا يلتفت إليه[١] .

وصفاته كثيرة ، وما ذكرناه قطرة من بحر ، وبالله التوفيق .

---

(١) اهـ . من (الثمار الشهية) بتلخيص .

بيـــان

أن هذه العقيدة عقيدة الصحابة والتابعين والأئمة المعتبرين المحققين :

وهذه عقيــدة الأعــلام	أقسم بالكريم ذي الإنعام
من الصحابة الكرام البررة	وتابعيهم الثقات الخيرة
وتابع الأتباع مثل الشافعي	ومالك وأحمــد والنخعي
وزيد كالقاضي وكالسفيان	ونجل قيم كــذا الحـراني
وهكذا المعروف بالجيـلاني	والأشعري الحبر ذو العرفان
كذا البخاري ومسلم التقي	وابن المبارك التقي والنقي
وزدهم أهل حديث المصـطفى	العالمين العاملين الحنفا
وهــكذا كل فقيــه وورع	لهدي خير الرسل كان متبع

ش : أقول ما أثبته في هذه العقيدة من الاعتقاد بكل ما جاء في القـرآن وصـح في السنة ، من صفات الله من غير تمثيل ولا تأويل ، ولا تشبيه ، ولا تعطيل .

هو عقيـدة السلف الصالح من الصـحابة والتابعين ، وتابعي التابعين ، وأتباعهم كالأئمة الأربعة ، ومثل الإمام سفيان الثوري ، وسفيـان بن عيينـة ، والإمـام أبي الحسن الأشعري ، والإمام البخاري ، والإمام مسلم ، وسائر أهل الحديث ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، والعلامة الحافظ ابن القيم .

وبالجملة : فأهل القرون المفضلة ، ومن نهج نهجهم من أهل الحديث والفقه والتصوف الصحيح ، على هذا الاعتقاد الصحيح السليم .

قال الإمام أحمد رحمه الله :

لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ﷺ ، لا يتجاوز القرآن والحديث .

وقال الإمام مالك :

الاستـواء معلوم ، والكيف مجهـول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة [1] .

---

(١) فائدة : ظواهر نصوص الصفات معلومة لنا باعتبار ، ومجهولة لنا باعتبار آخر ، فباعتبار المعنى هي معلومة ، وباعتبار الكيفية التى هي عليها مجهولة .

وقد دل على ذلك السمع والعقل .

أما السمع : فمنه قوله تعالى : (**كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتـذكـر أولوا الألبـاب**) ، وقوله جل ذكره : (**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون**) .

والتدبر لا يكون إلا فيما يمكن الوصول إلى فهمه ، ليتذكر الإنسان بما فهمه منه .

وكون القرآن عربياً ليعقله من يفهم العربية ، يدل على أن معناه معلوم ، وإلا لما كان فرق بين أن يكون باللغة العربية أو غيرها .

وبيان النبي ﷺ القرآن للناس شامل لبيان لفظه وبيان معناه .

وأما العقل : فلأن من المحال أن ينزل الله تعالى كتاباً أو يتكلم رسوله ﷺ بكـلام ، ويقصد بهذا الكتاب وهذا الكلام أن يكون هداية للخلق ، ويبقى في أعـظم الأمور وأشدها ضرورة مجهول المعنى بمنزلة الحروف الهجائية التي لا يفهم منها شيء ، لأن ذلك من السفه الذي تأباه حكمة الله تعالى ، وقد قال الله تعالى عن كتابه : (**كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير**) .

هذه دلالة السمع والعقل على علمنا بمعاني نصوص الصفات .

وأمـا دلالتهما على جهلنا لها باعتبار الكيفية ، فمعنى الكيفية : أن يعتقد المثبت أن كيفية صفات الله تعالى كذا وكذا .

وهذا اعتقاد باطل بدليل السمع والعقل .

أما السمع : فمنه قوله تعالى : (**ولا يحيطون به علماً**) ، وقوله تعالى =

وقال الإمام الشافعي :آمنت بالله ، وبما جاء عن الله ، على مراد الله ، وآمنت برسول الله ، وبما جاء عن رسول الله . ا . هـ .

وقد رجع الإمام الأشعري إلى عقيدة أهل السنة والجماعة ، وألف كتابه الإبانة ، وأثبت الصفات الواردة ، ورد على الجهمية والمعتزلة .

وسننقل عنه إن شاء الله تعـــالى فيما يأتي من كتابه الإبانة ما يقطع عرق كل مشاغب .

* * *

وإن يقل معاند يلزمكا	بقولك التشبيه فافهم ذالكا
فقل له معارضـــاً فقد ظهر	من قولكم وجوده لا يعتبر
إن قال ما قد قيل في الوجود	فقل له بقولكَ المحمود
فهكذا صـــفاته نقـــــول	كمـــــا تقول أنت يا جهول

=(**ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا**) .

ومن المعلوم أنه لا علم لنا بكيفية صفات ربنا ، لأنه تعالى أخبرنا عنها ولم يخبرنا عن كيفيتها ، فيكون تكييفنا قفوا لما ليس لنا به علم ، وقولا بما لا يمكننا الإحاطة به .

وأما العقل : فلأن الشيء لا تعرف كيفية صفاته إلا بعد العلم بكيفية ذاته ، أو العلم بنظيره المساوي له ، أو بالخبر الصادق عنه ، وكل هذه الطرق منتفية في كيفية صفات الله عز وجل ، فوجب بطلان تكييفها .

وأيضاً فإننا نقول : أي كيفية تقدرها لصفات الله تعالى ؟

إن أي كيفية تقدرها في ذهنك ، فالله أعظم وأجل من ذلك ، وأي كيفية تقدرها لصفات الله تعالى ، فإنك ستكون كاذبا فيها ، لأنه لا علم لك بذلك .

وحينئذ يجب الكف عن التكييف تقديراً بالجنان ، أو تقريراً باللسان ، أو تحريراً بالبنان . ا ـ هـ . من (القواعد المثلى) للشيخ محمد الصالح العثيمين .

إبطال أكبر شبهة توردها المؤولة على إثبات هذه الصفات :

ش : هذا شروع في إبطال أكبر شبهة توردها المؤولة :

وتقريرها : إن في إثبات هذه الصفات المذكورة لله من الاستواء والوجه واليدين وما إلى ذلك تشبيه الباري بالمخلوق ، وهو منفي بقوله تعالى : (**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**) .

كما هو مستلزم للتجسيم ، والجسمية من شأن الحادث ، وتعالى الله عن الحدوث ، لهذا صرنا إلى التأويل دفعاً لتلك المفاسد اللازمة ، وتنزيهاً لله تعالى عن التشبيه والتجسيم .

الجواب من وجوه :

الأول : نقول للمعطل : هل تقر بوجود الله تعالى أم لا ؟ فإن قال : لا ، فهو كافر بالربوبية ، فيجب علينا حينئذ إقامة الأدلة على ربوبيته تعالى ، وقد سبق كثير منها .

وإن أقر بوجود الله ، فيقال له : هل وجوده كوجودنا ؟ . فمن اليقين أن يقول : لا كوجودنا ، بل له وجود يخصه ، فنقول له : فكذلك صفاته ليست كصفاتنا ، لأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات .

فكما أن ذاته ليست كذوات غيره ، فكذلك صفاته ليست كصفات غيره .

وليعلم المعطل أن اشتراك شيئين في مطلق اسم ، لا يوجب اتحادهما في الحقيقة .

فإذا قيل : إن العرش موجود ، والذباب موجود ، فهل يفهم عاقل : أن وجود العرش كوجود الذباب ؟ .

وكذلك إذا قيل : إن الله موجود ، والمخلوق موجود ، لانفهم من هذا أن وجوده تعالى كوجود المخلوق .

وإذا قلنا : لله علم ، وللمخلوق علم ، لم يكن علمه تعالى كعلم المخلوق ، وهكذا القول في سائر الصفات .

وإن أقر بالوجود ، وزعم أن وجوده لا يستلزم التشبيه ، لأنه واجب عقلا ونقلا ، وأنكر بقية الصفات أو أولها لاستلزامها ما ذكر ، بحجة أن العقل يحيلها لاستلزامها الحدوث .

فيجاب : ليس الأمر كما زعمت لأننا نقول : الموجود إما أن يكون جسماً أو عرضاً ، والله موجود ، فيلزم أن يكون أحدهما ، فإن اعترفت بأحدهما ، فذلك المحذور بعينه ، وإن استطعت أن تقول : إنه تعالى ليس جسماً ولا عرضاً ولا مماثلا لغيره ، فقل : كذلك صفاته الثابتة في القرآن والسنة ليست كصفات غيره ، ومجرد قولك : يلزم هذا ، ولا يلزم هذا ، لا يقبل إلا بدليل مسلم به .

الثاني : إن لازم المذهب ليس بمذهب .

الثالث : إن العقل لا يستطيع أن يقبل أن هناك موجوداً مجرداً من جميع الصفات .

الرابع : قولكم : لو كان له علم ، وقدرة ، ووجه ، ويد ، لكان جسماً مركباً .

نقول : لو كان ليس له علم ، ولا قدرة ، ولا علو ، ولا وجه .. إلخ لكان معدوماً ، إذ لا يعهد إله مجرد عن هذه الصفات كلها ، بل ليس في البشر من يكون مجرداً من هذه الصفات .

وبالله قل لي : بماذا كان إلهاً ورباً ، إن لم يكن متصفاًبهذه الصفات ؟ ، ولعل القائلين بهذا كان قصدهم إنكار الربوبية ، فروجوه على حساب التنزيه .

الخـامس : نقول ما هدم الإسلام ، وزعزعه ، وسلط عليه أعـداءه حتى أضعفوه بعد أن كان قوياً ، إلا من باب التأويل المقوت [1] .

إذ كل مبطل وكائد للإسلام ما دام يرى باب التأويل مفتوحاً أمامه ، يمكنه الولوج فيه ليضربه الضربة القاتلة .

فهـذه فرق البـاطنيـة كالبـابية ، والإسماعيلية ، والقرامطة والنصيرية ، ما ضلوا وكفروا وأصبحوا دعاة إلى الضلال والكفر والإلحـاد ، إلا بالتـأويـلات الفاسدة ، فإنهم قد أولوا التكاليف الشرعية ، كالوضوء : بمعنى موالاة الإمام ، والصلاة : هو الرسول والزكاة : بتزكية النفس .

كما أولوا نصوص الجنة والنار : براحة الأبدان في الدنيا وعذابها .

ولا يخفى أن أصل دعوة هؤلاء مبنية على إبطال الشرائع ، وخصـوصاً هذه الشريعة ، لأنهم لما رأوا قوة الإسلام وشوكته ، احتالوا بهذه التأويلات لكي تعود بإبطال الشرائع .

والمقصود : أن فتح باب التأويل يوجب هدم الشريعة ، إذ ما دمت تسوغ التأويل في باب أسماء الله وصفاته ، لا يمكنك أن تنكر على مبـطل ، لأنـك إن أنكـرت على قرمـطي في تأويله لنصوص التكاليف ونصوص المعاد ، يجيبك : إنى أولتها كما أولت أنت في الصفات ، ولا يعقل نفي تأويلي وقبول تأويلك .

وإذا أنكـرت على المـرجئـة ، وبينت لهم نصوص الوعيد ،

---

(١) التأويل المقوت في العقائد ، والقول بالبدعة الحسنة في الفروع ، هما معولا هدم الشريعة ، الأول : يهدم الأصول ، والثاني : يهدم الفروع .

أجـابوك بتأويل النصوص ، وأن المقصود منها التخويف فقط ، وأنت قائل بالأقاويل التي أعظم من هذه .

وإن أنكـرت على من سب الصحـابـة ـ رضي الله عنهم ـ وكفرهم ، وأوردت لهم النصوص الدالة على فضلهم ، قالوا لك : إنـها مؤولة .

فإذا قلت : تأويلكم غير مقبول ، قالوا لك : كيف يقبل منك التأويل الذي يرجع إلى الخالق ، ولا يقبل منا ما يرجع إلى المخلوق ؟ .

الحاصل : أنه لا يمكن للمؤول أن ينكر على مبطل أو يناظره ، إلا ويناضله بسلاح ذلك المناضل حتى ينتصر عليه ، وهل فتح هذا الباب إلا هدم أساس الدين ؟ .

السادس : إن القرآن قد أنزله الله لهداية البشر ، وإخراجهم من ظلمـات الوثنيـة والإلحـاد والشرك إلى نور الإيمان والتوحيد والإسلام ، وتقديس الله وتنزيهه عن مالا يليق بجلاله .

وأمر الله نبيه بالتبليغ فقال تعالى : (**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك**)[1] ، ووصف القرآن بأن فيه البيان لكل شيء فقـال تعـالى : (**ونـزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين**)[2] .

فهل بين الرسول ﷺ هذه التأويلات التي زعموها ؟ .

وقـد اهتدى بالقرآن العظيم والنبي ﷺ ملايين من البشر ، وصاروا ـ بعد تلك الوثنية والكفريات ـ من المؤمنين المنزهين لله تعالى ، فلو كان ظاهر تلك الآيات دالة على التمثيل والتجسيم لما

---

(١) المائدة : ٦٧ .

(٢) النحل : ٨٩ .

كانوا منقـولين من الوثنية والكفر ، إذ هذا هو الوثنية بعينها ، ولا كان هناك معنى لهداية البشر ، ولا فائدة في القرآن والرسول ﷺ .

ولا يخفى أن في هذا طعناً في القرآن والرسول ﷺ ، إذ قد أتيا بما يدل على التجسيم والتشبيه ، كما يلزم الطعن في المسلمين السابقين والعلماء الراسخين والعوام الموحدين ، لأنهم اعتقدوا ما دلت عليه الآيات والأحاديث .

فإن قالوا : لا نقول بموجب ذلك ، بل نبرأ إلى الله مما هنالك ، بل قصدنا تنزيه الله وبعده عن النقائص .

قلنا : لا بأس ، ولكن النبي ﷺ أحق منكم بالتنزيه ، والمسلم لا يكـون مسلمـاً إلا بإقراره بالله وتوحيده ، وتنزيهه عن الكفؤ والمثيل ، ولكن لا ينزه الله عما وصف به نفسه ، وأنتم قد نزهتموه عن الصفات التى وصف بها نفسه ، فلو كان ما تقولون حقاً لنزهه الرسـول ﷺ ، ثم أصحـابه رضوان الله تعالى عليهم ، بمثل ما نزهتموه به .

ولكن لم يثبت شيء من ذلك .

ولو كان ما تقولون حقاً لبينه النبي ﷺ للأمة ، وهو مأمور بالبيـان والتبليـغ ، فيلزم من قولكم : إنه لم يبين ما هو واجب البيان ، وهذا طعن في الرسول ﷺ ، وقد ذكر الله تعالى ـ في الآية آنفة الذكر ـ أنه تبيان لكل شيء ، فأين بيان الله عز وجل لهذه التأويلات ؟ . وأين بيان الرسول ﷺ ؟؟!

وكيف يبين الرسول ﷺ للأمة كل ما يحتاجون إليه ، حتى آداب قضاء الحاجة ، ولا يبين لهم ما يعتقدونه في ربهم ومعبودهم !! .

وإذا كان ظاهر النصوص يدل على التشبيه والتجسيم ، ومن

المعلوم أن التجسيم والتشبيه ضلال ، والضلال نقيض الهدى ، فأين قول الله تعالى في وصف كتابه : (**هدى ورحمة وبشرى للمسلمين**)[1] ، وقوله تعالى : (**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين**) .

وكيف يقول تعالى : (**اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم**) ؟ ، وهل يأمر الله تعالى باتباع الضلال ؟ .

ونسبة التجسيم إلى القائل وهو الله ، والرسول ﷺ أولى منا لأننا راوون لكل ما قاله الله وقاله رسوله ﷺ ، ومعتقدون ما أخبر الله به ورسوله ، ولم يقل الله ورسوله : لا تعتقدوا ظواهر هذه الآيات ، لأنها تدل على التجسيم والتمثيل ، واستدلالكم بـ (ليس كمثله شيء) .

جوابنا : إن هذه الآية حجة عليكم ، لأن صدرها ينفي المثلية ، ويرد على الممثلة والمشبهة ، وعجزها يثبت كونه سميعاً بصيراً ، وفيه رد على المعطلة .

ولم يقل أحد من السلف : إن صفاته كصفات غيره حتى تلزموهم بالتمثيل والتجسيم ، بل ينزهون الله أعظم من تنزيهكم ، ويثبتون له أوصافه السنية كما جاء في القرآن والسنة النبوية ، ويقرنونها بعدم التكييف والتمثيل .

---

(١) النحل : ٨٩ .

منكر هذه الصفات الجانح إلى التأويل

لا يستطيع التفرقة بين ما يسوغ تأويله وما لا يسوغ

السابع : إنكاركم لهذه الصفات وركونكم إلى التأويل لا يجدي شيئاً ، لأنكم لا تستطيعون التفرقة بين ما يسوغ تأويله ومالا يسوغ ، كما يلزمكم في المعنى الذي جعلتموه تأويلا نظير ما فررتم منه .

وإليكم البيان :

لا ريب أن الله وصف نفسه بصفات : كالسمع ، والبصر ، والعلم ، والقدرة ، والإرادة ، والاستواء ، والوجه ، واليد .

وسمى نفسه بأسماء : كالعليم ، والسميع ، والبصير ، والقدير .

وأخبر عن نفسه بأفعال ، كخبره أنه يحب ، ويكره ، ويرضى ، ويغضب ، وينزل إلى السماء ، إلى غير ذلك من الصفات والأسماء والأفعال .

فيقال للمؤول : هل تؤول هذه كلها على خلاف ظاهرها ؟ .

أم تفسر الجميع على ظاهره وحقيقته ، مثبتاً للحقائق ، نافياً للمماثلة ؟ .

أم تثبت البعض ، وتؤول البعض ، على سبيل التفرقة التي ستعجز عنها ؟

فإن اخترت الأول [1] كان ذلك عنادا وكفرا صريحاً وجحدا للربوبية .

وبيـــان ذلك :

إنه لا يعقل إله مجرد عن الأسماء والصفات ، كما لا يوجد إنســان مجـرد عن ذلك ، كأن تقـول : هنا إنسان لا طويل ولا قصير ، ولا متحرك ولا ساكن ، ولا جاهل ولا عالم ، ولا في الشرق ولا في الغرب ، ولا في الشمال ولا في الجنوب ، ولا فوق ولا تحت ، وهكذا دواليك ، فهل هذا إلا سفسطة وجنون ؟

والظاهر أن الواضع لهذا المذهب الباطل كان قصده الجحد المحض ، فأخذ يسبكه في قوالب التنزيه ، ويبرزه بهذه المناهج ، تارة بزعم التأويل ، وأخرى بزعم المجاز ، حتى غلا بعضهم وزعم أن أفعال الله مجازية حتى خلقه السموات والأرض ، وأخذ أهل هذا المذهب الحذاق ـ الذين جاءوا من بعد الواضع ـ يلطفونه بإقـرار البعض وإنكـار البعض ، ومـآل هذا القـول نبذ الكتاب والسنـة ، وتفضيـل طريقـة المتفلسفـين ـ الوارثـين علومهم عن الفـلاسفة ـ والصابئة الضالين عن منهج القرآن والسنة ومنهج الصحابة والتابعين والأئمة المهتدين .

وإن اخترت الثاني [2] فلا كلام وهو المطلوب .

وإن اخترت الثالث [3] :

فيقال لك : ما الفرق بين ما أثبته وبين ما نفيته من السمع

---

(١) تأويل الجميـع .

(٢) إثبات حقائق الصفات مع نفي المماثلة .

(٣) إقرار البعض وتأويل البعض .

والعقل ؟ وما الذي سوغ لك تأويل بعض الصفات دون بعضها ؟ فدلالة النصوص على اتصافه تعالى بالعلم ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والقدرة ، والإرادة ، كدلالتها على اتصافه بالوجه ، واليدين ، والحب ، والبغض ، والرحمة ، والمحبة ، والقدرة ، فلم أثبت تلك ، ونفيت هذه ؟ وأولت المحبة والرحمة بالإرادة ، واليد بالقدرة ؟ .

فإن إقرارك ببعض الصفات دون البعض يلزمك نظير ما فررت منه ، كما ستراها الآن .

فإن قلت : إثبات الإرادة والمشيئة لا يستلزم تشبيهاً ولا تجسيماً ، وإثبات حقائق هذه الصفات يستلزم ذلك ، لأنها لا تعقل إلا في الأجسام ، حيث أن الرحمة رقة تعتري طبيعة الحيوان ، والمحبة ميل النفس لجلب ما ينفعها ، والغضب غليان دم القلب ، واليد للجارحة ..

قلنا : وكذلك الإرادة هي ميل النفس لجلب ما ينفعها ، ودفع ما يضرها ، وكذلك جميع الصفات من العلم ، والسمع ، والبصر ، والحياة ، والقدرة ، هي أعراض قائمة في الأجسام في الشاهد .

لأن العلم انطباع صورة المعلوم في نفس العالم ، والقدرة صفة تؤثر في المقدورات ، وهكذا بقية الصفات .

فكيف لزم التشبيه فيما قلنا ، ولم يلزم فيما قلتم ؟ .

وهنا لا محيص من الإقرار أو الإنكار ، فما تؤولونه من الصفات يلزمكم فيه نظير ما فررتم منها ، كما رأيتم .

فررتم من اليد ، وقلتم بالقدرة ، وما هي إلا عرض في الشاهد المحسوس ، والله منزه عن ذلك .

فإن قلتم : ليس كقدرتنا ، قلنا : ويده ليست كيدنا .

فررتم من اتصافه بالغضب ، والرحمة ، والمحبة ، بزعمكم هي أعراض بشرية ، وأولتم بالإرادة ، وقد رأيتم مآل الإرادة ، ومآل هذه الصفات .

فإن قال المعطل : أقر بالخالق للعالم ، ولا أصفه بصفة يتصف بها المخلوق ، وحيث جاء الوصف أولته .

فالجواب : هذه الأسماء الحسنى والصفات التي وصف بها نفسه ، هل تدل على معان ثابتة هي حق في نفسها ، فإن العليم معناه من اتصف بالعلم ، والسميع من اتصف بالسمع ، وهكذا البقية ، ولا يعقل عليم بلا علم ، ولا سميع بلا سمع ، أم لا تدل على ما قلنا ؟ . فإن اخترت الثاني كان ذلك غاية التعطيل ، ومآل هذا القول جحد الربوبية .

فمن أقر بصفات المعاني كالأشعرية أو المعنوية كالمعتزلة ، يلزمه فيما أقر نظير ما أول .

وإن أنكر الأسماء كلها ، والصفات بأسرها ، وأثبت إلهاً مجرداً من الصفات ، قلنا : هذا إقرار باطل ، ولا يفيده شيئاً ، وملحد متستر ، إذ لا يعقل خالق أو مخلوق مجرداً من الصفات .

وإن اخترت الأول : وهو أنها تدل على معان ثابتة ، وأولت البعض ، طالبناك بالفرق المسوغ ، فإن لجأت إلى العقل فقد بينا لك بطلان ذلك الالتجاء ، وإن حكمت الإجماع وقلت : ما أثبته دل عليه الإجماع ، لأنه لا يستلزم التشبيه ، وما أثبتم لا يدل عليه الإجماع ، لأنه يستلزم ذلك ، قلنا : وهذا فاسد حيث يدل بمضمونه أن الإجماع أثبت ما يدل على التشبيه والتجسيم ، لأنهم مسلمون أن هذه الصفات التي أقروا بها ، وإن دلت على ذلك ، فلدلالة الإجماع ، وحينئذ يقال : إن كان الإجماع يدل على ما ظاهره التشبيه ، وهو حجة في نفسه ، فقد بطل نفيكم لذلك ، لأنه انعقد إجماع الصحابة والتابعين على ما قلنا .

فإن قالوا : ما لم يدل على البعض والجارحة نقول به كالعلم والسمع ، وما دل على ذلك كالوجه واليدين والقدم فلا نقول به .

قلنا : بماذا تجيبون المعتزلة والجهمية ؟ . فإنهم يقولون لكم : لو كان له صفة وجودية كالسمع والبصر لكان محلا للأعراض ، ولزم التركيب والتجسيم ، كما تقولون لنا : لو كان له وجه ويد ونحو ذلك للزم التركيب والتجسيم ، فما كان جوابكم لهم ، فهو جوابنا لكم .

فإن قلتم :نحن نثبت هذه الصفات على وجه لا تكون أعراضاً ، فلا يستلزم تركيباً ولا تجسيماً ، قلنا : ونحن نثبت تلك الصفات على ذلك المنهج .

فإن قلتم : ما أثبتموه لا يعقل منه إلا الأجزاء والأبعاض .

قلنا : وتلك الصفات التي أثبتموها لا يعقل منها إلا الأعراض .

فإن قلتم : العرض [1] لا يبقى زمانين ، وصفات الرب دائمة باقية ، فليست أعراضاً .

قلنا : وكذلك الأبعاض هي ما جاز مفارقتها وانفصالها ، وذلك في حق الرب محال ، فليست أبعاضاً ولا جوارح ، فمفارقة الصفات الإلهية للموصوف بها مستحيل مطلقاً في النوعين[2] ، والمخلوق يجوز أن تفارقه أعراضه وأبعاضه .

---

(١) في اصطلاح المناطقة : الجوهر ماقام بنفسه ، وهو الذي تعبر عنه اللغة العربية بالجسم .

والعرض : ما قام بغيره ، كالسواد والبياض في الجسم ، وكذا الصفات كالعلم والقدرة والكرم ، وقولهم : « العرض لا يبقى زمانين » ، قد أثبت العلم الحديث في هذا العصر بطلان هذه النظرية .

(٢) النوعان : الأول : ما دل على البعض والجارحة ، والثاني : ما لم يدل على ذلك .

فإن قلتم : إن كان الوجه عين اليد وعين الأصبع ، فهو محال ، وإلا لزم التمييز والتركيب .

قلنا : إن كان السمع هو عين البصر وهما نفس العلم وهو نفس الحياة والقدرة ، فهو محال ، وإن تميز لزم التركيب .

فما كان جوابكم ، فهو جوابنا .

وزعمهم : إنما أولوا خوفاً من التشبيه .

فجوابنا لهم : إن التشبيه له أدوات مخصوصة (١) كالكاف ، وكأن ، ومثل ، كأن تقول : يد كيد ، وقدرة مثل قدرة ، وكأن عينه مثل عينه .

أما مجرد الإثبات فلا يلزم التشبيه ، فكيف إذا أردفت بما ينفي التمثيل ؟ ! .

فهل بعد هذا النفي يبقى ريب لمرتاب ؟

فإن قالوا : نفيكم للتمثيل لا يفيد مع إثباتكم للحقائق ، والأمور بحقائقها لابظواهر الألفاظ .

---

(١) في علم البلاغة أدوات التشبيه هي ألفاظ تدل على معنى المشابهة كالكاف ، وكأن ، ومثل ، وشبه ، وغيرها ممايؤدي معنى التشبيه كالمضاهاة ، والمحاكاة ، والمشابهة ، والمماثلة ، إذا علمت هذا فاعلم أنه ليس في إثبات الصفات وقرنها بما ينفي التمثيل تشبيه ، لفقد أدوات التشبيه ، والتصريح بما ينفي المثلية .

إن قال قائل : إن التشبيه المؤكد هو ما حذفت منه أداته ، كقول الشاعر :

أنت نجم في رفعة وضياء ... تجتليك العيون شرقاً وغرباً

والتشبيه البليغ ما حذفت فيه أداة التشبيه ووجه الشبه ، كقول الشاعر :

فاقضوا مآربكم عجالا إنما ... أعماركم سفر من الأسفار

فالجواب : إن التشبيه يعرف من القصد ومن سياق الكلام والقرائن ، وإن لم يكن أدواته ، وهنا السياق وعقيدة التوحيد الخالص يدلان على نفيه ، فكيف إذا أردف بما ينفي التشبيه تصريحاً ؟ .

قلنا في الجواب :

أولا : نحن وإن أثبتنا الحقائق ، لكنها إثبات بغير تكييف ، فمن أين جاء التمثيل إذاً ؟ .

وثانياً : إقراركم للبعض من الصفات ، وإنكار البعض منها ، تحت ستار التأويل لا يفيد ، لأن التأويل في الحقيقة إنكار لذلك المعنى المخصوص ، لأنكم صرفتموه إلى غيره ، فبقي المعنى المخصوص معطلا عما هو له .

والخلاصة : أنهم لا يستقيم لهم الأمر إلا باتباع السلف الصالح ، وإلا فلا يزالون متناقضين مضطربين ، ويلزمهم في تأويل ما فروا منه نظير ما فروا إليه .

فصـــــل

أزليـــة الصـــفات

صـــفة الأفعـــــال :

وكل ما أتى من الصـــفات قديمة لله ذي الهبات
وصفة الأفعـــال[1] للسلام قديمة بالنوع كالإنعـــام

ش : بعد أن تكلمنا على رد شبهة المؤولة ، بينا أن صفاته الذاتية والخبرية أزلية كذاته المقدسة ، فالكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات .

وأمـا صفـات الأفعـال كالخلق والإنعام ، والنزول والمجيء والإتيـان ، فقـال الخلف بحـدوثهـا ، وقالت الماتريدية بقدمها ، والصحيح الذي عليه المحققون أنها قديمة النوع حادثة الآحاد .

وقد تأثر كثيرون من أهل السنة في أفعال الله الاختيارية بكلام المعتزلة : (إن ما حل به الحادث فهو حادث ، فإذا كان الله أزلياً لا أول له ، وهذه الحوادث تحدث شيئاً بعد شيء ، فيكون محلا للحوادث ، وهو منزه عن ذلك) .

ولم يعلموا أن هذا ليس من كلام السلف وأئمتها ، وقد أراد المعتزلة بنفي حلول الحوادث أن لا يتكلم بقدرته ومشيئته ، ولا

---

(١) قد سبق في التعاليق وهي التي تتعلق بمشيئته ، إن شاء فعلها ، وإن شاء لم يفعلها ، كالخلق والإنعام والاستواء والنزول ونحو ذلك مما جاء في الشرح .

ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا ، ولا يأتي يوم القيامة ، ولا يقوم به فعل البتة ، ولا يريد شيئاً بعد أن لم يكن مريداً له .

فلا يقول : كن حقيقة ، ولا استوى على عرشه بعد أن لم يكن مستوياً ، وقالوا : هذه كلها حوادث ، وهو منزه عن حلول الحوادث .

والحق أن القول بقدم النوع وحدوث الآحاد هو القول الوسط في هذا الباب بين القولين الأولين .

أسـماء الله توقيفية

أسماء ربي الملك المعبود موقوفة أيضاً على الــورود

ش : أي أن أسماء الرب تبارك وتعالى لا تطلق عليه إلا ما ورد الشرع به ، ولا يطلقون ما ورد المنع به ، واختلفوا حيث لا إذن ولا منع ، فجوزه بعضهم إذا أشعر المدح ، وجوزته المعتزلة مطلقاً ، ومال إليه بعض الأشاعرة ، والحق أنها توقيفية كما سبق .

ثم اعلم أن المراد بأسمائه تعالى ما دل على مجرد ذاته كالله ، أو باعتبار الصفة كالعالم والقادر .

قال المحقق ابن القيم ـ رحمه الله ـ : أسماء الله هي أسماء ونعوت ، فإنها دالة على صفات الكمال ، فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية ، فالرحمن اسم له ، ووصف له ، ووصفه لا ينافي اسميته . فمن حيث هو صفة جرى تابعاً على اسم الله ، كقوله تعالى : (**بسم الله الرحمن الرحيم**) ، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع مثل قوله تعالى : (**الرحمن علم القرآن**) ، والحق أن الاسم غير المسمى .

تنبيه : إحصاء أسمائه الحسنى والعلم بها أصل العلم بكل

معلوم ، فإن المعلومات سواه إما أن تكون خلقاً له أو أمراً ، والعلم إما علم بما كونه أو علم بما شرعه .

ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى ، ولهذا كلها حسن لا تخرج عن مصالح العباد والرحمة بهم ، فأمره كله مصلحة ورحمة ، وفعله عدل لا يخرج عن الحكمة .

ووقع اختلاف في معنى إحصاء أسمائه الحسنى ، فقيل : إحصاء ألفاظها وعددها ، وقيل : فهم معانيها ومدلولها ، وقيل : دعاؤه بها .

المستحيل والجائز

ضد الوجوب مستحيل قد بدا   وغير ذين جائز فلترشدا
كخلقه العالم إرزاق الغنى   وخلقه الشرور أيضاً استبنا

ش : بعد أن أنهينا الكلام عن الصفات الواجبة لله تعالى ، بينا هنا في هذين البيتين المستحيل والجائز .

ومعنى المستحيل : ما لا يتصور في العقل ثبوته ، فضد العلم الجهل ، وضد السمع والبصر الصم والعمى ، وضد البقاء الفناء ، وضد الحياة الموت ، وهكذا القول في سائر الصفات .

وبالجملة : فكل ما نافى صفات الكمال الثابتة لله فهو منزه عنه مستحيل عليه ، فإن ثبوت أحد الضدين يستلزم نفي الآخر ، فإذا علم أنه موجود واجب الوجود بنفسه ، وأنه أزلي ، علم امتناع العدم والحدوث[1]، وأنه غني عما سواه ، وهذا هو الفرق بين ما نثبت له وبين ما ننفي عنه .

---

(١) وكل ما جاز عليه العدم   عليه قطعاً يستحيل القدم

وأما الجائز : فهو ما يصح عدمه ووجوده كخلقه العالم ، فإن شاء أوجـده ، وإن شاء تركه ، وإرزاقه الغنى لشخص ، وفقره لآخر ، وكل ما لم يكن واجباً ولا مستحيلاً فهو جائز .

وذلك بأنـه الفعـال لما يريـد ، قال تعـالى :(**وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد ، فعّال لما يريد**)[1] .

وقال تعالى : (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار، إن الله يفعل ما يريد)[2] .

---

(١) البروج : ١٤ ، ١٥ ، ١٦ .
(٢) الحج : ٢٣ .

فصل

في الاستواء

اعلم أخا الذكاء والعرفان ... إثبات الاستواء للرحمن

قال به جميع أهل العلم ... من كل ذي ديانة وفهم

التابعين سنة العدنان ... أهل الحديث عسكر القرآن

مخالف للسلف العدول ... فقوله انبذ ليس بالمقبول

سبحانه وبحمده قد استوى ... كما أتى ليس له العرش حوى

واسمع إذاً مقال ذي العصيان ... مخالف الإله والمنان

كقوله في حق ذي الآلاء ... في صفة استوى بالاستيلاء

وجاء الاستواء في الكتاب ... في سبع آيات بلا ارتياب

واقرأ لما عن النبي ورذا ... في ذا المرام واتبعنّ أحمدا

وما أتى عن صحبه والتابعين ... لنهجهم والعلماء العاملين

ش : أفردت الكلام عن الاستواء ، وما اكتفيت بعده في الصفات التي قد مضت ، مع صفة الوجه واليدين وما إلى ذلك من الصفات الخبرية ، لأن كلام العلماء قد كثر في هذا الباب ، حتى أفرد بعض أهل العلم هذه الصفة بتأليف مستقل لكثرة مشاغبات المتكلمين من الجهمية والمعتزلة والخوارج وبعض الأشاعرة ، حيث أنه أصبح الاستواء لله ميداناً للمناظرة والجدل والتفسيق والتضليل .

فأقول وبالله التوفيق ، وبيده أزمة التحقيق :

الكلام في هذا الباب على خمسة أقسام :

١ – معنى الاستواء في لغة العرب .

٢ – إيـراد الأدلة على ثبـوت الاستواء من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين والأئمة المهتدين .

٣ – إيراد البراهين العقلية .

٤ – إبطال الشبه النقلية .

٥ – إبطال الشبه العقلية .

إليك بيان الأول : **فنقول** :

إن لفظ الاستواء في كلام العرب الذي خاطبنا الله بلغتهم ، وأنزل بها كلامه ، نوعان : مطلق ، ومقيد .

فالمطلق : ما لم يوصل معناه بحرف كقوله : (**ولما بلغ أشده واستـوى**) ، وهـذا معنـاه كمل وتم ، يقال : استوى النبات ، واستوى الطعام .

وأما المقيد : **فثلاثة أنواع** :

أحدها : مقيد بإلى ، كقوله تعالى :
(**ثم استـوى إلى السماء**) ، واستوى فلان إلى السطح والغرفة ، وقد ذكر الله هذا المعّدى بإلى في موضعين من كتابه .

الأول : في سورة البقرة في قوله تعالى : (وهو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء ......) .

والثاني : في سورة السجدة ، قال تعالى : (**ثم استوى إلى السماء وهي دخان**) .

فالاستواء في الآيتين بمعنى العلو والارتفاع .

قال أبو العالية الرباحي :

استوى إلى السماء ، أي ارتفع ، نقله عنه البخاري في صحيحه ، ورواه محمد بن جرير في تفسيره عن الربيع بن أنس .

وثانيها : مقيد بعلى[1] كقوله تعالى : (**لتستووا على ظهوره**) ، وقوله تعالى : (**واستوت على الجودي**) ، وقوله تعالى : (**فاستوى على سوقه**) .

وهذا أيضاً معناه العلو والارتفاع والاعتدال بإجماع أهل اللغة ، ولا ينافي العلو والارتفاع ما فسره بعضهم باستقر في قوله تعالى : (واستوت على الجودي) أي استقرت ، لأنها مع كونهامستقرة عليه ، هي عالية ومرتفعة عليه .

كما لا ينافي تفسير بعضهم لقوله تعالى : (**ثم استوى إلى السماء**) بمعنى قصد أو صعد ، لأنه إذا تعدى بإلى أفاد القصد مع العلو وضعاً ، يقال : استوى إلى كذا بمعنى قصد إليه مستعليا عليه .

وثالثها : المقرون بواو مع التي تعدي الفعل إلى المفعول معه ، نحو : استوى الماء والخشبة ، بمعنى ساواها .

وهذه معاني الاستواء المعقولة في كلامهم ، ليس فيها معنى استولى البتة ، ولا نقله أحد من أئمة اللغة الذين يعتمد قولهم .

وإنما قاله متأخرو النحاة وبعض المتأخرين ممن كتب في اللغة ، ممن تأثر بآراء المعتزلة والجهمية .

وسنأتي إن شاء الله تعالى في رد الشبه النقلية ببطلان تفسير الاستواء بالاستيلاء .

---

(١) إذا تعدى الاستواء بالحرف ، فإن معناه في غاية الظهور ، فليس فيه إجمال يحتاج معه إلى التفصيل ، ولا هو من الألفاظ المشتركة التي تحتمل أكثر من معنى ، ولا هو منقول من حقيقته إلى مجازه ، بل إذا تعدى بعلى الموضوعة للاستعلاء كان نصاً في العلو لا يحتمل معنى آخر .

والحاصل أن عبارات السلف في تفسير الاستواء لم تخرج في معانيها عن الألفاظ الأربعة التي ذكرناها في النظم ، وهي استقر ، وعلا ، وارتفع ، وصعد .

وقد اختار أبو عبيدة صاحب الإمام أحمد بن حنبل في تفسير الاستواء المعنى الرابع وهو (صعد) .

والمعاني الثلاثة غير العلو ليس فيها ما ينافي العلو ، إلا أن لفظة استوى في اللغة إذا عدي بعلى لا يمكن أن يفهم منها إلا العلو والارتفاع ، وأما إذا كان غير معد بعلى فقد يأتي لمعان آخر ، مثل صعد واستقر وبمعنى علا .

وقد ذكر العلامة ابن جرير ـ بعد كلام على لفظة استوى ـ فقال :

وأولى المعاني بقول الله تعالى : **(ثم استوى إلى السماء)** : علا عليهن وارتفع ، ثم رجح تفسير الاستواء بالعلو ، وأبدى عجبه ممن أنكر هذا المعنى المفهوم من كلام العرب وتأوله بتأويل مستنكر .

ونقل تفسير الاستواء بمعنى العلو والارتفاع عن الربيع ابن أنس [١] .

الأدلة من القرآن

قد جاء الاستواء في الكتاب   في سبع آيات بلا ارتياب

ذكر الله الاستواء في سبعة مواضع من القرآن هي :

---

(١) ا ـ هـ من (تفسير ابن جرير) الجزء الأول ، ص : ٤٢٨ ، طبعة دار المعارف بمصر .

١ - قال تعالى : (**إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش**)[١] .

٢ - وقال سبحانه : (**إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش**)[٢] .

٣ - وقال سبحانه : (**الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش**)[٣] .

٤ - وقال سبحانه : (**الرحمن على العرش استوى**)[٤] .

٥ - وقال سبحانه : (**ثم استوى على العرش الرحمن**)[٥] .

٦ - وقال سبحانه : (**الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش**)[٦] .

٧ - وقال سبحانه : (**هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش**)[٧] .

بعض الأحاديث الواردة في الاستواء :

واقرأ لما عن النبي وردا في ذا المرام واتبعن أحمدا

وردت أحاديث كثيرة مصرحة بفوقيته.

١ - أحاديث المعراج وهي متواترة ، وقد ثبت ثبوتاً لا يرقى

---

(١) الأعراف : ٥٤ .
(٢) يونس : ٢ .
(٣) الرعد : ٢ .
(٤) طـه : ٥ .
(٥) الفرقان : ٥٩ .
(٦) السجدة : ٤ .
(٧) الحديد : ٤ .

إليه شك ولا ريب أنه ﷺ أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم نصب له المعراج ، فرقي إلى سماء الدنيا ، ثم إلى السماء الثانية ، حتى تجاوز السماء السابعة إلى مستوى سمع فيه صرير الأقلام ، وخاطبه الرب ، وفرض عليه خمسين صلاة ، فلم يزل يراجع ربه بإشارة من موسى عليه السلام طالباً منه التخفيف حتى جعلها خمسة (١) .

٢ - وفي الصحيحين قال : قال رسول الله ﷺ : « لما خلق الله الخلق ، كتب في كتاب وهو عند فوق العرش ، إن رحمتي تغلب غضبي » .

وفي لفظ : « وهو مكتوب عنده فوق العرش » .

٣ - وفي صحيح مسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « والذي نفسي بيده ، ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطاً حتى يرضى عنها » .

٤ - وفي الصحيحين ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الفجر وفي صلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ربهم - وهو أعلم - كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناكم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون » .

---

(١) إن في أحاديث المعراج وصعود النبي ﷺ إلى ربه تبارك وتعالى وخطابه له وقع الخلاف ، هل رآه ببصره أو ببصيرته لدليل ساطع وبرهان قاطع على علو الله على عرشه ، فلو كان في كل مكان - كما يقول الجهمي والمعتزلي لما كان معنى لعروج المصطفى ﷺ إذ يكون تحصيل حاصل ، ثم إنه سبحانه وتعالى يكرر استواءه على عرشه في سبع آيات من القرآن ، يخص العرش بذلك ، فلو لم يكن له معنى زائداً على قهره للكون واحتوائه له لما كرر ذكر الاستواء .

٥ – وفي جامع الترمذي ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أن رسول الله ﷺ قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » .

قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

٦ – وفي صحيح البخاري ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : « كانت زينب تفتخر على أزواج النبي ﷺ وتقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجني الله من فوق سبع سموات » .

٧ – وأخرج مسلم ، وأبو داود ،والنسائي ، وغير واحد من الأئمة ، عن عطاء بن يسار ، عن معاوية بن الحكم السليمي قال : كانت لي غنم بين أحد والجوانية فيها جارية لي ، فاطلعتها ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب منها بشاة ـ وأنا رجل من بني آدم ـ فأسفت ، فصككتها ، فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له ، فعظم ذلك علي ، فقلت : يا رسول الله أفلا أعتقها ؟ قال : « ادعها ، فدعوتها ، وقال لها : أين الله [١] ؟ قالت : في السماء ، قال : من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله ، قال : اعتقها ، فإنها مؤمنة » .

---

(١) يقول سيد المرسلين ورسول رب العالمين للجارية : أين الله ؟ ، ويجاهر الجهمي ومن نحا نحوه بأنه لايجوز أن يقال : أين الله ؟ كما لا يجوز أن يقال : متى كان ؟ وكيف هو ؟ ! فانظر كيف أتوا بقول باطل بين حقين .

فالباطل قولهم بعدم جواز قول : أين الله ، والحقان قول : متى ، وكيف ، فلا أدري أهؤلاء أعلم بالله من رسوله ، أم ترهات الفلسفة أعمت أبصارهم وبصائرهم ، وأضلتهم عن سواء السبيل ، وجعلتهم يتجرؤون بكل وقاحة بلا خجل ولا حياء ؟ .

ولاشك أن هذه جرأة عظيمة وزلة كبيرة ، إذ مضمونها أنهم أعلم من الله ورسوله ﷺ ، وأنه يجوز لهم أن يشرعوا الأحكام بالجواز والوجوب وغيرهما .

ومن المعلوم أن المشرع هو الله ، ثم رسوله ﷺ ، فهؤلاء جهلوا رسوله ﷺ ، ونصبوا أنفسهم في مقام التشريع الذي هو من حق الربوبية . =

وهذا الحديث من الأحاديث المتواترة كما قال الذهبي في العلوّ .

٨ - حديث أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ؟ ، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً » . متفق عليه .

٩ - أخرج البخاري ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب - ولا يصعد إلى الله إلا طيب - فإنها يتقبلها بيمينه ، ويربيها لصاحبها حتى تكون مثل الجبل » .

١٠ - وأخرج النسائي ، عن سعد بن أبي وقاص ، أن النبي ﷺ قال لسعد بن معاذ : « لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سموات » . أي في بني قريظة .

وورد في حديث مرسل ، عن محمد بن كعب بن مالك : أن سعد بن معاذ لما حكم في بني قريظة قال له رسول الله ﷺ : « لقد حكمت حكماً ، حكم الله به من فوق سبعة أرقعة » .

= فقل لي بربك : هل يجتمع الإيمان بالله وبرسوله ﷺ مع الرد على رسوله وتجهيله ﷺ ؟ .

ويقولون : إن هذا لا يجوز ، مع أن الرسول ﷺ هو السائل ، وهو المجاب ، وقد صرح بأن الجارية مؤمنة ،ومع ذلك ينفون هذا كله ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم : (**ربنا أفرغ علينا صبراً ، ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا**) .

وليس العجب من الجهمي والمعتزلي ، وإنما العجب كل العجب ممن ينتسب إلى السنة ، ويؤلف كتباً في التفاسير والأحاديث ، ثم يجهر بهذا القول المخالف لجميع الشرائع السماوية ولسائر الآيات القرآنية ولجميع السلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة المهتدين .

فإذا كان هذا شأنه ، فمتى صحت نسبته إلى السنة ؟! وكم لهؤلاء من أقوال صريحة في خلاف ما عليه سلفنا الصالح ، هدانا الله وإياهم إلى سواء السبيل .

إلى غير ذلك من الأحاديث التي لو ذهبنا في تعداد إيرادها لطال بنا الكلام ، ولكن نحيل القاريء إلى كتاب اجتماع الجيوش الإسلامية للعلامة ابن القيم ، وإلى كتاب العلو للحافظ الذهبي .

وبالجملة : فالنصوص الواردة المتنوعة المحكمة على علو الله على خلقه ، وكونه فوق عباده ، تقرب من عشرين نوعاً .

فهاك بعض هذه النصوص :

١- التصريح بالفوقية مقروناً بأداة (من) المعينة للفوقية بالذات ، في قوله تعالى : (**يخافون ربهم من فوقهم**) .

٢ - ذكرها مجردة عن الأداة ، كقوله تعالى : (**وهو القاهر فوق عباده**) .

٣ - التصريح بالعروج ، نحو قوله تعالى : (**تعرج الملائكة والروح إليه**) .

٤ - التصريح بالصعود إليه كقوله تعالى : (**إليه يصعد الكلم الطيب**) .

٥ - التصريح برفعه بعض المخلوقات كقوله تعالى : (**بل رفعه الله إليه**) .

٦ - التصريح بالعلو المطلق الدال على جميع مراتب العلو ذاتاً وقدراً وشرفاً ، كقوله تعالى : (**وهو العلي العظيم**) ، وقوله تعالى : (**وهو العلي الكبير**) .

٧ - التصريح بتنزل الكتاب منه ، كقوله تعالى : (**تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم**) ، وقوله تعالى : (**تنزيل من الرحمن الرحيم**) .

٨ - التصريح بأنه تعالى في السماء ، كقوله تعالى : (**أأمنتم**

من في السماء أن يخسف بكم الأرض) ، وهذا عند المفسرين من أهل السنة على أحد وجهين : إما أن يكون (في) بمعنى (على) ، وإما أن يراد بالسماء العلو ، لا يختلفون في ذلك ، ولا يجوز الحمل على غيره .

٩ - التصريح بالاستواء مقروناً بأداة (على) مختصاً بالعرش الذي هو أعلى المخلوقات .

١٠ - التصريح برفع الأيدي إلى الله ، كقوله ﷺ : « إن الله يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً » .

١١ - الإشارة إليه حساً إلى العلو ، كما أشار إليه من هو أعلم بربه لما كان بالمجمع الأعظم حيث قال لهم : « أنتم مسؤولون عني ، فماذا أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فرفع إصبعه الكريم إلى السماء ، رافعاً لها إلى من هو فوق كل شيء قائلا : اللهم اشهد » .

١٢ - التصريح بلفظ أين ، كقول أعلم الخلق به ، وأنصحهم لأمته ، وأفصحهم بياناً عن المعنى الصحيح ، بلفظ لا يوهم باطلا بوجه ما (أين الله) في غير موضع .

١٣ - شهادته ﷺ لمن قال : إن ربه في السماء بالإيمان [١] .

فهذه ثلاثة عشر نوعاً من الأدلة التي تثبت فوقيته [٢] واستواءه جل جلاله ، وتركنا بقيتها خوف الإطالة .

---

(١) ا ـ هـ ملخصاً من شرح الطحاوية ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

(٢) قد أولت المعطلة فوق في نحو قوله تعالى : **(وهو القاهر فوق عباده)** ، بأنه خير من عباده ، وأفضل منهم ، وأنه خير من العرش ، وأفضل منه ، كمايقال : الأمير فوق الوزير ، والدينار فوق الدرهم .

فالجواب أن يقال : =

= هذا التأويل مما تنفر منه العقول السليمة ، فإن قول القائل ابتداء : « الله خير من عباده ، وخير من عرشه » من جنس قوله : الشمس أضوأ من السراج ، والسمـاء أعلى من شقة الدار ، ورسول الله أفضل من اليهود ،والسماء فوق الأرض ، وليس في ذلك تمجيـد ولا تعـظيم ولا مدح ، بل هو من أرذل الكلام وأسمجه وأهجنه ، فكيف يليق هذا بكلام الله الذي لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لما أتوا بمثله ؟ بل في ذلك تنقيص كما قيل في المثل السائر :

ألم تر أن السيف ينقص قدره   إذا قيـل أن السيف أمضى من العصـا

ولو قال قائل : الجوهر فوق قشر البصل وقشر السمك لضحك منه العقلاء للتفاوت الذي بينهما ، فإن التفاوت الذي بين الخالق والمخلوق أعظم وأعظم ، بخلاف ما إذا كان يقتضي ذلك بأن كان احتجاجاً على مبطل ، كما في قول يوسف الصديق عليه السلام . **(أأربابٌ متفرقون خير أم الله الواحد القهار)** . ا هـ من شرح الطحاوية ص ٢٢٠ .

أقـوال الصـحـابة
رضي الله تعالى عنهم

وما أتى عن صحبه والتابعين　　لنهجهم والعلماء العاملين

١ - قول أبي بكر الصديق :

قال البخاري في تاريخه : قال محمد بن فضيل ، عن فضيل ، عن غزوان ، عن نافع ، عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : لما قبض رسول الله ﷺ ، دخل أبو بكر - رضي الله عنه - فأكب عليه ، وقبل جبهته ، وقال : بأبي أنت وأمي طبت حياً وميتاً ، وقال : « من كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله في السماء حي لا يموت » .

٢ - قول عمر بن الخطاب :

لقي عمر بن الخطاب خولة بنت ثعلبة فاستوقفته ، فوقف لها ، ودنا منها ، وأصغى إليها حتى قضت حاجتها ، فلما ليم على ذلك الوقوف ، لكونه حبس رجالا من قريش لأجل العجوز ، قال للّائم : ويلك تدري من هذه ؟ ، قال : لا ، قال : هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات .

٣ - وهذا عبد الله بن رواحة يقول :

شهدت بأن وعد الله حق　　وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف　　وفوق العرش رب العالمينا

٤ - وهذا حسان بن ثابت يقول :

شهدت بإذن الله أن محمداً   رسول الذي فوق السموات من عَلِ

٥ - وأما قول الصحابة كلهم :

فهو ما روي عن عدي بن العمرية قال : خرجت مهاجراً إلى النبي ﷺ ، فذكر قصة طويلة ، وقال فيها : فإذا هو ومن معه يسجدون على وجوهم ، ويزعمون أن إلهم في السماء ، فأسلمت وتبعته .

٦ - قول ابن عباس (١) .

وفي مسند الحسن بن سفيان ، وكتاب عثمان بن سعيد الدارمي ، من حديث عبد الله بن أبي مليكة ، أنه حدثه ذكوان قال : استأذن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ على عائشة ـ رضي الله عنها ـ وهي تموت ، فقال : « كنت أحب نساء النبي ﷺ إليه ، ولم يكن رسول الله ﷺ يحب إلا طيباً ، وأنزل الله براءتك من فوق سبع سموات ، جاء بها الروح الأمين ، فأصبح ليس مسجد من مساجد الله يذكر فيها إلا وهو يتلى فيها آناء الليل وآناء النهار » .

---

(١) ذكرنا قول ابن عباس بعد أقوال الصحابة كلهم من باب ذكر الخاص بعد العام ، وفي القرآن الكريم : (**قل من كان عدواً لله وملائكته وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين**) .

لأنه حبر الأمة ، وترجمان القرآن ، ومنزلته العلمية بين الصحابة غير خافية .

أقـــوال بعض التابعين
رحمهم الله تعالى

١ - قول مسروق :

قال الذهبي : قال : الثقة ، عن علي بن الأرقم ، عن مسروق : إنـــه كان إذا حدث عن عائشـــة قال : « حدثتني الصديقة بنت الصـــديق ، حبيبة حبيب الله ، المبرأة من فوق سبع سموات » . إسناده صحيح .

٢ - قول قتادة :

قال الدارمي : أخبرنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا أبو هلال ، حدثنا قتادة قال : « قالت بنو إسرائيل : يارب أنت في السماء ، ونحن في الأرض ، فكيف لنا أن نعرف رضاك وغضبك ، قال : إذا رضيت استعملت عليكم خياركم ، وإذا غضبت استعملت عليكم شراركم » .

قال الحافظ الذهبي هذا ثابت عن قتادة أحد الحفاظ الكبار .

٣ - قول سليمان التيمي :

قال ابن أبي خيثمة : حدثنا هارون بن معروف قال : حدثنا ابن ضمرة ، عن صدقة التيمي ، عن سليمان التيمي قال : « لو سئلت : أين الله ؟ لقلت : في السماء » .

٤ - قول مقاتل :

ذكر البيهقي - في الأسماء والصفات - عن مقاتل : « بلغنا والله أعلم في قوله عز وجل : (**هو الأول والآخر والظاهر والباطن**) .

الأول قبل كل شيء ، والآخر بعد كل شيء ، والظاهر فوق كل شيء ، والباطن فليس دونه شيء .

وإنما يعني القرب بعلمه وقدرته ، وهو فوق عرشه ،وهو بكل شيء عليم ، فيعلم نجواهم ، ويسمع كلامهم ، ثم ينبئهم يوم القيامة بكل شيء ، وهو فوق عرشه وعلمه معهم » .

٥ - قول التابعين جملة :

روى البيهقي بإسناد صحيح إلى الأوزاعي قال : كنا والتابعين متوافرون نقول : « إن الله جل ذكره فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته » .

وانظر إلى مقال حبر الأمة   تفسيره استوى وكن ذا ثقة
وانظر إلى أصحابه الكرام   مجاهد مقاتل العظام
لهم تفاسير للاستواء   قد تبعوا للعرب العرباء
وهي استقر وعلا وارتفعا   فلتفهمن أقوالهم ولتتبعا
ثم الصعود وهو قول رابع   إلى أبي عبيدة يا تابع

قد تقدم تفاسير أولئك الأئمة الكرام للاستواء ، ولا حاجة إلى الإعادة .

بعض أقـــوال

تابعي التابعين والأئمة المعتبرين

ـ رحمهم الله ـ

واسمع إلى الإمام مالك الأبر
مقاله في الاستوا عنه اشتهر

قال بأن الاستواء معقول
لكنما الكيف بــه مجهول

وقال الإيمان به قــد وجبا
والسؤال عنه بدعة فاجتنبا

قال الإمام الشافعي الأعظم
فيما حكاه البيهقي الأفخم

بأن ربنا قضى الخلافــــة
فوق السماء فانبذن خلافــه

قضــاؤه وصــف له يامتبــع
لم ينفصل عن الإله فاتبــع

هذا وربي واضح البرهــــان
فلتسمعن مقــــالة النعمان

من قال لا أدري بأن العرش في
سمائنا العليا أو الأرض اعرف

فكافر لأنـــه قد أنكـــرا
لكون ربي في السما فاعتُبرا

ومثله لا أعرف الله في السما
أم هذه الغبرا فكفره ســما

قال الإمام أحمــــد بن حنبل
ذو العلم والتقى وذو الفضل الجلي

إن استواءه كمــا قد أخبرا
ولا كما في القلب ياذا خطرا

١ - قول الإمام مالك :

ش : عن ابن وهب قال : كنت عند مالك فدخل رجل فقال : يا أبا عبد الله **(الرحمن على العرش استوى)** ، كيف استوى ؟

فأطرق مالك وأخـذتـه الرحضـاء ، ثم رفـع رأســه فقال : **(الرحمن على العرش استوى)** كما وصف نفسه ، ولا يقال : كيف ؟ ، وكيف عنه مرفوع ، وأنت صاحب بدعة ، أخرجوه .

وروى يحيى ابن يحيى التميمي ، وجعفر بن عبد الله ، وطائفة ، قالوا : جاء رجل إلى مالك فقال يا أبا عبد الله : (**الرحمن على العرش استوى**) كيف استوى ؟ قال : فما رأيت مالكاً وجد من شيء كموجدته من مقالته ، وعلاه الرحضاء - يعني العرق - وأطرق القوم ، فسرّي عن مالك وقال : الكيف غير معقول ، والاستواء منه غير مجهول ،والإيمان به واجب ،والسؤال عنه بدعة ، وإني أخاف أن تكون ضالا ، وأمر به فأخرج .

٢ - قول الإمام الشافعي :

قال الإمام ابن الإمام عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي : حدثنا أبو شعيب وأبو ثور ، عن الشافعي - رحمه الله - قال : القول في السنة التي أنا عليها ، ورأيت أصحابنا عليها ، أهل الحديث الذين رأيتهم ، وأخذت عنهم ، مثل سفيان ومالك وغيرهما ، الإقرار بشهادة : أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأن الله تعالى على عرشه في سمائه ، يقرب من خلقه كيف شاء ، وأن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا كيف شاء .

وصح عن الشافعي أنه قال : خلافة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - حق قضاها الله في سمائه ، وجمع عليها قلوب عباده ، ومعلوم أن المقضي في الأرض ، والقضاء فعله سبحانه وتعالى المتضمن لمشيئته وقدرته .

٣ - قول الإمام أبي حنيفة :

قال - رحمه الله - : من قال : لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض فقد كفر ، لأن الله يقول : (**الرحمن على العرش استوى**) ، وعرشه فوق سبع سموات ، قلت [1] : فإن قال : إنه

---

(١) أي قال أبو مطيع البلخي لأبي حنيفة .

على العرش ، لكن يقول : لا أدري العرش في السماء أم في الأرض ، قال : هو كافر ، لأنه أنكر أن يكون في السماء ، وأنه يدعى من أعلى لا من أسفل[1] .

٤ - قول الإمام أحمد :

روي عن الإمام أحمد أنه قال: استوى كما أخبر ، لا كما يخطر على قلب البشر ، قال الميموني : سألت أبا عبد الله أحمد بن حنبل عمن قال : الله ليس على العرش ، فقال : كلامهم كله يدور على الكفر .

وقال الإمام في كتابه (الرد على الجهمية) ، الذي رواه عنه الخلال من طريق ابنه عبد الله قال :

(باب بيان ما أنكرت الجهمية أن يكون الله تعالى على العرش)

قال تعالى : **(الرحمن على العرش استوى)** ، قلنا لهم : ما أنكرتم أن يكون الله تعالى على العرش ، وقد قال تعالى : **(الرحمن على العرش استوى)** ، فقالوا : هو تحت الأرض السابعة ، كما هو على العرش ، وفي السموات ، والأرض ، وفي كل مكان ، وتلا : **(وهو الله في السموات وفي الأرض)** .

قال أحمد : فقلنا : قد عرف المسلمون أماكن ليس فيها من عظمة الرب شيء ، أجسامكم ، وأجوافكم ، والحشوش ، والأماكن القذرة ، ليست فيها من عظمة الرب شيء .

---

(١) وقال الإمام أبو حنيفة في الفقه الأكبر : وله يد ، ووجه ، ونفس ، كما ذكر الله في القرآن من الوجه ، واليد ، والنفس ، والعين ، فهو له صفات بلا كيف ، ولا يقال : إن يده قدرته أو نعمته ، وإن وجهه ذاته ، وعينه بصره ، واستواؤه على العرش استيلاؤه ، لأن فيه إبطال الصفة ، وهو قول أهل القدر والاعتزال ، ولكن يده صفة بلا كيف ، وغضبه ورضاه صفتان من صفاته بلا كيف .

وقد أخبرنا الله سبحانه أنه في السماء ، فقال تعالى : (**أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور أم أمنتم من في السماء**) ، وقال تعالى : (**إليه يصعد الكلم الطيب**) ، وقال تعالى : (**إني متوفيك ورافعك إلي**) ، وقال تعالى : (**بل رفعه الله إليه**) ، وقال تعالى : (**يخافون ربهم من فوقهم**) .

٥ - قول ربيعة بن عبد الرحمن شيخ الإمام مالك :

عن ابن عيينة قال : سئل ربيعة عن قوله تعالى :
(**الرحمن على العرش استوى**) ، قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق[١] .

٦ - قول عبد الله المبارك :

روى الدارمي ، والحاكم ، والبيهقي ، وغيرهم بأصح إسناد إلى علي بن الحسن بن شقيق قال : سمعت عبد الله بن المبارك يقول :

نعرف ربنا بأنه فوق سبع سموات على العرش استوى ، بائن من خلقه ، ولا نقول كما قالت الجهمية .

وفي لفظ آخر : قلت : كيف نعرف ربنا ؟ قال : في السماء السابعة على عرشه ، ولا نقول كما قالت الجهمية[٢] .

---

(١) يروى مثل هذا القول عن أم سلمة رضي الله عنها .
(٢) من كتاب (الجيوش الإسلامية) .

أقوال كبار أصحاب الأئمة الأربعة
رحمهم الله تعالى

أولا : أصحاب الإمام أبي حنيفة

١ - محمد بن الحسن :

نقل أبو القاسم هبة الله اللالكائي ، والشيخ موفق الدين المقدسي ، وغيرهما بالإسناد ، عن عبد الله بن أبي حنيفة الدبوسي قال : سمعت محمد بن الحسن يقول : اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب عز وجل ، من غير تفسير ولا وصف ولا تشبيه ، فمن فسر شيئاً من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبي ﷺ ، وفارق الجماعة ، لأنه وصفه بصفة لا شيء .

٢ - الطحاوي :

قال ـ رحمه الله ـ في عقيدته ـ بعد الحمدلة والصلاة على الرسول ﷺ ـ : هذا ذكر بيان اعتقاد أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة أبي حنيفة النعمان بن ثابت ، وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم ، وأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني ، وما يعتقدون في أصول الدين ، ويدينون به رب العالمين ، نقول في توحيد الله ، معتقدين بتوفيق الله : إن الله تعالى تبارك اسمه وجلّ ثناؤه ، واحد لا شريك له ، ولا شيء مثله يعجزه ، ولا إله غيره، قديم بلا ابتداء ، دائم بلا انتهاء ـ إلى أن قال : ـ والرؤية لأهل الجنة

حق بغير إحاطة ولا كيفية ، وكل ما في ذلك من الصحيح عن رسول الله ﷺ فهو كما قال ، ومعناه على ما أراد ، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ، ولا يثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام ، ومن لم يتوق النفي والتشبيه زلّ ولم يصب التنزيه - ثم ساق كلاماً طويلا - وقال بعد ذلك : والعرش والكرسي حق كما بين في كتابه ، وهو جل جلاله مستغن عن العرش وما دونه ، محيط بكل شيء وفوقه ، وقد أعجز عن الإحاطة خلقه . ا . هـ .

٣ - قول ملا علي القاري :

قال في كتابه (ضوء المعالي شرح بدء الأمالي) تحت قول الناظم :

ورب العرش فوق العرش لكن ... بلاوصف التمكن واتصال[١]

قال الشارح : رب العرش : أي خالقه ومالكه ، والإضافة للتشريف ، كرب البيت ورب جبريل ، وهو أعظم المخلوقات ، ومحيط بالموجودات ، وقد قال سبحانه : (**الرحمن على العرش استوى**) ، ومذهب الخلف جواز تأويل الاستواء بالاستيلاء [٢] ،

---

(١) نفي عدم التمكن والاتصال لم يرد عن السلف الصالح ، وإنما الوارد عن ابن المبارك وأضرابه من علماء السلف : استوى على عرشه ، بائن من خلقه ، ولا ينبغي أن يزاد عما ورد ، وإن كان القائل يقصد معنى صحيحاً .

(٢) قال الشارح في شرح الفقه الأكبر : إن السلف سلموا ، والخلف أولوا ، وتوسط ابن دقيق العيد فقال : « نقبل التأويل إذا كان المعنى الذي أول به قريباً ومفهوماً من تخاطب العرب ، ونتوقف فيه إذا كان بعيداً » .

وجرى ابن الهمام على التوسط ، بين أن تدعو الحاجة إلى التأويل بخلل في فهم وبين ألا تدعو الحاجة لذلك المرام ، بحسب اختلاف المقام . ا هـ .

أقول : لا ينطبق قول ابن دقيق العيد على تأويل الاستواء بالاستيلاء ، لأن المفهوم من تخاطب العرب أنه بمعنى العلو والارتفاع أو الصعود والاستقرار ، وليس الاستيلاء مما أرادت به العرب ، لأن معناه فاسد كما سبق ، وبيت « قد استوى بشر على العراق » ، مولد محدث لا يحتج به ، وقد أبطل فطاحل العلماء=

ومختار السلف عدم التأويل ، بل اعتقاد التنزيل مع وصف التنزيه له سبحانه عما يوجب التشبيه ، وتفويض الأمر إلى الله[1] وعلمه في المراد به ، كما قال الإمام مالك : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ، والإيمان به واجب .

واختاره إمامنا الأعظم ، وكذا كل ما ورد من الآيات والأحاديث المتشابهات من ذكر اليد والعين والوجه ونحوها من الصفات .

ومنه لفظ فوق في قوله تعالى : **(وهو القاهر فوق عباده)** ، وفي قوله تعالى : **(يخافون ربهم من فوقهم)** ، فلا يؤولونه بالعظمة والرفعة كما قال به الخلف . ا. هـ .

ثانيا : أصحاب الإمام مالك

١ - قول أبي زيد القيرواني :

مؤلف الرسالة في مذهب الإمام مالك : وقول شارحه أبي بكر ابن محمد بن وهب المالكي : قال رحمه الله :

= تفسير الاستواء بالاستيلاء ، وأما ما قاله ابن الهمام في التوسط ، بين أن تدعو الحاجة .. إلخ ، فأي حاجة إلى التأويل هنا ؟ وأي محذور في علو الله على خلقه مع نفي المماثلة والتشبيه ؟؟ . بل المحذور والضلال في نفي العلو ، فتبين ولا تغتر بعباراتهم المزخرفة التي يتبع فيها الآخر الأول من غير وعي وتدبر .

(١) هنا فرق بين التفويض وإثبات الاستواء ، فعبارة الإمام مالك قال : الكيف مجهول ، ولم يقل : الاستواء مفوض علمه ، بل الاستواء معروف في لغة العرب بمعنى العلو والارتفاع ، والكيفية هي المجهولة ، وتعبير الشيخ علي القاري غير دقيق ، فتنبه ، لأن الكثيرين ممن يريدون نقل مذهب السلف أو يريدون أن يقولوا : إننا على مذهب السلف في العقيدة ، يظنون أن تفويض معنى الصفات هو مذهب السلف ، وليس الأمر كذلك ، بل نؤمن بمعنى الصفات كالاستواء والوجه ، ونثبته ونفوض الكيفية لأن الكيفية هى المجهولة ، لأنه كما لا يعلم كنه ذاته جل وعلا ، فكذلك لا يعلم كنه صفاته جل وعلا ، وسيأتي بيان تفصيل في باب مستقل في بيان أخطاء المتكلمين .

أما قوله : ـ أي الماتن ـ إنه فوق عرشه المجيد بذاته ، فإن معنى فوق وعــلا عند جميع العرب واحد ، وفي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تصديق ذلك .

ثم ساق الآيات في إثبات العلو ، وحديث الجارية إلى أن قال :

وقـد تأتي (في) في لغة العرب بمعنى فوق ، وعلى ذلك قوله تعالى : (فامشوا في مناكبها) ، يريد فوقها وعليها .

وكذلك قوله تعالى : **(ولأصلبنـكم في جذوع النخل)** ، يريد عليها .

وكذلك قوله تعالى : **(أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض)** الآيات .

قال أهل التأويل العالمون بلغة العرب : يريد فوقها ، وهو قول مالك مما فهمه عن جماعة ممن أدرك من التابعين مما فهموه عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ مما فهموه عن النبي ﷺ : إن الله في السماء ، بمعنى فوقها وعليها .

فلذلك قال الشيخ أبو محمد :

إنه فوق عرشه المجيد بذاته ، ثم بين أن علوه على عرشه إنما هو بذاته ، لأنه بائن عن جميع خلقه بلا كيف ، وهو في كل مكان من الأماكن المخلوقة بعلمه لا بذاته ، إذ لا تحويه الأماكن لأنه أعظم منها ـ إلى أن قال ـ :

وقوله : **(على العرش استوى)** ، فإن معناه عند أهل السنة على غير الاستيلاء والقهر والغلبة والملك الذي ظنته المعتزلة ومن قال بقـولهم : إنــه بمعنى الاستيـلاء ، وبعضـهم يقول :إنه على المجاز دون الحقيقة ، ويبين سوء تأويلهم في استوائه على عرشه على غير ما تأولوه من الاستيلاء وغيره ما قد علمه أهل العقول أنه

لم يزل مستـوليـاً على جميع مخلوقاته بعد اختراعه لها ، وكان العرش وغيره في ذلك سواء .

فلا معنى لتـأويلهم بإفراد العرش بالاستواء ، الذي هو في تأويلهم الفاسد استيلاء وقهر وغلبة .

ثم قال ما معناه : إفراد ذكره بالاستواء على عرشه بعد خلقه سمواته وأرضه ، وتخصيصه بصفة الاستواء يبين سوء تأويلهم وقبح سبيلهم . ا. هـ .

٢ - قول القاضي عبد الوهاب : إمام المالكية بالعراق من كبار أهل السنة .

صرح بأن الله سبحانه استوى على عرشه بذاته .

نقله شيخ الإسلام عنه في غير موضع من كتبه ، ونقله عنه القرطبي في شرح الأسماء الحسنى .

٣ - قول الإمام الحافظ أبي عمر بن عبد البر :

قال في كتاب التمهيد ، في شرح الحديث الثامن لابن شهاب : عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ : « ينزل ربنا في كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر » .

هذا الحـديث ثابت من جهـة النقـل ، صحيـح الإسنـاد ، لا يختلف أهـل الحـديث في صحته ، وفيه دليل على أن الله في السماء على العرش ،من فوق سبع سموات كما قالت الجماعة ، وهو حجة على المعتزلة والجهمية في قولهم :« إن الله في كل مكان ، وليس على العرش » .

ثم ساق آيات كثيرة في الاستواء وفي العلو ، ورد على من قال : إنه بمعنى استولى ، بأنه مخالف للغة العربية ، وساق حججاً كثيرة

من اللغة ومن النقل ، ورد شبههم في مثل قوله : **(وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله)** .

وقد أطال الحافظ ابن القيم في النقل عنه .

٤ - قول ابن رشد المالكي المغربي قاضي القضاة في عصره :

قال : القول في الجهة ، « وأما هذه الصفة فلم يزل أهل الشريعة من أول الأمر يثبتونها لله تعالى ، حتى نفتها المعتزلة ثم تبعهم على نفيها متأخرو الأشعرية » .

وظواهر الشرع كلها تقتضي إثبات الجهة ، إلى أن قال :

إلى غير ذلك من الآيات التي إن سلط التأويل عليها ، عاد كله مؤولا ، وإن قيل فيها : إنها من المتشابهات ، عاد الشرع كله متشابهاً ، لأن الشرائع كلها مبنية على أن الله في السماء ، وأن منه تنزل الملائكة بالوحي إلى النبيين ، وأن من السماء نزلت الكتب ، وإليها كان المعراج بالنبي ﷺ ، وجميع الحكماء قد اتفقوا أن الله والملائكة في السماء ، كما اتفقت جميع الشرائع على ذلك . ا . هـ .

وقد ابتدعت المعطلة كلمات أدخلوها في باب تنزيه الله تعالى عن مماثلة المخلوقين ، فقالوا بنفي الجسمية ونفي الجهة والتحيز ونحو ذلك من الألفاظ المبتدعة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في التدمرية :

وما تنازع فيه المتأخرون نفيا وإثباتاً فليس على أحد ، بل ولا له أن يوافق أحداً على إثبات لفظه أو نفيه حتى يعرف مراده ، فإن أراد حقاً قبل ، وإن أراد باطلا رد ، وإن اشتمل كلامه على حق وباطل لم يقبل مطلقاً ، ولم يرد جميع معناه ، بل يوقف اللفظ ويفسر المعنى .

قولـــــه :

فلفظ الجهة قد يراد به شيء موجود غير الله فيكون مخلوقاً ، كما إذا أريد بالجهة نفس العرش أو نفس السموات ، وقد يراد به ما ليس بموجود غير الله تعالى ، كما إذا أريد بالجهة ما فوق العالم ، ومعلوم أنه ليس في النص إثبات لفظ الجهة ولا نفيه ، كما فيه إثبات العلو والاستواء والفوقية والعروج إليه ونحو ذلك ، وقد علم أن ما ثم موجود إلا الخالق والمخلوق ، والخالق مباين للمخلوق - سبحانه وتعالى - ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته .

ش : يقول المؤلف :

لفظ الجهة قد يراد به أمر وجودي مخلوق ، كما إذا أريد به الأجرام السماوية أو العرش ، وقد يراد به أمر عدمي ، كما إذا أريد به ما فوق العالم ، ولفظ الجهة لم يرد في الكتاب ، ولا قاله الرسول ﷺ ، ولا تكلم به سلف الأمة ، وإنما الذي ورد وصف الله بالعلو على خلقه ، واستوائه على عرشه ، وأنه تعرج إليه الملائكة والروح ، وقد علم أن ما في الوجود إلا الخالق والمخلوق .

قولـه :

فيقال لمن نفى : أتريد بالجهة أنها شيء موجود مخلوق ؟ فالله ليس داخلا في المخلوقات ، أم تريد بالجهة ما وراء العالم ؟ فلا ريب أن الله فوق العالم مباين للمخلوقات .

وكذلك يقال لمن قال : « الله في جهة » ، أتريد بذلك أن الله فوق العالم ؟ ، أو تريد أن الله داخل في شيء من المخلوقات ؟

فإن أردت الأول فهو حق ، وإن أردت الثاني فهو باطل .

وكذلك لفظ التحيز : إن أراد به أن الله تحوزه المخلوقات ، فالله أعظم وأكبر ، بل قد وسع كرسيه السموات والأرض .

وقد قال الله تعالى : (**وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه**)[1] .

وقد ثبت في الصحاح عن النبي ﷺ أنه قال : « يقبض الله الأرض ويطوي السموات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟ » .

وفي حديث آخر : « وإنه ليدحوها كما يدحو الصبيان بالكرة » :

وفي حديث ابن عباس : « ما السموات السبع ، والأرضون السبع ، وما فيهن ، في يد الرحمن ، إلا كخردلة في يد أحدكم » .

وإن أراد به أنه منحاز عن المخلوقات ، أي مباين لها ، منفصل عنها ، ليس حالا فيها ، فهو سبحانه كما قال أئمة السنة : فوق سمواته على عرشه ، بائن من خلقه . ا . هـ[2] .

ومما سلف يتجلى لنا أن قول ابن رشد بإثبات الجهة ، يريد بالجهة ما فوق العالم ، وأن الله على عرشه ، لا يريد شيئاً موجوداً غير الله فيكون مخلوقاً ، تعالى الله عن ذلك .

فتأويل المعطلة في لفظ الجهة ، وأنها تدل على الجسمية ، حتى قال بعضهم لما قدم بغداد ما معناه : كنت أقول في الجهة حتى قدمت بغداد فأسلمت إسلاماً جديداً ، يعنى أنه لما نفى عن الله علوه على خلقه ومباينته لمخلوقاته ، سمى هذا النفي وهذا التعطيل

---

(١) الزمر : ٦٧ .

(٢) من (التحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية) للشيخ فالح بن مهدي آل مهدي ص ١١٤ ـ ١١٥ .

لصفة علو الله تعالى على خلقه إسلاماً جديداً - أعوذ بالله من غضبه - .

ومن هذه الأقوال الباطلة التى تسبك بسبك التوحيد المحض ، الذي هو في الحقيقة تعطيل محض لصفة العلو سبحانه وتعالى ، يـأخـذك العجب أن يقول مثل هذا القول رجل عالم ، أما قرأ الآيات والأحاديث الدالة على العلو؟ .

ولوفرضنا أن الآيات التي بها الاستواء والعلو قد تفسر بالمجاز الذي لجأوا إليه ، أما كان من الواجب على النبي ﷺ أن يبين تفسـيرهـا لئـلا تشتبه على الناس معانيها فيقعون في التجسيم والتمثيل ؟ ، تعالى الله عن ذلك .

لم يفسر النبي ﷺ تلك الآيات كما أراد المعطلة ، بل زادها تأكيداً وإثباتاً في أحاديث عدة ، كما في حديث الجارية الخرساء قال لها : أين الله ؟ قالت : في السماء ، قال : اعتقها ، فإنها مؤمنة .

وقوله : ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ؟ إلى غير ذلك من الأحاديث ، أسأل الله لي الهداية ولجميع المسلمين .

(١) ومن أقـوال المعـطلة المبتدعة نفي الجسمية ، فإنه مما حصل النزاع في إثباته لله ونفيه عنه ، وبيان كيفية استفسار النافي له أو المثبت أن يقال له : ما مرادك بالجسم ؟

فإن قال : أردت بالجسم معناه في لغة العرب ، وهو البدن الكثيف الذي لايسمى في اللغة جسم سواه ، فهذا المعنى منفي عن الله سبحانه وتعالى عقلا وسمعاً .

---

(١) بدء الكلام من (التحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية) .

وإن قال : أردت به المركب من المادةوالصورة ، أو المركب من الجواهر الفردة ، فهذا منفي عن الله قطعاً ، والصواب نفيه من الممكنات أيضاً ، فليس الجسم المخلوق مركبا من هذه ولا من هذه .

وإن قال : أردت بالجسم ما يوصف بالصفات ، وتمكن رؤيته بالإبصار ، ويتكلم بكلام ، ويسمع ، ويبصر ، ويرضى ، ويغضب ، فهذه المعاني ثابتة لله تعالى ، وهو موصوف بها ، فلا ننفيها عنه لتسمية النفاة للموصوف به جسما .

وإن قال : أردت بالجسم ما يشار إليه إشارة حسية ، فقد أشار أعرف الخلق بالله تعالى بأصبعه رافعاً لها إلى السماء بمشهد الجمع الأعظم مستقبل القبلة في حجة الوداع .

وإن قال : أردت بالجسم ما يقال له : أين ؟ ، فقد سأل أعلم الخلق به بأين منبها على علوه على عرشه .

وإن قال : أردت بالجسم ما يلحقه من وإلى ، فقد نزل جبريل عليه السلام من عنده تعالى وعرج برسوله ﷺ إليه ، وإليه يصعد الكلم الطيب ، وعبده عيسى بن مريم رفع إليه . ا . هـ . (١)

ثالثا : أصحاب الإمام الشافعي

١ - قول الإمام المزني :

قال في رسالته « في السنة » التي رواها أبو طاهر السلفي عنه بإسناده :

---

(١) من المصدر السابق .

بسم الله الرحمن الرحيم :

عصمنا الله وإياكم بالتقوى ، ووفقنا وإياكم لموافقة الهدى ، ثم ذكر أنه سأله سائل أن يوضح له من السنة ، ما يصلح به التمسك ، ويدرأ به عنه الشبه ، فقال :

الحمد لله أحق ما بدأ ، وأولى من شكر ، وعليه أثني ، الواحد الصمد ، ليس له صاحبة ولا ولد ، جل عن المثيل ، ولا شبيه له ولا عديل ، السميع البصير ، العليم الخبير ، المنيع الرفيع ، عال على عرشه ، وهو دان بعلمه من خلقه ، أحاط علمه بالأمور ، ونفذ في خلقه سابق المقدور .

وذهب في كلامه يصف كثيراً من عقائد أهل السنة والجماعة إلى أن قال :ـ

جلت صفاته عن شبه المخلوقين ، وقصرت عنه نظر الواصفين ، قريب بالإجابة عند السؤال ، بعيد بالبعد لا ينال ، عال على عرشه ، بائن من خلقه ، موجود ليس بمعدوم ولا مفقود[١] . ا . هـ .

٢ - قول الإمام ابن خزيمة :

قال : نحن نؤمن بخبر الله جل وعلا ، أن خالقنا مستو على عرشه ، لا نبدل كلام الله ، ولا نقول قولا غير الذي قيل لنا ، كما قالت المعطلة الجهمية : إنه استولى على عرشه لا استوى ، فبدلوا قولا غير الذي قيل لهم ، كفعل اليهود لما أمروا أن يقولوا : حطة ، فقالوا : حنطة ، مخالفين لأمر الله جل وعلا ، كذلك الجهمية .

وقال ـ بعد أن سرد الأخبار الدالة على معراج الرسول ﷺ إلى السماء السابعة ـ :

(١) ملخصاً من كتاب (اجتماع الجيوش الإسلامية) .

وفي الأخبار دلالة واضحة أن النبي ﷺ عرج به من الدنيا إلى السماء السابعة ، وأن الله تعالى فرض عليه الصلوات على ما جاء في الأخبار كلها ، فتلك الأخبار دالة على أن الخالق الباريء فوق سبع سموات ، لا على ما زعمت المعطلة أن معبودهم في منازلهم وكنفهم على ما هو على عرشه قد استوى [1] . ا . هـ .

٣ - قول الإمام البيهقي :

قال : « باب القول في الاستواء » ، قال الله تعالى : (**الرحمن على العرش استوى**) ، وقال تعالى : (**ثم استوى على العرش**) ، وقال تعالى : (**وهو القاهر فوق عباده**) وقال تعالى : (**يخافون ربهم من فوقهم**) ، وقال تعالى : (**إليه يصعد الكلم الطيب**) ، وقال تعالى : (**أأمنتم من في السماء**) ، وأراد من فوق السماء .

كما قال تعالى : (**في جذوع النخل**) ، وقال تعالى : (**فسيحوا في الأرض**) أي على الأرض ، وكل ما علا فهو سماء ، والعرش أعلا السموات .

فمعنى الآية : أأمنتم من على العرش ، كما صرح به في سائر الآيات ، وفيما كتبناه من الآيات دلالة على إبطال قول من زعم من الجهمية بأن الله بذاته في كل مكان .

وقوله تعالى : (**وهو معكم أينما كنتم**) ، إنما أراد بعلمه لا بذاته [2] ا . هـ .

٤ - قول الحافظ ابن حجر العسقلاني :

أطنب في شرحه فتح الباري في تفسير آية الاستواء ، ونقل عن

---

(١) من كتاب (ترجمة صاحب التوحيد) ، وإثبات صفات الرب ص ٦٨ ، ٧٩ .

(٢) من كتاب (العلو للذهبي) ، نقلا عنه في كتابه (المعتقد) .

إسماعيل الهروي ، وابن الأعرابي ، وأبي عبيد ، والفراء ، ومحمد إبن الحسن ، وسفيان الثوري ، وشعبة ، وحماد بن زيد ، وحماد إبن سلمة ، وأبي عوانة ، وغيرهم من علماء السلف ، وسائر الأئمة الأربعة ، واسحاق بن راهويه ، وابن المبارك .

بأنهم متفقون على إجراء ظواهر آيات الصفات وأحاديثها ، وتفويض معنى الكيفية .

كما نقل عن ابن عبد البر ، وإمام الحرمين ، وغيرهما من أئمة أهل السنة ، اختيار مذهب السلف ، والإنكفاف عن التأويل .

نقل الحافظ عن ابن بطال ، الناقل عن أولئك الأجلاء ، نقل مصدق وموافق ومعتقد بذلك .

وقد نقل عن ابن بطال رد قول الجهمية والمعتزلة في تفسير الآية مؤكدا مذهب السلف .

وكفى بالحافظ العسقلاني علماً ، وفضلا ، وحفظا ، وهو من أعلام المحدثين والشافعية .

رابعا : أصحاب الإمام أحمد

أما علماء الحنابلة من زمن الإمام أحمد إلى يومنا هذا ، فهم الذين حملوا لواء هذا المعتقد الصحيح تبعاً لإمامهم ، ونشروه بين المسلمين ، ووقعت بينهم وبين أرباب المذاهب الأخرى مناظرات سجلها التاريخ ،وكلهم على هذا المعتقد ، سوى أفراد قليلين قد نسبوا إلى تأويل بعض آيات الصفات ، ولكن الكثرة الكاثرة منهم قد تقيدوا بالكتاب وبالسنة وبمعتقد الصحابة والتابعين وتابعيهم والأئمة المهتدين ، الذين أحيا الله بهم أهل الشريعة الغراء ، وأمات بهم أهل البدع والأهواء .

ونحن أغنياء عن النقل عنهم لشهرتهم في هذا العلم

الشريف ، ولكن لا بأس أن نذكر بعضاً على سبيل المثال ، لأن كثـيرين من أهل البدع والضلال يزعمون أن الحنابلة النجديين ليسـوا على معتقـد الحنابلة السالفين ، لكونهم اجتهدوا في نشر توحيد الألوهية ، ونشر توحيد الأسماء والصفات ، ما لم يجتهد ويبذل وسعه أكثر أتباع المذاهب الأخرى .

فإلى القـارىء الكريم كلام بعض كبار علماء الحنابلة ممن كانوا في القرون السالفة قبل أن يولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله وأجزل له الأجر والثواب ـ لتكون على بينة من الأمر ، وتعـرف حقيقة الحال ، ولا تغتر بما يروجه بعض المتجاهلين أو الجهال [١] :

---

(١) عقيدة إن الله فوق العرش ، وينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا ، إلى غير ذلك من الصفـات عقيدة الوهابية ، وإن ذلك يستلزم التجسيم والتشبيه ، وإن الأئمة المعتبرين لم يقولوا بهذا فاعلم :

إننا قد سقنا من النقول من الآيات ، والأحاديث ، وعن الصحابة والتابعين ، وتـابعيهم من الأئمة المهتدين ، وأتباع المذاهب المعتبرين ، ما يرد هذا القول السـاقـط ويبطله ، وأنقل لك بالنص زيادة من كلام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ـ أجزل الله له الثواب ـ الذي قام بالدعوة السلفية ، والرجوع إلى الكتـاب والسنـة ،وتـرك التأويل في الأسماء والصفات ، وترك عبادة الأموات والأشجار في توحيد العبودية ، لتعلم أن عقيدته كعقيدة الأئمة المعتبرين ، الأئمة الأربعة ونظرائهم من أعلام المسلمين ـ رحمة الله عليهم أجمعين ـ .

قال رحمه الله في رسالته في الأسماء والصفات : بعد البسملة والحمدلة : الذي نعتقـد ونـدين الله به ، وهـو مذهب سلف الأمـة وأئمتها من الصحابة والتابعين ، والتابعين لهم بإحسان من الأئمة الأربعة وأصحابهم رضي الله عنهم ، وهو الإيمان بآيات الصفات وأحاديثها ، والإقرار بها وإمرارها كما جاءت من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ، قال الله تعالى : (**ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا**) ، وقدر الله لأصحاب نبيه ومن تبعهم بإحسان الإيمان ، فعلم قطعاً أنهم المرادون بالآية الكريمة ، وقال الله : (**والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنـات تجـري من تحتهـا الأنهار**) ، وقال الله تعالى : (**لقد رضي الله عن**

=**المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) الآية** .. فثبت بالكتاب أن من اتبع سبيلهم فهو على الحق ، ومن خالفهم فهو على الباطل ، فمن سبيلهم في الاعتقاد : الإيمان بصفات الله وأسمائه التي وصف بها نفسه ، وسمى بها نفسه ، في كتابه وتنزيله ، أو على لسان رسوله ﷺ ، من غير زيادة عليها ولا نقصان منها ولا تجاوز لها ، ولا تفسير ولا تأويل لها بما يخالف ظاهرها ، ولا تشبه بصفات المخلوقين ، بل أقروها كما جاءت ، وردوا علمها إلى قائلها ، ومعناها إلى المتكلم بها ، وأخذ ذلك الآخر عن الأول ، ووصى بعضهم بعضاً بحسن الاتباع ، وحذرونا من اتباع طريق أهل البدع والاختلاف ، الذين قال الله فيهم ، (**إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء**) ، وقال تعالى : (**ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم**) .

والدليل على أن مذهبهم ما ذكرنا ، أنهم نقلوا إلينا القرآن العظيم وأخبار رسول الله ﷺ نقل مصدق لها ، مؤمن بها ، قابل لها ، غير مرتاب فيها ، ولاشاك في صدق قائلها ، ولم يؤولوا ما يتعلق بالصفات منها ، ولم يشبهوه بصفات المخلوقين ، إذ لو فعلوا شيئاً من ذلك لنقل عنهم ، بل زجروا من سأل عن المتشابه ، وبالغوا في كفه تارة بالقول العنيف وتارة بالضرب ، ولما سئل مالك عن الاستواء ، أجاب بمقالته المشهورة ، وأمر بإخراج الرجل ، وهذا الجواب من مالك في الاستواء شاف كاف في جميع الصفات ، مثل النزول والمجيء واليد والوجه وغيرها ، فيقال في النزول : النزول معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وهكذا يقال في سائر الصفات إذ هي بمثابة الاستواء الوارد به الكتاب والسنة .

فمذهب السلف ـ رحمة الله عليهم ـ إثبات الصفات وإجراؤها على ظاهرها ، ونفي الكيفية عنها ، لأن الكلام في الصفات فرع من الكلام في الذات ، كما أن إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية ولا تشبيه ، فكذلك الصفات ، وعلى هذا مضى السلف كلهم ، ولو ذهبنا نذكر ما اطلعنا عليه من كلام السلف في ذلك لطال الكلام جداً .

فمن كان قصده الحق وإظهار الصواب اكتفى بما قدمناه ، ومن كان قصده الجدال والقيل والقال ، لم يزده التطويل إلا الخروج عن سواء السبيل ، والله الموفق اهـ من ترجمة الشيخ للمؤلف صحيفة ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ .

فهل يبقى بعد هذا قول لقائل : إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ كان مبتدعاً في عقيدته ـ برأه الله ـ هدانا الله وإياهم إلى سواء السبيل .

١ - الإمام موفق الدين عبد الله بن محمد بن قدامة[1] .

قال بعد البسملة والحمدلة : له الأسماء الحسنى والصفات العلى ، الرحمن على العرش استوى ، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى .

أحاط بكل شيء علماً ، وقهر كل مخلوق عزة وحكماً ، ووسع كل شيء رحمة وعلماً ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً .

موصوف بما وصف به نفسه في كتابه العظيم ، وعلى لسان نبيه الكريم ،وكل ما جاء في القرآن ، أو صح عن المصطفى عليه الصلاة والسلام من صفات الرحمن ، وجب الإيمان به وتلقيه بالتسليم والقبول ، وترك التعرض له بالرد والتأويل والتشبيه والتمثيل ، وما أشكل من ذلك وجب إثباته لفظاً ، وترك التعرض لمعناه ، ونرد علمه إلى قائله ، ونجعل عهدته على ناقله ، اتباعاً لطريق الراسخين في العلم ، الذين أثنى الله عليهم في كتابه المبين ، بقوله سبحانه وتعالى : **(والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب)**[2] .

وقال تعالى في ذم مبتغي التأويل لمتشابه تنزيله : **(فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله)**[3] .

فجعل ابتغاء التأويل علامة على الزيغ ، وقرنه بابتغاء الفتنة والذم ، ثم حجبهم عما أملوه ، وقطع أطماعهم عما قصدوه ، بقوله سبحانه : **(وما يعلم تأويله إلا الله)** .

---

(١) من رسالته (لمعة الاعتقاد) وقد توفي في سنة ٦٢٠ هـ .

(٢) ، (٣) آل عمران : ٧ .

قال الإمام أحمد بن حنبل ـ رضي الله عنه ـ في قول النبي ﷺ : « إن الله ينزل إلى سماء الدنيا ، وإن الله يرى في القيامة » ، وما أشبهه :

هذه الأحاديث نؤمن بها ، ونصدق بها ، لا كيف ولا معنى ، ولا نرد شيئاً منها ، ونعلم أن ما جاء به الرسول حق ، ولا نرد على رسول الله ﷺ ، ولا نصف الله بأكثر مما وصف به نفسه بلا حد ولا غاية ، فقال تعالى :(**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**) ، ونقول كما قال تبارك وتعالى ، ونصفه بما وصف به نفسه لا نتعدى ذلك ، ولا يبلغه وصف الواصفين ، نؤمن بالقرآن كله محكمه ومتشابهه ، ولا نزيل عنه صفة من صفاته لشناعة شنعت ، ولا نتعدى القرآن والحديث ، ولا نعلم كيف كنه ذلك إلا بتصديق الرسول ﷺ وتثبيت القرآن .

٢ - قول القاضي أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء البغدادي :

قال في كتاب (إبطال التأويل) :

لا يجوز رد هذه الأخبار ولا التشاغل بتأويلها ،والواجب حملها على ظاهرها ، وأنها صفات لله عز وجل ، لا تشبه بسائر صفات الموصوفين بها من الخلق ، ويدل على إبطال التأويل أن الصحابة ومن بعدهم حملوها على ظاهرها ، ولم يتعرضوا لتأويلها ولا صرفها عن ظاهرها .

فلو كان التأويل سائغاً لكانوا إليه أسبق ، لما فيه من إزالة التشبيه ، يعني على زعم من قال : إن ظاهرها تشبيه .

ثم قال ـ بعد أن ذكر حديث الجارية ـ : الكلام في هذا الخبر في فصلين :

أحدهما : جواز السؤال عن الله سبحانه بأين هو ؟

والثـاني : جواز الإخبار عنه بأنه في السماء ، وقد أخبرنا تعـالى أنه في السماء فقال : (**أأمنتم من في السماء**) وهو على العرش . ا . هـ .

٣ - قول شيخ الإسلام ، وقدوة الأنام ، العالم الرباني ، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني :

فقد سئل ـ رحمه الله تعالى ـ : ما قول السادة الفقهاء أئمة الدين في آيـات الصفـات كقوله تعالى : (**الرحمن على العرش استـوى**) ، وقوله تعالى : (**ثم استوى على العرش**) ، وقوله تعالى : (**ثم استوى إلى السماء وهي دخان**) ، إلى غير ذلك من الآيات .

وأحـاديث الصفـات كقـوله ﷺ : « إن قلوب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن » ، وقوله ﷺ : « يضع الجبار قدمه في النار .. » إلى غير ذلك .

فأجاب رحمه الله :

الحمـد لله رب العـالمين ، قولنا فيها ما قال الله ورسوله ، والسـابقـون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ، وما قاله أئمة الهدى بعد هؤلاء الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم ، وهذا هو الواجب على جميع الخلق في هذا الباب وغيره .

فإن الله سبحـانه وتعالى بعث محمداً بالهدى ودين الحق ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، وشهد له بأنه بعثه داعياً إليه بإذنه وسراجاً منيراً ، وأمره

أن يقول : (**هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة ، أنا ومن اتبعني**) .

ثم ذكر وأطنب بما يشفي مرضى العقول والقلوب بالمنقول والمعقول ـ إلى أن قال :

« فصل » : ثم القول الشامل في جميع هذا الباب ، أن يوصف الله بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، وبما وصفه به السابقون الأولون ، لا يتجاوز القرآن والحديث .

فمذهب السلف بين التعطيل وبين التمثيل ، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه ، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه ، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، فلا يعطلون أسماءه الحسنى وصفاته العليا ، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ولا يلحدون في أسماء الله وآياته .

والقول الفاصل هو ما عليه الأمة الوسط ، من أن الله مستو على عرشه استواءً يليق بجلاله ويختص به ، كما أنه موصوف بأنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه سميع بصير ، ونحو ذلك .

ولا يجوز أن يثبت للعلم والقدرة خصائص الأعراض التي لعلم المخلوقين وقدرتهم ، فكذلك هو سبحانه فوق العرش ، ولا يثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوق على المخلوق وملزوماتها . ا . هـ[1] .

---

(١) ملخصاً من فتاوى الحموية ، وقد أطنب المؤلف ـ رحمه الله ـ وذكر أقوال أئمة السلف ، وأرباب المذاهب ، وأهل اللغة ، وألف رسائل كثيرة في هذا الباب .

كما أن لشيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ عقيدة مختصرة تسمى بالواسطية ، وقد وقعت عليها مناظرات بينه وبين علماء عصره في مجلسين أو ثلاث فلم يستطيعوا أن ينقضوا عقيدة مما حررها ، واستدل عليها بالآيات والأحاديث وأقوال السلف ، وأخيراً خرج من المناظرة منتصرا والحمد لله . =

= وها أنذا أذكر لك نبذة من تلك العقيدة السنية التى يصرح فيها بأن الله ليس له شبيـه ولا مثيل ولاند ولا كفء ، وتبين كذب من نسب إلى الشيخ التشبيه والتمثيل ، (**تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيراً**) ، وبرأ الله الشيخ مما نسب إليه ، وهذه فرية عظيمة سيحاسبهم الله عليها إن لم يكونوا قد تابوا في حياتهم عن هذا البهتان العظيم .

قال الشيخ ـ رحمه الله ـ بعد البسملة والحمدلة :

أما بعد : فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة ، وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره ، ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه من غير تحريف في كتابه ، وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيـل ، بل يؤمنـون بأن الله سبحـانـه : (**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**) ، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ،ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه ، لأنه سبحانه لاسمي له ولا كفء له ولا ندله ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى ، فإنـه أعلم بنفسـه وبغـيره وأصدق قيلا وأحسن حديثاً من خلقه ، ثم رسله صادقون مصدقون بخلاف الذين يقولون عليه ما لايعلمون ، ولهذا قال تعالى : (**سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين**) ، فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل ، وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب ، وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسـه بين النفى والإثبـات ، فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المـرسلون ، فإنـه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وقد دخل في هذه الجملة ما وصف الله به نفسه في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن ، حيث يقول تعالى : (**قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد**) .

ثم ذكـر الشيخ الصفات : كالعلم والسمع والبصر والقدرة والحياة والحب والبغض واليـد والنزول والوجه والاستواء والكلام وسائر الصفات ، والإيمان باليـوم الآخر وبالقدر وبالحشر والنشر والشفاعة وغيرها مما يجب على المؤمن اتبـاعـه ، مستدلا على كل ذلك بآية أو بآيات من القرآن الكريم وبالأحاديث الصحيحة ، مما لم يدع مجالا لمبتدع وملحد ، جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً .

٤ - قول الحافظ ابن القيم :

قد ألف كتابه الشهير (اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية) في إثبات الاستواء والعلو لله سبحانه وتعالى ، وقد أتى بالعجب العجاب ، وفند شبه أهل البدع والارتياب ، وذكر من الآيات والأحاديث وأقوال الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة وغيرهم ، وأقوال علماء الحديث واللغة والصوفية ، والمتكلمين ، مالا مزيد بعده لمستزيد ، وقد نقلنا كثيراً منه فيما سلف ، ولا حاجة إلى الاستزادة منه .

٥ - قول الشيخ مرعي الحنبلي :

في كتابه (أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات)[١] :

قال : وأما العلم بأنه تعالى استوى على العرش بعد خلقه السموات والأرض في ستة أيام ، فهذا سمعي علم بالوحي على الأنبياء ، فأخبروا عليهم الصلاة والسلام أممهم بذلك .

ثم نقل عن الشيخ عبد القادر من كتاب « الغنية في الفقه » قوله :

وهو تعالى بجهة العلو ، مستو على العرش ، محتو على الملك ، محيط علمه بالأشياء ، (**إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه**) . ا . هـ .

٦ - قول الشيخ محمد بن أحمد السفاريني في منظومته :

سبحانه قد استوى كما ورد

من غير كيف قد تعالى أن يحد

---

(١) نقلا عن كتاب (لوامع الأنوار البهية) .

قال في شرحه :

قد استوى على عرشه من فوق سبع سمواته ، استواء يليق بذاته ، كما ورد في الآيات القرآنيةوالأحاديث النبوية والنصوص السلفية ممالايحصى ، ويتعذر أن يستقصى ، وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره ، وسنة رسول الله من أولها إلى آخرها ، ثم عامة الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ثم كلام سائر أئمة الدين ، ممن تلوى على كلامهم الخناصر ، ولا ينازع فيه إلا كل معاند ومكابر ، بأن الله مستو على عرشه ، بائن من خلقه .

ثم أسهب وأطنب ، وأجاد وأفاد مما ذكرنا أكثره ا . هـ[1] .

---

(١) من كتاب (لوامع الأنوار البهية ، وسواطع الأسرار الأثرية ج ١ ص ١٩٠) .

أقـــوال أهـــل الحـــديث

وراجع الصحيح للبخـــاري لتعرف اســـتواءه يا قـــاري
وهكذا قـــول الإمـــام مسـلم ذي الفضل والعلا وذي التقدم
قال الإمام الترمذي بجامع عن بعض أهل العلم كن متابعي
الله فوق العرش علمه معاً جميــع خلقـه فـكن متبعـــاً

ش :

١ - قول الإمام البخاري :

قال في كتاب التوحيد من صحيحه : باب قول الله : **(وكان عرشه على الماء)** ، **(وهو رب العرش العظيم)** .

قال أبو العالية : استوى إلى السماء : ارتفع ، فسوّاهن : فخلقهن .

وقال مجاهد : استوى : علا على العرش .

ثم ساق البخاري ، حديث زينب بنت جحش ـ وقد تقدم ـ وذكر تراجم أبواب هذا الكتاب ـ الذي هو كتاب التوحيد ـ رداً على أقوال الجهمية التي خالفوا بها الأمة .

ثم ساق أحاديث مستدلاً بها على إثبات صفة العلم ، وإثبات صفة القدرة ، وأحاديث في إثبات اليدين ، وأحاديث في إثبات صفة الفوقية ، وهكذا تراجم هذا الكتاب بين آيات تثبت الصفات وأحاديث .

فليراجع القاريء إذا شاء ، وحيث تقدم النقل عن الحافظ ابن حجر العسقلاني وابن بطال ، فلا حاجة إلى الإعادة .

٢ - قول الإمام مسلم :

يعرف قوله في السنة من سياق الأحاديث التي ذكرها ولم يتأوله ، كحديث الجارية الخرساء ، وأحاديث النزول ، وأحاديث الرؤية ، وحديث : « المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين » ، وحديث : « ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ؟ » ، وغيرها من أحاديث الصفات ، محتجاً بها غير مؤول لها ، ولو لم يكن معتقداً لمضمونها لفعل بها ما فعل المتأولون حين ذكرها .

٣ - قول الإمام أبي عيسى الترمذي :

قال ـ رحمه الله ـ في جامعه لما ذكر حديث أبي هريرة : « لو أدلى أحدكم بحبل لهبط على الله »[١] .

قال : معناه لهبط على علم الله ، وقال : وعلم الله وقدرته وسلطانه في كل مكان ، وهو على العرش كما وصف نفسه في كتابه .

٤ - قول الإمام ابن خزيمة :

نجل خزيمة التقي والورع ... ومن لهدي الصالحين متبع
فلتقرأنّ حكمه فيما سمع ... بقتل كل منكر فلتتبع
علو ربنا العظيم الباري ... من بعد ما استتيب لا تمار
وإنهم يلقون بعد القتل ... فوق المزابل افهمن نقلي

---

(١) قد رواه الترمذي وغيره من حديث الحسن عن أبي هريرة وهو منقطع ، فإن الحسن لم يسمع من أبي هريرة ، وتأويله لو ثبت : لهبط على علم الله ، وسيأتي الكلام عليه في رد الشبهات النقلية .

ش : أفتى الإمام ابن خزيمة :

بأن من أنكر أن الله فوق عرشه يجب أن يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل مرتداً .

وقد شفى هذا الإمام الجليل بفتواه صدور قوم مؤمنين ، وأرسلها سيفاً مصلتاً على رقاب الزنادقة والمنحلين .

وقد حكى ذلك عنه في كتبه الحاكم بن عبد الله النيسابوري صاحب المستدرك ، بما لا يدع مجالا لشك ولا إنكار .

٥ - قول شيخ الإسلام ابن القيم :

قال ابن القيم في نونيته ، ذاكراً عن اسحاق بن راهويه ، وابن المبارك ، وابن خزيمة ، وابن عبد البر قال بعد أن ذكر جماعة من الأئمة :

وكذاك إسحاق الإمام فإنه ... قد قال ما فيه هدى الحيران
وابن المبارك قال قولا شافيا ... إنكاره علم على البهتـــان
قالوا له ما ذاك نعرف ربنا ... حقاً بـه لنكون ذا إيمان
فأجـاب نعرفه بوصف علوه ... فوق السماء مباين الأكوان
وبأنه سبحانه حقاً على ... العرش الرفيع فجل ذو السلطان
وهو الذي قد شجع ابن خزيمة إذ ... قد سل سيف الحق والعرفان
وقضى بقتل المنكرين علـوه ... بعد اســتتابتهم من الكفران
وبأنهم يلقون بعد القتل فو ... ق مزابل الـميتـان والأنتان
فشفى الإمام العالم الحبر الذي ... يدعى إمـام أئمـة الأزمان
ولقد حكاه الحاكم العدل الرضي ... في كتبـه عنـه بلا نكران
وحكى ابن عبد البر في تمهيده ... وكتاب الاستذكار غير جبـان
إجماع أهل العلم أن الله فـو ... ق العرش بالإيضاح والبرهان
وأتى هناك بما شفى أهل الهدى ... لكنه مرض على العميـان

* * *

فأقوال هؤلاء الأئمة الكرام واضحة وغنية عن التفسير والبيان .

وقد قدمنا ما أفتى به ابن خزيمة ، كما تقدم النقل عن ابن عبد البر عند النقل عن أصحاب الإمام مالك .

ولو ذهبنا نعد الأئمة وأصحابهم ، وعلماء الحديث وغيرهم ، لتطلب منا أجزاءً كثيرة ، وقصدنا الاختصار .

أقـــوال أئمة أهـــل الكلام

واقرأ أخي مقال ذي العرفان   الأشـــعري تابع العدنان
من موجـــز إبانـــة مقاله   وتابعاً أقـــواله مقـــاله
أتى بتقرير استوى كمثل ما   أتى عن الأسلاف فيما عُلما

ش : وها أنذا أنقل لك كلام الإمام الأشعري ، لتعرف الفرق الشاسع بين معتقد الإمام في صفات الرب سبحانه وتعالى ، ومعتقد الكثيرين من المنتسبين إليه .

١ - الإمام أبو الحسن الأشعري :

قال في كتابه (الإبانة) وهو من الكتب المطبوعة ، وقد اقتنيته وقـرأتـه ، بعـد أن ذكر خطبة طويلة ، بين فيها بعض الأسماء والصفات ، ومخالفة المعتزلة للوحيين كالجهمية والحرورية ، ورجع يمدح أحمد بن حنبل ويثني عليه ، وأنه على معتقده ، وترحم عليه وعلى جميع أئمة المسلمين .

قال : وجملة قولنا : إننا نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وما جاء من عند الله ، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ ، لا نرد من ذلك شيئاً ، وأن الله واحد أحد ، فرد صمد ، لا إله غيره ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الجنة حق ، والنـار حق ، والساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، وأن الله مستو على عرشه ، كما قال تعالى : (**الرحمن على العرش استوى**) ، وأن له وجهاً ، كما قال تعالى : (**ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكـرام**) ، وأن له يدين بلا كيف ، كما قال تعالى : (**خلقت بيدي**) .

ثم ذهب يورد عقائد أهل السنة والجماعة إلى أن وصل إلى باب : (الكلام في إثبات رؤية الله) ، وأطنب إلى أن قال :

(باب ذكر الاستواء على العرش) : إن قال قائل : ما تقولون في الاستواء ؟ .

قيل له : نقول : إن الله مستو على العرش كما قال تعالى : **(الرحمن على العرش استوى)** ، وقد قال الله تعالى : **(إليه يصعد الكلم الطيب)** ، وقال تعالى : **(بل رفعه الله إليه)** .

ثم ذكر بعض الآيات الواردة في العلو ، حتى ترجم بقوله :

سؤال : وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية : إن قول الله تعالى : **(الرحمن على العرش استوى)** : أنه استولى وقهر وملك ، وأن الله في كل مكان ، وجحدوا أن يكون الله على عرشه كما قال أهل الحق ، وذهبوا في الاستواء للقدرة ، ولو كان هذا كما ذكروه ، كان لا فرق بين العرش والأرض .

وأخذ يفند هذا الزعم ويورد من الآيات والأحاديث ما يؤكد أن الله مستو على عرشه دون الأشياء كلها . ا . هـ .[(١)] .

وقال في الجزء الأول من (مقالات الإسلاميين) تحت عنوان : (هذه حكاية جملة قول أصحاب الحديث وأهل السنة) :

جملة ما عليه أهل الحديث والسنة الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وما جاء من عند الله ، وما رواه الثقات عن رسول الله ، ثم ذكر ما ذكر في الإبانة ا . هـ[(٢)] .

فهذه عقيدة الإمام أبي الحسن الأشعري ـ رحمه الله تعالى

---

(١) من (الإبانة) طبعة المنيرية ص ٩ ، ٣٣ ، ٣٤ .

(٢) من (مقالات الإسلاميين) ص ٢٣ الجزء الأول .

- ، قارن بينها وبين عقيدة المنتسبين إليه ، حيث أنهم سلكوا في هذه الصفات مسلك أهل الاعتزال ، فأولوا الاستواء بالاستيلاء ، والنزول بنزول الرحمة ،واليد بالقدرة أو النعمة ، وما إلى ذلك من المعتقدات التي هي عين ما ذهبت إليه الجهمية والمعتزلة .

فإن قال قائل : إن للإمام الأشعري كتباً منها : كتاب (اللمع) ، وفيه تأويل هذه الصفات كما ذهب إليه الخلف ، فلعل كتابه (الإبانة ومقالات الإسلاميين) كانا قبل ذلك ، ثم ألف (اللمع) ، وكان هو الآخر من مؤلفاته ، فنحن أخذنا بمؤلفه الأخير ، وقلدناه على ذلك ، ومن المعلوم أن القول الآخر ينسخ القول المتقدم .

الجواب :

أولا : إن الإمام أبا الحسن الأشعري - رحمه الله تعالى - كانت له ثلاث أدوار :

الدور الأول : ابتداء نشأته وقراءته وطلبه للعلم ، كان معتزلياً محضاً ، لأنه طلب علم الكلام على أبي علي الجبائي ، وكان أبو علي رأس المعتزلة وإمامهم ، فلما توغل أبو الحسن في علم الكلام ، تبين له فساده وترك مذهب الاعتزال ، ورجع إلى مذهب أهل السنة .

الدور الثاني : أقبل على كتب أهل السنة ، ثم كتب بعض المؤلفات ، أثبت فيها كثيراً مما نفته الجهمية والمعتزلة من الصفات ، وأول بعض الصفات ، وكتابه (اللمع) كتبه في هذا الدور .

الدور الثالث : الرجوع إلى مذهب السلف الصالح ، فلما تضلع من عقائد أهل السنة والجماعة ، ووقف على الأحاديث

الواردة في الصفات ، وما ورد عن الصحابة والتابعين والأئمة المهتدين ، وبلغ درجة عالية في هذا العلم النفيس لا تضاهى ، وأصبح إماماً لأهل السنة والجماعة ـ بعد الإمام أحمد ـ ناصباً نفسه لرد أهل البدع والضلال ، كتب في هذا الدور الأخير ، كتبه (الإبانة ، والموجز ، ومقالات الإسلاميين) .

ثانياً : إن هذا المعتقد الصحيح هو اللائق بإمامته وجلالة قدره ، لأنه قال رحمه الله تعالى في كتابه (الإبانة) :

(باب في إبانة قول أهل الحق والسنة) ، فإن قال لنا قائل : قد أنكرتم قول المعتزلة ، والقدرية ، والجهمية ، والحرورية ، والرافضة ، والمرجئة ، فعرفونا قولكم الذي به تقولون ، وديانتكم التي بها تدينون ؟ .

قيل له : قولنا الذي نقول به ، وديانتنا التي ندين بها ، التمسك بكتاب ربناعز وجل ، وبسنة نبينا ﷺ ، وماروي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن حنبل ـ نضر الله وجهه ، ورفع درجته ، وأجزل مثوبته ـ قائلون ، ولمن خالفه مجانبون . ا . هـ .

ثم ذكر بقية المعتقد كما نقلنا عنه آنفاً .

ولا يظن بهذا الإمام الجليل أن يرجع عن كتاب الله وسنة نبيه وأقوال الصحابة والتابعين والأئمة المهتدين ، إلا مبتدع ضال أو جاهل سيء الظن ، صان الله الإمام عن ذلك الاعتقاد ، ومن نسبه إلى ذلك فقد تنقصه ، وأخرجه من دائرة الاتباع ، ونسبه إلى مخالفة السنة والاتباع .

فإن قال قائل : بأي دليل ترجحون قولكم : إن كتاب (الإبانة) متأخر عن كتابه (اللمع) وأمثاله ؟ .

فالجـــواب :

أولا : هو ما قدمناه من أنه اللائق بإمامته وجلالة قدره .

وثانياً : إن الذين كتبوا عنه من المؤرخين ذكروا عنه هذا المعتقد الصحيح ، ومن أجل أولئك الذين كتبوا عنه الإمام ابن عساكر ، فإنه انتصر له انتصاراً باهراً ، ورد على من نسبه إلى الاعتزال ، فقال في كتابه (تبيان كذب المفتري) : « باب ما وصف من مجانبته لأهل البدع وجهاده » .

فقد نقل في هذا الباب عن القاضي أبي المعالي بن عبد الملك ما معناه بإيجاز ، أن الإمام أبا الحسن الأشعري كان وسطاً بين المعتزلة والجهمية والرافضة والمشبهة والمجسمة .

فذكر صفات كثيرة توسط فيها بين أهل البدع والضلال ، إلى أن قال : وقالت المعتزلة : النزول نزول بعض آياته وملائكته ، والاستواء بمعنى الاستيلاء .

وقالت المشبهة والحشوية : النزول نزول ذاته بحركة وانتقال من مكان إلى مكان ، والاستواء جلوس على العرش وحلول فيه .

فسلك ـ رضي الله تعالى عنه ـ طريقة بينهما ، فقال : النزول صفة من صفاته ، والاستواء صفة من صفاته ، وفعل فعله في العرش يسمى الاستواء .

ثم ذهب يبين طريقته الوسطى بين تيارات المعتقدات الضالة ، إلى أن قال : فإذا كان أبو الحسن ـ رضي الله عنه ـ كما ذكر عنه من حسن الاعتقاد ، مستصوب المذهب عند أهل المعرفة بالعلم والانتقال ، يوافقه في أكثر ما يذهب إليه أكابر العباد ، ولا يقدح في معتقده غير أهل الجهل والعناد .

فلابد أن نحكي عنه معتقده على وجهه بالأمانة ، ونجتنب أن نزيد فيه ، أو ننقص منه تركاً للخيانة ، ليعلم حقيقة حاله في صحة عقيدته في أصول الديانة ، فاسمع ما ذكره في أول كتابه الذي سماه (بالإبانة) ـ وهنا ذكر ابن عساكر خطبة الإبانة ، ومشى فيها نحواً من عشرة صحائف ، ذكر فيها ما ذكره الإمام من العقائد الصحيحة الموافقة للكتاب وللسنة ، ومنها استواؤه على عرشه ، وعلوه على خلقه .

فلو كان الإمام استقرت عقيدته على التأويل في آخر الأمر ، لذكره ابن عساكر وغيره من المؤرخين .

وهذا تاج الدين السبكي في طبقات الشافعية الكبرى قال : أبو الحسن الأشعري كبير أهل السنة بعد الإمام أحمد بن حنبل ، وعقيدته وعقيدة الإمام أحمد واحدة لاشك في ذلك ولا ارتياب ، وبه صرح الأشعري في تصانيفه ، وذكره غير ما مرة ، من أن عقيدتي عقيدة الإمام المبجل أحمد بن حنبل ، هذه عبارة الشيخ أبي الحسن في غير موضع من كلامه . ا . هـ .

وعليه فقد وضح الصبح لذي عينين ، وبان نور الحق ، من أن الإمام أبا الحسن كان على مذهب السلف الكرام ، وأن أكثر المنتسبين إليه لا تصح نسبتهم ولا توافق عقيدتهم عقيدة ذلك الإمام .

كما بان بطلان ما تعلقوا به وهو قولهم : إن الذي أخذناه واعتقدنا به ، هو ما رأينا في بعض كتبه .

كما بان كذب من زعم أن كتاب (الإبانة) مدسوس على الإمام !! ، قاتل الله التعصب والعناد ، ما يفعل بأهله .

كيف يتفوه عاقل بهذا الكلام ؟ وهو يرى أن العلماء الأعلام

يثنون على الإمام الأشعري ، بأنه ناصر السنة ومذهب السلف ، وأنه الذاب عن الدين ، والراد على أهل الجهل والسرف ، ولا زالوا ينسبون إليه الإبانة ومقالات الإسلاميين ، وينقلون منهما في تأييد هذا المعتقد الصحيح السليم .

٢ - الإمام الباقلاني :

ومن أئمة الأشاعرة الكبار الذين نَحَوْ نَحْوَ مذهب السلف الإمام الباقلاني .

قال في كتابه (التمهيد) باب (هل الله في مكان) :

فإن قالوا : فهل تقولون : إنه في كل مكان ؟ قيل : معاذ الله ، بل هو مستو على العرش ، كما أخبر في كتابه فقال تعالى : **(الرحمن على العرش استوى)** ، **وقال تعالى** : **(إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه)** ، وقال تعالى : **(أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض)** .

ولو كان في كل مكان ، لكان في جوف الإنسان وفمه وفي الحشوش والمواضع التي يرغب عن ذكرها ، تعالى الله عن ذلك .

ولوجب أن يزيد بزيادة الأماكن إذا خلق منها ما لم يكن خلقه ، وينقص بنقصانها إذا بطل منها ما كان .

ولصح أن يرغب إليه نحو الأرض ، وإلى وراء ظهورنا وعن أيماننا وشمائلنا ، وهذا ما قد أجمع المسلمون على خلافه ، وتخطئة قائله . ا . هـ .

٣ - ومنهم إمام الحرمين الجويني :

الذي كان من أشد المناصرين لمذهب الخلف ، وقد ألف - رحمه الله - كتابه (الإرشاد) ، وأجلب بخيله ورجله في تأييد

المؤولين ، ولكنه قد أدركته العناية الربانية ، وحالفه التوفيق في النهاية .

فقال عنه الإمام الذهبي :

قال الإمـام عالم الشرق أبـو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني الشافعي في كتاب (الرسالة النظامية) :

اختلف مسـالك العلمـاء في هذه الظواهـر ، فرأى بعضهم تأويلها ، والتزم ذلك في آي الكتاب وما يصح من السنن .

وذهب أئمـة السلف إلى الانكفـاف عن التـأويـل ، وإجراء الظواهر على مواردها ، وتفويض معانيها إلى الرب عز وجل .

والذي نرتضيـه دينـاً ، وندين الله به عقيدة ، اتباع سلف الأمة ، والدليل القاطع السمعي في ذلك ، وأن إجماع الأمة حجة متبعة .

فلو كان تأويل هذه الظواهر مسوغاً أو محتوماً ، لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة ، وإذا انصرم عصر الصحابة والتابعين على الإضراب عن التأويل ، كان ذلك هو الوجه المتبع ، فلتجر آية الاستواء ، وآية المجيء ، وقوله تعالى : (**خلقت بيدي**) على ذلك . ا . هـ . [1]

٤ - فخر الدين الرازي :

فخر الدين الرازي ، وما أدراك ما فخر الدين ؟ ، يعد من أركان الأشاعرة وأساطينهم الكبار ، وقد بالغ في انتصاره لمذهب الخلف مبالغة لا مثيل لها ، فشحن تفسيره (مفاتيح الغيب) بتلك التـأويلات ، وإيراد الشبه الفلسفية ، والعجز عن حلها ، وركب

(١) من كتاب (العلو) ص ١٥٥ .

مركباً صعباً ، وأفنى عمره في هذه المباحث التي لا طائل تحتها ، ولا يجني صاحبها سوى القيل والقال والدمار والوبال .

وأخيراً قال في آخر كتابه ، وهو كتاب (أقسام اللذات) الذي صنفه في آخر عمره ، وهو كتاب مفيد ذكر فيه أقسام اللذات ، وبين أنها ثلاثة أقسام :

١ - الحسية : كالأكل والشرب .
٢ - الخيالية الوهمية : كلذة الرياسة .
٣ - اللذة العقلية : كلذة العلوم والمعارف .

وتكلم عن كل واحدة من هذه الأقسام ـ إلى أن قال ـ : وأما اللذة العقلية فلا سبيل للوصول إليها والتعلق بها ، فلهذا السبب تقول : ياليتنا بقينا على العدم الأول ، وليتنا ما شهدنا هذا العالم ، وليت النفس لم تتعلق بهذا البدن ، وبهذا المعنى قلت :

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقال

واعلم أن بعد التوغل في هذه المضايق ، والتعمق في الاستكشاف عن أسرار هذه الحقائق ، رأيت الأصوب والأصلح في هذا الباب ، طريقة القرآن العظيم ، وهو ترك التعمق ، ثم المبالغة في التعظيم ، من غير خوض في التفاصيل ، فاقرأ في التنزيه :

قوله تعالى : **(والله الغني وأنتم الفقراء)** .

وقوله تعالى : (**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**) .

وقوله تعالى : (**قل هو الله أحد ، الله الصمد**) .

وفي الإثبات قوله تعالى : (**الرحمن على العرش استوى**) .

وقوله تعالى : (**يخافون ربهم من فوقهم**) ، وقوله تعالى : (**إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه**) .

وفي تنزيهه عما لا ينبغي قوله تعالى : (ما أصابك من حسنة فمن الله ..) الآية ، وعلى هذا القانون فقس ، وختم الكتاب . ا . هـ[1] .

وسيأتي النقل إن شاء الله عن كثير من المفسرين ، ومنهم عدد وفير من الأشاعرة .

(١) من (اجتماع الجيوش الإسلامية) ص ١٤٩ .

أقــوال أئمة اللغة

١ - قد تقدم النقل عن أبي عبيدة في أول بحث الاستواء ، وإليك الآن .

٢ - قول أبي العباس ثعلب :

روى الدار قطني عن إسحاق الكلابي ، قال : سمعت أبا العباس ثعلبا يقول : استوى على العرش : علا ، واستوى الوجه : اتصل ، واستوى القمر : امتلأ ، واستوى زيد وعمرو : تشابها ، واستوى إلى السماء : أقبل ، هذا الذي نعرفه من كلام العرب .

٣ - قول أبي عبد الله محمد بن الأعرابي :

قال ابن عرفة في كتاب (الرد على الجهمية) : حدثنا داود ابن علي قال : كنا عند ابن الأعرابي ، فأتاه رجل فقال : ما معنى قوله تعالى : **(الرحمن على العرش استوى)** ؟

قال : هو على عرشه كما أخبر .

فقال : يا أبا عبد الله ، إنما معناه استولى .

فقال له : اسكت ، لا يقال : استولى على الشيء إلا أن يكون له مضاد ، وإذا غلب أحدهما قيل : استولى ، كما قال النابغة :

ألا لمثلك أو من أنت سابقــه   سبق الجـواد إذا استولى على الأمد

قال محمد بن النضر : سمعت ابن الأعرابي صاحب اللغة يقول : أرادني ابن أبي دؤاد أن أطلب له في بعض لغات العرب

ومعـانيهـا ، (**الرحمن على العـرش استـوى**) استوى بمعنى استولى ، فقلت له : والله ما يكون هذا ولا وجدته .

٤ - قول الخليل بن أحمد شيخ سيبويه :

ذكر أبو عمر بن عبد البر في (التمهيد) : قال الخليل بن أحمد : استوى إلى السماء : ارتفع إلى السماء .

٥ - قول الأخفش :

قال الأزهري في كتاب (التهذيب) في قوله تعالى : (**الرحمن على العرش استوى**) : قال الأخفش : استوى : أي علا ، يقال : استويت فوق الدابة ، وعلى ظهر البيت : أي علوته .

قول بعض أئمة الصوفية

١ - قول الشيخ عبد القادر الجيلاني :

قال ـ رحمه الله ـ في كتابه (تحفة المتقين) ـ بعد كلام ـ : والله بذاته على العرش ، وعلمه محيط بكل مكان ، والوقف عند أهل الحق على قوله تعالى : (إلا الله) ، في قوله جل وعلا : (**وما يعلم تأويله إلا الله**)(١) .

٢ - قول أبي نعيم في حلية الأولياء :

قال في عقيدته : إن الله سميع بصير ، عليم خبير ، يتكلم ويرضى ويسخط ، إلى أن قال : إن الله استوى على عرشه بلا كيف ولا تأويل ولا تشبيه .

٣ - قول الفضيل بن عياض :

ذكر البخاري في كتاب (خلق الأفعال) فقال : قال الفضيل ابن عياض : إذا قال لك الجهمي ،فاذكر قول يحيى بن معاذ الرازي قال : الله تعالى على العرش : بائن من الخلق ، قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً .

ولايشك في هذه المقالة إلا جهمي رديء ضليل وهالك مرتاب ، يقول بمزج الله بخلقه ، ويخلط الذات بالأقذار والأنتان(٢) .

---

(١) أي : والراسخون مبتدأ ، وجملة : (يقولون آمنا به) خبره ، وبعضهم يجعل والراسخون معطوف على قوله إلا الله ، وعلى هذا : فالمعنى أن الراسخين في العلم يعلمون تأويل الآيات المتشابهة ، والتأويل هنا بمعنى تفسير الآيات ، لا بمعنى كنه الحقيقة ، كما سبق النقل عن شيخ الإسلام .

(٢) وذلك لأن الجهمية يقولون : إن الله تعالى في كل مكان ، وهكذا يقول أكثر متأخري الأشاعرة ، تعالى الله عن قولهم علوا كبيراً .

أقــوال بعض المفسرين

١ - العلامة ابن جرير الطبري - رحمه الله - :

سبق أن نقلنا تفسيره للاستواء في أول بحث الاستواء ، فراجعه .

٢ - العلامة ابن كثير - رحمه الله - :

قال في تفسير هذه الآية : وأما قوله تعالى : (**ثم استوى على العرش**) ، فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً ، ليس هذا موضع بسطها ، وإننا نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح ، مالك والأوزاعي والثـوري والليث بن سعـد والشـافعي وأحمـد وإسحاق بن راهويه ، وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشـبيه ولا تعطيل .

والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله ، فإن الله لا يشبه شيء من خلقه ، (**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**) .

بل الأمر كما قال الأئمة منهم : نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري قال : من شبه الله بخلقه فقد كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيـه ، فمن أثبت لله تعالى ماوردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجـلال الله ، ونفى عن الله تعالى النقـائص ، فقد سلك سبيل الهدى .

٣ - العلامة البغوي - رحمه الله - :

قال في قوله تعالى : **(ثم استوى على العرش)** : قال الكلبي ومقاتل : استقر ، وقال أبو عبيدة : صعد ، وأولت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء .

فأما أهل السنة يقولون : الاستواء على العرش صفة لله تعالى بلا كيف ، يجب على الرجل الإيمان به ، ويكل العلم فيه إلى الله عز وجل ، وسأل رجل مالك بن أنس ، وذكر قول مالك المشهور . ا . هـ .

٤ - العلامة القرطبي - رحمه الله في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) ج ٧ :

قال القرطبي - بعد أن ذكر كلام المتكلمين - في تفسيره قوله تعالى : **(ثم استوى على العرش)** :

وقد كان السلف الأول - رضي الله عنهم - لا يقولون بنفي الجهة ، ولا ينطقون بذلك ، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى ، كما نطق كتابه وأخبرت رسله ، ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة ، وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته ، وإنما جهلوا كيفية الاستواء ، فإنه لا تُعلم حقيقته .

قال مالك - رحمه الله - : الاستواء معلوم - يعني في اللغة - ، والكيف مجهول ، والسؤال عن هذا بدعة .

وكذا قالت أم سلمة - رضي الله عنها - ، وهذا القدر كاف ، ومن أراد زيادة عليه فليقف عليه في موضعه من كتب العلماء . ا . هـ .

٥ - الحافظ السيوطي - رحمه الله - : في تفسيره (الدر المنثور) ج ٣ :

قال : أخرج ابن مردويه واللالكائي في السنة ، عن أم سلمة أم المؤمنين في قوله تعالى : (**ثم استوى على العرش**) ، قالت : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإقرار به إيمان ، والجحود به كفر .

وأخرج اللالكائي عن ابن عيينة قال : سئل ربيعة عن قوله تعالى : (**استوى على العرش**) ، كيف استوى ؟ قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق .

وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات من طريق عبد الله بن صالح بن مسلم قال : سئل ربيعة ، فذكره ، ثم ذكر عن مالك مقالته في تفسير الاستواء . ا . هـ .

٦ - العلامة علي بن محمد بن إبراهيم المعروف بالخازن - رحمه الله - :

ذكر في تفسير هذه الآية : مذهبي السلف والخلف ، ومال إلى مذهب السلف .

ومما قاله : أما الاستواء ، فالمتقدمون من أصحابنا كانوا لا يفسرون ولا يتكلمون فيه، كنحو مذهبهم في أمثال ذلك - ثم ذكر قول مالك المشهور - ثم ذكر عن البيهقي عن ابن عيينة : كل ما وصف الله به نفسه ، فتفسيره تلاوته والسكوت عنه .

وعلى هذه الطريقة يدل مذهب الشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وسفيان الثوري ، والأوزاعي ، والليث بن سعد ، وابن المبارك ، والحسن بن فضل البجلي ، وذهب إليه من المتأخرين أبو سليمان الخطابي والبيهقي .

ثم نقل بعد كلام طويل عن أبي الحسن الأشعري ما يؤيد ذلك .

كما نقل عن ابن الأعرابي ، وردّ على القائلين استوى بمعنى استولى . ا . هـ .

وهكذا ذكر من جاء بعدهم من المفسرين ، كالآلوسي ، والسيد رشيد رضا ، والقاسمي ، وغيرهم .

فصـــــل

البراهين العقلية على علو الله

البراهين العقلية على علو الله كثيرة ، منها :

١ - أن يقال : ذاته سبحانه إما أن تكون قابلة العلو على العالم أو لا تكون قابلة .

فإن كانت قابلة وجب وجود المقبول ، لأنه صفة كمال ، ولأنها إذا قبلته ولم تتصف به لا تصفت بضده وهو نقص ، تعالى الله عنه .

وإن لم تكن قابلة للعلو ، لزم أن يكون قابل العلو أكمل منها ، لأن ما يقبل أن يكون عالياً - وإن لم يكن عالياً - أكمل ممن لا يقبل العلو ، وما قبله وكان عالياً أكمل ممن قبل ولم يكن عالياً .

فالمراتب ثلاثة : أدناها ما لا يقبل العلو ، وأعلاها : ما قبله واتصف به .

والذي يوضح ذلك : إن ما لا يقبل أن يكون فوق غيره ، ولا عالياً عليه ، إما أن يكون عرضاً من الأعراض لا يقوم بنفسه ، ولا يقبل أن يكون عالياً على غيره ، وإما أن يكون أمراً عدمياً لا يقبل ذلك .

وإما إثبات ذات قائمة بنفسها ، متصفة بالسمع والبصر ، والعلم والقدرة ، والحياة والإرادة والفعل ، ومع ذلك لا تقبل أن تكون عالية على غيرها ، فهذا لا يتصور وجوده .

٢ – ومنها : إن الله لما خلق العالم ، فإما أن يكون خلقه في ذاته ، أو خارجاً عن ذاته .

والأول : وهو أن يكون خلقه في ذاته باطل لأمرين :

أ – اتفاق المسلمين والكافرين أنه لم يخلقه في ذاته .
ب – إنه يلزم أن يكون محلا للخسائس والقاذورات ، ولا يقول بذلك أحد ، لا من الوثنيين ولا من الموحدين ، وتعالى الله عن ذلك .

والثاني : وهو كونه خلقه خارجاً عن ذاته ، فينبغي أن يكون منفصلا عنه ، فتعينت المباينة ، لأن القول بأنه غير متصل بالعالم وغير منفصل عنه غير معقول ، فإذا تعينت المباينة ، لزم أن يكون في العلو ، لأنه أشرف الجهات .

٣ – إن كونه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه يقتضي نفي وجوده بالكلية ، لأنه غير معقول أن يكون موجوداً لا داخل العالم ولا خارجه ، وكونه داخل العالم باطل بالاتفاق ـ كما قدمنا ـ ، فيتعين أن يكون خارج العالم ، فلزمت المباينة .

٤ – العلم البديهي قاطع أن كل موجودين إما أن يكون أحدهما سارياً في الآخر قائماً به كالصفات ، وإما أن يكون قائماً بنفسه بائناً من الآخر .

ولا ريب أن الله تعالى قائم بنفسه ، بل من أخص صفاته كونه بائناً من مخلوقاته .

وإذا كان بائناً ، لزم أن يكون عالياً على المخلوقات ، وما اعترض به على هذا الدليل بإنكار بداهيته ، حيث أنكره كثير من العقلاء .

فلو كان بديهياً لما كان مختلفاً فيه ، بل هو قضية وهمية خيالية ، فيجاب :

إن العقل إن قبل قولكم ، فهو لقولنا أقبل ، وإن رد العقل قولنـا ، فهو لقولكم أعظم رداً ، فإن دعوى الضرورة مشتركة ، وذلك أننا نقول : نعلم بالضرورة بطلان قولكم ، وأنتم تقولون كذلك .

فإذا قلتم : تلك الضرورة التي تحكم ببطلان قولنا ، هي من حكم الوهم لا من حكم العقل ، قابلناكم بنظير قولكم .

فإن قلتم : أكثر العقلاء يقولون بقولنا ، قلنا : ليس الأمر كذلك ، بل أكثر العقلاء يصرحون بعلو الله على خلقه .

والذين ينكـرون علو الله على عرشـه ويقولون : ليس فوق العرش رب ، وليس مبايناً للعالم ، ولا حالا فيه ، طائفة من النظار الذين تأثروا بآراء الفلاسفة ، وتتلمذوا عليهم كالمعتزلة ، ومعلوم عند كل أهل العلم مقام الفلاسفة وكفرياتهم ، حتى أنهم أنكروا علم الله بالجـزئيـات ، وأنكـروا حدوث العـالم ، وأنكـروا حشر الأجساد ، وقوم هذه بضاعتهم ونهاية معلوماتهم ، فلا غرابة أن ينكروا علوه على خلقه ومباينته .

وقد قدمنا غير مرة أنه قد انقضى عصر الرسول والصحابة والتابعين ، ولم ينكر واحد منهم صفة من صفاته تعالى ، لا علوه ولا غيره .

وأول من عرف عنه ذلك في الإسلام الجهم بن صفوان .

فالأقوال في هذه المسألة أربعة ، أو القسمة العقلية رباعية :

الأول : إما أن يقال : إنه تعالى في كل مكان .

الثاني : أو ليس في مكان .

الثالث : أو في جهة غير العلو .

الرابع : أو في جهة العلو .

والأقسام الثلاثة باطلة إلا الأخير .

أما الأول : فبطلانه بما يلي :

أ - المؤول مسلم أنه ليس كذلك ، فلا خلاف بيننا وبينه أنه ليس في كل مكان .

ب - لأن هذا خلاف إجماع العلماء المهتدين ، وإجماع الرعيل الأول ، بل خلاف إجماع المسلمين قاطبة ، لم يقله إلا الجهم بن صفوان وأتباعه .

ت - لو كان الأمر كذلك ، لكان ممزوجاً بالخليقة ، حالاً فيها ، حالّة فيه ، وأي عاقل يرضى لربه ذلك ؟ .

وأما القسم الثاني : وهو أن يكون لا في مكان ، أي لا فوق ، ولا تحت ، ولا خلف ... إلخ فينقضه وجوه عدة :

أ - هذا مردود بالضرورة من غير تفكير ومن غير مقدمات واستنتاج ، فالعقول على اختلافها لا تقوى أن تؤمن بوجود مثل ذلك ، ولا تستطيع أن تدرك أن هناك موجوداً قائماً بنفسه له كل صفة كمال ، وليس في جهة من الجهات المفروضة والمتوهمة .

ب - من الأحكام الثابتة عند العقلاء أن الأمرين المتناقضين لا يجتمعان ولا يرتفعان ، فلا يكون الشيء الواحد لا متصلاً ولا منفصلاً ، ولا قريباً ولا بعيداً ، ولا موجوداً ولا معدوماً ، ولا متحركاً ولا ساكناً .

ت - لو صح ذلك لصح أن يقال : إن الله لا موجود ولا معدوم ، ولا حي ولا ميت ، ولا عالم ولا جاهل ، ولا خالق ولا ليس

بخالق ، ولا قديم ولا حادث ، فراراً مما فروا منه ، ولا يوجد دليل عقلي أو نقلي يؤيده ، إذ قد جوزوا ارتفاع النقيضين ، وإذا جاز ارتفاع النقيضين ، جاز ارتفاع غيرهما ، والقول المؤدي إلى أن الله ليس موجوداً ، ولا معدوماً ، ولا حياً ، ولا ميتاً .. إلخ ، قول في غاية السفه والبطلان .

وأما القسم الثالث : وهو أن يكون في جهة غير العلو ، فجوابه من وجوه .

أ - هو خلاف إجماع المسلمين ، فما قال مسلم : إن الله كذلك .

ب - هو ضد الأخبار السماوية ، فهي كما يقولون : تخبر أنه مستو على العرش .

ت - بالبداهة العلو أشرف الجهات ، وبالبداهة أن لله أعظم الشرف وأتمها ، فإذا أمكن أن يكون في جهة ، فلن تكون غير العلو ، وإذا علمت بطلان الأقسام الثلاثة ، علمت أن لم يصح إلا القسم الرابع ، وهو (**الرحمن على العرش استوى**) .

وفوق ثبوت علو الله بالبراهين العقلية ، والأدلة النقلية ، فإنه ثابت بالفطر السليمة .

حيث أن الخلق بطباعهم وفطرهم يرفعون أيديهم عند الدعاء ، ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع إلى الله[١] ، وهذا معلوم

---

(١) **وقول المؤولة** : إنما يرفع المسلمون أيديهم نحو السماء عند الدعاء لكونها قبلة الدعاء ، كما أن الكعبة قبلة للصلاة ، ألا ترى أننا نضع الجبهة على الأرض ، مع أنه ليس في جهة الأرض .

فالجــواب :

أولا : كون السماء قبلة الدعاء ، لم يقله أحد من سلف الأمة ، ولا أنزل

بالحس والوجدان والمشاهدة ، حتى أنك لتسمع من العالم والجاهل ، والصغير والكبير ، والمؤمن والكافر ، يقول لك في معرض كلام أو غضب : أما تخاف من الله الذي فوقنا ؟ . أو يقول : أما تستحي من ربنا وهو فوقنا ؟ . فوالله ثم والله ، إن هؤلاء الذين ينكرون بألسنتهم علوه ما ليس في قلوبهم ولا في فطرتهم ، وفي غير وقت الجدال تسمع منهم بأن الله تعالى فوق عرشه ، ولكنهم عند الجدال والنقاش وتأييد مذاهبهم الفاسدة يصرون على هذا النفي ، ويخالفون الحس والوجدان ، ويعارضون السنة والقرآن .

= **الله به من سلطان ، وهذا من الأمور الشرعية الدينية ، فلا يجوز أن يخفى على جميع سلف الأمة وعلمائها .**

ثانياً : إن قبلة الدعاء هي قبلة الصلاة ، فإنه يستحب للداعي أن يستقبل القبلة ، وكان النبي ﷺ يستقبل القبلة في دعائه في مواطن كثيرة .

ثالثاً : إن القبلة هي ما يستقبلها العابد بوجهه ، كما تستقبل الكعبة في الصلاة والدعاء والذكر والذبح ، والاستقبال خلاف الاستدبار ، فالاستقبال بالوجه ، والاستدبار بالدبر .

فأما ما حذاه الإنسان برأسه أو يديه أو جنبه ، فهذا لا يسمى قبلة ، لا حقيقة ولا مجازاً ، فلو كانت السماء قبلة الدعاء ، لكان المشروع أن يوجه الداعي وجهه إليها ، وهذا لم يشرع .

وأما قولهم في رد العلو بوضع الجبهة على الأرض حين السجود ، فما أفسده من رد ونقص ، فإن واضع الجبهة إنما قصده الخضوع لمن فوقه بالذل له ، لا أن يميل إليه إذ هو تحته ، فإن هذا لا يخطر في قلب ساجد ، ا هـ ملخصاً من (شرح الطحاوية) .

الشبه النقلية وردها

للمؤولة شبه يوردونها زاعمين أنها تسوغ لهم التأويل ، وها أنذا أحررها لك مقرونة بالجواب السديد :

الشبهة الأولى والجواب عنها

قوله تعالى : **(وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله)** ، قالوا : هذا دليل قاطع لا يقبل الجدل بأنه تعالى في السماء وفي الأرض ، فدل على نفي الاستواء .

وكذا قوله تعالى : **(وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم)** .

وأصرح من هذا قوله تعالى : **(فأينما تولوا فثم وجه الله)** .

قالوا : فهذه الآيات تحتم عليكم بأن الله في كل مكان .

والجـــواب :

أولا : إما أن تدل الأخبار التي ذكرتم على أنه في كل مكان أم لا تدل ، فإن لم تدل بطلت الشبهة رأساً ، وإن دلت فإما أن يأتي برهان عقلي أو نقلي يدل على فساد ظاهرها أم لا .

إن كان الأول : فهذا البرهان هو الذي صرفنا عن الإيمان بأنه في كل مكان .

وإن كان الثاني : قلنا : وجب عليكم أن تؤمنوا بمقتضى ذلك بأنه في كل مكان ، وإن لم تفعلوا كنتم مخطئين .

وأنتم لا تؤمنـــون بمقتضى ذلك ، لأن كثـــيراً من الأمكنـــة

لا يمكنكم بأن تقولوا هو فيها كالمزابل ونحوها ، وعلى ما قلتم يجب عليكم الإيمان بذلك المقتضى .

فأنتم مخطئون وغالطون لا محالة ، ولم تؤمنوا بمقتضى براهينكم الدالة بزعمكم على أنه في كل مكان لما ذكرنا ، كمالم تؤمنوا بعلوه تبارك وتعالى .

وعلى فرض خطئنا فنحن غلطنا في مسألة واحدة ، وهو كونه في العلو لا غيره من سائر الجهات ، وأنتم في مسألتين كما بينا ، الأولى : كون الله في كل مكان ، والثانية : عدم الإيمان بمقتضى ذلك .

ثانياً : قام الإجماع بيننا على أنه ليس في كل الأماكن ، وإن الأخبار في ذلك مؤولة ، فاتبعنا الإجماع ، واختلفنا في أخبار علوه ، ولم نجد مايسوغ لنا التأويل فقلنا بمقتضى نصوص العلو .

ثالثاً : ما أوردتم معارض بأخبار علوه ، فتحتم الترجيح ، فوجدنا الأقوى الأحق ، أن لا نؤول أخبار العلو لعدة أسباب :

١ - كثرتها ، وظهورها ، وموافقتها للإجماع والعقل ، ورفعة الرب تعالى ، على أن معنى قوله تعالى : (**وهو الذي في السماء إله**) الآية : أي معبود في السماء وفي الأرض ، وهذه تفاسير القرآن بين أيدينا ، كابن جرير ، وابن كثير ، والبغوى ، وغيرهم ، وهذا واضح كما تقول : السلطان مطاع في كل مكان ، والعالم محبوب في كل مكان ، فهل يدل على أن ذاته في كل مكان ؟

٢ - وقوله تعالى : (**وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم**)[1] ، لا يدل على أن الله مستقر في السماء

---

(١) الأنعام : ٣

والأرض ، لأن الجار والمجرور معمول لقوله : (**يعلم**) ، ويكون المعنى أنه يعلم سركم وجهركم في كل مكان ، لا أنه في كل مكان ، والقرآن نزل بلغة العرب ، والعربي لا يفهم من هذه الآيات إلا ما قلنا ، كما لا يفهم من قوله تعالى : (**إنني معكما أسمع وأرى**) ، وقوله تعالى : (**ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم**) إلا معية العلم[1] ، كمعية النصر والتأييد في مثل قوله تعالى : (**إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون**) .

ولم ينزل القرآن بلغة الأعاجم ، كهؤلاء الذين أخذوا يفسرون القرآن على حسب أفهامهم وأهوائهم ، وأخذوا يضعون قواعد واصطلاحات من عندياتهم ، ويحملون الآيات والأحاديث عليها ، وهذا عكس القضية ، حتى فهمت طائفة منهم أن القرآن يدل على التشبيه والتجسيم ، وأخرى فهمت الحلول والاتحاد ، وأخرى رفع التكاليف ، وفرقة رفضت الأحاديث ، هدانا الله وإياهم سواء السبيل .

٣ - وأما قوله تعالى : (**فأينما تولوا فثم وجه الله**) ، فبعضهم قال : قبلة الله ، والأرجح أن الآية تدل بأنه تعالى محيط بالخليقة ، ولا تدل على الاستقرار .

---

(١) إن علماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل في القرآن قالوا في تأويل هذه الآية : هو على العرش ، وعلمه في كل مكان .

ومما يؤيد أن المعية هنا معية العلم ، افتتاح الآية بقوله تعالى : (**ألم تر** - أي : **ألم تعلم - أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض**) ، يعني أنه عالم بجميع المعلومات ، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، ثم أكد ذلك بقوله تعالى : (ما يكون من نجوى ثلاثة ...) الآية ، وختمها بقوله : (إن الله بكل شيء عليم) .

وليس هذا من التأويل الذي ننهى عنه ، كما تزعم المعطلة ، لأنه مأخوذ من تفسير الصحابة ، وهم أخذوه عن النبي ﷺ ، ولم يقولوا من تلقاء أنفسهم ، ونحن ننازعكم فيما لم يأت عن الرسول ﷺ ولا عن أصحابه ولا عن التابعين تأويل له ، لا فيما ثبت عن أولئك .

ونقرب لأذهانكم بأن لو قلنا : أينما تلتفتوا تبصروا السماء أمامكم ، فمثل هذا لا يدل على أن السماء في كل مكان ، وإنما يدل على الإحاطة بالرائي ، وهذا لا يختلف فيه اثنان .

وقد أشفى العليل العلامة ابن القيم في (الصواعق المرسلة) ، فإن أردت الزيادة فعليك به .

الشبهة الثانية والجواب عنها

حديث الإدلاء الذي رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - ، ونصه عن قتادة ، حدثنا الحسن عن أبي هريرة قال : بينما نبي الله ﷺ جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب ، فقال نبي الله ﷺ : « هل تدرون ما هذا ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هذا العنان ، هذه روايا الأرض ، يسوقه الله تبارك وتعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه ، قال : هل تدرون ما فوقكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها الرقيع ، سقف محفوظ ، وموج مكفوف ، ثم قال : هل تدرون كم بينكم وبينها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : بينكم وبينها مسيرة خمسمائة سنة ، ثم قال : هل تدرون ما فوق ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن فوق ذلك سماءين ، ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة ، حتى عدد سبع سموات ما بين كل سماءين كما بين السماء والأرض ، ثم قال : هل تدرون ما فوق ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن فوق ذلك العرش ، وبينه وبين السماء بعد ما بين السماءين ، ثم قال : هل تدرون ما الذى تحتكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها الأرض ، ثم قال : هل تدرون ما الذي تحت ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن تحتها الأرض الأخرى ، بينهما مسيرة خمسمائة سنة ، حتى عدّد سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة ، ثم قال : والذي نفس محمد بيده ، لو أنكم دليتم

رجلا بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله ، ثم قرأ : **(هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم)** .

وتقرير شبهتهم أن يقال : ينص الحديث - مصدراً بالقسم - بأنكم لو دليتم رجلا بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله .

وهذا دليل واضح على نفي علو الله على العرش ، إذ لو كان على العرش ، لما قال : لو أنكم دليتم رجلا بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله ، والهبوط ضد الصعود .

والجــواب :

أولا : إن الترمذي الذي أخرج هذا الحديث في سننه ، حكم عليه بالغرابة حيث قال : « حديث غريب » .

ثانيــاً : لم يثبت سمــاع الحسن عن أبي هريـرة ، وعليـه فالحـديث منقـطع لا يحتج به ، ومن قواعد المؤولة أنه لا يحتج بأحـاديث الآحـاد في العقائد ولو كان صحيحاً ، فكيف بحديث غريب منقطع ؟

ثالثـــاً : لو صح الحديث ، لكان معناه على تقدير مفروض أي : لو وقع الإدلاء لوقع عليه ، لكن لا يمكن أن يدلي أحد على الله شيئاً ، لأنه عال بالذات .

والمقصـود بيـان إحـاطة [1] الخالق سبحانه بعلمه الشامل لمخلوقاته ، ولهذا قرأ في تمام الحديث قوله تعالى : **(هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم)** .

---

(١) حينمـا صعـد رائد الفضاء إلى السماء بعيداً شاهد الكرة الأرضية تسبح في الفضاء ، بمعنى تحيط بها السماء من كل جهاتها ، من أعلاها ، ومن أسفلها ، فالله بائن عنها ، محيط بها من جميع جوانبها ، لأنها جزء صغير من مخلوقاته .

الشبهة الثالثة والجواب عنها

احتجوا على تأويل الاستواء بمعنى الاستيلاء بقول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق

وهذه الشبهة من أكبر شبهاتهم حيث قالوا : إن القرآن عربي ، وينبغي تأويل الموهم - بزعمهم - للجسمية أو للجهة بحسب اللغة العربية ، وهذا الشاعر العربي قال : (قد استوى بشر) أي : استولى .

والجواب من وجوه عديدة :

أولا : إن هذا البيت مصنوع مختلق ، ليس من شعر العرب الذين يحتج بقولهم .

ثانياً :إن معنى الاستواء مشهور لدى أهل العلم ، كما ثبت عن ربيعة شيخ الإمام مالك ، وعن الإمام مالك ، حيث قال كل واحد منهما : الاستواء معلوم ،والكيف مجهول ، لأنه لو لم يكن معنى الاستواء في الآية معلوماً ، لم يحتج أن يقول : والكيف مجهول .

ثالثاً : تفسير استوى باستولى ، لم يفسر به أحد من الصحابة ولا من التابعين ولا من الأئمة المهتدين ، بل هو من تفسير الجهمية والمعتزلة الذين ليس لهم قدم صدق في العالمين .

رابعاً : إن الاستيلاء يشعر معنى المقاومة والمغالبة ، فمن كان مستولياً على العرش قبله حتى يكون غلبه واستولى عليه ؟ ! وتعالى الله عن إفك المعطلة .

خامساً : إن الاستيلاء عام على سائر المخلوقات ، فلو كان معنى الاستواء الاستيلاء ، لجاز أن يقول : استوى على الماء وعلى

الهـواء وعلى الأرض ، وهذا لايشك في بطلانه من له مسكة من عقل ، ولا يختلف فيه اثنان .

سادساً : إن كان الاستيلاء كاستيلاء بشر على العراق ، فهذا هوالتشبيه بعينه ، وهم يزعمون أنهم بهذا التأويل قد نجوا من التشبيه .

وإن كان استيلاء الله على ما يليق به ، واستيلاء بشر على ما يليق به ، فهلا أبقوا اللفظ القرآني وقالوا : استواء يليق به ؟ .

سابعاً : لو صح هذا البيت ، وصح أنه غير محرف ، لم يكن فيه حجة ، بل هو حجة عليهم ، وهو دال على حقيقة الاستواء .

فإن بشراً هذا كان أخا عبد الملك بن مروان ، وكان أميراً على العراق ، فاستوى على سريرها كما هو عادة الملوك ونوابها ، أن يجلسوا فوق سرير الملك مستوين عليه .

وهذا هو المطابق لمعنى هذه اللفظة في اللغة ، كقوله تعالى : **(لتستـــووا على ظهـــوره)** ، وقــوله تعــالى : **(واستــوت على الجودي)** ، وقوله تعالى : **(فاستوى على سوقه)** .

وفي الصحيح أن النبي ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر كبر ملبياً .

وقــال علي ـ رضي الله عنــه ـ : أتى رســول الله ﷺ بدابة ليركبها ، فلما وضع رجله في الغرز قال : بسم الله ، فلما استوى على ظهرها قال : الحمد لله .

فهل تجد في هذه المواضع موضعاً واحداً أنه بمعنى الاستيلاء والقهر ؟ !

ثامنــاً : لو كان المراد بالبيت استيلاء بالقهر والملك ، لكان المستوي على العراق عبد الملك بن مروان لا أخوه بشر ، فإن بشراً لم يكن ينازع أخاه الملك ، ولم يكن ملكاً مثله ، وإنما كان نائباً

له عليها ، وواليأً من جهته، فالمستولي عليها هو عبد الملك لابشر ، بخلاف الاستواء الحقيقي وهو الاستقرار فيها والجلوس على سريرها ، فإن نواب الملوك تفعل هذا بإذن الملوك .

تاسعاً : لا يقال لمن استولى على بلدة ، ولم يدخلها ، ولم يستقر فيها ، بل بينه وبينها بعد كثير ، أنه قد استوى عليها .

فلا يقال : استوى أبو بكر على الشام ، ولا استوى عمر على مصر والعراق ، ولا قال أحد قط : استوى رسول الله ﷺ على اليمن مع أنه استولى عليها ، واستولى خلفاؤه على هذه البلاد .

ولم يزل الشعراء يمدحون الملوك والخلفاء بالفتوحات ، ويتوسعون في نظمهم واستعاراتهم ، فلم يسمع عن قديم منهم جاهلي ولا إسلامي ولا محدث أنه مدح أحداً قط أنه استوى على البلد الفلاني الذي فتحه واستولى عليه ، فهذه دواوينهم وأشعارهم موجودة .

عاشراً : إما أن يحيل العقل حمل الاستواء على حقيقته ، أو لا يحيله .

فإن أحاله العقل ، ولم يتكلم أحد من الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام المهتدين في تفسيره بخلاف ما يحيله العقل ، بل تفاسيرهم كلها مما يحيله العقل ، لزم القدح في علم الأمة ونسبتها إلى أعظم الجهل ، لسكوتهم عن بيان الحق وتكلمهم بالباطل ، وهذا شر من قول الرافضة .

وإن لم يحله العقل ، وجب حمله على حقيقته لأنها الأصل ، والعقل لا يمنع منها .

وقد ذكر العلامة ابن القيم اثنين وأربعين وجهاً في بطلان تفسيرهم الاستواء بالاستيلاء ، في كتابه (الصواعق المرسلة) ، فرحمه الله وجزاه عن الإسلام خيراً[1] .

---

(١) من الوجه الخامس إلى العاشر من (الصواعق المرسلة) .

فصــــل

الشــبهات العقليــة

يوردون خيالات من نسج أفـكارهم الملطخة بأقذار الفلاسفة ، ويسمـونهـا عقليـات ، وإنمـا هي أوهـام وجهليات ، إذ العقول لا تخالف الشرائع ، ووظيفتها أن تسلم ذلك بعد إدراكها ، أو تحير فيه إن لم تدرك .

الشبهة الأولى والجواب عنها

قالوا : لو كان فوق العرش لكان جسماً ، والتجسيم باطل ، فكونه فوق العرش باطل إذاً .

هذه شبهتهم التي يذكرونها ، ويعتمدون عليها ، كأنها برهان إلهي أو تنزيل سماوي !!

وما هي إلا سخافة من السخافات ، وما أدري ما المناسبة بين الفوقية وبين التجسيم ، وهي كما ترى ـ بحسب زعمهم ـ قائمة على دعويين :

الأولى : إن كل ما هو في جهة فهو جسم .

الثانية : وباطل أن يكون الله جسماً .

والجواب : أما الدعوى الأولى فباطلة بما يلي :

أولا : إن الأعراض والمعاني في جهات بالمشاهدة والضرورة ، وهي ليست بأجسام ، لأنها قسيمة الأجسام .

ثانياً : إن المخالفين يسلمون لله صفات كثيرة ، كالعلم والحياة ، والقدرة ، والخلق ، والإرادة ، والوجود ، ونظائر ذلك .

ومع هذا لا يقولون : إن الله جسم ، بل يصرحون بأنه غير جسم ، ويكفرون من قال ذلك ، فإذا كانت هذه الصفات لله لا تقتضي بأن يكون جسماً ـ كما يدعون ـ لم تكن صفة العلو والاستواء على العرش قاضية بذلك ، وهذا إلزام لا مفر منه .

ثالثاً : هذه الحجة ليست واردة على الله من حيث هو مستو على العرش ، ومن حيث هو في السماء ، بل هي واردة عليه من حيث هو موجود ولاشك ، كأن يقال : الله موجود ، والموجود إما أن يكون جسماً قائماً بنفسه ، أو عرضاً قائماً بغيره ، ولا ثالث لهذين الأمرين ، إذ الموجودات كلها كذلك .

والله موجود ، فإما أن يكون جسماً ، وإما أن يكون عرضاً ، وباطل أن يكون عرضاً ، فلم يبق إلا أن يكون جسماً ، فهو جسم إذاً سواء قيل : إنه في السماء أم ليس في السماء ولا في غيرها .

فلا ضرر إذاً من القول بأنه في السماء ، أو بأنه مستو على العرش ، لأنه لا يلزم هذا معنى فاسد من حيث الصفة .

وحينئذ يقال : إن أمكن أن يكون ثَمَّ موجود ليس جسماً ، أمكن أن يكون ثم موجود في السماء ، أو نقول : فوق العرش وليس جسماً بالضرورة .

وأما الدعوى الثانية : وهي قولهم : والله باطل أن يكون جسماً .

فنقول في الجواب :

نحن لا نقول بالجسمية ، ومعاذ الله ، ونقدس الله عن ذلك ، ولكن نقر النصوص كما جاءت من غير تحريف ولا تأويل ولا

تمثيـل ، ولكنهم يظلمون النصوص بهذه المزاعم التي ينسبونها إليها ، ولـم يذكروا على صحة ما يدعون برهاناً مقبولا يمكن أن ينفي ما وردت به النصوص ، ولو قيل لهم : ما دليلكم على نفي الجسمية ؟ ، ولماذا تنكرون الإيمان بهذه النصوص إن كانت تدل على التجسيم ، وما يقضي به الحق حق ؟ .

لقالوا : لا يصح الإيمان بنص يدل على الجسم ، لأنه يدل على الحـدوث ، وهو غير حادث ، ولأجل هذا أولنا النصوص إن استطعنا ، ودفعناها إن لم نستطع .

ثم لو سئلوا مرة أخرى : ما دليلكم على أن الجسمية تقتضي الحـدوث ؟ لقالوا : الأجسام كلها حادثة ، فلو كان جسماً لكان حادثاً ، ولم يعلموا أن هذا القول كقول القائل : لو كان موجوداً لكان جسماً أو عرضاً ، لأن الموجودات كلها إما أجسام وإما أعراض .

وكقـول القائل : لو كان موصوفاً لجاز أن يفقد صفاته أو بعضها قياساً على الشاهد ، مثل أن يقال : لو كان حياً لجاز موته ، لأن كل حي يجوز أن يموت ، ولو كان بصيراً لجاز أن يعود أعمى ، إلى غير ذلك من الأقيسة الفاسدة التي مآلها نبذ النصوص وتحريفها .

الشـبهة الثانيـة والجواب عنها

قالوا : لو كان الله مستوياً على العرش ، لكان محمولا له ، وتعالى الله عن أن يحمله شيء ، أو أن يكون في حاجة إلى ما يحمله .

والجواب : لا يلزم من استوائه على العرش احتياجه إليه ، بل الله غني عن كل شيء ، وكـل شيء فقير إليه ، وتعالى الله أن يحمله حامل ، أو يفتقر إلى قوة حامل .

ولكن استواءه فعل من أفعاله ، وصفة من صفاته ، وشأن من شئونه ، لحكمة من حكمه العالية ، لا عن احتياج وافتقار ، كما خلق العالم ولم يكن مفتقراً إلى الخلق ، وكما أمر ونهى وشرع الشرائع ولم يكن محتاجاً ، ولو لزم من الاستواء الاحتياج ، للزم الاحتياج في جميع أفعاله الاختيارية وأوامره ونواهيه .

ومما يزيدك بياناً : إن هذه المخلوقات قائم بعضها فوق بعض ، ولم يقض بأن تكون كلها متحاملة ، ولم يلزم أن يكون الأعلى محمولا للأسفل ، والأسفل حاملا للأعلى .

فهذه السموات وهذه الأجرام العلوية قائمة فوقنا وفوق الأرض ، ولم تكن الأرض حاملة لها ، ولم نكن نحن حامليها .

وهذا السحاب ناهض فوقنا وفوق الأرض ، ولسنا حامليه .

وهكذا يقال في الهواء وغيره ،وليس الأعلى محمولا ، بل الأسفل والأعلى قائمان بقدرة الله تعالى وبأمره ، وهما في الافتقار سواء .

وجرت سنة الله تعالى أن الأعلى غني عن الأسفل كالسماء والأرض ، فإذا كانت المخلوقات كذلك ، فالله أعلى وأولى بألا يكون في علوه محتاجاً ولا محمولا لشيء من هذا العالم المخلوق والقائم بإذنه وأمره جل وعلا .

الشبهة الثالثة والجواب عنها

قالوا : لو كان فوق العرش ، لكان لا يخلو من ثلاث حالات :

الأولى : إما أن يكون أكبر من العرش .

الثانية : وإما أصغر .

الثالثة : وإما مساوياً له .

وكلها باطلة .

فالقول بفوقيته على العرش باطل إذاً !!

وبيانه : بأنه إذا قلنا : إنه أصغر أو مساوٍ ، فلا ريب ولا نزاع في بطلانه .

وإذا قلنا : إنه أكبر [1] ، فيلزم أن يكون من أمرين : من القدر المساوي ومن القدر الزائد ، وهو منزه عن التركيب ، لأن المركب على وزن مفعول مخلوق حادث ، ولابد له من فاعل ، وهذا محال .

والجواب : هذه الشبهة بقطع النظر عن صحتها أو بطلانها ، ليست واردة من جهة استوائه وعلوه ، وإنما واردة من حيث وجوده تعالى ، فإن الله موجود ، والعرش موجود .

أو نقول : الله موجود ، والمخلوق موجود .

أونقول : الله موجود ، والعالم موجود .

فخذ ما شئت من هذه الثلاثة .

وافرض : إما أن يكونا متساويين ، وإما أن يكون أحدهما أصغر ، وإما أن يكون أحدهما أكبر .

وواضح بطلان التساوي وكونه تعالى أصغر .

---

(١) ولماذا لا يقال : إنه تعالى أكبر من العرش ؟ بل أكبر من جميع المخلوقات ، بل لماذا لا يجب هذا القول ، ولماذا لا يجب أن يكون كذلك ، كما يقول المسلمون في صلواتهم وفي كل حالاتهم : الله أكبر ، أي : أكبر من كل كبير ، ومن كل شيء في الأرض وفي السماء ؟ .

كما يقولون : الله أعلم وأعظم وأمثال ذلك ، مما لايختلف المسلمون في جوازه وورده في الشرائع جميعاً ، ومتى اختلف المؤمنون في أن الله أكبر وأعلم وأعظم من جميع الكبراء والعظماء ؟ ، ومتى كان مثل هذا القول واعتقاده باطلا ، أو مختلفاً فيه ، أو مشكوكاً في جوازه ؟ فالله أكبر من العرش ، ومما تحت العرش ، ومن كل شيء في الأرض وفي السماء .

فلم يبق إلا أن يكون أكبر .

فإذا قلنا : أكبر ، فمحذور التركيب كما قالوا حاصل ، ولا فرار من الأقسام الثلاثة ، فيلزم إما أن ننكر وجود الله ، أو وجود العرش ، أو وجود العالم ، أو وجود المخلوق ، وكل هذا باطل إنكاره .

فثبت أن تلك المقدمات التي بنوا عليها تلك الكلمات باطلة ، ونتيجتها وهي نفي الفوقية باطلة مثلها ، لأنها مبنية على شفا جرف هار من الخيالات والأوهام .

والحاصل : أن إثبات الاستواء صرح به الكتاب والسنة المتواترة ، وأقوال الصحابة والتابعين وتابعيهم والفقهاء والمحدثين والصوفية المحققين والشعراء واللغويين ، كما دلت عليه العقول الراجحة ، والفطر السلمية ، وفيما أوردناه من الأدلة ورد الشبهات كفاية ومقنع لمن يريد الحق والإنصاف ، متجنباً تقليد المشايخ والآباء ، والجمود على ما ورثه وشب وشاب عليه ، ولعلك لاتجد مثل هذا البسط في هذه المسألة في غير هذا الكتاب ، فنسأل الله لنا ولجميع المؤولين الهداية والتوفيق والاعتصام بعقيدة السلف الكرام ، والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب .

فصـــــل

في بحث الكلام والرؤية

أولا : صـفة الكلام

ثم كـــلام ربنـــا المنـــان ... ليس بمحـــدث بلا نكران
منه بدا ثم إليــه يرجع ... هذا اعتقادي الصحيح فاسمعوا
منزل من ربنــــا الرحمن ... يبـطل قول الجهمي الشيطان
قد حكموا بكفر من يقول ... بأنه مخلـــوق ذا منقـــول
عن أحمـد بن حنبـل المعظم ... ثم أبي ثور الـكبير الأفخم
كذا عن المعظم الســـفيان ... ثم الفضيل يا أخـــا الإحسان
وغيرهم من الأئمـــة الهدى ... فلتقتدي وجانباً أهل الردى

ش : هذه المسألة تعرف لديهم بمسألة كلام الله ، وقد ضل في هذه المسألة طوائف عديدة ، وحبس الإمام أحمد من أجل أنه امتنع أن يقول : إنه مخلوق ، كما أوذي غيره بسببها من المأمون ابن هارون الرشيد الذي تمذهب بمذهب المعتزلة ، وأيد مذهبهم بالقوة ، ثم تابعه المعتصم من بعده .

وقد كان السلف متفقين على أن كلام الله غير مخلوق ، وإنه تعـالى لم يزل متكلماً إذا شاء ، ومتى شاء ، وكيف شاء ، وإن الكلام صفة له قائمة بذاته ، وهو يتكلم بصوت يسمع ، وإن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديماً ، وعلى هذا مضى السلف وأهل الحديث وسائر الأئمة المهتدين .

والدليل على أنه موصوف بالكلام من النقل : قوله الله تعالى في كتابه المجيد : (**ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك**)[1] ، وقال الله تعالى (**وكلم الله موسى تكليماً**)[2] ، وقال الله تعالى : (**وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله**)[3] ، وقال الله تعالى مخاطباً موسى عليه السلام : (**إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين**)[4] وقال الله تعالى : (**منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات**)[5] ، وقال الله تعالى : (**وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون**)[6] ، وقال الله تعالى : (**يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل**)[7] ،وقال الله تعالى : (**واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته**)[8] .

وفي الحديث الشريف : « ما من عبد إلا سيكلمه الله يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان » .

البرهان العقلي :

أن يقال : إن التكلم من أوصاف الكمال ، وضده من أوصاف النقص ، وكل كمال فالله أولى أن يوصف به .

فإذا ثبت أن الكلام صفة كمال في المخلوق ، فالخالق أولى

---

(١) الأعراف : ١٤٣ .
(٢) النساء : ١٦٤ .
(٣) التوبة : ٦ .
(٤) الأعراف : ١٤٤ .
(٥) البقرة : ٢٥٣ .
(٦) البقرة : ٧٥ .
(٧) الفتح : ١٥ .
(٨) الكهف : ٢٧ .

به ، ومعطي الكمال أحق بالكمال ، فلو نفينا عنه الكلام لكان غيره أكمل منه ، وكفى بذلك قبحاً .

والدليل على أنه من أوصاف الكمال ، أن الله وبخ عبّاد العجل ، وأبان قلة أفهامهم ، كما بين بطلان ألوهية العجل من حيث أنه لا يتكلم ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، فقال الله تعالى : (**ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا**)(١) ، وقال الله تعالى : (**أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً**)(٢) ، وقال الله تعالى في وصف المنافقين : (**صم بكم عمي فهم لا يرجعون**)(٣) .

وذهبت المعتزلة ومن نحا نحوهم من أهل البدع والضلال أن كلام الله مخلوق خلقه منفصلا عنه في بعض الأجسام ، ولهم شبه فيما زعموا .

الشبهة الأولى والجواب عنها

أما شبهتهم من حيث النقل فقد قالوا : قال الله تعالى : (**الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل**)(٤) ، فالقرآن شيء ، فيكون داخلا في عموم « كل » ، فيكون مخلوقاً .

فالجواب من وجوه :

١ - إن هذا الاستدلال لعجيب جداً من هؤلاء ! . وبيان ذلك أنهم لا يعترفون ولا يعتقدون أن أفعال العباد مخلوقة لله ، فإن كان العموم مراداً من قوله تعالى : (**الله خالق كل شيء**) ، فلماذا أخرجوا أفعال العباد ؟ !

---

(١) الأعراف : ١٤٨ .

(٢) طه : ٨٩ .

(٣) البقرة : ١٨ .

(٤) الزمر : ٦٢ .

مع العلم أننا نقول : كلام الله صفة من صفاته ، به تكون الأشيـاء المخلوقـة ، إذ بأمره تكون المخلوقات ، قال الله تعالى : **(والشمس والقمـر والنجـوم مسخـرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين)**(١) .

ففرق بين الخلق والأمر ، فلو كان الأمر مخلوقاً للزم أن يكون مخلوقاً بأمر آخر، والآخر بآخر ، إلى ما لانهاية له ، وهذا يلزم منه التسلسل كما لا يخفى .

٢ – ولو قال قائل : إن علمه شيء ، وقدرته شيء ، وهكذا بقية الصفات ، فعلى استدلال المعتزلة يمكن أن تدخل هذه الصفات في عموم قوله تعالى : **(الله خالق كل شيء)** فتكون مخلوقة ، ولزم أن يكون القائل بذلك مصيباً عند هؤلاء ، وما كان جوابهم له فهو جوابنا لهم .

٣ – لو صح ما تقول المعتزلة ، لكان ما أحدثه في الجمادات ، وما خلقه في الحيوانات ، فهو كلامه ، بل يلزم أن يكون متكلماً بكل كلام خلقه في غيره ، زوراً كان أو كذباً أو كفراً ، فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وعلى هذا المعتقد الفاسد قال بعض الصوفية الاتحاديين :

وكـل كلام في الوجـود كلامـه ... سواء علينـا نثـره ونظامـه

وتصور هذا الكلام كاف في بطلانه وفساده .

كما يلزمهم أن يوصف الله بالصفات التي خلقها في غيره ، من الألوان والروائح والطعوم والقصر والطول ، وفساد ذلك لا يخفى .

٤ – عمـوم (كل) في كل موضـع بحسبـه ، ويعرف ذلك

---

(١) الأعراف : ٥٤ .

بالقرائن ، ألا ترى قوله تعالى : (**تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم**)[1] ، ومساكنهم شيء ، ولا تدخل في عموم كل شيء ، لأن المراد تدمر كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة ، وما يستحق التدمير .

وكذلك قوله تعالى حكاية عن بلقيس : (**إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم**)[2] ، فالمراد من كل شيء يحتاج إليه الملوك ، وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام ، وهو أنواع ، والتخصيص عند أهل الأصول .

فالتخصيص قصر العام على بعض أفراده .

وإذا عرفت ما ذكرناه لك ، فاعلم أن المراد من قوله تعالى : (**الله خالق كل شيء**)[3] ، أي : خالق كل موجود سوى الله ، فدخل في هذا العموم أفعال العباد ، ولم يدخل في العموم الخالق وصفاته ، وصفاته ليست غيره ، والكلام صفة من صفاته .

وقولهم : إن الله خلق الكلام منفصلا عنه في بعض الأجسام ؟

فيقال في جوابهم : إن الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل ، فإذا قام الكلام بمحل كان هو المتكلم به .

كما أن العلم والقدرة إذا قاما بمحل كان العالم القادر ، ولو كان كذلك ، لكان الكلام كلام ذلك الجسم الذي خلقه فيه ، فكانت الشجرة هي القائلة : (إني أنا الله رب العالمين) ، وتصور هذا كاف في بطلانه .

---

(١) الأحقاف : ٢٥ .

(٢) النمل : ٢٣ .

(٣) الزمر : ٦٢ .

مناظرة بين سني ومعتزلي

وإلى القــاريء من منــاظرة بين سني ومعتــزلي بحضرة المأمون ما يلى :

قال السني : يا أيها المتكلم : ما حجتك أن القرآن مخلوق ؟ رانظر أحدَّ سهم من كنانتك فارمني به ، ولا تحتج إلى معاودتي لغيرك .

قال المعتـزلي : تقـول يا أيها السني : القرآن شيء أم غير شيء ؟ ، فإن قلت : شيء ، فقـد أقـررت أنه مخلوق ، إذ كانت الأشياء كلها مخلوقة بنص التنزيل ، وإن قلت : إنه ليس بشيء ، فقد كفرت ، لأنك تزعم أن حجة الله على خلقه ليس بشيء .

قال السني : فقلت للمعتــزلي : ما رأيت أعجب من هذا ؟ أتسألني وتجيب عن نفسك ، فإن تسألني لأجيبك فاسمع الجواب .

قال السني : سألت عن القرآن : هو شيء أم غير شيء ؟ فإن كنت تريد أنه شيء إثباتاً للوجود ونفياً للعدم ، فنعم هو شيء ، وإن كنت تريد أن الشيء اسم له، وأنه كالأشياء فلا .

فقـال المعتزلي : ما أدري ما تقول ولا أفهمه ولا أعقله ولا أسمعه ، ولابد من جواب يعقل ويفهم أنه شيء أم غير شيء ؟ .

قال : فقلت للمعتزلي : صدقت أنك لا تفهم ولا تعقل ولا تسمع ما أقول ، ولقد وصفت نفسك بأقبح الصفات ، واخترت لها أذم الاختيارات ، ولقد ذم الله عز وجل قوماً في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ قالوا مثل مقالتك ، وكانوا بمثل ما وصفت به نفسك ، قال الله عز وجــل : (**إن شر الدواب عنــد الله الصم البكم الذين لا يعقلون ، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا**

وهم معرضون)[1] وقال تعالى : (**أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين**)[2] .

قال السني للمعتزلي : إن الله أجرى كلامه على ما أجراه على نفسه ، إذ كان كلامه من ذاته ومن صفاته ، فلم يتسم بالشيء ، ولم يجعل الشيء اسما من أسمائه ، ولكنه دل على نفسه أنه شيء ، وأنه أكبر الأشياء إثباتاً للوجود ، ونفياً للعدم ، وتكذيبا للزنادقة ومن تقدمهم ممّن جحد معرفته ، وأنكر ربوبيته من سائر الأمم ، فقال تعالى لنبيه ﷺ : (**قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم**) ، فدل على نفسه أنه شيء لا كالأشياء ، وأنزل في ذلك خبرا خاصاً مفرداً لعلمه السابق ، أن سيوجد من يلحد في أسمائه وصفاته ، ويشبهون على خلقه ، ويدخلون كلامه في الأشياء المخلوقة ، فقال عز وجل : (**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**)[3] ، فأخرج نفسه وكلامه وصفاته من الأشياء المخلوقة بهذا الخبر تكذيباً لمن ألحد في كتابه ، وافترى عليه ، وشبهه بخلقه ، فقال تعالى : (**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون**)[4] ، ثم عدد أسماءه في كتابه ، ولم يتسم بالشيء ، ولم يجعل الشيء اسماً من أسمائه .

ثم ذكر ـ جل ذكره ـ كلامه كما ذكر نفسه ، ودل عليه مثل ما دل على نفسه ، ليعلم الخلق أنه من ذاته ، وأنه صفة من صفاته ، فقال عز وجل : (**وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به**

---

(١) الأنفال : ٢٢ .
(٢) الزخرف : ٤٠ .
(٣) الشورى : ١١ .
(٤) الأعراف : ١٨ .

موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً)[1]، فذم الله من نفى أن يكون كلامه الذي أنزله على رسوله شيئاً .

قال المعتزلي : قد أصلت بيني وبينك كتاب الله ، وزعمت أنك لا تقبل إلا بنص التنزيل ، فأين نص التنزيل أن كلام الله هو قوله ، وهو أمره ، وأن كلامه هو الحق ؟

قال السني : قلت : نعم عليَّ أن آتي بنص التنزيل على ما قلت ، قلت : قال الله عز وجل وقد ذكر كلامه في القرآن : **(وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله)** [2] ، وإنما يسمعه من قارئه ، وإنما عني القرآن لا خلاف بين أهل العلم واللغة في ذلك ، وقال تعالى : **(سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل)**[3] ، وقال الله عز وجل : **(وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم)** [4] فقد أخبر عن القرآن أنه الحق وقال تعالى : **(وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل)**[5] فأخبر عن القرآن أنه الحق .

فهذه أخبار الله كلها أن القرآن هو الحق ، ثم ذكر تعالى أن القرآن قوله ، وأن قوله هو الحق ، وأن الحق قوله ، فسماه الحق ، ثم ذكر أن الحق كلامه ، وأن كلامه الحق ، فقال تعالى : **(وكذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون)** [6] ،

---

(١) الأنعام : ٩١ .
(٢) التوبة : ٦ .
(٣) الفتح : ١٥ .
(٤) البقرة : ٩١ .
(٥) الأنعام ٦٦ .
(٦) يونس : ٣٣ .

وقال تعالى : (**ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون**)(١)
فأخبر الله عن الحق أنه كلامه ، وأن كلامه هو الحق .

ثم ذكر الله عز وجل أن القرآن أمره وهو كلامه ، فقال تعالى : (**حم والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم ، أمراً من عندنا**) يعنى القرآن ، فأخبر الله أن القرآن أمره ، وأن أمره القرآن ، وقال عز وجل : (**ذلك أمر الله أنزله إليكم**) : يعني القرآن ، فهذا خبر الله أن القرآن أمره ، وأن أمره القرآن ، وأن هذه أسماء شتى لشيء واحد ، وهو الشيء الذي به خلق الأشياء ، وهو غير الأشياء ، وخارج عن الأشياء ، وغيره داخل في الأشياء ، ولا هو كالأشياء ، وبه تكون الأشياء ، وهو كلامه ، وهو قوله ، وهو أمره ، وهو الحق ، وهذا نص التنزيل بلا تأويل ولا تفسير . اهـ .(٢) ، (٣) .

---

(١) يونس : ٨٢ .

(٢) بتصرف وتلخيص من (الحيدة والاعتدال) .

(٣) **مسألة خلق القرآن** : إن القول بخلق القرآن فكرة يهودية أراد بها أصحابها الطعن في ذات الله وأسمائه وصفاته ، لأن أول قائل بها يهودي زنديق ، وذلك لأن القرآن الكريم كلام الله ، وكلامه صفة من صفاته ، والله بأسمائه وصفاته واحد أحد ، فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ،ولم يكن له كفواً أحد ، وقد نزلت سورة الإخلاص جواباً لسؤال المشركين واليهود الموجه لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يصف لهم ربه .

فالقول بأن القرآن مخلوق طعن في صفاته تعالى وأنها مخلوقة ، وهذا القول كفر ، ومن هنا حكم العلماء على أن من أزيلت عنه الشبهة ، وأقيمت عليه الحجة في هذه المسألة ، وبقي معانداً ، فإنه كافر .

وأما أن هذه الفكرة يهودية ، فقد قال ابن الأثير في الكامل : وفي سنة ٢٤٠ هـ توفي القاضي أبو عبد الله أحمد بن داود في المحرم بعد ابنه الوليد بعشرين يوماً ، وكان داعية إلى القول بخلق القرآن وغيره من مذاهب المعتزلة ، وأخذ ذلك عن بشر المريسي ، وأخذه بشر من الجهم بن صفوان ، وأخذه الجهم من الجعد بن درهم ، وأخذه الجعد من أبان بن سمعان ، وأخذه أبان من طالوت ابن أخت لبيد ابن الأعصم وختنه ، وكان لبيد يقول بخلق التوراة ، وأول من صنف في ذلك طالوت ، وكان زنديقاً فأفشى الزندقة .

تعقيب على المناظرة

هذا الكلام منقول من الحيدة ، وهي المناظرة التي وقعت بين عبد العزيز بن يحيى بن مسلم الكناني وبين بشر المريسي بحضرة المأمون ، وسواء صحت نسبتها إلى عبد العزيز أم لم تصح ، فإن الحجج التي أوردها عبد العزيز قوية ، تقطع شغب المعتزلة .

إلا أنه في المناظرة قال عبد العزيز : معنى (جعل) الذي بمعنى (خلق) جعله الله من القول المفصل ، يستغني السامع إذا أخبر به أن توصل له بكلمة توضح معناه ، وهذا هو ما عبر به شارح الطحاوية بأنه يتعدى إلى مفعول واحد ، وأما الذي بمعنى (صيَّر) وهو الذي يريد مفعولين ، وعبر عنه الكناني بأنه من القول الموصل الذي لا يدري المخاطب به حتى تصل الكلمة بكلمة بعدها ، فعندئذ يفهم ما أراد بها وإلا فلا ، كقوله تعالى : (**ياداود إنا جعلناك خليفة في الأرض**)[1] فلو قال : إنا جعلناك .. ولم يصلها بـ خليفة في الأرض ، لم يعقل داود ما خاطبه الله عز وجل به ، وكذلك قوله تعالى : (**ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا**)[2] إذلا يقول عاقل أن هنا : (**لا تجعلوا الله**) بمعنى لا تخلقوا الله ، وكذلك قوله تعالى : (**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط**)[3] ، بمعنى لا تصير ، لا بمعنى لا تخلق .

توضيح كلام الكناني :

إن ما كان بمعنى خلق يريد مفعولا واحداً وتتم الفائدة به كقوله تعالى : (**وجعل الظلمات والنور**) ، لأن القاريء إذا وقف على الظلمات لاستفاد ، ولا ينتظر شيئاً آخر .

---

(١) ص : ٢٦ .

(٢) البقرة : ٢٢٤ .

(٣) الإسراء : ٢٩ .

وأما ما ليس بمعنى خلق فلا تتم الفائدة إلا بذكر المفعولين ، كقول الله تعالى : (**ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم**) ، لأن القاريء لو قال : (**ولا تجعلوا الله**) ووقف ، لانتظر السامع إلى ما تتم به الفائدة وهو قوله تعالى : (**عرضة لأيمانكم**) .

وكذا قوله تعالى : (إنا جعلناه قرآنا عربياً) فلو وقف على (الهاء) في جعلناه لما حصلت الفائدة حتى يقول : قرآنا .

الشبهة الثانية والجواب عنها

هي أنهم احتجوا بقوله تعالى : (**إنه لقول رسول كريم**)[1] ، فالرسول هنا هو محمد ﷺ .

وقال تعالى في آية أخرى : (**إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين**)[2] ، فالرسول هنا جبريل ، فهذا يدل أن الرسول الملكي أو الرسول البشري أحدثه .

فالجواب من وجوه :

١ - أضيف إلى الرسولين لأجل التبليغ ، لأن الرسول الملكي يبلغ عن الله الرسول البشري ، والرسول البشري يبلغ القوم عن الله ، فلهذا لم يقل : إنه لقول ملك أو نبي ، فالإضافة إلى كل منهما تبين أن الإضافة للتبليغ ، إذ لو أحدثه أحدهما امتنع أن يحدثه الآخر ، وقوله : رسول أمين دليل على أنه لا يزيد في الكلام الذي أرسل بتبليغه ، ولا ينقص منه ، بل هو أمين على ما أرسل به يبلغه عن مرسله .

٢ - ومما يزيد هذا تأكيداً وإيضاحاً ، أن الله قد كفر من

---

(١) الحاقة : ٤٠ .

(٢) التكوير : ١٩ ، ٢٠ .

جعله قول البشر ، ومحمد ﷺ بشر ، فمن جعله قول محمد ﷺ - بمعنى أنه أنشأه ﷺ - فقد كفر ، ولا فرق في الكفران بين أن يضيفه إلى بشر أو ملك .

والدليل على ما نقول أن الإضافة في الآيتين للتبليغ فقط : هو أن الكلام كلام من قاله مبتدئاً لا من قاله مبلغاً ، فإذا سمعت قارئاً يقرأ : (**قل هو الله أحد ، الله الصمد**) فستقول : هذا كلام الله .

ولو سمعت : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » لقلت : هذا كلام رسول الله ﷺ .

ولو سمعت : « بانت سعاد فقلبي اليوم متبول » لقلت : هذا كلام كعب بن زهير .

يوضح هذا أن من يسمع من غيره نظماً أو نثراً ، يستفهمه بقوله : هذا كلامك أو كلام غيرك .

الشبهة الثالثة والجواب عنها

ومن شبههم : احتجاجهم بقوله تعالى : (**ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون**) [1] .

فالجواب : إن المعنى محدث في النزول .

الشبهة الرابعة والجواب عنها

وهي استدلالهم بقوله تعالى : (إنا جعلناه قرآنا عربياً)[2]؟ . ما أفسده من استدلال ، فإن (جعل) إذا كان بمعنى (خلق)

---

(١) الأنبياء : ٢ .

(٢) الزخرف : ٣ .

يتعـدى إلى مفعـول واحـد ، كقـوله تعـالى : (**وجعل الظلمات والنور**) [١]، وقوله تعالى : (**وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ، وجعلنا في الأرض رواسي أن تميـد بهم**)[٢] ، وإذا تعـدى إلى مفعـولين ، لم يكن بمعنى (خلق) ، قال تعـالى (**ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا**)[٣]
وقـال تعـالى : (**ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم**)[٤] ، وقال تعالى : (**الذين جعلوا القرآن عضين**)[٥] ، وقال تعالى : (**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك**)[٦] . وقال تعالى : (ولا تجعل مع الله إلهـاً آخر)[٧] ، وقال تعالى : (**وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً**) [٨] ، ونظائره كثيرة ، فكذا قوله تعالى : (**إنا جعلناه قرآنا عربياً**) [٩] .

فهـل يقـال في قوله تعـالى : (**ولا تجعلوا الله عرضـة لأيمانكم**) أى خلقتم الله ، وكذا سائر الآيات ؟ .

والآية التي استدلوا بها : (**إنا جعلناه قرآناً عربياً**) تعدى إلى مفعولين ، فلا يمكن أن يقال : إن خلقناه قرآنا عربياً ، لأن ما تعدى إلى مفعولين لا يكون بمعنى خلق كما مر ، بل بمعنى صيّر .

---

(١) الأنعام ، ١ .
(٢) الأنبياء : ٣٠ ، ٣١ .
(٣) النحل : ٩١ .
(٤) البقرة : ٢٢٤ .
(٥) الحجر : ٩١ .
(٦) الإسراء : ٢٩ .
(٧) الإسراء : ٣٩ .
(٨) الزخرف : ١٩ .
(٩) والكلام من (الحيدة) نقلا من (شرح العقيدة الطحاوية) لابن أبي العز الحنفي المتوفي ٧٢٢ هـ ص ١٨٢ ، والآية من الزخرف : ٣٥ .

مذهب الأشـاعرة

ذهب الأشاعرة إلى أن كلامه صفة أزلية قائمة بذاته ، ليست بحرف ولا صوت ، ولا تتعلق بمشيئته وقدرته ، وهذا هو الـكلام النفسي ، وإطلاق الكلام على النفسي حقيقي ، وعلى اللفظي مجاز .

وصرحوا أن الـكلام اللفظي مخلوق وحادث ، ولكن لا يقال إلا في مقام التعليم .

قال في الجوهرة :

ونزه القرآن أي كلامه   عن الحدوث واحذر انتقامه
وكل نص للحـــدوث دلا   احمل على اللفظ الذي قد دلا

قال الباجوري في تحفة المريد تحت البيت الأول ما نصه :

مذهب أهل السنة (يعني الأشاعرة) ، أن القرآن بمعنى الكلام النفسي ليس بمخلوق ، وأما القرآن بمعنى اللفظ الذي نقرؤه فهو مخلوق ، لكن يمتنع أن يقال : القرآن مخلوق ويراد به اللفظ الذي نقرؤه إلا في مقام التعليم ، لأنه ربما أوهم أن القرآن بمعنى كلامه تعالى مخلوق . ا . هـ .

ومن الأشـاعرة من قال : إن الألفاظ التي نقرؤها تدل على الكلام القديم .

ومنهم من زعم أن المنزل المعنى ، وعبر عنه جبريل بألفاظ من عنده !!

وقيـــل : عبر عنه النبي ﷺ بألفاظ من عنده !!

واستدل الأشاعرة لمذهبهم بأن الكلام صفة أزلية ، وأنه هو الكلام النفسي بقول الأخطل النصراني حيث قال :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما   جعل اللسان على الفؤاد دليلا

والجواب من وجوه :

١ - إنه موضوع ومنسوب إلى الأخطل .
٢ - قيل : إنما قال :

إن البيان لفي الفؤاد وإنما   جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وهـذا أقـرب إلى الصحـة ، وعلى تقدير ثبوت ما زعموا إلى الأخطل فلا يجوز الاستدلال به ، فإن النصارى قد ضلوا في معنى الكلام ، وزعموا أن عيسى نفس كلمة الله ، ولم يقولوا : كان بكلمة الله .

وهل يصح الاستدلال بقول نصراني قد ضل في معنى الكلام على معنى الكلام ، ويترك ما يعلم من معنى الكلام في لغة العرب ؟ .

٣ - إن معنـاه غير صحيح ، إذ لازمه أن الأخرس يسمى متكلماً لقيام الكلام بقلبه ، وإن لم ينطق به ويسمع منه .

٤ - إن النبي ﷺ قال : « إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس » .

واتفق العلمـاء على تحـريم الكـلام في الصـلاة عمداً لغير مصلحتها ، وأنها تبطل بذلك ، مع العلم أنهم متفقون أن ما يقوم بالقلب من تصـديق وكـلام في الأمور الدنيوية لا تبطل الصلاة بذلك ، ولو كان كلاماً لبطلت .

٥ - ورد في الصحيحين : « إن الله تعالى تجاوز عن أمتي عما حدثت به أنفسها ، ما لم تتكلم به أو تعمل به » .

وفرق بين حديث النفس وبين الكلام ، ولو كان حديث النفس كلاماً لما كان هناك فرق .

٦ - ولا يخفى أن قولهم : « إن الكلام صفة أزلية قائمة بذاته ، ولا تتعلق بمشيئته وقدرته » ، يلزم أن يكون الله يتكلم بغير اختيار وإرادة ، وهذا من القبح بمكان لا يخفى .

وزادت الأشعرية على ذلك القول الباطل ، أن الكلام معنى واحد هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار ، إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، وبالعبرانية كان توراة .. إلخ .

والجــــواب :

إن من المعلوم بالضرورة بالعقــل والدين ، أن التـوراة إذا عربناها لم يكن معناها معنى القرآن .

والقرآن إذا ترجمناه إلى العبرانية لم يكن توراة ، ومعنى آية الكرسي ليس معنى : (**قل يا أيها الكافرون**) ، ومعنى : (**قل هو الله أحــد**) ليس معـنـى : (**تبـت يدا أبي لهب**) ، ومعنى : (**أقيموا الصلاة**) ليس معنى : (**كتب عليكم الصيام**) ، وإن الكــل يسمى كلام الله ، كمــا نسمي زيـداً إنســانــاً ، وعمـرواً إنساناً ،وليس عين زيد عين عمرو .

شبهات الأشاعرة على قولهم : (إن كلامه ليس بحرف ولا صوت) .

أولا : إن الحروف والأصوات لابد لها من مخارج وأدوات .

ثانيــاً : إن الصــوت يستحيـل بقـاؤه ، كما يستحيل بقاء الحركة ، وما امتنع بقاؤه امتنع قدم عينه .

ثالثاً : يلزم من الصوت والحرف التعاقب : أي : أن يأتي حرف بعد حرف .

والقديم لا يكون مسبوقاً بغيره ، فلو كانت الميم في بسم الله قديمة مع كونها مسبوقة ، لكان القديم مسبوقاً بغيره ، وهذا ممتنع ، فيلزم أن يكون القديم هو المعنى القائم بالذات العلية .

ومن أجل ذلك قالوا : لايجوز تعدده ، ويلزم أن يكون معنى واحداً هو الأمر والنهي .. إلخ كما سبق ، وسبق نقضه .

والجواب عن هذه الشبهة أن يقال :

الأول : إن المؤمن العاقل لتأخذه الدهشة والاستغراب من هؤلاء الذين أفنوا أعمارهم في دراسة العلوم ، ولاسيما في علم الكلام الذي سموه « علم التوحيد » وهو خال عنه ، ومع ذلك فاتهم الفرق بين الخالق والمخلوق ، وذلك لاستيلاء الأقيسة الكلامية على أدمغتهم حتى أذهلتهم عن المغايرة بين الخالق والمخلوق ، إذ ما زعموه من المخارج والأدوات وتعاقب الحروف وما إلى ذلك مما نمقوه من الشبه الواهية ـ التي هي أوهى من بيت العنكبوت ـ إنما تصح في المخلوق الذي يتكلم بفم ولسان ، ولا يكون كلامه إلا بتعاقب الحروف ، لا الخالق جل وعلا القائل : (**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**) ، هذا هو الوجه الأول من رد الشبه .

الثاني : أن يقال لهم : أما تعلمون أن الله قال في كتابه : (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون)[1] ، فهل الأيدي والأرجل التي ستتكلم يوم القيامة ، وتشهد على الإنسان بما عمل ، لها فم ولسان ومخرج ؟! . أم أنها تنطق بقدرة الله من غير أن يلزم أن يكون لها ذلك ؟ .

---

(١) يس : ٦٥ .

الثالث : الحجر الذى سلم على النبي ﷺ ، والذراع الذي سمته اليهودية للنبي ﷺ ، ونطق بأنه مسموم ، فهل كان لهما لسان ومخرج ؟ ! .

الرابع : قد شاهد الناس في هذا العصر (الفونوغراف ـ الحاكي ـ والمسجل) يتكلمان وليس فيهما مخارج وأدوات ، فإن قيل : إن الكلام مسجل فيهما وينطقان بحسب ما سجل ، قلنا : نعم ، وكيف ينطقان بكلام فصيح بغير أن يكون لهما لسان وحلق وفم ؟

الخامس : قولهم : إن الصوت يستحيل بقاؤه ، فلم يقيموا على هذا دليلا لا نقلياً ولا عقلياً يصح عليه الاعتماد ، وكل ما هنالك فلسفة من تفلسف المعتزلة والجهمية . .

وقد ثبت في هذا العصر أن الأصوات باقية في الجو ، وأنهم يحاولون جذبها ، وها هو المذياع يذيع في أوروبا أو أمريكا ، ويسمعه العالم في أرجاء المعمورة ، فلو كان بمجرد خروجه من الفم يفنى ، لما أمكن جذبه وسماعه بالنسبة للنائين بمئات الألوف من الأميال .

والخلاصة : إن هذا قول باطل عقلا ونقلا ومشاهدة وذوقاً ، وأنهم بزعمهم فروامن التشبيه ، ولكنهم وقعوا فيه بهذا القياس الفلسفي المبني على غير أساس ، وأي قياس أفسد من قياس الخالق على المخلوق .

والحق أن الله يتكلم بحرف وصوت ، لأننا أجمعنا على أن موسى سمع كلام الله منه ، لا من شجرة ولا من حجر ولا من غيره .

وإذ ثبت أن موسى سمع من الله ، لم يجز أن يكون الذي سمعه إلا بصوت وحرف ، فإنه لو كان معنى في النفس لم يكن ذلك تكليماً لموسى ، إذ المعنى شيء لا يسمع .

قال الحافظ ابن حجر في شرح البخاري :

ومن نفى الصوت يلزمه أن الله لم يسمع أحداً من ملائكته ولا رسله كلامه ، بل ألهمهم إياه إلهاماً ، وحاصل الاحتجاج بالنفي الرجوع إلى القياس على أصوات المخلوقين ، لأنها التي عهدت بأن تكون ذات مخارج ، ولا يخفى ما فيه ، إذ الصوت قد يكون من غير مخارج ، كما أن الرؤية قد تكون من غير اتصال أشعة كما سبق وأن سلمنا ، لكن تمنع القياس المذكور ، وصفات الخالق لاتقاس على صفات المخلوق . ا . هـ .

ومن الأحاديث في إثبات الصوت : ما روى جابر بن عبد الله قال : خرجت إلى الشام إلى عبد الله بن أنيس الأنصاري ، فقال عبد الله : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الله العباد ، أو قال الناس ـ وأومأ بيده إلى الشام ـ حفاة عراة غرلا بهما ، قال : قلت : ما بهُما ؟ قال : ليس معهم شيء ، فيناديهم بصوت فيسمعه من بعد كما يسمعه من قرب ، أنا الملك أنا الديان ،لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة حتى اللطمة ، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة حتى اللطمة ، قلنا : كيف ؟ ، وإنما نأت الله حفاة عراة غرلا ؟ قال : بالحسنات والسيئات » .

أخرج أصله البخاري في صحيحه مستشهداً به إلى قوله : (أنا الملك ، أنا الديان) ، وقد وافق السلف من متأخري الأشاعرة صاحب المواقف في كون كلامه بحرف وصوت .

وقولنا في النظم : « منه بدأ ثم إليه يرجع » .

أي : أنه المتكلم به ، لا أنه خلقه في غيره كما قال الله تعالى :

(**تنـزيـل الـكتاب من الله العزيز الحكيم**)[1] ، وقـال تعالى : (**تنـزيـل من الرحمن الرحيم**)[2] ، وقـال تعالى : (**ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين**)[3] .

ومعنى (ثم إليه يرجع) : ماورد في عدة آثار من أنه يرفع من الصدور والمصاحف ، فلا يبقى في الصدور منه آية ولا في المصاحف .

وقولنا في النظم : « قد حكموا بكفر من يقول .. » إلخ . معناه واضح ، وممن حكم بكفره الإمام أحمد بن حنبل .

قال عبد الله بن الإمام أحمد في كتابه (السنة) : سمعت أبي يقول : من قال : القرآن مخلوق فهو عندنا كافر ، لأن القرآن من علم الله ، وفيه أسماء الله .

سمعت أبي يقول : إذا قال الرجل : العلم مخلوق فهو كافر ، لأنه يزعم أنه لم يكن لله علم حتى خلقه .

ثم روى عبد الله عن ابن المبـارك ، أنه سمع سفيان الثـوري يقـول : من زعم أن قول الله : (**أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين**)[4] مخلوق ، فهو كافر زنديق حلال الدم .

ثم روى عن ابن المبارك ،وعن سفيان بن عيينة ، وعن وكيع ابن الجراح ، وعن يزيد بن هارون ، وعن نظرائهم ، ما يوافق ذلك .

كما ذكر السفاريني ناقلا عن محمد بن عبد الملك الكرخي الشافعي عن كتابه (الفصول في الأصول) يروى عن أبي حامد

---

(١) الزمر : ١ .
(٢) فصلت : ٢ .
(٣) السجدة : ١٣ .
(٤) القصص : ٣٠ .

الأسفراييني يقول : مذهبي ومذهب الشافعي وفقهاء الأمصار أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، ومن قال مخلوق فهو كافر ، والقرآن حمله جبريل مسموعاً من الله ، والنبي سمعه من جبريل ، والصحابة سمعوه من النبي ﷺ ، وهذا الذي نتلوه نحن بألسنتنا وما بين الدفتين وما في صدورنا مسموعاً ومكتوباً ومحفوظاً ومقروءاً ، وكل حرف منه كالباء والتاء كلام الله غير مخلوق ، ومن قال مخلوق فهو كافر ، عليه لعائن الله والملائكة والناس أجمعين .

ثانيا : رؤية الله

ورؤية الإله ذي الإحسان ثابتة بالنص في القرآن
كذا الأحاديث عن المختار ثابتة حقاً فلا تمار

ش : رؤية الله من المسائل الكبار التي كثر فيها الجدل والنزاع بين المثبتين والنافين ، أثبتها أهل السنة سلفاً وخلفاً اتباعاً للأنبياء والمرسلين ، وفي القرآن آيات مشيرة إلى رؤيته تبارك وتعالى ، وآية مصرحة تصريحاً واضحاً لا غبار عليه .

كما جاءت الأحاديث والآثار عن النبي والصحابة والأخبار تصرح برؤيته تبارك وتعالى ، ومنها ما يفسر تلك الآيات .

وقد أجمع على الرؤية الصحابة والتابعون والأئمة المهتدون من أهل الفقه والحديث ممن لهم قدم صدق في العالمين .

ونفاها أهل الضلال من الجهمية والمعتزلة والروافض ونحوهم من الضلال .

وإلى القاريء أدلة الفريقين ورد شبه النافين باختصار .

الأدلة النقلية :

١ - قال الله تعالى : **(للذين أحسنوا الحسنى وزيادة)**[١]

---

(١) يونس : ٢٦ .

الحسنى : هي الجنة . والزيادة : هي النظر إلى وجهه الكريم .

٢ - وقال الله تعالى : (**كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون**)[1] .

فسر الإمام الشافعي ووافقه العلماء الأجلاء مستنبطاً من الآيات والأحاديث ، أن من حل عليه غضب الله وسخطه ، يحجب عن رؤيته تبارك وتعالى ، لأن الآية مسوقة في تبيان من غضب الله عليه وحل سخطه به ، فتدل على أنه تعالى يراه المقربون الذين هم عن ربهم لا يحجبون .

٣ - الآية الصريحة في هذا المرام قوله تعالى : (**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**)[2] .

هذه الآية نص صريح لا يقبل التأويل في رؤيته تبارك وتعالى ، ومن سلط عليها التأويل فهو خارج عن سواء السبيل ، ولا يريد مبطل وملحد أن يهدم أي بنيان أسسه الإسلام إلا ودخل من باب التأويل ، فقوم أولوا الصفات ، وآخرون أولوا نصوص الجنة والنار والمعاد ، وطائفة أولت التكاليف الشرعية كالصلاة والصيام .

وهل قتل عثمان وعلي والحسين إلا بالتأويل الفاسد ؟!!

وهل تفرقت الأمة الإسلامية شيعاً وأحزاباً يسب بعضها بعضاً إلا بالتآويل الباطلة ؟!!

ومما يبين أن الآية ناصة على الرؤية البصرية ، أنها أسندت النظر إلى الوجه الذي هو محله في هذه الآية ، وعدته بأداة « إلى » الصريحة في نظر العين ، ولا هناك قرينة توجب صرف المراد عن

---

(١) المطففين : ١٥ .

(٢) القيامة : ٢٢ .

الحقيقة ، والركون إلى المجاز بدلا عن الحقيقة لابد له من قرينة صارفة ، وإلا فالأصل في الألفاظ الحقائق .

وقولهم : التشبيه هو الذي يقضي علينا أن نؤول .

نقول : قد بينا غير مرة أن التشبيه الذي يزعمونه لا يقول به أحد من أهل السنة ، فذاته ليست كذوات المخلوقين ، وصفاته ليست كصفات المحدثين ، ورؤيتنا له جل وعلا غير مكيفة ولا مشبهة ، وبهذا بطل ما زعموا .

فإن قيل : إن النظر قد يأتي بمعنى التوقف والانتظار ، كقوله تعالى : (**انظرونا نقتبس من نوركم**)(١) .

وبمعني التفكر والاعتبار كقوله تعالى : (**أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض**)(٢) .

قلنا : إنه إذا ذكر النظر مع الوجه ، لم يكن معناه نظر الانتظار ، لأن الانتظار معه تنغيص وتكدير ،وأهل الجنة لهم العيش السليم ، والنعيم المقيم .

ويزيده إيضاحاً أن المعدى « بإلي » لا يجوز عند العرب بمعنى الانتظار ، ولهذا قال الله تعالى : (**ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون**) ، ولم يقل « إلى » لأن معناها لا ينتظرون (٣) .

---

(١) الحديد : ١٣ .

(٢) الأعراف : ١٨٥ .

(٣) يس : ٤٩ .

قال امرؤ القيس :

خليلي مرا بي على أم جندب نقض لبانات الفؤاد المعذب

فإنكما إن تنظراني ساعة من الدهر ينفعني لدى أم جندب

وهكذا عن بلقيس ، قال تعالى : **(وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون)**[1] .

وأما الاعتبار والتفكر ، فهذا يكون في دار الدنيا لا في دار الآخرة .

* * *

الأدلة الحديثية :

الأحاديث كثيرة ومنها :

١ - في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن ناساً قالوا يا رسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هل تضامون في رؤية القمر ليلة البدر ؟ قالوا : لا يارسول الله ، قال : هل تضامون في رؤية الشمس ليس دونها حجاب ؟ قالوا : لا ، قال : فإنكم ترونه كذلك » .

٢ - وفي الصحيحين وغيرهما ، عن جرير بن عبد الله البجلي قال : كنا جلوساً مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة أربع عشر فقال : « إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا ، لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل الغروب فافعلوا ، ثم قرأ : **(وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب)**[2] » .

قال العلماء : التشبيه في الحديث في قوله : « كما ترون هذا » للرؤية ، وهو فعل الرائي لا المرئي ، والمعنى : ترون ربكم رؤية ينزاح معها الشك ، وتنتفي معها الريبة ، كرؤيتكم القمر لا ترتابون ولا تمترون .

---

(١) النمل : ٣٥ .
(٢) ق : ٣٩ .

٣ - وأخرج مسلم ، والترمذي ، وابن ماجه ، عن صهيب ، عن النبي ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، يقول الله : تريدون شيئاً أزيدكم » ، فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم ، ثم تلا هذه الآية : (**للذين أحسنوا الحسنى وزيادة**)[1] » .

والمعنى : يرفع الموانع عن الإدراك عن أبصارهم حتى يروه على ما هو عليه من نعوت العظمة والجلال .

وبالجملة فقد كثرت الأحاديث ، وبلغت مبلغ التواتر المعنوي عند أئمة الحديث ، فقد رووا عن الصديق ، وأنس ، وجابر ، وجرير ، وحذيفة ، وصهيب ، وابن عباس ، وابن عمر ، وابن مسعود ، وأبي سعيد ، وأبي موسى الأشعري ، وغيرهم .

وقد أطنب في ذلك العلامة ابن القيم في (حادي الأرواح) بما يشفي ويكفي .

وبعد هذه الروايات الصحيحة والآيات الصريحة لا يمكن التأويل إلا ممن ضعف إيمانه أو قل عقله .

* * *

البرهان العقلي على الرؤية

أن يقال : الرؤية في حد ذاتها أمر ممكن غير مستحيل ، فإذا كانت الرؤية ممكنة فلا محذور من إثباتها .

---

(١) يونس : ٢٦ .

والدليل على إمكانها عقلا ، أن الله علقها على أمر ممكن وهو استقرار الجبل حيث قال تعالى : (**لن تراني ، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني**)[1] .

وسيأتي زيادة بيان في رد شبه المعتزلة .

شبه المعتزلة :

زعمت المعتزلة ومن نحا نحوهم بأن معنى قوله تعالى : (**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**)[2] أي : إلى نعيم ربها ، أو رحمة ربها ، أو منتظرة أمر ربها ، ونحو هذا التأويل كعادتها في الصفات .

وقالت : رؤيته تعالى يحيله العقل ، ويستلزم التشبيه ، وبأن يكون في جهة ومقابلة للرائي ونحو ذلك من الهذيان .

وعززت قولها بقوله تعالى : (**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير**)[3] . وبقوله تعالى : (**لن تراني**) ، مخاطباً موسى حين قال لله : (**أرني أنظر إليك**) .

فإذا منع موسى من الرؤية فغيره أولى وأجدر ، وطعنوا في الأحاديث بأنها آحاد لا تعارض القطعي وهو القرآن القائل : (**لا تدركه الأبصار**) .

والجواب من وجوه :

١ - إن التأويل الذي ذكروه معناه : إن قوله تعالى : (**إلى ربها ناظرة**) ، مبني على حذف مضاف ، التقديرإلى رحمة ربها ،

---

(١) الأعراف : ١٤٣ .

(٢) القيامة : ٢٢ .

(٣) الأنعام . ١٠٣ .

أو إلى نعيم ربها ، ولو أطلق العنان لكل مؤول لأمكن أن يتلاعب بالعقائد وبجميع الأحكام الشرعية تحت ستار التأويل والبناء على حذف المضاف والقول بالمجاز ونحو ذلك ، ولكن لا مناص عن الحقيقة ، ولا داعي إلى الحذف والمجاز هنا ، لاسيما وقد جاءت الأحاديث تثبت رؤيته سبحانه وتعالى .

٢ - وأيضاً من أنزل عليه القرآن هو الذي رووا عنه تلك الأحاديث الصحيحة والحسنة ، المفسرة لتلك الآيات الناصة والمشيرة إلى الرؤية .

وقد أبطل التأويل مطلقاً العلامة ابن القيم في الصواعق المرسلة بما لامزيد بعده .

٣ - قولهم : الرؤية يحيلها العقل ، مردود بأن المخالفين لكم ، المثبتين للرؤية ، هم أكثر العقلاء ، وأوفر عدداً منكم ، وقد بينا أن العقل الصحيح لا يخالف القرآن والسنة الصحيحة ، ولا يتعارضان أبداً ، وما ظهر من تعارض في الظاهر ، فإنه لعدم صحة في النقل ، أو عدم كمال في العقل .

٤ - إن العقل إذا ترك ونفسه ، لم يحكم باستحالة رؤيته إلا إذا صرفه برهان ، وقولهم يستلزم التشبيه بأن يكون في جهة ومقابلة للرائي ، قول ينادي على قائله أنه لم يعرف الله حق معرفته ، لم يعرفه إلا كما يعرف أبناء جنسه من المخلوقين ، وإلا لوعرف الله كما ينبغي لقال يُرى ، ولا يلزم بأن يكون تعرف الكيفية ، كما لا يلزم أن يكون في مقابلة الرائي واتصال أشعة منه إليه ، وهل هذا إلا قياس الخالق بالمخلوق ؟ تعالى الله عن ذلك .

واستدلاهم بالآية الشريفة ، **(لا تدركه الأبصار)** ليس مقبولا ، بل خطأ مردود عليهم ، والآية تدل على عكس ما ذهبوا إليه - كما سيأتي - ذلك أن الله تعالى ذكرها في سياق التمدح ، ومعلوم

أن المدح إنما يكون بالصفات الثبوتية ، وأما العدم المحض فليس بكمال ، فلا يمدح به ، وإنما يمدح الرب بالنفي إذا تضمن أمراً وجـودياً ، كمدحه بنفي السنة والنوم المتضمن لكمال القيومية ، ونفي المـوت المتضمن كمـال الحيـاة ، ونفي اللغـوب والإعيـاء المتضمن كمال القدرة ، ونفي المثل المتضمن لكمال ذاته وصفاته .

ولهـذا لم يُمدَحْ بعدم محض لم يتضمن أمراً ثبوتياً ، فإن المعدوم يشارك الموصوف في ذلك العدم ، ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه .

وهنـا نفى الإدراك المتضمن لكمال عظمته ، أي أنه لكمال عظمتـه يرى ولا يدرك ، ففي الآيـة ثبوت الرؤية ونفي الإحاطة بالشيء ، وهو قدر زائد على الرؤية ، كما قال تعالى : (**فلما تراءا الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ، قال كلا**)[1] ، فلم ينف موسى الرؤية ، وإنما نفى الإدراك .

والحاصل أنه يرى ولا يدرك ، كما يعلم ولا يحاط به علماً ، وإذا أردت مثالا يقرب إلى ذهنك ما نقول : فهذه الشمس المشرقة نراها ولا نتمكن من إدراكها .

وأيضاً نقول : إن الآية من قبيل سلب العموم ، أي لا تدركه كل الأبصار ، بمعنى لا تراه ، بل بعضها .

وإن سلمنا أنها من عموم السلب ، والإدراك هو الرؤية ـ كما زعموا ـ لا كما قلنا من أنها الإحاطة ، فنقول : لا دلالة بها على عموم الأوقات والأحوال ، حتى يصح نفيها في الدنيا وفي الآخرة .

وقد سبق أن كونه يرى ولا يدرك أبلغ في المدح من رؤيته مطلقاً .

---

(١) الشعراء : ٦١ .

وأما الجواب عن الآية الثانية وهي : (**لن تراني**) ، فهي أيضاً حجة لنا على ثبوت الرؤية من وجوه .

١ - إنه لا يظن بموسى عليه السلام [١] - وهو أعلم الناس بربه في وقته - أن يجهل هذه المسألة ، ويسأل مالا يجوز .

قال الإمام الأشعرى في جوابه للمعتزلة :

فإن قال قائل : لم لا تقولون : إن قوله تعالى : (**إلى ربها ناظرة**) ، إنما أراد إلى ثواب ربها ناظرة ؟!

قيل له : ثواب الله غيره ، والله سبحانه وتعالى قال : (**إلى ربها ناظرة**) ، ولم يقل إلى غيره ناظرة .

والقرآن العزيز على ظاهره ، وليس لنا أن نزيله عن ظاهره إلا بحجة ، وإلا فهو على ظاهره .

ألا ترى أن الله عز وجل لما قال : (**صلوا لى واعبدوني**) ، لم يجز أن يقول قائل إنه أراد غيره ، ويزيل الكلام عن ظاهره ، فلذلك لما قال تعالى : (**إلى ربها ناظرة**) ، لم يجز لنا أن نزيل القرآن عن ظاهره بغير حجة .

ثم نقول للمعتزلة : إن جاز لكم أن تزعموا أن قول الله تعالى : (**إلى ربها ناظرة**) ، إنما أراد به أنها إلى غيره ناظرة ، فلم لا يجوز لغيركم أن يقول : إن قول الله سبحانه : (**لا تدركه الأبصار**) ، أراد بها لا تدرك غيره ، ولم يرد أنها لا تدركه ، وهذا مما لا يقدرون على الفرق فيه .

---

(١) وقد اعترض المؤولة على قول أهل السنة : إن الله علق الرؤية على أمر ممكن وهواستقرار الجبل ، وسؤال موسى ربه ، ولاشك أن موسى أعلم بالله من أن يسأل مالا يجوز .
=

ودليـــل آخـــر :

ومما يدل على أن الله تعالى يرى بالأبصار ، قول موسى عليه السلام : (**رب أرني أنظر إليك**) ، ولا يجوز أن يكون موسى عليه السلام ـ وقد ألبسه الله جلباب النبيين ، وعصمه بما عصم به المرسلين ـ قد سأل ربه ما يستحيل عليه ، فإذا لم يجز ذلك على موسى عليـه السـلام ، علمنـا أنه لم يسأل ربه مستحيلا ، وأن الرؤية جائزة على ربنا تعالى .

ولو كانت الرؤيـة مستحيلة على ربنـا تعـالى ـ كما زعمت المعتزلة ـ ولم يعلم ذلك موسى عليه السلام وعلموا هم ، لكانوا ـ على قولهم ـ أعلم بالله من موسى عليه السلام ، وهذا مما لايدعيه مسلم . ا . هـ .

٢ – إن الله لم ينكر عليه سؤاله ، ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر سؤاله وقال : (**إني أعظك أن تكون من الجاهلين**) .

٣ – إنه قال : (**لن تراني**) ، ولم يقل : إني لا أُرى ، أو

= **قالوا في اعتراضهم** : إنا لا نسلم أن المعلق عليه ممكن ، لأن استقرار الجبل حال تحركه محال ، وأما موسى فسؤاله كان لأجل قومه حيث قالوا : (**لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة**) ، فسأله ليعلموا امتناعها كما علمه هو .

وأجاب سعد الدين التفتازاني : إن كلا من ذلك ـ أي من الاعتراضين ـ خلاف الظاهر ، ولا ضرورة في ارتكابه ، على أن القوم إن كانوا مؤمنين كفاهم قول موسى عليه السلام أن الرؤية ممتنعة ، وإن كانوا كفاراً لم يصدقوه في حكم الله بالامتناع ، والاستقرار حال التحرك ممكن بأن يقع السكون بدل الحركة ، وإنما المحال اجتماع الحركة والسكون . ا هـ .

والحـاصل : أن رؤية الله للمؤمنين في الدار الآخرة ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع والعقل ، وقد حرر كل ذلك في الشرح ، ونعني بالإجماع أن الأمة من عهد الرسول ﷺ إلى أن ظهرَ المبتدعة من الجهمية والمعتزلة ، كانوا متفقين على رؤية الله في الدار الآخرة ، كما كانوا متفقين على إثبات الأسماء والصفات لله تعالى من غير تمثيل ولا تعطيل .

لست بمرئي ، والفـرق بين الجـوابين ظاهر ، ألا ترى أن من كان في كمـه حجـر ، فظنه رجل طعاماً ، فقال : أطعمنيه ، فالجواب الصحيح أنه لا يؤكل ، وإذا كان مأكولا يجوز أن يقول : إنك لن تأكله مع صحة الأكل .

٤ - إن الله تعـالى علق الرؤية باستقرار الجبل ، وهو أمر ممكن ، والمعلق على الممكن ممكن ، وعدم رؤية موسى ليست لكونها مستحيلة ، بل لأن قوى البشرية لا تحتمل في هذه الدنيا مشاهدة الملائكة والجن ، فضلا عن الإله العظيم ، لأنها غير مهيأة لذلك ، ويعتـريهـا ما يغيرها ويضعفها ، وتنتقل من طور إلى طور حتى تتلاشى وتبيد .

وأما في الآخرة : فإنها ستكون مهيأة ومركبة بتركيب أبدي سالم من الآفـات والاضمحلال والفناء ، ولهذا تقوى هناك على مشاهدة ملايين من الملائكة والجن والنيران والزبانية ، فلا عجب إذا قدرت أن ترى ربها ، ولكل دار حكم يخصها .

وموسى سأل الرؤية في دار الدنيا ، وفي ذلك الوقت بعينه لقوله تعالى : (**أرني أنظر إليك**) ، ولم يقل هل تُرى ، أو هل أراك حتى يرد ما قالوا .

والرب أجابه بأنه إذا كان الجبل الذي هو أقوى منك وأعظم صلابة لايستقر ، فكيف أنت يا موسى ؟ . ولهذا لما تجلى للجبل (**جعله دكاً**) أي مستوياً بالأرض ، (**وخر موسى صعقاً**) .

وإذ تجلى الله للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب ، فكيف يمتنع أن يتجلى لرسله وأوليائه في دار كرامته ؟ .

وقول الزمخشري : إن (لن) تفيد التأبيد ، وإن ذلك يدل على أن نفي الرؤيـة في الآخرة فاسد ، بل إنها للتأكيد ، ولذلك تقيـدت بأبداً ، وإن سلم أنها للتأبيد ، فإنه لن يكون في الدنيا

لقوله تعالى : (**ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم**) ، مع أنهم يتمنون الموت في الآخرة للخلاص من العذاب .

والخلاصة : أن رؤية الله تبارك وتعالى جائزة عقلا ، إذ لا يترتب على وقوع الرؤية محال ، ولأن كليم الله موسى طلب الرؤية من الله فقال : (**رب أرني أنظر إليك**) ، ولا يصح أن يكون نبي الله جاهلا يطلب مالا يجوز وقوعه ، وثابت وقوعها نقلا في الدار الآخرة بتلك الآيات التي أوردناها فيما سلف والأحاديث والبراهين العقلية ، هذا بالنسبة للآخرة .

أما بالنسبة للدنيا : فقد أجمع أهل العلم من السنة وغيرهم أنها لم تقع لمخلوق ، إلا أنهم اختلفوا في الرسول محمد ﷺ ليلة المعراج ، عن ابن عباس وجماعة من أتباعه أنها وقعت له .

وعن عائشة الصديقة وجماعة من الصحابة منهم : ابن مسعود وأبو هريرة وغيرهم إنكارها .

وقد سئلت عائشة عن آيتي التكوير والنجم : (**ولقد رآه بالأفق المبين**) ، (**ولقد رآه نزلة أخرى**) ، فقالت : إنما هو جبريل رآه على صورته التي خلق عليها مرتين .

وفي الصحيحين عن مسروق قال : قلت لعائشة رضي الله عنها : يا أماه هل رأى محمد ﷺ ربه ؟ فقالت : لقد قف شعري مما قلت ، أين أنت من ثلاث ، من حدثكن فقد كذب ؟ من حدثك أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد كذب ، ثم قرأت قوله تعالى : (**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير**)[1]

وقوله تعالى : (**وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب**)[2] .

---

(١) الأنعام : ١٠٣ .

(٢) قرأت عائشة رضي الله عنها قوله تعالى : (**لا تدركه الأبصار**) الآية بعد أن نفت رؤية النبي للرب تقصد به في الدنيا لا في الآخرة .

والآية من سورة الشورى رقم : ٥١ .

ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ، ثم قرأت قوله تعالى : (**وما تدري نفس ماذا تكسب غداً**)[1] .

ومن حدثك أنه قد كتم فقد كذب ، ثم قرأت قوله تعالى : (**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته**)[2] ، ولكنه رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين .

ويدل لما ذهبت إليه عائشة رضي الله عنها حديث مسلم : « لن يرى أحدكم ربه حتى يموت » .

وأنكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن ابن عباس قال : إن محمداً ﷺ رأى ربه ـ يعني بعيني رأسه ـ ، وقال : من زعم هذا عنه فقد وهم .

ولذا قال صاحب الفتح : إن ما نقل عن ابن عباس من إثبات الرؤية ، بعضه مقيد برؤية الفؤاد ، وبعضه مطلق ، وينبغي حمل المطلق على المقيد ، فلا خلاف بين ابن عباس في إثبات الرؤية وبين عائشة في إنكار رؤية العين .

وقد أنشد الزمخشري في الكشاف يهجو أهل السنة :

لجماعة سموا هواهم سنة وجماعة حمر لعمري مؤكفة
قد شبهوه بخلقه فتخوفوا شنع الورى فتستروا بالبلكفة

ورد عليه السيد البليدي بقوله :

هل نحن من أهل الهوى أو أنتم ومن الذي منا حمير مؤكفة
اعكس تصب فالوصف فيكم ظاهر كالشمس فارجع عن مقال الزخرفة

(١) لقمان : ٣٤ .
(٢) المائدة : ٦٧ .

يكفيك في ردي عليك بأننا نحتج بالآيات لا بالفلسفة
وينبغي رؤيته فأنت حرمتها إن لم تقل بكلام أهل المعرفة
فنراه في الأخرى بلا كيفية وكذلك من غير ارتسام للصفة

وقال بعضهم في الرد عليه :

شبهت جهلا صدر أمة أحمد وذوي البصائر بالحمير المؤكفة
وجب الخسار عليك فانظر منصفا في آية الأعراف فهي المنصفة
أترى الكليم أتى بجهل ما أتى وأتى شيوخك ما أتواعن معرفة
إن الوجوه إليه ناظرة بـذا جاء الكتاب فقلتم هذا سفه
نطق الكتاب وأنت تنطق بالهوى فهوى الهوى بك في المهاوي المتلفة
وجماعة كفروا برؤية ربهم حقا ووعد الله ما لن يخلفه
وتلقبوا عدلية قلنا أجل عدلوا بربهمو فحسبمو سفه
وتلقبوا الناجين كلا إنهم إن لم يكونوا في لظى فعلى شفه

تأمل أيها القاريء كلام الزمخشري في أهل السنة والجماعة ، الذين هم صفوة المسلمين وخيار المؤمنين من الصحابة والتابعين ، وتابعي التابعين وسائر الأئمة المهتدين ، كيف يصفهم هذا المبتدع الضال بالحمير ؟ - عامله الله بعدله .

وإني لأعجب من كثير ممن ينتسب إلى العلم ، كيف يثني على تفسيره الكشاف ؟ وهو مملوء من النزغات الإعتزالية والعقائد الرديئة .

فإن قيل : إن كشاف الزمخشري طيب ونافع من ناحية النحو والبلاغة ، قلنا : هناك تفاسير أخرى كالبيضاوي والبحر المحيط وكتب إعراب القرآن تغني عنه .

ولا بأس للعالم أن يقتني الكشاف ليقف على ضلالاته ، وقد يستفيد من بعض كلامه ، ولكن الكلام هنا فيمن يحبذه للناس ، ويثني عليه ، ويترحم عليه ، إذ لا ينبغي للسني الخالص أن يثني على المبتدع ويجهر بمدحه وتحبيذ كتبه .

فصـــل

في بيان بعض الأخطاء الموجودة في كتب الخلف ، وينسبونها إلى مذهب السلف ، وبعض أخطاء جعلوها من المسلمات وليست كذلك :

فقولهم إن طريقة الخلف ... أعلم أحكم فـذا عين السرف
وإنهم قالوا بأن السلفا ... أسلم والرحمن[1] ذاعين الجفا
والسلف الصالح والله الأجل ... أعلم أحكم بلا ريب حصل
قد نسبوا الجهل إلى الصحابة ... وتابعيهم ذوي الإصابة
وتابع للتابعين الفضلا ... كذا الأئمة الكرام النبلا
بقولهم هذا فجانب يا فتى ... مالم يكن عن سلف قد ثبتا
(فكل خير[2] في اتباع من سلف ... وكل شر في ابتداع من خلف
فتابع الصالح ممن سلفا ... وجانب البدعة ممن خلفا)
قد نسبوا للسلف الثقات ... تفويضهم للبعض من صفات
كصفة الوجـــه وكاليدين ... لله ربي خـــالق الكونين
ولم يصح زعمـــهم لكنما ... قد فوضوا كنه الصفات فاعلما
والفرق بين القولتين شاسع ... يفهمه القاري كذاك السامع

ش : ١ - **قال شيخ الإسلام** : ولا يجوز أن يكون الخالفون أعلم من السالفين ، كما قد يقول بعض الأغبياء ـ ممن لا يعرف

---

(١) الواو : حرف قسم وجر ، والرحمن : مقسم به ، وكذا قوله في البيت الثاني : « والسلف الصالح والله الأجل » .

(٢) هذا البيت والذي يليه هما من الجوهرة ، فليعلم .

قدر السلف ، بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين به حقيقة المعرفة المأمور بها - من أن طريقة السلف أسلم ، وطريقة الخلف أعلم وأحكم .

فإن هؤلاء المبتدعين الذين يفضلون طريقة الخلف من المتفلسفة ، ومن حذا حذوهم على طريقة السلف ، إنما أتوا من حيث ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك ، بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم : **(ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني)**[1] .

وإن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات .

وقد كذبوا على طريقة السلف ، وضلوا في تصويب طريقة الخلف ، وسبب ذلك اعتقادهم أنه ليس في نفس الأمر صفة دلت عليها هذه النصوص بالشبهات الفاسدة ، فلما اعتقدوا انتفاء الصفات في نفس الأمر ، وكان مع ذلك لابد للنصوص من معنى ، بقوا مترددين بالإيمان باللفظ وتفويض المعنى ، وهي التى يسمونها طريقة السلف ، وبين صرف اللفظ إلى معان بنوع من التكلف ، وهي التي يسمونها طريقة الخلف .

فصار هذا الباطل مركباً من فساد العقل ، والكفر بالسمع .

فإن النفي إنما اعتمدوا فيه على أمور عقلية ظنوها بينات ، وهي شبهات ، والسمع حرفوا فيه الكلم عن مواضعه .

فلما انبنى أمرهم على هاتين المقدمتين ، كانت النتيجة استجهال السابقين الأولين واستبلاههم ، واعتقاد أنهم كانوا قوماً

---

(١) البقرة : ٧٨ .

أميين لم يتبحروا في حقائق العلم بالله ، ولم يتفطنوا لدقائق العلم الإلهي ، وأن الخلف الفضلاء حازوا قصب السبق في هذا كله .

والإشارة بالخلف إلى ضرب من المتكلمين الذين كثر في باب الدين اضطرابهم وغلظ عن معرفة الله حجابهم . ا . هـ .

٢ - قد اشتهر في الكتب الكلامية أن عقيدة السلف هي تفويض معنى الصفات إليه تعالى ، وهو التأويل الإجمالي .

وإن الخلف يؤولون تأويلا تفصيلياً لكل صفة من الصفات التي لابد لها من التأويل على زعمهم .

ونسبة التفويض إلى السلف نسبة خاطئة ضالة ، بل السلف الصالح يقولون في الصفات ـ كالاستواء والوجه واليدين ـ : نثبت ماورد في القرآن والسنة الصحيحة ، ونعرف معناها اللغوي ، ولكن نفوض حقيقتها اللائقة به تعالى إليه .

وهذا ما أشار إليه في النظم بقوله : « وفوضوا كنه الصفات فاعلما » .

وقد مر في كلام شيخ الإسلام : « إنهم بقوا مترددين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعنى ، وهي التي يسمونها طريقة السلف » ، وهذا عين ما قلناه .

قال في الفتاوى الحموية : وأما المنحرفون عن طريقة السلف فهم ثلاث طوائف :

أهل التخييل ، وأهل التأويل ، وأهل التجهيل .

فأهل التخييل : هم المتفلسفة ، ومن سلك سبيلهم من متكلم ومتصوف ومتفقه ، فإنهم يقولون : إن ما ذكر الرسول ﷺ من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر ، إنما هو تخييل للحقائق لينتفع به

الجمهور ، لا أنه بين الحق ، ولا هدى به الخلق ، ولا أوضح به الحقائق .

وأما أهل التأويل فيقولون : إن النصوص الواردة في الصفات ، لم يقصد بها الرسول ﷺ أن يعتقد الناس الباطل ، ولكن قصد بها معاني ، ولم يبين لهم تلك المعاني ولا دلهم عليها ، ولكن أراد أن ينظروا فيعرفوا الحق بعقولهم ، ثم يجتهدوا في صرف تلك النصوص عن مدلولها .

وأما الصنف الثالث ، وهو أهل التجهيل : فهم كثير من المنتسبين إلى السنة وأتباع السلف ، ويقولون : إن الرسول ﷺ لم يعرف معاني ما أنزل الله إليه من آيات الصفات ، كما لم يعرف جبريل ، ولا السابقون الأولون .

وكذلك قولهم في أحاديث الصفات : إن معناها لا يعلمه إلا الله ، مع أن الرسول تكلم به ابتداء ، فعلى قولهم تكلم بكلام لا يعرف معناه ، وهؤلاء يظنون إنما اتبعوا قوله تعالى : (**وما يعلم تأويله إلا الله**) ، فقد وقف أكثر السلف على قوله تعالى : (**وما يعلم تأويله إلا الله**) ، وهو وقف صحيح ، لكن لم يفرقوا بين معنى الكلام وتفسيره وبين التأويل الذي انفرد الله بعلمه ، وظنوا أن التأويل المذكور في كلام الله هو التأويل المذكور في كلام المتأخرين ، وغلطوا في ذلك ، فإن لفظ التأويل يراد به ثلاث معان :

الأول : في اصطلاح كثير من المتأخرين ، هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن بذلك ، فلا يكون معنى اللفظ الموافق لدلالة ظاهره تأويلا - على اصطلاح هؤلاء - وظنوا أن مراد الله بلفظ التأويل ذلك .

والمعنى الثاني : إن التأويل هو تفسير الكلام ، سواء وافق ظاهره أو لم يوافق ، وهذا معنى التأويل في اصطلاح جمهور

المفسرين وغيرهم ، وهذا التأويل يعلمه الراسخون في العلم ، وهو موافق لوقف من وقف من السلف على قوله تعالى : (**وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم**)[1] ، كما نقل عن ابن عباس ومجاهد .

المعنى الثالث : إن التأويل هو الحقيقة التي يؤول الكلام إليها وإن وافق ظاهره ، فتأويل ما أخبر الله به في الجنة - من الأكل والشرب والنكاح وقيام الساعة وغير ذلك - هو الحقائق الموجودة أنفسها ، لا ما يتصور من معانيها في الأذهان ، ويعبر عنه باللسان ، وهذا هو التأويل في لغة القرآن ، كما قال الله عن يوسف أنه قال : (**يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً**)[2] ، وقال تعالى : (**هل ينظرون إلا تأويله ، يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق**)[3] ، وهذا التأويل هو الذي لا يعلمه إلا الله .

فتأويل الصفات هو الحقيقة التي انفرد الله بعلمها .

وهو الكيف المجهول الذي قال فيه السلف كمالك وغيره : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول .

فالاستواء معلوم ، يعلم معناه ويفسر ويترجم بلغة أخرى ، وهو من التأويل الذي يعلمه الراسخون في العلم .

وأما كيفية ذلك الاستواء ، فهو الذي لا يعلمه إلا الله[4] ، ا . هـ .

---

(١) آل عمران : ٧ .
(٢) يوسف : ١٠٠ .
(٣) الأعراف : ٥٣ .
(٤) من الحموية ملخصاً.

فصــــل

وقولهم بأن ذي الصفات تعــد من تشـــابه الآيات
لا يفهم المعنى ســوى الإله ذا خطأ من غير ما اشتباه
بل إنها معقولة المعاني في لغة العرب بلا نكران
لكن بالنسبة للحميـــد الكيف مجهول بلا ترديـــد
ووافق أهل العلم ما قد قالا مالكنا الإمـــام عَ لمقالَ

ش : زعم بعض أهل العلم : أن آيات الصفات وأحاديثها - ويعنون بها الصفات الخبرية كالاستواء والوجه والنزول واليدين - أنها معدودة من المتشابه الذي لا يعلم معناه إلا الله ، مستدلين بقوله تعالى : (**وما يعلم تأويله إلا الله**) ، إلى هنا تنتهي الآية ، ويبتديء بقوله : (**والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا**)[1] .

وزعم هؤلاء جواز اشتمال القرآن على ما لا يعلم معناه ، وعلى ما تعبدنا الله بتلاوة حروفه بلا فهم !! .

بل زعـم بعـضـهـم أن النبي ﷺ ما كان يعلم معنى هذه الآيات !! ، وبطلان هذا أوضح من الشمس في رائعة النهار .

فإذا جاز على زعمهم أن لا يعلم معاني تلك الآيات النازلة عليــه ، مثــل قوله تعــالى : (**ويبقى وجــه ربــك ذو الجــلال والإكــرام**) [2] ، وقــوله تعــالى : (**الرحــمــن على العــرش**

(١) آل عمران : ٧ .
(٢) الرحمن : ٢٧ .

استوى)[1] ، وقوله تعالى : (**بل يداه مبسوطتان**)[2] ، وقوله تعالى : (**وجاء ربك والملك صفاً صفاً**)[3] ، إلى غير ذلك من الآيات .

فهل لا يعلم معنى قول نفسه ؟!! عندما قال ﷺ « ينزِل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا » .

وقوله ﷺ « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » .

وقوله ﷺ : « إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن » .

والأحاديث الواردة في الصفات الخبرية عن النبي ﷺ كثيرة ، فهل يعقل أن يتكلم متكلم بكلام لايفهم معناه ؟! ولا سيما إمام المرسلين ، الذي أرسله الله للناس للتبليغ والبيان .

لا يقول هذا من في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، أو مسكة من عقل أو وجدان .

وقد مضى كلام شيخ الإسلام - نقلا عن الحموية - في بيان التأويل وأقسامه ، ما يبطل ويفند مزاعم هؤلاء الذين لم يحترموا عقول الناس وأفهامهم ، بل ولم يحترموا سيد العالمين وأصحابه المتقين بهذا الإفك المبين ، زاعمين أنهم بهذا ينجون من ضلال التأويل والتجسيم .

ونزيدك إيضاحاً وبياناً على بطلان زعمهم بما ثبت عن مجاهد قال : عرضت المصحف على ابن عباس مرات من أوله إلى آخره ، أقف عند كل آية وأسأله عنها .

---

(١) طه : ٥ .

(٢) المائدة : ٦٤ .

(٣) الفجر : ٢٢ .

فهذا ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن ، وهو أحد من كان يقول : (**لا يعلم تأويله إلا الله**) ، يجيب مجاهداً عن كل آية في القرآن ، يوضح ذلك أن الصحابة والتابعين لم يمتنع أحد منهم عن تفسير آية من كتاب الله ، ولم يقل : هذه من المتشابه الذي لا يعلم معناه .

ولا قال أحد قط من سلف الأمة ولا من الأئمة المتبوعين : إن في القرآن آيات لا نعلم معناها ، ولا يفهمها رسول الله ﷺ ، ولا أهل العلم والإيمان جميعهم .

وإنما قد ينفون علم بعض ذلك عن بعض الناس ، وهذا لا ريب فيه ، بل من الغلط الواضح إدخال أسماء الله وصفاته ، أو بعض ذلك في المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله ، أو اعتقاد أن ذلك هو المتشابه الذي استأثر الله بعلم تأويله ، كما قلت في النظم : « ذا خطأ من غير ما اشتباه » .

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ : كما يقول كل واحد من القولين طوائف من أصحابنا وغيرهم ، فإنهم وإن أصابوا في كثير مما يقولون ، ونجوا من بدع وقع فيها غيرهم ، فالكلام على هذا من وجهين :

الأول : من قال : إن هذا من المتشابه الذي لا يفهم معناه ؟ .

والثاني : ما الدليل على ذلك ؟ .

قال : فإني لا أعلم عن أحد من سلف الأمة ، ولا من الأئمة ، لا أحمد بن حنبل ، ولا غيره ، أنه جعل ذلك من المتشابه الداخل في هذه الآية ، ونفى أن يعلم أحد معناه ، ولا جعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمي الذي لا يفهم ، ولا قالوا : إن الله ينزل كلاماً لا يفهم أحد معناه ، وإنما قالوا : كلمات لها معان صحيحة .

قالوا في أحاديث الصفات : تمر كما جاءت ، ونهوا عن تأويلات الجهمية التي مضمونها تعطيل النصوص على مادلت عليه ، وردوها وأبطلوها .

ونصوص أحمد والأئمة قبله بينة في أنهم كانوا يبطلون تأويلات الجهمية ، ويقرون النصوص على مادلت عليه من معناه ، وأحمد قد قال في غير أحاديث الصفات : تمر كما جاءت في أحاديث الوعد والوعيد والفضائل ، ومقصوده بذلك أن الحديث لا يحرف كلمه عن مواضعه ، كما يفعله من يحرفه ، ويسمى تحريفه تأويلا بالعرف المتأخر .

فتأويل هؤلاء المتأخرين عند الأئمة تحريف باطل .

وكذلك نص أحمد في كتاب (الرد على الزنادقة والجهمية) ، بأنهم تمسكوا بمتشابه القرآن ، وتكلم أحمد على ذلك المتشابه ، وبين معناه وتفسيره بما يخالف تأويل الجهمية ، وجرى في ذلك على سنن الأئمة قبله .

فهذا اتفاق من الأئمة على أنهم يعلمون معنى هذا المتشابه ، وأنه لا يسكت عن بيانه وتفسيره ، بل يبين ويفسر[1] ا . هـ .

ومن الأخطاء الموجودة في كتبهم ما قالوا : إننا نحن والسلف متفقون على أن ظاهر النصوص غير مراد ، ولذلك أولنا تفصيلا ، وأول السلف إجمالا ، والكل يقصد التنزيه ، فحصل الاتفاق بين الجميع .

هذا معنى كلامهم .

ووجه الخطأ أن يقال لهذا القائل : لفظ الظاهر فيه إجمال واشتراك .

---

(١) من (الإكليل) .

فإن كان القائل يعتقد أن ظاهرها التمثيل بصفات المخلوقين ، أو ما هو من خصائصهم ، فلا ريب أن هذا غير مراد .

ولكن السلف والأئمة لم يكونوا يسمون هذا ظاهراً ، ولا يرضون أن يكون ظاهر القرآن والحديث كفراً وباطلا ، والله أعلم وأحكم من أن يكون كلامه الذي وصف به نفسه لا يظهر منه إلا ما هو كفر وضلال ، ومن نسب ذلك إلى القرآن فقد أعظم الفرية على الله ، وخلع ربقة الإسلام من عنقه ، ولا ينفعه انتسابه إلى الإسلام .

وإن كان القائل يعتقد أن ظاهر النصوص المتنازع في معناها من جنس ظاهر النصوص المتفق على معناها ، والظاهر هو المراد في الجميع ، فإن الله لما أخبر أنه بكل شيء عليم ، وأنه على كل شيء قدير ، واتفق أهل السنة وأئمة المسلمين على أن هذا على ظاهره ، وأن ظاهر ذلك مراد .

كان من المعلوم أنهم لم يريدوا بهذا الظاهر أن يكون علمه كعلمنا وقدرته كقدرتنا .

وكذلك لما اتفقوا على أنه حي حقيقة ، عالم حقيقة ، قادر حقيقة ، لم يكن مرادهم أنه مثل المخلوق الذي هو حي عليم قدير .

وكذلك إذ قالوا في قوله تعالى : (**يحبهم ويحبونه**) وقوله تعالى : (**رضي الله عنهم ورضوا عنه**) وقوله تعالى : (**ثم استوى على العرش**) وقوله تعالى : (**يد الله فوق أيديهم**) : إنه على ظاهره ، لم يقتض ذلك أن يكون ظاهره استواءه كاستواء المخلوق ، ولا حباً كحبه ، ولا رضاً كرضاه ، ولا يداً كيده ، وهنا لابد من أمرين لا محيص عنهما .

الأول : إما أن يقول المؤول : إن ظاهر الصفات تماثل صفات

المخلوقين ، فحينئذ لزمه أن لا يكون شيء من ظاهر ذلك مراداً ، لا العلم ، ولا القدرة ، ولا الإرادة ، ولا الاستواء ، ولا غيرها .

الثاني : وإما أن يعتقد أن ظاهر هذه الصفات على ما يليق بالخالق ويختص به ، وحينئذ لم يكن له نفي هذا الظاهر ونفي أن يكون مراداً إلا بدليل يدل على النفي ،وليس في العقل ولا في السمع ما ينفي هذا إلا من جنس ما ينفي به سائر الصفات ، فيكون الكلام في الجميع واحداً .

فإذا كانت ذاته المقدسة ليست مثل ذوات المخلوقين ، فصفاته كذاته ليست مثل صفات المخلوقين ، فإن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات .

ونسبة صفة المخلوق إليه ، كنسبة صفة الخالق إليه ، وليس المنسوب كالمنسوب ، ولا المنسوب إليه كالمنسوب إليه ، كما قال ﷺ : « ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر » ، فشبه الرؤية بالرؤية ، ولم يشبه المرئي بالمرئي .

ومما يبين غلطهم ويوضح ما سلف ، أن كثيراً من الناس يتوهم في بعض الصفات أو كثير منها أو أكثرها أو كلها أنها تماثل صفات المخلوقين ، ثم يريد أن ينفي ذلك الذي فهمه ، فيقع في أربعة أنواع من المحاذير :

الأول : مثل ما فهمه من النصوص بصفات المخلوقين ، وظن أن مدلول النصوص هو التمثيل .

الثاني : إذا جعل ذلك هو مفهومها وعطله ، بقيت النصوص معطلة عما دلت عليه من إثبات الصفات اللائقة بالله .

الثالث : إنه ينفي تلك الصفات عن الله بغير علم ، فيكون معطلا لما يستحقه الرب .

الرابع : إنه يصف الرب بنقيض تلك الصفات ، من صفات الأموات والجمادات أو صفات المعدومات [1].

والخلاصة : أنه شبه أولا ، ثم عطل ثانياً ، فجمع بين القبحين ، ووقع في الضلالين .

وهدى الله أهل السنة إلى الجمع بين إيمانهم بالصفات - كإيمانهم بالذات - وتنزيه الله عن مماثلة المخلوقات .

فالمشبه يعبد صنماً ، والمعطل يعبد عدماً ، والموحد يعبد إله الأرض والسماء ، ورحم الله ابن القيم حيث قال :

من شبه الله العظيم بخلقه فهو النسيب لمشرك نصراني
أو عطل الرحمن من أوصافه فهو الكفور وليس ذا إيمان

ومن الأخطاء الفاحشة المشتهرة في كتبهم التي جعلوها من المسلمات التي لا تقبل المناقشة ، وردوا من أجلها كثيراً من أحاديث العقائد الصحيحة ، قولهم :

إذا تعارض الدليل النقلي مع الدليل العقلي ، قدم الدليل العقلي على النقلي ، لأن العقل أصل للنقل ، ويجب تأويل الدليل السمعي لأجل موافقته للدليل العقلي .

والحق ما قال شيخ الإسلام : إن كلا من الدليلين إما قطعي ، وإما غير قطعي ، فالقطعيان لا يمكن أن يتعارضا [2] حتى نرجح أحدهما على الآخر .

---

(١) من (التدمرية) بتلخيص وزيادة إيضاح في بعض المواضع .

(٢) سواء أكانا عقليين أو سمعيين ، أو أحدهما عقلياً والآخر سمعياً ، وهذا متفق عليه بين العقلاء ، لأن الدليل القطعي هو الذي يجب ثبوت مدلوله ، ولا يمكن أن تكون دلالته باطلة ، وحينئذ فلو تعارض دليلان قطعيان ، وأحدهما يناقض مدلول الثاني ، للزم الجمع بين النقيضين وهو محال ، بل ما يرد من التعارض بين الأدلة التي يحسبونها قطعية ، فلابد أن يكون أحدهما غير قطعي ، أو أن لا يكون مدلولهما متناقضين . =

= **أما قولهم** : إن العقل هو الأصل في معرفتنا بالسمع ، وإذا قدمنا النقل كان ذلك طعناً في أصله ـ الذي هو العقل ـ فهذا غير مسلم ، لأنهم إن أرادوا بالعقل الغريزة التي فينا ، فتلك ليست علماً يتصور أن يعارض النقل ، وهي شرط في كل علم عقلي أو سمعي كالحياة ، وما كان شرطاً في الشيء امتنع أن يكون منافياً له .

وإن أرادوا بالعقل المعرفة الحاصلة بالعقل ؟

فجوابنا لهم : إن من المعلوم أنه ليس كل ما يعرف بالعقل يكون أصلا للسمع ودليلا على صحته ، فإن المعارف العقلية أكثر من أن تحصر ، والعلم بصحة السمع غايته أن يتوقف على ما به يعلم صدق الرسول ﷺ ، وليس كل العلوم العقلية يعلم بها صدق الرسول ﷺ ، بل ذلك يعلم بما يعلم به أن الله أرسله ، مثل إثبات الخالق ، وتصديقه للرسول بالآيات ، وأمثال ذلك .

وإذا كان كذلك ، لم يكن جميع المعقولات أصلا للنقل ، لا بمعنى توقف العلم بالسمع عليها ، ولا بمعنى الدلالة على صحته .

وأما قولهم : « إن العقل أصل للنقل » ، فإما أن يراد أنه أصل لثبوته في نفس الأمر ، أو أصل في علمنا بصحته .

والأول : لا يقوله عاقل ، فإن ما هو ثابت في نفس الأمر بالسمع أو بغيره هو ثابت ، سواء علمنا بالعقل أو بغير العقل ثبوته ، أو لم نعلم ثبوته لا بعقل ولا بغيره ، إذ عدم العلم ليس علماً بالعدم ، وعدم علمنا بالحقائق لا ينفي ثبوتها في أنفسها .

فما أخبر به الصادق المصدوق هو ثابت في نفس الأمر ، سواء علمنا صدقه أو لم نعلم .

ومن أرسله الله إلى الناس هو رسوله ، سواء علم الناس أنه رسول أو لم يعلموا ، وما أخبر به فهو حق ، وإن لم يصدقه الناس .

فثبوت الرسالة في نفسها ، وثبوت صدق الرسول ، وثبوت ما أخبر به في نفس الأمر ، ليس موقوفاً على وجودنا ، فضلا عن أن يكون موقوفاً على عقولنا أو على الأدلة التي نعلمها بعقولنا .

وأما الثاني : فجوابه قد مر .

فتبين بذلك أن العقل ليس أصلا لثبوت الشرع في نفسه ، ولا معطياً له صفة لم تكن له ، وليس أصلا في معرفتنا بالسمع ، ودليلا لنا على صحته . ا ـ هـ .

من (تفسير المنار) ملخصاً من (موافقة صحيح المعقول لصريح المنقول) .

وإذا تعـارض ظني في كل منهمـا مع قطعي ، وجب ترجيح القطعي مطلقاً .

وإذا تعارض ظني مع ظني من كل منهما ، رجحنا المنقول على المعقول .

لأن ما ندركه بغلبة الظن من كلام الله ورسوله أولى بالاتباع مما ندركه بغلبة الظن من نظرياتنا العقلية التي يكثر فيها الخطأ جداً.ا.هـ .

قلت سابقـاً : إنهم ـ وأعني المتكلمين ـ قد ردوا كثيراً من أحاديث العقائد الصحيحة بناء على هذه النظرية الفاسدة ، كما أولـوا الآيات القرآنيـة التي تصف الله سبحانه وتعالى بالأوصاف العليا .

فمن ردّهم للأحاديث : ردّ المعتزلة وطعنهم في أحاديث رؤية ربنا ، وهي ثابتة في الصحاح ، وبالغة مبلغ التواتر المعنوي .

وأحـاديث عذاب القبـر ، وسـؤال المنكـرين ، والصراط ، والشفاعة ، وأحاديث الصفات كحديث : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار » ، وحديث : « ينزل ربنا كل ليلة » .

وأما آيات الصفات فحيث لم يستطيعوا ردّها ، فقد أولوها ، كما أولوا في مثل قول الله تعالى : **(ويبقى وجه ربك)** ، وقوله تعالى : **(يد الله فوق أيديهم)** .

والأشعرية وإن سلمت ببعض الأحاديث كأحاديث الرؤية ، وأحاديث عذاب القبر ، والصراط ، والميزان ، لكنها أولت كثيراً من الآيات والأحاديث كما سلف البيان في بحث الصفات ، وذلك كله بناء منهم على هذا الأساس الواهي ، وعززوا ذلك بأن المجاز في لغة العرب معروف ومشهور ، وتحمل آيات الصفات على المجاز .

وقد رد العلامة ابن القيم دعوى المجاز في كتابه « الصواعق المرسلة » .

فإذا جاءتهم آية قرآنية لا يمكنهم تكذيبها ، جنحوا إلى تأويلها .

وأما الأحاديث فتارة يردونها بدعوى أنها تعارض العقل وأنها آحاد ، وأحاديث الآحاد لا تفيد إلا الظن ، والعقل يفيد القطع !! .

وقد سبق الجواب فيما سلف عن قولهم : إن أحاديث الآحاد لا تفيد إلا الظن .

وإن صحت الأحاديث - بالنسبة للأشعرية - ولم يمكنهم تكذيبها وردّها أوّلوها !!

فيالله العجب من هؤلاء القوم - مع فضلهم وعلمهم - كيف يلعب بهم الشيطان ، وتغريهم آراء الفلاسفة وتلامذتهم المعتزلة تحت ستار التنزيه لله ، وعدم مشابهته للمخلوقات ؟

فعلى زعمهم يكونون منزهين الله أشد تنزيهاً من الرسول ﷺ وأصحابه والتابعين ، لأن أولئك قابلوها بالتسليم والانقياد ، ولم يؤولوها ، ولم يردوا ما ثبت منها !

ومما لا محيص لهم ولا مفر منه أن يجيبوا بما يلي :

فإما أن يقولوا : إن التأويل لآيات الصفات وأحاديثها واجب ، والواجب إذاً حكم شرعي ، فيتحتم عليهم أن يسندوا تأويلهم إلى الله وإلى رسوله المشرع .

وإما أن يقولوا : لا يجب التأويل ، فيقال لهم : إذاً اسلكوا مسلك السلف الصالح ، ودعوا أنفسكم من التكلف ، ودعوا الناس وعقائدهم الصحيحة ، ولا تفسدوها عليهم بهذه التأويلات الجائرة والظنون الباطلة والآراء الفلسفية الزائفة .

وإن قالوا : إننـا تسلحنا بسلاح التأويل لكي ندفع شبه المجسمة والمشبهة .

فالجـواب : إن قوله تعـالى : (**ليس كمثله شيء وهـو السميع البصير**) .

وقوله تعالى : (**قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد**) كاف في إبطال شبهتهم .

كمـــا يقال لهم : إن الأديان السماوية والكتب الإلهية ، وما كان يبينه الرسول ﷺ لأصحابه من أوصاف الله ونعوته ، وما كان عليـه المسلمـون الأولون قبل ظهور البدع والضلال من جهمية ومعتزلة ومشبهة ، كل ذلك يرد عليهم ويزهق باطلهم ويهدم أساسهم .

إذ من المعلوم بداهة وفطرة وعقلا ، أنه لا ينبغي للإله أن يماثل أحداً من مخلوقاته ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

على أن المشبهة والمجسمة قد انقرضوا من الدنيا ، ولم تبق لهم باقية[1] .

---

(١) وأما المعتزلة : فمن حيث أنهم لم يكونوا لهم مذهباً فقهياً ، قد يظن البعض أن ليس لهم وجود ،وليس الأمر كذلك ، بل آراء الخوارج وكثير من آراء الشيعة وكثير من آراء الأشعرية هي نفسها آراء المعتزلة .

فصل

الإيمان بالرسل وبالأنبياء والكتب والملائكة والبعث والقضاء والقدر :

إيماننا برسله والأنبيا ... وكتبه وبالملاك الأصفيا
وبعثنا وبالقضاء والقدر ... محتم فاترك سبيل من كفر
فالكتب الصحيحة المنزلة ... أربعة لرسله المفضلة
أضف إليها صحف الخليل ... خذ البيان ومع التفصيل
توراة موسى بعده الزبور ... إنجيل عيسى ذلك المزبور
على نبينا الكريم أنزلا[1] ... هذا الكتاب المعجز المفصلا
وقد حوى ما قد حوته السالفة ... وفاقها حقاً دع المخالفة
قد نسخ القرآن تلك الكتبا ... لا تعملن بها وكن مجتنبا
وليس بعده كتاب ينزل ... ومن يقل فكافر مجادل
أما الملاك فعباد مكرمون ... ويفعلون ما به قد يؤمرون
وأنهم قد خلقوا من نور ... وليسوا بالإناث والذكور
ومن يقل بأنهم ذكور ... فسقه أو أنوثة كفور
أفضلهم رسول وحي ربنا ... للأنبياء والمرسلين الأمنا
يليه ميكائيل إسرافيل ... وبعدهم في الفضل عزرائيل[2]
ومنهم الراكع للرحمن ... ومنهم الساجد للديان

---

(١) الفاعل لأنزل معلوم وهو الله .

(٢) يقصد به ملك الموت ، وإطلاق عزرائيل على ملك الموت لم يرد به نص صحيح ، وإنما هو مأخوذ من الإسرائيليات ، وأتيت بهذا الاسم لضرورة النظم ، والاسم الشرعي الوارد هو : ملك الموت .

وبعضهم حامل عرش الخالق ومنهم الحافظ للخلائق
وبعضهم يكتب للأعمال في القبر يأتي البعض للسؤال
والبعض قد وكل بالأمطار وبعضهم لرزقنا المدرار

* * *

إيماننا برسله والأنبيا ..... إلخ .

ش : بعد أن تكلمنا عن الإيمان بالله ، وما يجب له من الصفات ، وما يجوز وما يستحيل .

شرعنا في الكلام على بقية أركان الإيمان الستة الثابتة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية .

أما الآيات : فقوله تعالى في سورة البقرة : (**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين**)[١] .

وقوله تعالى : (**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**)[٢] .

وأما القضاء والقدر فقد دلت عليه آيات كقوله تعالى : (**إنا كل شيء خلقناه بقدر**)[٣] وقوله تعالى : (**كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون**)[٤] .

---

(١) البقرة : ١٧٧ .
(٢) البقرة : ٢٨٥ .
(٣) القمر : ٤٩ .
(٤) الأنبياء : ٣٥ .

أما الأحاديث : فإنه قد ورد في الأحاديث الصحيحة بهذه الأركان الستة ، منها : حديث جبريل المشهور الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ، عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال يا محمد : أخبرني عن الإسلام ؟

فقال : أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا .

قال : صدقت ، فعجبنا له يسأله ويصدقه .

قال : فأخبرني عن الإيمان ؟ .

قال : أن تؤمن بالله ،وملائكته ،وكتبه ، ورسله ،واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره .

قال : صدقت .

قال : فأخبرني عن الإحسان ؟

قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

قال : صدقت .

قال : فأخبرني عن الساعة ؟ .

قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل .

قال : أخبرني عن أماراتها ؟ .

قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان .

ثم انطلق فلبثنا ملياً ثم قال : يا عمر ، أتدري من السائل ؟

قلنا : الله ورسوله أعلم .

قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم . رواه مسلم .

فقد تضمن هذا الحديث الشريف الدين كله ، وقسمه ثلاث مراتب :

المرتبة العليا : الإحسان .

والمرتبة الوسطى : الإيمان .

والمرتبة الأدنى : الإسلام .

وسنعقد إن شاء الله تعالى فصلا خاصاً للكلام عن الإيمان والإسلام ، وقصدنا الآن بيان الأركان الستة .

أولها : الإيمان بالله ، فقد سلف الكلام عليه .

ثانيها : الإيمان بالملائكة .

ثالثها : الإيمان بالكتب .

رابعها : الإيمان بالرسل .

خامسها : الإيمان باليوم الآخر .

سادسها : الإيمان بالقضاء والقدر .

والكلام هنا عن الإيمان بالملائكة والكتب .

وأما الإيمانُ بالرسل ، وبالبعث ، والقضاء والقدر ، فسنفرد لكل واحد فصلا خاصاً ، كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى .

وإليك البيان مقدماً الكلام عن الملائكة ، لأن الله قدمهم في بعض الآيات ، وقدمهم الرسول ﷺ في حديث جبريل ، ولأن منهم السفراء بين الله وأنبيائه ، فالإيمان بالوحي مرتب على الإيمان بالملائكة[1] .

الإيمان بالملائكة من أركان الإيمان الستة ، مما لا يتم إيمان المرء إلا بالإيمان بهم .

وقد أجمعت الكتب السماوية ، والأديان الإلهية ، وعقلاء جميع الأمم على الإيمان بما وراء الطبيعة ، وهو : الإيمان بالغيب ، كالإيمان بالجن ، والإيمان بالملائكة .

ولا ينكر الإيمان بالغيب ويقول : لا أومن إلا بما يقع تحت إحدى حواسي إلا ملحد كافر بالله ، ومخالف لجميع الشرائع السماوية .

وبالبديهة أن ليس كل مالا يدركه الحواس يكون لا وجود له .

فكم أشياء وجدت في هذا العصر بواسطة العلم ، ولم تكن معروفة في العصور الغابرة .

أفكان هذا دليلا على أن هذه الأشياء لم تكن موجودة ؟!!

أم الدليل قائم على أنها لم تزل موجودة ؟! ولكن لم يكن للبشر علم فيما مضى حتى يدركها ؟

من ذلك : الكهرباء ، والميكروبات ، والفيروسات ، وما يسمى

---

(١) الملاك : هو الملك ، وجمعه ملائكة ، وحذفت همزة ملاك لكثرة الاستعمال ، وأصل وزنه مفعل ، فقيل : ملك ، وقد تحذف الهاء من الجمع فيقال : ملائك ، وأصل ملاك بتقديم الهمزة من الألوكة وهي الرسالة ، ثم قدمت اللام على الهمزة في الجمع ، فقيل : ملائكة أو ملائك .

بالطفيليات ، إلى غير ذلك من الأشياء التي توصل إليها العلم ، وعلم أنها لم تزل موجودة .

فأي غرابة في الإيمان بالله وبالملائكة ؟ إذا كان ما قلناه مسلم به ، لا يختلف فيه اثنان ، هذا مع التنزل مع من لا يؤمن بالشرائع السماوية .

وإلا فالشرائع كلها مطبقة ـ كما قلنا ـ على وجود الملائكة ، لأن الوحي الذي نزل على الأنبياء والرسل الماضين إنما كان بواسطة جبريل الأمين .

فالملائكة أو الملأ الأعلى عالم غيبي غير محسوس ، وليس لهم وجود جسماني يدرك بالحواس ، وهو من عوالم ما وراء الطبيعة أو غير المنظورة التي لايعلم حقيقتها إلا الله ، وهم مجبولون على الطاعة ، ومنزهون عن المعاصي ، قال تعالى : (**عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون**)[1] .

كما أشار إليه في النظم : « ويفعلون ما به قد يؤمرون » .

وقد خلقهم الله من نور ، كما خلق آدم من طين ، وكما خلق الجان من نار .

روى مسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » .

وخلقهم متقدم على خلق الإنسان ، وقد أخبر الله تعالى بأنه سيخلفه ، ويجعله خليفة في الأرض ، قال تعالى : (**قالوا أتجعل**

---

(١) التحريم : ٦ .

فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون)[١] .

والملائكة ليسوا كالبشر ، فهم لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتصفون بالذكورة والأنوثة .

وإنما هم عالم آخر قائم بنفسه ، ومستقل بذاته ، لا يتصفون بشيء مما يتصف به البشر من الحالات المادية ، ووصفهم بالذكورة فسق وفجور ، وبالأنوثة كفر ، ولهذا قال في النظم :

ومن يقل : إنهم ذكور فسقه ، أي احكم بفسقه ، أو أنوثة ، أي وصفهم بالأنوثة ، فاحكم بأنه كفور بالله العظيم .

مسكنهم السموات ، يموتون عند نفخ الصور ، وسيأتي الكلام في باب السمعيات .

وقد أعطاهم الله قدرة التشكل بالصور البشرية ، كما جاء جبريل إلى مريم متمثلا بصورة بشر ، كما قال تعالى : (**واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً**)[٢] .

ودخلت جماعة منهم على سيدنا إبراهيم عليه السلام في صورة الآدميين ، يحملون إليه البشرى ، وظنهم ضيوفاً فقدم إليهم الطعام ، قال تعالى : (**ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ، قالوا سلاماً ، قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ**)[٣] .

وقد مضى حديث جبريل أنه جاء في صورة رجل يسأل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام .. وقد كان يتمثل بصورة دحية الكلبي .

---

(١) البقرة : ٣٠ .
(٢) مريم : ١٦ .
(٣) هود : ٦٩ .

وهم متفاوتون في الفضل ، فأفضلهم جبريل كما قلت في النظم : وأفضلهم رسول وحي ربنا ، ثم ميكائيل ، ثم إسرافيل ، ثم ملك الموت .

ولهم أعمال يقومون بها بأمر الله .

فمنهم من وظيفته النزول بالوحي إلى الأنبياء والرسل ، وهو جبريل عليه السلام ، كما قال تعالى : (**وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين**)[1] .

ومنهم من يحمل العرش ، كما قال تعالى : (**الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم**)[2] .

ومنهم الموكلون بحفظ بني آدم .

ومنهم الموكلون بقبض الأوراح كملك الموت .

ومنهم الملكان اللذان يكتبان أعمال العباد .

ومنهم الملكان اللذان يسألان الميت في قبره ، عن ربه ، وعن نبيه ، وعن دينه ، كمنكر ونكير ، ومنهم الموكل بالأمطار وبالأرزاق كميكائيل .

ومنهم الموكل بتعذيب أهل النار ، كما قال تعالى : (**يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة ، عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون**) [3] .

ومنهم خازن النار كمالك ، ومنهم خازن الجنة كرضوان .

---

(١) الشعراء : ١٩٣ .
(٢) غافر : ٧ .
(٣) التحريم : ٦ .

ومنهم الراكع أبداً ، ومنهم الساجد أبداً ، ومنهم الحافون بالعرش .

ومنهم الملك الموكل بنفخ الصور كإسرافيل .

وما خفي من أعمالهم أكثر مماعلمنا ، والله أعلم .

قال : « فالكتب الصحيحة المنزلة أربعة لرسله المفضلة » إلخ .

الركن الثالث من الإيمان : أن يؤمن العبد بجميع الكتب التي أنزلها الله تعالى على رسله ، والصحيح أنها أربعة كتب ، سوى صحف إبراهيم الخليل .

وقيل : إنها مائة وأربعة ، ولكن ليس هناك دليل يمكن الاعتماد عليه .

وأما الأربعة فكما في النظم :

الأول : التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى ، قال تعالى : **(إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء)**(1) .

وقال الله تعالى : (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً)(2) .

والثاني : الإنجيل الذي أنزله الله تعالى على عيسى بن مريم ،

---

(1) المائدة : ٤٤ .

(2) الأنعام : ٩١ .

قال الله تعالى : (**وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين**)[1] .

والثالث : الزبور الذي أنزله الله تعالى على داود ، قال الله تعالى : (**وآتينا داود زبوراً**)[2] .

ومن الكتب المنزلة : صحف إبراهيم وموسى ، قال الله تعالى : (**قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ، بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ، إن هذا لفي الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى**)[3] .

وآخر الكتب السماوية نزولاً : هو القرآن الكريم ، المعجز بأسلوبه وبلفظه وبمعناه لجميع البشر والجن ، قال تعالى : (**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً**)[4].

وقال الله تعالى : (**الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان**)[5] .

ومما يجب الإيمان به : أن تعتقد أن القرآن قد نسخ جميع الكتب المنزلة ، ولا ينزل الله بعده كتاباً ، كما ليس بعد محمد ﷺ رسول أبداً .

---

(١) المائدة : ٤٦ .
(٢) الإسراء : ٥٥ .
(٣) الأعلى .
(٤) الإسراء : ٨٨ .
(٥) آل عمران : ٢ ، ٣ .

وإن تعاليم القرآن صالحة لكل زمان ومكان ، ولكل أمة وجيل ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وذلك أنه قد حوى خلاصة التعاليم الإلهية التي تضمنتها الكتب السالفة ، وأنه مؤيد للحق الذي جاءت به تلك الكتب من عبادة الله وحده ، والإيمان برسله ، والتصديق بيوم الجزاء ، ووجوب إقامة الحق ، والتخلق بمكارم الأخلاق .

قال الله تعالى : **(وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب** [١] **ومهيمناً عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً)** [٢] .

أي أن الله تعالى أنزل القرآن الكريم على النبي ﷺ مقترناً بالحق في كل ما جاء به ، ومصدقاً لما تقدمه من الكتب الإلهية التي أنزلها الله على الأنبياء السابقين ، ورقيباً عليها ، يقرر ما فيها من حق ، ويبين ما دخل عليها من تحريف وتصحيف .

ثم يأمر نبيه ﷺ أن يحكم بين الناس ـ مسلمين وكتابيين ـ بما أنزل في القرآن ، متجنباً أهواءهم ، وأنه سبحانه وتعالى جعل لكل أمة شريعة وطريقة في الأحكام العملية تناسب استعدادها .

أما أصول العقائد والعبادات ، وما لا يختلف باختلاف الزمان والمكان ، فإنها واحدة في الأديان كلها .

قال الله تعالى : **(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)**[٣] .

---

(١) المقصود من الكتاب هنا الجنس ، فيشمل التوراة والإنجيل .
(٢) المائدة : ٤٨ .
(٣) الشورى : ٣ .

وتعاليم القرآن هي كلمة الله الأخيرة لهداية البشر ، أراد الله لها أن تبقى على مدى الدهر ، وتخلد على الزمن ، فصانها من أن تمتد إليها يد بالتحريف أو التصحيف أو التغيير أو التبديل .

قال الله تعالى : **(وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)**[١] ، وقال تعالى : **(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)**[٢] .

أما التوراة فقد دخلها التحريف ، بل التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام لا وجود لها الآن أبداً ، لأن بختنصر لما استولى على اليهود ، وخرب القدس ، وسباهم ، حرق التوراة .

والتوراة التي بيد اليهود الآن قد كتبها عدة كتاب ، وفي أزمان مختلفة .

ومن أدلة التحريف الحسية : أن التوراة المتداولة لدى النصارى تخالف التوراة المتداولة لدى اليهود .

وقد أخبر الله في القرآن عن تحريفهم للتوراة فقال تعالى : **(أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون)**[٣] .

وقال تعالى : **(من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه)**[٤] .

فالذي عندهم من التوراة الصحيحة هو بعضها .

ومن الأدلة على تحريفها ، وصحة نقد القرآن للتوراة ، أن جاء

---

(١) فصلت : ٤١ .
(٢) الحجر : ٩ .
(٣) البقرة : ٧٥ .
(٤) النساء : ٤٦ .

في التوراة التي بيد اليهود من وصف الله بما لا يليق ، كوصفه بالحزن والتأسف ! . ونعت الأنبياء بما يمس شرفهم وكرامتهم !! . وجاء فيها عن إبراهيم أنه كذاب ! وأن لوطاً زنى بابنته ! وهارون دعا الاسرائيليين إلى عبادة العجل ! وداود زنى بزوجة أوريا ! . وسليمان عبد الأصنام إرضاء لزوجته ! .

فهل ثمة دليل على التحريف أقوى من هذه الأمور ؟

وعقلاء اليهود ومصلحوهم يعترفون بهذه الحقيقة ، وأن التوراة قد حرفت .

والإنجيل قد لحقه ما لحق التوراة من التحريف .

قال الله تعالى : **(ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، وسوف ينبؤهم الله بما كانوا يصنعون ، يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير)**(١) .

ومن الأدلة على التحريف في الأناجيل المتداولة بأيدي النصارى الآن - وهي أربعة - أنها اختيرت من نحو سبعين إنجيلا ، وقد كتبت بعد سيدنا المسيح بعدة سنين ، وفيها عن سيرة سيدنا المسيح .

وهذا أوضح دليل على أنه لم يكن من الله ، بل مؤلفو الأناجيل معروفون كلوقا ومرقص .

وفي كل إنجيل تجد ما يخالف ما في الإنجيل الآخر .

والسبب في التبديل والتحريف يرجع إلى :

---

(١) المائدة : ١٥ .

أولا : إن الله تعالى لم يرد لهذين الكتابين صيانتهما وحفظهما من التغيير والتبديل ، لأنهما كانا لأزمان مؤقتة ، فأنهى حكم التوراة بنزول الإنجيل ، وأنهى حكم الإنجيل بنزول القرآن .

ثانياً : إنهما لم ييسرا للحفظ في الصدور ، كما يسر القرآن ، فلم يحفظ إلا قليل من خواص موسى وأصحابه التوراة كلها ، ولا أصحاب عيسى الإنجيل كله ، كما حفظ كثير من أصحاب الرسول ﷺ القرآن كله .

ثالثاً : إن التوراة قد أحرقت ، ولم تكن محفوظة في الصدور ، بل ولا في السطور في مكان لم تمتد إليه يد البابليين ، الذين استولوا على القدس ، وقتلوا من بني إسرائيل وسبوا كثيراً .

وبعد أن استرجع بنو إسرائيل مجدهم وعزهم ، كتبوها من لسان عزير وغيره .

وكذلك الإنجيل ، لما أرادوا صلب المسيح ، ورفعه الله تعالى ، ونجاه من أعدائه ، تفرقت أصحابه ، فلم يكن أحد منهم حافظاً للإنجيل ،وكانوا مضطهدين ومشردين .

ويقال : إنه بعد مئات من السنين كتبوا هذه الأناجيل .

ولهذا لم ينقل هذان الكتابان بالسند المتصل إلى سيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما السلام ، وبالنقل المتواتر عنهما .

أضف إلى تلك الأسباب المارة ، السبب الذي ذكره الله ناعياً عليهم وموبخاً لهم ، وهو التحريف عن قصد لأجل إخفاء الحق ، وإرضاء الشهوات ، وحب الرياسة .

كتحريفهم نعوت النبي ﷺ التي يعرفونها كما يعرفون أبناءهم ، كما قال الله تعالى : (**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه**

كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون)[1] .

أما القرآن الكريم فهو يخالف ذينك الكتابين في كل ما سلف :

أولا : إن الله تعالى أخبر في القرآن الكريم أنه نزله وأنه حافظه ـ أي من التغيير والتبديل ـ كما قال الله تعالى : **(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)**[2]، وكما قال تعالى في الآية الأخرى : **(لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)**[3] .

فقد أفادت الآيتان أن الله ضمن حفظ القرآن وصيانته من أن تمتد إليه يد التغيير والتبديل ،وهذا مشاهد محسوس ملموس ، لا يمكن أن يختلف فيه اثنان .

والدليل على ذلك : أنه منتشر في سائر أرجاء الأرض بين المسلمين والكافرين ، ومطبوع في جميع أنحاء العالم ، ومترجم بعدة لغات ، ومع كل ذلك ، فلا يتجاسر أحد أن يغير كلمة منه أو حرفاً .

ولو فرضنا أن أحداً سولت له نفسه ، وأبدل كلمة بكلمة أو غيرها ، فسرعان ما ينتبه العالم الإسلامي ، ويعلنون نكيرهم ، ويفهم عالمهم وجاهلهم الكلمة المغيرة ،ولابد أن يمحى ذلك التغيير ، وترد الكلمة كما كانت ، ويظهر الله قبح ذلك الفاعل ، ويكشف عورته ، ويخزيه ، وتحل عليه النقمة واللعنة .

ثانياً : إن هذا القرآن العظيم قد قرأه الرسول ﷺ على ألوف من أصحابه ، وحفظه كله كثير من الصحابة ، وقد حفظ وصين

---

(١) البقرة : ١٤٦ .

(٢) الحجر : ٩ .

(٣) فصلت : ٤٢ .

وجمع من بعد الرسول ﷺ بعد أن كان مفرقاً بإجماع الصحابة واتفاق منهم ، فلم يحصل فيه تغيير ولا تبديل أبداً .

ثالثاً : نقل بالسند المتصل إلى الرسول ﷺ ، وبالنقل المتواتر المفيد للعلم القطعي ، بحيث لا يرقى إليه أدنى شك أو ريب ، أنه الكتاب الذي أنزله الله على سيدنا محمد ﷺ من غير زيادة ولا نقصان .

رابعاً : إنه قد يسره الله تعالى للحفظ ، فحفظه بعض الصحابة كما قلنا كله ، ولازال في الأمة المحمدية من علمائها ومن غيرهم من يحفظه ، بل يوجد الحفاظ للقرآن العظيم كله بكثرة في كثير من الأمصار والقرى .

وبهذه المزايا فاق الكتب السالفة ، ولا زال مصوناً حتى تقوم الساعة .

فمن أراد السعادة الأبدية الدنيوية والأخروية ، والوصول إلى الحقيقة التي تسلك به السبيل المستقيم ، ويكون بها سعيداً في دنياه ، وموصلة إلى جنات النعيم ، فعليه بهذا القرآن الكريم ، فلا يجد أمامه غيره مما فيه بغيته ، والوصول إلى الحقيقة الصحيحة والطريقة المستقيمة .

وهو الكتاب الذي حفظت أصوله ، وسلمت تعاليمه ، وتلقته الأمة عن الرسول الكريم ﷺ ، عن جبريل الأمين عليه السلام ، عن رب العالمين عز وجل ، الأمر الذي لم يتوفر لكتاب مثله .

وإنه الجامع لأسمى المباديء ، وأقوم المناهج ، وخير النظم ، الحافل بكل ما يحتاج إليه البشر من حيث العقائد والعبادات والآداب والمعاملات والنظم ، قال الله تعالى : **(قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم)**[1] .

---

(١) المائدة : ١٦ .

فصــــل

النبــوة والرســالة

وحاجــة العبــاد للرســول	لكي ينير منهج الوصــول
لربنــا الحميــد من عقيدة	صحيحة وشرعــة حميــدة
أشــد من حاجــاتهم للأكل	ولم تجب رســالة بالعقل
لكنما الرب الكريم أرسـلا	إلى الأنام رســلا تفضـلا
مبشرين المؤمنين الأتقيا	ومنذرين الكافرين الأشقيا
بجنة دار النعيم والهنا	وبالجحيم والعذاب والعنا
كيلا يكون للعباد حجــة	بعد بيان واضــح المحجة

ش : **الركن الرابع من أركان الإيمان** : الإيمان بالرسل ، وهو الأصل الثاني من الأصول الثلاثة .

وتعـريف النبي[١] كما قال العلماء : إنسان ذكر[٢] ، حر[٣] ، أوحي إليه بشرع ، ولم يؤمر بتبليغه .

---

(١) إما أن يكون مأخوذاً من النبوة ، وهي الشيء المرتفع ، لأن النبي مرفوع الرتبة ، أو من النبأ ، وهو الخبر ، وحينئذ يصح أن يكون هو فعيلا بمعنى فاعل ، أي هو مخبر عن الله ، أو بمعنى المفعول ، بمعنى أنه مخبر ـ بفتح الباء ـ من الله .

(٢) أي : أن يتصف بالذكورية لقوله تعالى : (**وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم**) .

فأثبت الرسالة للرجال الموحى إليهم ، وأشعر بنفي ذلك عن غيرهم ، وقد وجد خلاف ضعيف في نبوة مريم ، وآسيا ، وهاجر ، وأم موسى .

والحق اعتبـار الذكورية ، لأن الرسالة تقتضي الإشهار بالدعوة ، والأنوثة تقتضي التستر .

(٣) أي : لا يكون النبي رقيقاً ، لأن الرق وصف نقص لا يليق بمقام النبوة ، والنبي يكون داعياً للناس ، والرقيق لا يتيسر له ذلك ، قال في بدء الأمالي :

وما كانت نبياً قط أنثى ولا عبد وشخص ذو افتعال

والرسول : إنسان ذكر ، حر ، أوحي إليه بشرع ، وأمر [1] بتبليغه .

---

(١) هكذا فرقوا بين النبي والرسول ، ونازع بعضهم في هذه التفرقة وهذا التعريف بأنه لا يستقيم مع قوله تعالى : (**وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم**) .

لأن قوله تعالى : (أرسلنا) يتعلق بقوله تعالى : (ولا نبي) كما تعلق به (من رسول) ، فكأنه قال : وما أرسلنا من قبلك من رسول ، وما أرسلنا من قبلك من نبي .

وحيث تعلق به إرسال ، صار مأموراً بالتبليغ ، على أن العقل لا يستسيغ أن يوحي الله إلى نبي بشرع ثم لا يأمره بتبليغه ، لأن الشرع أمانة وعلم ، وأداء العلم واجب ، وكتمان العلم نقص ورذيلة .

أقـول : يرد على الأولين القائلين بأن النبي أوحي إليه بشرع ، ولم يؤمر بالتبليغ ، ثم منعهم نبوة الأنثى ، وعللوا المنع بأن الرسالة تقتضي الاشتهار بالدعوة .

فإذا كانت لم تؤمر بالتبليغ ، فأين الاشتهار بالدعوة ؟ ، لأن النبي لا يؤمر بالتبليغ ، واقرأ بدء الأمالي حيث يقول : وما كانت نبياً قط أنثى .. ولم يقل وما كانت رسولا قط أنثى .

ويقولون : اختلفوا في نبوة مريم وآسيا وأم موسى وهاجر .

ولم يقولوا : اختلفوا في رسالتهن ، إلا أن يقولوا بترادف النبي والرسول ، فحينئذ لا يرد ما ذكرنا .

ويـرى بعض العلمـاء : أن الرسول من أوحي إليه بشرع ، وأنزل إليه كتاب ، كإبراهيم وداود وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام .

والنبي الذي ليس برسول هو من أوحي إليه بشرع ، ولم ينزل إليه كتاب ، كإسماعيل ، وشعيب ، ويونس ، ولوط ، وزكريا .

ويرد على هذا : إن الله تعالى وصف بعض الأنبياء الذين لم ينزل عليهم كتب بالرسـالة ، فقال تعالى في إسماعيل : (**واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً**) ، وقال تعالى عن يونس : (**وإن يونس لمن المرسلين**) .

ودعوة شعيب ولوط لقومهما قد ذكرها القرآن في عدة سور ، فقال الله تعالى في هود : (**وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** =

حاجة البشر إلى إرسال الرسل

اعلم أن حاجة العباد إلى إرسال الرسل ، لأجل أن يرشدوا الخلق إلى معرفة الله وعبادته ، والقيام بشرعه ، وتعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم ، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم ، أشد[١] من حاجتهم إلى الغذاء والهواء ،وأمس من حاجة المريض إلى الطبيب .

فإن آخر ما يعذب بعدم الطبيب ، أو بعدم الأكل والشرب والهواء موت الأبدان .

وأما إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتاً لا ترجى الحياة معه ، وشقي شقاء لا سعادة معها .

فلا فلاح إلا باتباع الرسول ، فإن الله خص بالفلاح أتباعه المؤمنين به وأنصاره ، كما قال الله تعالى : (**فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون**)[٢] .

= **ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط**) .

ولعل أحسن تعريف للنبي والرسول هو ما قاله بعضهم إن الرسول من الأنبياء هو من بعثه الله بشرع جديد يدعو الناس إليه .

أما النبي الذي ليس برسول : فهو من بعث لتقرير شرع سابق ، كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهم السلام ، أو القول بترادف النبي والرسول على أن معناهما واحد .

(١) خبر إن - في قولنا - : إن حاجة العباد .

(٢) الأعراف : ١٥٧ .

كما أن الرسالة أيضاً روح العالم ونوره وحياته ، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور ؟ .

والدنيـا مظلمة ملعونة كلها   إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة

وكذلك العبد ، ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة ، وتناله حياتها وروحها ، فهـو في ظلمـة ، بل هو من الأموات ، قال الله تعالى : (**أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها**)[1] .

وإنما كانت حاجة العباد ماسة إلى إرسال الرسل ، لأن الله جلت قدرتـه ، وعلت كلمتـه ، خلق الخلق ، وطبعهم على أخلاق حسنة ، تساعدهم على انتظام حالهم ، وأخلاق تخالفها ، لأجل أن يتسابقوا بها في عمارة هذا الكون الذي قدر وجودهم فيه إلى أجل معلوم .

لكن لما كان تحديد الرغبة في السبق ، يوجب وقوف كل راغب عند حده ، ويأسه من مجاورته ، وبذلك تتعطل حركة المسابقة ، لم تعدل الأخلاق في أصل الفطرة ، فصارت تلك الأخلاق السيئة في معرض الطغيان ، والوصول إلى حد يصبح به ضرها أكبر من نفعها .

والعقـل لا يهتـدي لكثـير من الأمـور ، لاسيمـا تفـاصيل العبادات ، وأحـوال الآخرة ، والمشي على منهج العدالة التامة مع المخلوقين .

لا يمكن كل هذا أن يستقل به العقل ، والله لا يؤاخذ الناس إلا بعـد إقـامـة الحجة عليهم ، كما قال الله تعالى مبيناً وظيفة الرسل ، وحكمة إرسالهم ، وإقامة الحجة على العباد بهم :

---

(١) ملخصاً من (لوامع الأنوار) ج ٢ ، والآية من سورة الأنعام رقم : ١٢٢ .

(إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيـوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبوراً ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليمـاً ، رسـلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزاً حكيماً)(١) .

لذلك اقتضت رحمة الله بعباده ، أن يرسل لهم أناساً منهم ، طبعهم على الأخلاق الفاضلة والصفات الكاملة ، ومنحهم ما لم يمنحه أحداً من عباده ، واختصهم بفضل لم يظفر به غيرهم ، واختارهم على علم ، ليكونوا ضياء وهدى ورحمة للعالمين ، وأطلعهم على مكارم الأخلاق وأسرارها ، وكيفية علاجها ، ودرجة الاعتدال منها ، ليهدوهم ويرشدوهم إلى ما فيه صلاحهم ، وتقويم أخلاقهم ، وتهذيب نفوسهم ، ويبينوا لهم الخير ليتبعوه ، والشر ليجتنبوه .

---

(١) النساء : ١٦٤ .

من رحمة الله أن جعل الواسطة بينه وبين خلقه بشراً يمكن التخاطب معهم ولم يكونوا ملائكة

من كمال لطفه بهم ، ورحمته لهم ، أن جعل الرسل بشراً من جنسهم ، ليمكن أن ينتفع بعضهم ببعض في المخاطبات والتفاهم .

ولم يجعلهم ملائكة لعدم إمكان رؤيتهم ومخالطتهم ومخاطبتهم ، فلا تحصل الفائدة المقصودة من إرسالهم حينئذ كما قال الله تعالى : (**ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلا ،وللبسنا عليهم ما يلبسون**) [١] .

لأن البشر خلقوا على هيئة واستعداد لا يتمكنون بها رؤية الملائكة والجن .

وعلى تقدير إرسال الملك ، لابد أن يتشكل بشكل رجل يمكنهم مخاطبته ، والانتفاع بالأخذ عنه .

ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر ، كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة الرسول البشري ، كقوله تعالى : (**قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا**) [٢] .

إذاً فمن رحمته ـ كما قلنا سابقاً ـ أن يرسل لكل صنف من الخلائق رسلا منهم ، ليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال ، كما قال الله تعالى : (**لقد من الله على المؤمنين إذ بعث**

---

(١) الأنعام : ٩ .

(٢) الإسراء : ٩٥ .

فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين)[1] .

ولذا امتن الله على عباده بإرسال الرسول الذي هو من جنسهم .

وبالجملة : فحاجة البشر إلى الرسل مما لا تخفى على كل ذي عقل .

رد شبهة على حاجة العباد إلي الرسل :

وهنا شبهة لبعض الضالين على حاجة العباد إلى الرسل ، وتقريرها :

أن يقال : لقد جاء في التاريخ أن أمماً متحضرة ـ دلت عليها آثارها ـ وضعت تشريعاً لشعوبها ، وسنت لهم آداباً يقفون عندها ، لأن الإنسان مدني بالطبع ، فيمكن للبشر إذاً أن يستغنوا بذلك عن النبوات .

والجواب :

أن نقول : إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يجيئوا بالقوانين والآداب فقط ، ولكنهم جاءوا بعبادة الله وحده ، وبأحكام هذه العبادة ، وبتعريف الناس بخالقهم وفاطرهم ، وبالتشريعات للبشر .

ومهما ارتقى العقل البشري ، فإنه لا يستطيع أن يخرق الحجب ، ويعرف تفصيل عالم الغيب الذي جاءت به الرسل ، ومنها أخبار يوم القيامة ، وهذا من أعظم المقاصد من بعث الرسل ، وهي ثلاثة أمور :

---

(١) آل عمران : ١٦٤ .

١ - توحيد الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ، وما يجب من عبادته وحده ، وهذه ذروة سنامها .

٢ - ما يجب اعتقاده من البعث بعد الموت ، والجزاء على الإيمان والأعمال .

٣ - التشريع الذي ينزله الله بواسطة رسله للناس ، والحدود التي يحدها مما لا مجال فيه للآراء والأهواء .

فأنى تستقل العقول بهذا ؟ . وكيف تصل إليه بغير الوحي ؟ .

ثم إن القوانين تحمل عليها سطوة الحكام ، أما التشريع الإلهي فيحمل عليه الإيمان ، وحب الله وامتثال أمره ، وعلم العبد أن الله مطلع عليه ، وعالم بما يبدي وما يكتم ، فهنا الإذعان وجداني ، وهناك قسري ، يفرضه الإكراه ، فإذا غابت عنه عين الحاكم ، تركه غير مبال به .

وأيضاً فإن القادرين على التشريع في التاريخ قلائل جداً - بالنسبة لغيرهم - لانتشار الأمية وكثرة الجاهلين .

كما كانت القوانين أغلالاً في رقاب الناس ، إذ اتخذهم الحكام يومئذ خولا ، فما زادت القوانين الناس إلا ذلًّا وصغاراً وأغلالاً وأصفاداً »(١) (٢) .

---

(١) ا ـ هـ من (رسالة النبوة إصلاح تقتضيه رحمة الله) لسعدي ياسين .

(٢) أقول : مهما بلغ البشر من العلم والحكمة والإنصاف ، فإن تشريعاتهم لابد وأن يعتريها النقص ، ذلك أن القوانين التي يسنها كبار رجال القانون وفلاسفة الحقوق ، لابد وأن يتأثروا بالبيئة التي نشأوا فيها ، وبالقوانين البشرية الأخرى التي وضعها غيرهم ، ومهما حاولوا أن يلبسوها ثوب العدالة والإنصاف فلا يستطيعون ، لأن البشر بذاته ناقص عن الكمال ، بل الكمال لله وحده .

فالتشريع البشري والقانون الوضعي قابل للزيادة والنقص والتغيير

قوله في النظم : « ولم تجب رسالة بالعقل »[1] .

أي مع كون إرسال الرسل لا يجب عليه عقلا ، لكنه تفضل على عباده ولطف بهم ، فأرسل الرسل وسائط بينه وبين عباده ، لكي يدعـوهم إلى عبادة الله وحده ، ويعرفوهم طريق السعادة ، ويبينـوا لهم طريق الشقـاوة ، ويبشروا المـؤمنـين بجنة عرضـها السموات والأرض ، وينذروا الكافرين والفاسقين بعذاب النار والجحيم .

= والتبديل ، يضع اليوم بعض المواد ويغيره في يوم آخر ، ثم لا يعرف ماذا يحدث في المستقبل ، فيحتاج في كل فترة أن يغير بعض المواد إن لم يكن كلها ، بخلاف التشريع الإلهي الذي هو أعلم بعباده وبمصالحهم ، وبما ينفعهم ويسعدهم ويضرهم في أبدانهم وأعراضهم وأموالهم ودينهم ، قال الله تعالى : (**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**) .

ومن هنـا يتبـين أنه لا يجوز لمسلم أن يرتكن للقانون الوضعي والتشريع البشري ، كما لا يجوز أن يعتقد مساواة الشريعة الإلهية بالقوانين الوضعية ، فإن اعتقاد هذا كفر لا ريب فيه ، فضلا أن يعتقد أن القوانين الوضـعية أنسب وأصلح من الأحكام القرآنية في هذا العصر .

(١) رد بذلك على المعتزلة ، لأنهم أوجبوا على الله بعث الرسل عقلا ، قال بعضهم : إن أرادوا أنه واجب بمقتضى الحكمة ، وأن الله هو الذي أوجب على نفسه ، فمسلم .

وإن أرادوا أن أحداً أوجب عليه ، فلا .

وأبعد الطوائف عن الصواب فرقة من المجوس زعمت أن إرسال الرسل عبث لأن العقل يغني عنه !!

وفـاتهم أن العقول تختلف ، والعقلاء يناقض بعضهم بعضاً ، فمن يكون الحكم بين العقول عند اختلافها ؟

ولا أدل على ذلك : إن العقلاء في مسألة الرسالة نفسها مختلفون ، فريق يوجبها على الله إيجاب العلة ، وفريق يحيلها لأنها عبث يغني العقل عنها .

وإذاً فلا غنى للناس عن عقل عام معصوم عن الخطأ ، وذلك العقل العام هو الوحي السماوي ، أو هو الرسالة ، قال تعالى : (**رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل**) . ا ـ هـ (الشرح الجديد لجوهرة التوحيد) .

وإنمـا أرسـل الله الرسـل إلى العباد ، لتقوم الحجة عليهم بالبينات ، وينقطع عنهم سائر التعللات ، كما أشار في النظم إلى ذلك بقوله :

كيـلا يكـون للعبـاد حجـة بعد بيان واضح المحجة

قال الله تعالى : (**ولوأنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنـا لولا أرسلت إلينـا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى**)[1].

وقال تعالى : (**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا**)[2] ، وقال تعالى : (**رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل**)[3] .

فلولا إعذاره تعالى إليهم على ألسنة الرسل ، وإقامة الحجة عليهم ببعثه أهل خبرته من ذوي النبوة والفضل ، لتوهموا أن لهم حجة سائغة ومعذرة بالغة ، لوجوه .

١ – أن يقولوا : إنما خلقنا الله لعبادته ، وما بين لنا العبادة التي يريدها ، ما هي ؟ . ولاكم ؟ ، ولا كيف هي ؟ .

٢ – أن يقولوا : قد ركبنا ربنا في هياكل وأجسام تقبل السهو والغفلة ، وسلط علينا الشيطان والشهوة والهوى .

فكان ينبغي أن يؤيدنا بما إذا سهونا نبهنا ، وإذا مال بنا الهوى ردنا ، وإذا وسوس إلينا الشيطان منعنا بما يرشدنا إليه من الأذكار وغيرها .

---

(١) طه : ١٣٤ .
(٢) الإسراء : ١٥ .
(٣) النساء : ١٦٥ .

٣ - أن يقولوا : هب أننا نعلم بعقولنا حسن الإيمان وقبح الكفـر والعصيان ، لكن لم يصل إدراك عقولنا إلى أن من فعل القبيح عذب ، مع أننا نحس أن لنا في معاطاة القبيح لذة ، وليس على الباري فيه مضرة ، ولم نعلم أن من آمن وعمل صالحاً استحق الثواب ، مع إدراكنا بعقولنا عدم العود بمنفعة له تعالى .

فلا جرم تقاضتنا الشهوات ، وأقدمنا على ما فيه لنا اللذات . .

فإرسال الرسل لمعاضدة العقل أمر جائز في حقه وواجب وقوعاً وسمعاً . ا . هـ [١] .

(١) من (لوامع الأنوار البهية) للسفاريني .

فصـــل

في

بيـان ما يجب للرسل ، وما يجوز عليهم ، وما يستحيل

فواجب لرســـله الكـــرام   الصدق والتبليغ للأقـــوام
فطانـــة والرابـــع الأمـــانة   ويستحيل الكذب والخيانـــة
كذلك الكتمان والبـــلادة   نالوا العلا والمجد والسعادة

ش : لما كان الرســل مبعـوثـين إلى قوم مختلفي الأخـلاق والعقول ، فيهم الذكي الأخاذ ، والجاهل الأحمق ، والمعاند الألد ، حصن الله رسله بمـا ينصرهم على هؤلاء جميعـاً ، ليندفع أهل العقـول إلى تصـديقهم وتعـظيمهم ، إذ رأوا فيهم مزايـا خلقية لا تتحقق لسواهم ، ومواهب جليلة لا تكون إلا لأمثالهم المختارين لقيـادة الناس ، ويخضعهم لهم ما يبدو عليهم من نبل الخلق ، وكرم الطبع ، وسمو الإدراك ، وبعد عما يشين .

ومن أجل ذلك حصن الله رسله بخلال الفضل ، ووهب لهم من حميـد الخلق ما يدفع كل ريبة ، وأوجب لهم صفات لا تتخلف عنهم ، فمن تلك الصفات ما صرح به في النظم .

الصفات الأربعة للأنبياء والرسل

١ - الصـــــدق :

ومعناه مطابقة الخبر للواقع ، ولو بحسب اعتقادهم ، كما في قوله ﷺ في قصة ذي اليدين : « كل ذلك لم يكن » .

وهـذه الصفة واجبة لهم شرعاً وعقلا ، وإلا كانوا رسل إثم ودعاة سوء ، وحاشا أن يكونوا كذلك .

وقـد أيـدهم الله بباهـر المعجـزات ، فلو كانوا متهمين في رسالتهم ، أو كاذبين في دعواهم ، ما ظفروا من الله بأن يؤيدهم بالمعجزة المنزلة منزلة قوله : « صدق عبدي في كل ما يبلغ عني » .

ومحال وغير مناسب تأييد الكاذب ، كيف وقد قال الله تعالى : **(ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين)**[1] .

وهـل يأمـر الله بتصديق الكاذبين الدجاجلة المضلين ، وقد أمـرنـا الله بامتثـال أوامـر الرسل كما قال تعالى : **(وما أتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم فانتهوا)**[2] .

٢ - التبليـــغ :

كلفوا بتبليغ ما أمروا به من الله ، وإلا لم تكن ثمة فائدة من اختيارهم لتأدية الرسالة .

---

(١) الحاقة : ٤٤ .

(٢) الحشر : ٧ .

فلو كانـوا كاتمين ، لكنا مأمورين بالكتمان ، وكتمان العلم النـافـع لمن اضطر إليه من الحرمة بمكان لا يخفى ، بل يكون ملعوناً فاعله ، كما قال الله تعالى : (**إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب ، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون**)(١) .

وحاشاهم ، وكيف يتصور !! والله تعالى يقول لحبيبه ﷺ : (**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك**)(٢) .

وقد شهد الله تعالى لنبيه ﷺ بكمال التبليغ ، فقال تعالى : (**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي**) (٣) .

٣ - الفطانـــة :

بأن يكـونـوا أذكيـاء ، يدركون ما يحيط بهم من الأمور ، ويتصرفون فيها تصرف العاقل الحكيم .

والفـطانـة فيهم تتـطلب أن يكـونوا ذوي قدرة على البيان

---

(١) البقرة : ١٦ .

(٢) المائدة : ٦٧ .

(٣) الآية : ٢٥٦ من البقرة ، كما شهد تعالى لإخوانه من المرسلين السابقين بتبليغهم لأقوامهم ، كما تراه في سورة الأعراف وهود وغيرهما ، فقد أخبر عن نوح عليه السلام في عدة سور أنه بلغ قومه رسالة ربه ، ودعاهم إلى توحيده وعبادته ، قال الله في سورة هود : (**ولقـد أرسلنـا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم**) . الآية : ٢٥ .

وقال تعالى عن هود : (**وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون**) . هود : الآية : ٥٠ .

وقال تعالى عن صالح : (وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدو الله ما لكم من إله غيره) . الآية : ٦١ من سورة هود .

والقرآن مملوء من بيان تبليغ المرسلين إلى أممهم ، كإبراهيم وموسى وهارون ، مما لا يخفى على قاريء القرآن .

والإقناع ، ليزيلوا الضلالة ، ويرفعوا الشكوك ، ويقرعوا العناد .

والدليل عقلاً لوجوب هذه الصفة : أنه لابد من معارضة المعاندين ، والمقابلة بالتكذيب ، إما عناداً وكبراً ، أو حسداً وتقليداً .

فلابد إذا أن يكونوا متصفين بهذه الصفة ، ليقيموا الحجج الباهرة والبراهين القاطعة على من ناوأهم من خصومهم بالمعارضة ، أو وقفوا موقف المتحدي ، فيكسروا بذلك سورة عنادهم ، ويلجئوهم إلى التصديق بهم .

وإلا لما آمن بهم أحد ، لعدم قدرتهم على إقامة الحجة على خصومهم بإثبات دعواهم ، فتبطل الحكمة من إرسالهم .

والدليل سمعاً قوله تعالى : (**وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم**)[1] .

والإشارة عائدة إلى ما احتج به إبراهيم على قومه من قوله تعالى (**فلما جن عليه الليل رأى كوكباً** ...) **إلى قوله تعالى** : (**وهم مهتدون**)[2] .

وما ثبت لرسول من الصفات ثبت لغيره .

٤ - الأمانة :

أي اتصافهم بحفظ ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بمنهي عنه ، وهي صفة تتسع لكثير من الفضائل ، ككتمان السر ، والمحافظة على حقوق الناس ، وإتقان العمل ، وصدق الرواية ، وأداء الواجب ، وغير ذلك مما هو لازم لمقام الرسالة .

---

(١) الأنعام : ٨٣ .

(٢) الأنعام : ٨٢ .

والدليـل على وجوبها : أنهم مرسلون ، يرشدون الأنام إلى الأعمال الحسنة ، والأفعال المستحسنة ، وتهذيب نفوسهم ، وترك ما اعتـادوا عليـه من الأفعـال المنكرة ، والاعتقادات الفاسدة ، والأوهام الباطلة .

فلابد إذاً أن يكونوا في أعلى درجات الكمال ، وأسمى مدارج الجمـال ، منـزهين عما لا يليق بمنصب رسالتهم من الوقوع في المعاصي ، والاتصاف بسفاسف الأمور ، ووجود كل منفر للخلق عن الإقبال إليهم .

وإن لم يكـونـوا كذلك ! ونحن مأمورون بالاقتداء بهم في أقوالهم وأفعالهم ، لكانوا مضلين لا مرشدين ، فتبطل الحكمة من إرسالهم !

والدليل سمعاً قوله تعالى : (**وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ، ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفـر لهم الرسـول لوجدوا الله تواباً رحيماً ، فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم**)(١) .

فقد أرشدت الآيتان إلى ثلاثة أشياء :

١ – وجـوب طاعة الرسل في كل ما جاءوا به عن الله ، ولا يكونون كذلك إلا حيث كانوا معصومين من الوقوع في كل منكر أو فعل قبيح ، لأنه تعالى لا يأمر بمحرم ولا مكروه .

٢ – إرشاد العصاة المذنبين أن يأتوا الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنـده ، ويسألوه أن يستغفر لهم ، فإن فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم .

---

(١) النساء : ٦٤ ، ٦٥ .

٣ - عصمة الرسول من الظلم والجور فيما يحكم به ، والوعيد لمن لم يقف عند حكمه ، وعدم الإيمان لمن لم يرض بقضائه .

وأصرح من هذا قوله تعالى : (**قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم ، وإن تطيعوه تهتدوا ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين**)[١] .

وغير خاف أن ترتيب الهداية على طاعته ، لا يكون إلا حيث كان هذا الرسول جامعاً لكل خير ، منزهاً عن كل نقص ، وأسوة في أقواله ، وقدوة في أفعاله ، وإلا كانت طاعته ضلالة ، لا سعادة ولا هداية !

تصفح القرآن الكريم في تنزيه الرسل الكرام عن النقائص ، وما وصفهم به من الصفات الكاملة ،والأخلاق الفاضلة ، مثل قوله جل شأنه في سيدنا محمد ﷺ : (**وما هو على الغيب بضنين**)[٢] (**وإنك لعلى خلق عظيم**)[٣] .

وقوله تعالى في إبراهيم : (**إن إبراهيم لحليم أواه منيب**)[٤]
وقوله تعالى : (واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا)[٥]

وقوله تعالى في إسماعيل : (**إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً**)[٦] .

---

(١) النور : ٥٤ .
(٢) التكوير : ٢٤ .
(٣) القلم : ٤ .
(٤) هود : ٧٥ .
(٥) مريم : ٤١ .
(٦) مريم : ٥٤ .

وقوله تعالى في إدريس : (**إنه كان صديقاً نبياً**) [1] .

وقوله تعالى في أيوب : (**نعم العبد إنه أواب**)[2] .

وقوله تعالى في إبراهيم وإسحاق ويعقوب : (**واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار ، إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ، وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار**)[3] .

إلى غير ذلك مما يفوق الحصر .

---

(١) مريم : ٥٦ .
(٢) ص : ٤٤ .
(٣) ص : ٤٥ .

عصمة الأنبياء والرسل

وفيها نزاع طويل !

والخلاصة : أن المسلمين مجمعون على عصمتهم في باب التبليغ عن الله ، بحيث لا يجوز أن يستقر فيه شيء من الخطأ .

وأجمعوا أنهم معصومون عن الكفر قبل الوحي وبعده .

والحق الذي ندين الله به ، أنهم معصومون أيضاً من الكبائر ، قبل البعثة وبعدها .

وأما الصغائر فقد يلمون بها ، إما بطريق التأويل ، أو النسيان أو الخطأ[1] ، ولكن لا يقرون عليها ، بل ينبهون عليها فينتهوا ، أو يلهمون بالاستغفار فيزاد في درجاتهم .

ودليل وقوع الصغائر ما حكي من بعض الأنبياء والمرسلين ، كآدم ، ويونس ، وداود .

وذهبت طائفة إلى منع الوقوع مطلقاً من الصغائر والكبائر ! منهم : القاضي عياض ، والسبكي ، وكثير من المتكلمين ، والشيعة الإمامية .

وأجابوا عما استند إليه الأولون بأجوبة منها :

١ - إنها لم تكن معصية حقيقية ، وإنما هي بالنسبة لعلو منصبهم عدت سيئة .

---

(١) قال السعد : وأما الصغائر فيجوز عمداً عند الجمهور خلافاً للجبائي وأتباعه ، ويجوز سهواً بالاتفاق ، إلا ما يدل على الخسة كسرقة لقمة ، والتطفيف بحبة . اهـ .

والحق مع الجبائي في منعه وقوع الصغائر منهم عمداً ، لأن منصبهم لا يناسب وقوع الذنب عمداً ، إلا أن يكون سهواً أو بتأويل ، قال الله تعالى : (**الله أعلم حيث يجعل رسالته**) .

٢ - وفي بعضهم بأنها كانت قبل الرسالة ، إلى غير ذلك .

وما استند إليه المانعون من أن تجويز ذلك ، مما يخل بمقام الرسالة ، وأنه غض لمنصبهم ، ومس لشرفهم ، وتنفير عن الاقتداء بهم ، وعدم الوثوق بأقوالهم وأفعالهم ، وقد أمرنا بالتأسي بهم .

فإن ذلك مردود بأنهم لا يقرون على الخطأ كسائر الناس ، بل يلهمون بالإنابة فوراً ، ويزاد في رتبهم ، وعند ذلك أي محذور يبقى ؟ وقد قال تعالى : (**إن الله يحب التوابين**)[1] !

فكأن المانعين لم يفقهوا لهذا ، وهو أن الله يحبهم على ذلك ، وقد حكموا بسد هذا الباب .

وما فقهوا ما قال الله تعالى : (**فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات**)[2] .

وقل لي بربك : من كانت عنده حسنات فقط ، ومن كانت عنده حسنات ، وبدلت سيئاته حسنات ، أي الشخصين أعلى مقاماً وأرفع درجة ، وأسمى رتبة ؟؟

وقولهم : « وقد أمرنا بالتأسي بهم » هو أن يكون حجة عليهم أقرب من عكسه ، لأنهم بتوبتهم واستغفارهم ، يجب علينا التأسي بهم إذا وقعنا في الذنوب ، وهذا تشريع للأمة كي يقتدوا بهم .

كما أن فيه من الحكم : تخفيف غلواء الذين يؤلهون الأنبياء والمرسلين ، فقد ابتلاهم بما يوجب عليهم الرجوع معترفين وسائلين العفو والغفران .

فكيف يصح لمخلوق أن يؤلههم ويعبدهم ؟! فإن الإله لا يطلب الاستغفار والتوبة ، ولا يبتلى بالمصائب !! فعلى عقولهم العفاء والدمار .

---

(١) البقرة : ٢٢٢ .

(٢) الفرقان : ٧٠ .

فصـــــل

في

خصوص عصمة نبينا محمد ﷺ

لا يخفى أني ذكـرت عصمة الأنبياء عليهم السلام جميعاً بالإجمال ، وحيث أن نبينا محمداً ﷺ هو أفضل الرسل وخاتم الأنبياء ، فقد حيكت حوله شبهات اقتنصها المغرضون من بعض الآيات القرآنية ، وقد قيض الله في هذه العصور الأخيرة شياطين من الإنس ، يلبسون لباس العلم ، ويحللون شبهاتهم بتحليل يقبله الجاهل الذي لا رصيد عنده من العلم في التوحيد ومقام الرسل ، ولاسيما رسولنا العظيم ﷺ ، وقد ينخدع بشبهاتهم الزائفة التي ليس لها أساس من الصحة .

فمن أجل هذا عقدت فصلا خاصاً في عصمة الرسول الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، ودفع الشبهات التي يوردها هؤلاء الجهلة ، فإليك البيان :

الكلام عن عصمة نبينا محمد ﷺ

الشبهة الأولى والجواب عنها

يظن بعض النـاس أن ظاهـر بعض الآيات القرآنية ، يخل بمقـام عصمـة سيـدنا ونبينا محمد ﷺ ، كقوله تعالى : (**وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم**)(١) .

قال المولعون بالغرائب والعجائب ، والذين لم يكلفوا أنفسهم بالبحث والتحقيق فيما ينقلونه في كتبهم ، كبعض المفسرين وبعض الذين كتبوا في الأحاديث :

إن الرسول ﷺ جلس يوماً في نادٍ من نوادي قريش ، وتمنى في نفسه أن لا ينزل عليه من الله ماينفر قريشاً عنه لكمال حرصه على إسـلامهم ، فقرأ : (**والنجم إذا هوى**) حتى وصل إلى قول الله تعالى : (**أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى**) ، فألقى الشيطان على لسانه ما كان يحدث نفسه : (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى) .

فلمـا سمعت قريش ذلك فرحوا ، ومضى رسول الله ﷺ في قراءتـه ، فقرأ السورة كلها وسجد في آخرها ، فسجد المسلمون وجميع من في المسجد من المشركين ، فتفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا ، وقالوا : قد ذكر محمد ﷺ آلهتنا بأحسن الذكر ، فلما

---

(١) الحج : ٥٢ .

أمسى رسول الله ﷺ أتاه جبريل ﷺ ، وقال له : ماذا صنعت ؟ تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله ، فحزن رسول الله ﷺ حزناً شديداً ، فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة : (**وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم**) .

ومن المعلوم أن نسبة هذا الكلام إلى الرسول ﷺ ، فيها أن الشيطان تسلط عليه في قراءته ، حينما ألقى على لسانه تلك الكلمات ، واستيلاء الشيطان ينافي عصمة الأنبياء ، ويرفع الوثوق بتبليغه للعباد .

والجواب عن هذه الشبهة التي هي إلقاء الشيطان على لسانه ﷺ : (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى) ، أنها مدح لآلهة المشركين ولا يليق بالرسول ﷺ مثل هذا ؟

أن نقول : الشيطان لا يستطيع أن يتسلط على الأتقياء الصالحين المخلصين في أعمالهم لرب العالمين ، بنص قول الله تعالى إخباراً عن الشيطان : (**قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين**)[1] ، وقول الله تعالى : (**إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين**)[2] ، فكيف بالرسول محمد ﷺ الكريم العظيم ؟

إن الرسول ﷺ أجل وأعظم من أن يغويه الشيطان أو يتسلط عليه ، لأن عصمة الأنبياء ثابتة عقلا ونقلا ، ومجمع عليها عما يخل بمقامهم العظيم ومنصبهم الشريف .

وإنما هذه القصة التي رويت ، ففيها للعلماء قولان :

---

(١) ص : ٨٣ .

(٢) الحجر : ٤٢ .

أحدهما : أن ليس لها أصل بتاتاً ، وما روي من الأحاديث كلهــا من قبيل الموضوع والضعيف ، لا يثبت لها سند متصل ، فلذا لم يخرجها أحد من أهل الصحاح ، ولا رواه ثقة بسند متصل .

فإن قيل : كيف يستقيم جوابك هذا ، وقد قال الله تعالى : **(وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم)** ؟

فالجـواب وهـو القـول الثـاني : إن النبي عليه الصلاة والسلام لم يتلفظ تلك الكلمات عمداً ولا سهواً ولا خطأ ولا نسياناً ، وإنما ترصد الشيطان عندما كان يقرأ ﷺ : **(والنجم إذا هوى)** في بعض سكتاته ، فألقى تلك الكلمات محاكياً نغمة الرسو ل ﷺ بحيث ظن من دنا منه أنها من قوله ﷺ وأشاعها .

ويؤيده ما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ من تفسير (تمنى) في الآية بـ (بتلا) و (قرأ) .

والشاهد على ذلك من كلام العرب في شأن سيدنا عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ :

تمنى كتاب الله أول ليلة　　　تمني داود الزبور على رسل

واستحسن هذا القول أكثر المحققين ، كابن العربي ، وشيخ الإســلام ابن تيمية ، والفخر الرازي ، وجمال الدين القاسمي ، والإمام محمد عبده ، وابن حزم الظاهري ، وغيرهم .

ويـؤيد ذلك أن في سياق الآيات ما يبين أن ليس لما قالوه أصـل ، لأن الله تعـالى يقـول بعـد ذلك : **(إن هي إلا أسماء سميتمـوهـا أنتم وآبـاؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن**

يتبعون إلا الظن وما تهوي الأنفس وقد جاءهم من ربهم الهدى)[1] .

فهذه الآية الكريمة فيها زراية على المشركين ،وعيب آلهتهم ، وإنهم على ضلال ، يعتمدون على الظنون وما هوت نفوسهم ، فكيف تتفق معاني هذه الآيات مع قولهم : إنه ﷺ قال : (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى) ، فهذا مدح وذاك ذم ، وهذا تناقض ، والقرآن منزه من ذلك ، وهذا هو الجواب عما يقال : كيف لا يكون للقصة أصل وهذه الآية تقول : (**ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة**)[2] ؟ وقد ذكرت سابقاً أن الإلقاء كان من الشيطان لا من الرسول ﷺ ، والآية الكريمة تنسب الإلقاء للشيطان .

وقد أطنب المحققون في تفنيد هذه الشبهة ، والفخر الرازي ، وجمال الدين القاسمي ، والشيخ ناصر الدين الألباني[3] .

الشبهة الثانية والجواب عنها

قول الله تعالى : (**عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى**)[4] ، فعاتبه على إعراضه عن ابن أم مكتوم .

والجــواب :

مع التسليم أن الخطاب مع النبي ﷺ ، لكن لا نسلم كونه ذنباً .

بيانه : إن الله تعالى وصف نبيه ﷺ بحسن الخلق ، فقال

---

(١) النجم : ٢٣ . (٢) الحج : ٥٣ .

(٣) فقد ألف الألباني رسالة مستقلة في ذلك سماها نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق ، أورد للقصة عشرة طرق ، وبين أنها ضعيفة ، وبعضها مرسل ، والمرسل لا تقوم به حجة ، وحقق الموضوع بطريقة أهل الحديث ، وبطريق المعقول ، وهي رسالة نفيسة حرية بالمراجعة في هذا الموضوع .

(٤) عبس : ٢ .

تعالى : (**وإنك لعلى خلق عظيم**)[١] ، وقال تعالى : (**ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك**)[٢] ، وقال تعالى : (**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**)[٣] ، فلما ظهر منه في بعض الأوقات النادرة خلافه ، عاتبه عليه ، وعرفه أن ذلك غير لائق ، فيكون ذلك من باب ترك الأولى .

ثم السبب في ذلك كما جاء في الخبر : أن النبي ﷺ كان يتكلم مع بعض أشراف قريش ويستميلهم إلى الإسلام ، رجاء أن يعز بهم الإسلام ، وقد كان من الحرص على إسلامهم بحيث قال الله تعالى : (**فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا**)[٤] ، فحضره هذا الأعمى ، ولم يعرف كيفية الحال ، فسأل مسألة في خلال مكالمة النبي ﷺ ذلك الرجل ، فاشتد عليه ذلك ، إذ كان ذلك قطعاً للكلام ، وإفساداً لما كان يحاوله من إسلام ذلك الرجل ، فأعرض عنه ، فنهاه الله تعالى عن ذلك ، وأمره بالإقبال على كل من أتاه من شريف ووضيع وغني وفقير ، بأن لا يخص بدعوته شريفاً دون دني ، إذ الواجب عليه هو التبليغ إلى الكل ، وليس عليه من امتناع من امتنع عن قبول دعوته تبعة ولا عهدة[٥] .

الشبهة الثالثة والجواب عنها

ومما يوهم ظاهره ما يخل بعصمة النبي ﷺ قوله تعالى (**ووجدك ضالا فهدى**)[٦] .

---

(١) القلم : ٤ .
(٢) آل عمران : ١٥٩ .
(٣) الأنبياء : ١٠٧ .
(٤) الكهف : ٦ .
(٥) عصمة الأنبياء فخر الدين الرازي ابن الخطيب .
(٦) الضحى : ٧ .

ذكر المفسرون أقوالا عديدة ، والصواب منها - إن شاء الله تعالى - قولان :

الأول : ووجدك ضالا عما أنت عليه اليوم ، فهداك إلى توحيده وثبوته .

الثاني : وجدك ضالا عن معالم النبوة وأحكام الشريعة ، فهداك إليها .

ويؤيد هذين القولين قول الله تعالى في سورة هود : (**تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت وقومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين**)[1] .

وقال تعالى في سورة يوسف : (**نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين**)[2] .

الشبهة الرابعة والجواب عنها

قال الله تعالى : (**ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم**)[3] .

ففي هذا الآية الكريمة ما يظن بعض الجاهلين أن النبي ﷺ قد ارتكب ذنباً ، لأنه خالف إرادة الله في أسرى المشركين ، ولهذا أنزل الله هذا العتاب الشديد في قول الله تعالى : (**ما كان لنبي أن يكون له أسرى ...**) الآية .

---

(١) هود : ٤٩ .

(٢) يوسف : ٣ .

(٣) الأنفال : ٦٨ .

والجــــواب :

ليس الأمر كما يظن الجاهلون والمغرضون ، غاية ما في الأمر أن النبي ﷺ استشـار أصحـابـه في أسـارى بدر ، كما روى الترمذي ، والحاكم ، والبيهقي ، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال : لما كان يوم بدر جييء بالأسارى ، قال أبو بكر - رضي الله عنه - : يا رسول الله : قومك وأهلك فاستبقهم ، لعل الله أن يتوب عليهم .

وفي رواية أحمد ، ومسلم ، من حديث ابن عباس ، قال أبو بكر : يا رسول الله ، هم بنو العم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم الفـديـة ، فتكـون قوة لنـا على الكفـار ، وعسى الله أن يهديهم للإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : ما ترى يا ابن الخطاب ؟ فقال : لا والله يا رسول الله ، لا أرى الذى رآه أبو بكر ، ولكنني أرى أن تمكننا ، فنضرب أعناقهم ، فتمكن عليا من عقيل ، فيضرب عنقه ، فتمكنني من فلان - قريب عمر - فأضرب عنقه ، فتمكن فلانا من فلان قرابته ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها .

فاختار النبي ﷺ رأى أبي بكر - رضي الله عنه - فقبل الفداء من الأسرى ، وكـان اجتهـاداً منه عليه الصلاة والسلام خلاف الأفضل والأحسن ، لأن مصلحة الإسلام كانت تقتضي إذ ذاك أن لا يقبل منهم فداء ، بل يريق منهم الدماء لتضعف شوكة الكفر ، وتهن عزيمة المشركين ، ويكون العز والنصر لعباد الله المؤمنين ، لاسيما وأن هذه المعركة هي أول حرب تقع بين المؤمنين والمشركين .

الشبهة الخامسة والجواب عنها

قال الله تعالى : (**عفا الله عنك لم أذنت لهم ، حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين**)[1] .

---

(١) التوبة : ٤٣ .

ظن بعض الجاهلين أن قول الله تعالى : (**عفا الله عنك**) ، كنـاية عن خطأ صدر منه أو ذنب ، لأن العفو لابد أن يسبقه تقصـير أو ذنب ، وكأن معنى الآية : أخطأت في تصرفك ، لأنك أذنت للمنافقين بعدم الخروج إلى الجهاد .

والجواب : إن هذا الظن الباعث لإثارة هذه الشبهة حول الرسول ﷺ ، ينبيء عن جهل صاحبه وإساءة أدبه لمقام الرسول العظيم ﷺ ، لأن الآية ليس فيها ما يدل على وقوع الذنب منه عليه الصلاة والسلام ، بل فيها رفعة مقامه ، وعلو منصبه ، وإجلال الله له ، حيث بدأ الله تعالى بكلمة العفو الدالة على كمال اللطف ، قبل أن يعـاتبـه الله تعالى بقوله : (**لم أذنت لهم**) ، فالآية لاتشير للعتاب ، فضلا عن وقوع الذنب .

وقد أساء الأدبَ الزمخشريُ في تفسيره عن عفو الله تعالى عن رسوله ﷺ ، لأنه قال : تحت قوله تعالى : (**عفا الله عنك**) كناية عن الجناية ، لأن العفو رادف لها ، ومعناه أخطأت ، وبئس ما فعلت . أ . ـ هـ .

وكان يجب أن يتعلم الناس من هذه الآية أعلى الأدب معه ﷺ إذ أخبره ربه ومؤدبه عز وجل بالعفو قبل الذنب ، وهو منتهى التكريم واللطف .

وقد كان الإذن للمنافقين اجتهاداً منه ﷺ فيما لانص فيه من الوحي ، وهـو جائـز وواقع من الأنبياء عليهم السلام ، وليسوا معصومين عن وقوع الخطأ في الاجتهاد ، ولكن لا يقرهم الله على ذلك ، بل يبين لهم الصواب .

وإنمـا العصمـة المتفق عليهـا خاصة بتبليغ الوحي ببيانه والعمل به .

الشبهة السادسة والجواب عنها

قال الله تعالى : (**إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر**)[1] .

وجـه الشبهـة : إن الغفـران لا يكون إلا من الذنب ، وأنتم تقولون : إن الأنبياء معصومون من الذنوب ، فما هو الجواب ؟

والجـــواب :

أولا : إن الفتح في الآية هو صلح الحديبية ، فإنه حصل بسببه خير جزيل ، وأمن الناس ، واجتمع بعضهم ببعض ، وتكلم المؤمن مع الكـافـر ، وانتشر العلم النافع والإيمان ، ودخل بسببه بشر كثير في الإسلام ، فلهذا سماه الله فتحا .

ثانياً : إن الذنب المذكور في الآية ، المراد منه ترك الأفضل والأولى .

قال أبو السعود في تفسيره :

قوله تعالى : (**ما تقدم من ذنبك وما تأخر**) ، في جميع ما فرط منك من ترك الأولى ، وتسميته ذنباً بالنسبة إلى منصبه الجليل ﷺ .

جاء في التفسير الواضح :

والمراد بما تقدم من الذنب وما تأخر هو ما فرط من النبي ﷺ - وهو المعصوم عن معصية ربه - من خلاف الأولى بالنسبة لمقامه ، فهو من قبيل « حسنات الأبرار سيئات المقربين » .

وقيل : المراد ما هو ذنب في نظره العالي ، وإن لم يكن في الواقع كذلك ، ولعل الإضافة في قوله تعالى : (**ذنبك**) تشير إلى هذا المعنى . أ . هـ .

---

(١) الفتح : ١ ، ٢ .

الشبهة السابعة والجواب عنها

قال الله تعالى : (**وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه ، أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه**)[1] .

وهنا يحلو لبعض ضعفاء الإيمان من المنتسبين إلى الإسلام ومن المستشرقين ، أن ينسبوا إلى النبي ﷺ ما يتنافى مع مقامه العظيم ، وذلك أنهم زعموا أنه رأى زينب زوج زيد بن حارثة ، فأحبها ، ثم كتم هذا الحب ، لأنه حين رآها ووقع منها في قلبه شيء ، فقال : سبحان مقلب القلوب ، فسمعت زينب ـ رضي الله عنها ـ التسبيحة ، فنقلتها إلى زيد ، فوقع في قلبه أن يطلقها حتى يتزوجها رسول الله ﷺ ، وزعموا أن العتاب في الآية الكريمة كان لكتمان حب الرسول ﷺ لزينب ـ رضي الله عنها ـ ؟

والجـــواب :

إن الله تعالى أعلم نبيه ﷺ أن زينب ـ رضي الله عنها ـ ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فكان يقع بين زيد وزينب ـ رضي الله عنهما ـ ما يقع بين الأزواج ، واستحكمت النفرة بينهما ، فلما أتى زيد ـ رضي الله عنه ـ إلى النبي ﷺ يشكوها إليه ، وقال له : اتق الله ، وأمسك عليك زوجك ، عاتبه الله وقال له : أخبرتك أني مزوجكها ، وتخفي في نفسك ما الله مبديه .

فالذي أخفاه رسول الله ﷺ ليس هو الحب كما زعم المفترون ، وإنما أخفى ما أوحى الله إليه من أمر الزواج لحكمة عظيمة ، وهي إبطال حكم التبني ، وقد خشي الرسول ﷺ من كلام

---

(١) الأحزاب : ٣٧ .

المنافقين أن محمداً ﷺ تزوج بامرأة ابنه من التبني ، حيث كان زيد - رضي الله عنه - يدعى زيد بن محمد .

والحق هو أن هذا الزواج كان امتحاناً في أوله لزينب وأخيها ، حيث أكرها على قبول زيد ، لأن زيداً كان عبدا حسب الظاهر - وإن كان مسروقاً ثم بيع - وزينب قرشية ، وبنت عمة الرسول ﷺ ، فكيف تأخذ مولى من الموالي ؟

وفي النهاية كان امتحاناً قاسياً للنبي ﷺ ، حيث يؤمر به ، ويعلم نهايته ، وزينب تحت مولاه زيد .

والحكمة كما نطق القرآن هي تحطيم مبدأ كان معمولاً به ومشهوراً عند العرب ، وهو تحريم زواج امرأة الاِبن من التبني كتحريمها إذا كان الاِبن من النسب ، لقوله تعالى : (**لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا**) .. الآية [1] .

فالذي كان يكتمه النبي ﷺ في نفسه تأذيه من هذا الزواج ، وتراخيه في إنفاذ أمر الله به ، وخوفه من لغط الناس ، وبخاصة المنافقين عندما يجدون نظام التبني قد انهار بعدما ألفوه ، ولهذا فقد عوتب عليه الصلاة والسلام .

وأقول : إن الآية صريحة في هذا الشأن ، فقد ذكرت الآية الكريمة أن الله سيظهر ما أخفاه الرسول ﷺ : (**وتخفي في نفسك ما الله مبديه .... الآية**) ، فماذا أظهر الله تعالى ؟ هل أظهر حب الرسول ﷺ لزينب - رضي الله عنها - ؟ كلا ، إنما الذي أظهره هو إرادة الرسول ﷺ الزواج بها ، لأن الله قد أوحى إليه بأنها ستكون زوجه ، ولهذا صرح الباري جل وعلا بهذا الشيء وأخفاه

---

(١) الأحزاب : ٣٧ .

الرسول ﷺ ، فقال تعالى : (**فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها**)[1] .

ومما سلف تتجلى لنا الحكمة في زواج النبي ﷺ من أم المؤمنين زينب بنت جحش ، وذلك لهدم نظام التبني ، وتنظيم الجماعة المسلمة على أساس التصور الإسلامي .

وقد شاء الله أن ينتدب لإبطال هذا التقليد من الناحية العملية رسوله ﷺ ، وقد كانت العرب تحرم مطلقة الابن بالتبني حرمة مطلقة الابن من النسب ، وما كانت تطيق أن تحل مطلقات الأدعياء عملا ، إلا أن توجد سابقة تقرر هذه القاعدة الجديدة ، فانتدب الله تعالى رسوله ﷺ ليحمل هذا العبء فيما يحمل من أعباء الرسالة ، لأنه ما كان سواه قادراً على احتمال هذا العبء الجسيم ، ومواجهة المجتمع بمثل هذه الخارقة لمألوفه العميق .

وتجد أن التعقيب على الحادث كان تعقيباً طويلا لربط النفوس بالله ، ولبيان علاقة المسلمين بالله ، وعلاقتهم بنبيهم ووظيفته ﷺ بينهم ، كل ذلك لتيسير الأمر على النفوس ، وتطييب القلوب ، لتقبل أمر الله في هذا التنظيم بالرضى والتسليم .

ولقد سبق الحديث عن الحادث تقرير قاعدة أن الأمر لله ورسوله ، وأنه ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ممايوحي كذلك بصعوبة هذا الأمر الشاق المخالف لمألوف العرب وتقاليدهم العنيفة .

قال تعالى : (**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً**)[2] .

---

(١) ملخصاً من (النبوة والأنبياء) بزيادة في بعض الموضوعات ، والآية من سورة الأحزاب : ٣٧ .

(٢) الأحزاب : ٣٦ .

روي أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش - رضي الله عنها - حينما أراد النبي ﷺ أن يحطم الفوارق الطبقية الموروثة في الجماعة المسلمة ، فيرد الناس سواسية كأسنان المشط ، لافضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، وكان الموالي[1] - وهم الرقيق المحرر - طبقة أدنى من طبقة السادة ، ومن هؤلاء كان زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ الذي تبناه ، فأراد رسول الله ﷺ أن يحقق المساواة الكاملة بتزويجه من شريفة من بني هاشم ، قريبته ﷺ زينب بنت جحش ، ليسقط تلك الفوارق الطبقية بنفسه في أسرته ، وكانت هذه الفوارق من العمق والعنف ، بحيث لا يحطمها إلا فعل واقعي من رسول الله ﷺ ، تتخذ منه الجماعة المسلمة أسوة ، وتسير البشرية كلها على هداه في هذا الطريق[2] .

وبالفعل قد بطل نظام التبني وحل محله أزواج المتبنين .

وهكذا تبطل مزاعم المفترين أمام الحجج الدامغة والبراهين الساطعة التي تدل على عصمة سيد الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله ﷺ تسليماً كثيراً .

الشبهة الثامنة والجواب عنها

من شبهات المستشرقين وافتراءاتهم حول الرسول الأمين ﷺ أن قالوا ما معناه :

إن الرسول العربي ﷺ لو كان رسولا حقا لما تزوج هذا العدد من النساء ، فالرسول من شأنه عدم الالتفات للدنيا ، وعدم الانسياق وراء الشهوات ، ونحن نرى أن هذا الرسول - كما يدعي

---

(١) قد تطلق هذه الكلمة على غير هذه الطبقة ، فقد تكون قبيلة موالى قبيلة ، أي تنصرها وتتكافل معها في الديات والتعويضات ، على غير معنى الرق والعتق .

(٢) ا - هـ من (ظلال القرآن) جـ ٦ - ٥٨٩ بتصرف وتلخيص .

- تزوج بعدة زوجات ، ومات عن تسع منهن ، فكيف يليق بمن يدعي النبوة أن يتصف بهذه الصفة الشهوانية البهيمية ؟

كما قد زعموا أن دين الإسلام دين يبيح لمعتنقيه الانسياق وراء الشهوات ، والتمتع بالنساء ، حتى أباح للرجل منهم أربع زوجات ، فلهذا كان دين المسيح أفضل وأحسن ، لأنه يقصر الرجل على امرأة واحدة ، فالواحدة يستطيع أن يعدل بها ، بخلاف الأربعة فلا يستطيع العدل بينهن ؟

وهناك فرق كبير بين عيسى ومحمد ، فرق بين من يغالب هواه ، ويجاهد نفسه ، كعيسى بن مريم ، وبين من يسير مع هواه ، ويجري وراء شهواته ، كمحمد بن عبد الله : **(كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً)** [1] .

والجــواب :

حقـا إنهم لحاقـدون وكاذبون ، فما كان محمد ﷺ رجلا شهوانياً ، إنما كان رسولا نبياً إنسانيا ، تزوج كما يتزوج البشر ، ليكون قدوة لهم في سلوك الطريق السوي ، وليس هو إلها ولا ابن إله - كما يعتقد النصارى في عيسى عليه السلام - ،إنما هو بشر مثلهم ، فضله الله عليهم بالوحي والرسالة : **(قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ أنما إلهكم إله واحد)**[2] .

ولم يكن ﷺ بدع من الرسل حتى يخالف سـنتهم ، أو ينقض طريقتهم ، فقد حكى القرآن الكريم عن الرسل الكرام ، يقول الله عز وجل : **(ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية)**[3] .

---

(١) الكهف : ٥ .
(٢) الكهف : ١١٠ .
(٣) الرعد : ٣٨ .

فعلام إذاً يثيرون هذه الزوابع الهوجاء في حق خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام ؟

ولكن كما يقول القائل :

قد تنكـر العين ضوء الشمس من رمد
ويـنـكـر الفم طعم المـاء من سـقم

قال الله تبارك وتعالى : (**فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**)[1] .

وهنا قضيتان ، الأولى : تعدد زوجات الرسول ﷺ،والثانية : تعدد الزوجات في الإسلام بصفة عامة .

القضية الأولى : تعدد زوجات الرسول ﷺ :

ونبدأ الكلام عن تعدد زوجات الرسول ﷺ ، فنقول : لم يخف على أحد ممن قرأ التواريخ والسير أن النبي ﷺ نشأ نشأة كريمة مخالفة لنشأة غيره من فتيان قريش ، نشأ على الصدق والإخلاص والعفاف والجود والكرم وبغض الأصنام والأمانة والشرف والحياء والوقار والحلم والعقل الراجح والسيرة العطرة ، حتى اشتهر بينهم بهذه الصفات وسموه الأمين .

وقد ارتضته قريش عند وضع الحجر الأسود حكماً بينهم ، بعد أن كادت الحرب تنشب بينهم فيمن يضعه ؟ فأمر ﷺ كل قبيلة أن تأخذ بطرف من رداء - جعل فيه الحجر الأسود - ثم أمرهم برفعه ، حتى إذا حاذى مكان الحجر أخذه بيده الشريفة ووضعه في محله المعروف الآن ، وإلى غير ذلك من الصفات التي اتصف بها ﷺ ، والتي لم يخالف فيها اثنان .

ومن صفاته البارزة ﷺ : بعده عن الخنا والشهوات ، مع أنه

(١) الحج : ٤٦ .

نشأ في مجتمع جاهلي يمارس فيه الموبقات ، ومنها عدم المبالاة بالزنا .

ولم [1] ينفرد رسول الله ﷺ بالتعدد ، بل كان شائعاً في جميع الأمم الماضية ، وهاك بيان ذلك : فقد كان تحت سليمان[2] ألف امرأة ، وداود ٦٩ ، وجدعون ٢٣ ، وإبراهيم ١٣ ، ومحمد ١٠ ، ويعقوب ٤ ، وموسى ٢ . أ . هـ .

وليس في عدم زواج عيسى عليه السلام فضيلة ومنقبة لأمور :

الأول : إن يحيى بن زكريا لم يتزوج أيضاً .

الثاني : إن من يتزوج ويقوم بنفقة الزوجة والعائلة ، ويصل بذلك الأرحام والأقارب والأصحاب ، أفضل ممن يقتصر على نفقة نفسه .

الثالث : النكاح من أسمى أهدافه تكثير النسل لتكثر الأمة ، وكثرة الأمة قوة تحسب لها الدول الحساب .

ثم إنه مما ينبغي أن يعلم ـ أنه كما سبق القول ـ أن التعدد كان شائعاً في الأمم ، ومن جملتهم أمة العرب ، حتى إن غيلان الثقفي أسلم وتحته عشر نسوة ، فأمره ﷺ أن يمسك أربعاً ، ويفارق سائرهن .

---

(١) بدء الكلام من (تعدد نساء الأنبياء ومكانة المرأة) ، اللواء أحمد بن عبد الوهاب .

(٢) الثابت في الحديث أن لسليمان مائة زوجة ، وفي رواية أربعين ، وفي الحديث الشريف : لأطوفن هذه الليلة على مائة امرأة ، تأتي كل واحدة بولد ، يكون فارساً يجاهد في سبيل الله ، ذكره المفسرون تحت قول الله تعالى : (**ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب**) .

ولعل من ذكر أن لسليمان ألف امرأة ، قد حسب الإماء ، وعلى أي قول اعتمدنا ، سواء من رواية الألف أوالمائة أو الأربعين ، فإن التعدد حاصل .

ولكن مما ينبغي التنبيه عليه أن التحديد بأربع في القرآن ، لم يحصل إلا في السنة الثامنة من الهجرة ، لأن سورة النساء مدنية ، وهي التي فيها التحديد فقال تعالى : (**فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة**)[1] .

وسورة النساء نزلت بعد سورة الممتحنة ، ومعروف أن صدر سورة الممتحنة نزل عندما عزم رسول الله ﷺ فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة ، وعندما نزلت آية التحديد كان الرسول ﷺ جامعاً بين الزوجات ، إلا أن آخرها زواجاً كانت السيدة ميمونة بنت الحارث التي تزوجها في السنة السابعة من الهجرة .

وهنا نقف ونتأمل ماذا يفعل رسول الله ﷺ في العدد الزائد عن أربعة نسوة ، هل يطلق ما زاد عن الأربعة كما فعل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أم ماذا يكون الأمر ؟

وينبغي أن يوضع في الاعتبار ما يلي :

أولا : إن زوجات النبي ﷺ كن أمهات المؤمنين كما قال الله تعالى : (**النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم**)[2]

ثانياً : إنه حرم على المؤمنين أن يتزوجوا أى واحدة من نساء النبي ﷺ بعده ، قال تعالى : (**وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً**)[3] .

---

(١) النساء : ٣ .
(٢) الأحزاب : ٦ .
(٣) الأحزاب : ٥٣ .

إذاً لو طلق النبي ﷺ واحدة من أزواجه ، فلن تحلل لأحد من المؤمنين ، إذ هي أمه ، وسيكون مصيرها التشريد والضياع .

وهل هذا يليق بأمهات المؤمنين وأزواج سيد الأنبياء وخير المرسلين ؟

إذاً فليس له إلا أن يمسك عليهن لمصلحتهن ومصلحة الدعوة ، كما قال تعالى : **(لا تحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن)**(١) .

ولذا فإن طلق رسول الله ﷺ واحدة منهن أو ماتت ، فليس له بعد التسع نسوة اللائي بقين في عصمته حتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى نسوة ، بخلاف سائر المؤمنين ، فإن المسلم لو طلق واحدة من الأربعة طلاقا بائناً ، أو ماتت إحداهن ، فيجوز له أن يتزوج بدلا منها .

وبعد هذه المقدمة ، أشرع بعون الله العظيم في بيان أسباب تعدد أزواجه ﷺ والحكمة في ذلك :

إن من يتأمل في تعدد زوجات الرسول ﷺ ، يرى أنه لحكم بالغة ، كالحكمة التعليمية والتشريعية والاجتماعية .

ومن المعلوم أن النساء نصف المجتمع ، وأنهن شقائق الرجال ، وأن التشريعات الواردة عن الله تعالى ، وعن رسوله ﷺ - من الأحكام الفقهية والأخلاقية وغيرها - يستوي فيها الرجال والنساء ، باستثناء بعض الأحكام الخاصة بالنساء .

ومن المعلوم أن النساء مستورات مكرمات محفوظات مصونات ، لا يبرزن ولا يختلطن مع الرجال ، وأنهن في حاجة إلى

---

(١) الأحزاب : ٥٣ .

من يعلمهن أحكام دينهن ، وقد يغلبهن الحياء أن يخاطبن الرجال في الاستفسار عن أشياء تخصهن - وإن كان ذلك جائزاً لحاجة التعليم - ولكن القيام بهذه المهمة للنساء أتم وأكل .

ولذا كانت زوجات الرسول ﷺ معلمات لنساء الأمة فيما خفي عليهن من التشريعات الواجبة والمحرمة وغيرها ، بل وحتى كثير من الرجال يسألون أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - عن بعض ما أشكل عليهم ، وهذه من الأمور الثابتة مما لا يحوم حوله أدنى شك وارتياب .

ثم إنه من المعلوم أن السنة المطهرة ليست قاصرة على قول النبي ﷺ فحسب ، بل هى تشمل قوله وفعله وتقريره ، وكل هذا من التشريع الذي يجب على الأمة اتباعه ، فمن ينقل لنا أخباره وأفعاله ﷺ في بيته غير هؤلاء النسوة اللائي أكرمهن الله تعالى ؟ . فكن أمهات المؤمنين ، وزوجات لرسوله الكريم في الدنيا والآخرة .

لاشك أن لزوجاته الطاهرات - رضي الله عنهن - أكبر الفضل في نقل جميع أخباره وأحواله وأطواره وأفعاله المنزلية ﷺ وغير ذلك مما يتعلق بمصلحة الدعوة وتبليغ الإسلام .

وقد توخى ﷺ في بعض أزواجه توثيق الرابطة بين الإسلام وبعض القبائل ، واستطاع عن طريق ذلك أن يصل إلى قلوب زعماء الشرك ، وأن يصـــاهــرهم فيصهــر ما في قلوبهم من حقـد على الإسلام ، كما حدث عندما تزوج جويرية بنت الحارث من بني المصطلق التى كان من آثارها إسلام جميع قبيلتها ، وكزواجه ﷺ من أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان ، وصفية بنت حيي بن أخطب .

وتوخى في بعضها الآخر تكريم أرامل الشهداء الذين ماتوا في الحبشة ، أو استشهدوا من أجل الدعوة في سبيل الله ، وتركوا أرامل لا يقدرون على تحمل أثقال الحياة وأعبائها الجمة ، مثل هند أم سلمة المخزومية ،وزينب بنت خزيمة ، وسودة بنت زمعة .

وكان في بعضها الآخر زواجاً تشريعياً كزواجه ﷺ من زينب بنت جحش ، لهدم قاعدة التبني عند العرب ، والتي كانت تحرم على الرجل أن يتزوج امرأة ابنه المتبنى ، ولذلك كان وقع ذلك الزواج شديداً على نفس النبي ﷺ ، لأنه سوف يطيل الألسنة ، ويفتح أفواه المنافقين بالقيل والقال .

ولمثل هذه الأمور التى كانت تجول في نفس النبي ﷺ نزل القرآن الكريم يعاتبه : (**وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم**)[1] ، وفي الخطاب : زوجناكها بيان أن ذلك التزويج من الله ، وليس للنبي دخل فيه .

ومنها توثيق أواصر الترابط بينه وبين صاحبيه أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - ، وتكريمهما بشرف مصاهرته عليه الصلاة والسلام ، لجهادهما الصادق ، وإخلاصهما العميق في سبيل الدعوة ، وذلك ظاهر في زواجه ﷺ بعائشة بنت الصديق أبي بكر ، وحفصة بنت الفاروق عمر رضي الله عنهم أجمعين[2] .

ولقد أصبح من هؤلاء الزوجات الطاهرات معلمات ومحدثات ، نقلن هدية ﷺ ، واشتهرن بقوة الحفظ والنبوغ والذكاء .

وبعد هذه المقدمة أبدأ في بيان تعدد زوجاته ﷺ ، والحكمة في ذلك تفصيلا ، وأبدأ بالسيدة خديجة - رضي الله عنها - .

---

(١) الأحزاب : ٣٧ .

(٢) سيأتي الكلام بالتفصيل عن أزواجه صلى الله عليه وسلم الطاهرات ، والحكمة من زواجهن لرد الشبهات .

الأولى : السيدة خديجة بنت خويلد
أم المؤمنين رضي الله عنها

كانت قريش تعتني بالتجـارة شتـاء إلى اليمن وصيفـا إلى الشـام ، حتى من الله عليهم بهـاتـين الرحلتـين ، فقال تعالى : **(لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت ... الآيات)** .

وكـانت خديجـة بنت خويلد الأسدية ذات ثروة كبيرة ، ولما سمعت بأوصاف هذا الرسول الكريم ﷺ (قبل النبوة) ، طلبت منه أن يأخذ منها مالاً يتجر به ، وأرسلت معه غلامها ميسرة ، فذهبا إلى الشام ورجعا ، ورأى ميسرة من صفات محمد ﷺ ما لم يره في شباب قريش ، فأعجبه خلقه الكريم وصفاته السنية ، وأخبر خديجة بما رأى ، فأحبته من أجل تلك الصفات العظيمة الباهرة ، وكانت ثيبا بعد زوجين ، وبلغت أربعين سنة ، والنبي ﷺ في عنفوان شبابه وكماله وحسنه وجماله وفتوته .

وقيل : كلمته كفاحا ، وقيل أرسلت إليه امرأة تخطبه لنفسها ، فأجاب أنه سيكلم عمه ، ولما أخبر عمه أبا طالب ، وافق على ذلك ، كمـا وافق عم خديجـة ، وتم الزواج ، وأصدقها عشرين بكرة ، وقيل : اثنتي عشرة ، وعاش معها خمسا وعشرين سنة ، لم يتزوج عليها قط ، ولم تراوده نفسه ، مع العلم أنه لو أراد أي بنت من بنات أشراف قريش وأعلاها ، لما رفضه أحد ، بل الكل كان يتشرف ويتمنى لو صاهره محمد ﷺ ، ومع ذلك لم يلتفت ، ولم يحدث نفسه ، وقضى زهرة شبابه مع خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها

ـ إلى أن توفيت عن عمر يناهز خمسة وستين سنة ، وعمره إذ ذاك خمسون سنة .

فأين الرجل الشهواني كما يقول المفترون ؟ أخزاهم الله ـ إنه ﷺ لو كان ـ برأه الله ـ كما يقول الأفاكون منساقا وراء الشهوات والملذات ، لما اكتفى بواحدة يقضي معها خمسة وعشرين سنة في هذه السن التي هي قوة الشباب وقمة الرجولة ونهاية الفتوة والفحولة ، مع رغبة البنات الأبكاروأوليائهم فيه ، لكنه كما قيل :

لي حيلة فيمن ينم وليس في الكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقول فحيلتي فيه قليلة

فهؤلاء لا يفترون من اختلاق الأكاذيب على الرسول ﷺ وعلى دين الإسلام ، لما يكنون في قلوبهم من الحقد الدفين على نبي الإسلام ﷺ والدين الإسلامي .

وقد [1] حظيت خديجة ـ رضي الله عنها ـ لدى الرسول ﷺ بالحب الكامل ، والمعاشرة الحسنة ، حتى أنه ﷺ بعد موتها ، ولحبه الشديد لها ، كان يكرم صديقاتها ، ومن يعز عليها من الرجال والنساء .

فقد زارت النبي ﷺ عجوز في بيت عائشة ـ رضي الله عنها ـ فأكرم مثواها ، وبسط لها رداءه ، فأجلسها عليه ، فلما انصرفت ، سألته عائشة عنها لتعلم سبب إكرامه لها ، فأخبرها ﷺ أنها كانت تزور خديجة ـ رضي الله عنها ـ .

وفي صحيح مسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ كان إذا ذبح الشاة ، قال : أرسلوها إلى أصدقاء خديجة ، فذكرت له يوماً فقال : إني لأحب حبيبها .

---

(١) بدء لكلام من (زوجات النبي الطاهرات) للشيخ الصواف .

صلى الله عليك وسلم يا سيد الأوفياء والأصفياء ، ما أشد وفاءك ، وأعظم نفسك ، وشريعتك الغراء .

لقد احترمت المرأة بعد احتقار ، وعظمتها بعد استصغار ، وعلمتنا الوفاء معها ، والإخلاص لها حية وميتة ، وأبلغتها المنزلة التي لم تحلم الإنسانية يوماً من الأيام أن ستبلغ فيها المرأة هذا المبلغ العظيم من التقدير والاحترام .

ورضي الله عن خديجة وأرضاها ، فقد كانت جديرة بهذا الوفاء والاحترام ، حرية بأن تنال مثل هذه المنزلة ، وتخلد في جنة النعيم ، ومن أولى بهذا المقام العظيم من الطاهرة أم الطاهر خديجة الكبرى ، أم المؤمنين وعزيزة سيد المرسلين ﷺ رضي الله عنها وأرضاها ، وجعل الجنة مأواها . أ ـ هـ[1] .

---

(١) من (زوجات النبي الطاهرات) للشيخ الصواف .

الثانية : سودة بنت زمعة من بني عامر بن لؤي من قريش رضي الله عنها

بعد أن توفيت السيدة خديجة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ وتركت بناتا أربع وابنين ، والصحابة يرقبون آثار الحزن على نبيهم الكريم ﷺ ، فيشفقون عليه ﷺ من تلك الوحدة ، ويودون لو تزوج ، لعل في الزواج ما يؤنس وحشته بعد أم المؤمنين الراحلة .

وكانت خولة بنت حكيم السلمية هي التي سعت إليه ﷺ ذات مساء متلطفة مترفقة تقول : يا رسول الله ، كأني أراك قد دخلتك وحشة لفقد خديجة ؟ فأجاب ﷺ : كانت أم العيال ، وربة البيت ، فقالت : هل لك في سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس القرشية العامرية ، وأمها الشموس بنت قيس بن زيد بن عدي بن النجار ، وكان قد توفي عنها زوجها السكران بن عمرو من بني عامر ابن لؤي .

آمنت [1] برسالة محمد عليه الصلاة والسلام في وقت مبكر ، فهي من أسبق النساء في الدخول في الإسلام ، فتحملت الاضطهاد من أهلها لكي ترجع عن هذا الدين الجديد وتؤمن بدين أبنائها ، ولكنها أبت وتحملت من أنواع الاضطهاد ، فتزوجها السكران بن عمرو الأنصاري ، وكان من أنصار الرسول عليه الصلاة والسلام ، قوياً في عقيدته وإيمانه ، مخلصاً في حبه لرسول الله ﷺ ، فهاجر مع زوجته إلى الحبشة مرتين .

---

(١) بدء الكلام من (لماذا الهجوم على تعدد الزوجات) للشيخ أحمد بن العزيز الحصين بتصرف وزيادة في بعض المواضع .

ولما عادت من الهجرة توفي زوجها في مكة ، وخافت إذا رجعت إلى أهلها أن يقتلوها أو يعذبوها ، وهم غلاظ الأكباد ، أعداء لله ولرسوله ﷺ ، وسمع رسول الله ﷺ عنها ، وعلم بحالها وشدة استمساكها بإسلامها .

وكانت خولة قد كلمته في خطبتها فأجاب بنعم ، فذهبت إلى سودة فخطبتها ، فوافقت بكل ارتياح وقالت : اذهبي إلى أبي ، فذهبت إلى أبيها ، وقالت : أرسلني محمد بن عبد الله كي أخطب سودة ، فقال : كفء كريم ، اذهبي إلى سودة ، قالت له : سودة موافقة ، فقال لها : ائتيني بمحمد ، فأخبرته ﷺ وجاءه وتم الزواج .

ولو كان كما يقولون : إن تعدد أزواجه لمأرب الشهوة وحب الجنس ، لما تزوجها ﷺ وهي في حالة الكبر ، حتى أنها بلغت من العمر حين تزوجها الرسول عليه الصلاة والسلام الخامسة والخمسين - رضي الله عنها - .

وبهذا الزواج المبارك أسلم من قوم سودة بنت زمعة كثير ، ودخلوا في دين الله أفواجاً ، وهذا كله بسبب زواج الرسول ﷺ بسودة .

تقول - رضي الله عنها - بعد أن تنازلت عن نوبتها في المبيت لعائشة - رضي الله عنها - : ما بي على الأزواج من شيء ، ولا أريد ما تريد النساء ، ولكني أحب أن يبعثني الله يوم القيامة في أزواجك .

توفيت أم المؤمنين سودة بنت زمعة بعدما مكثت عند رسول الله ﷺ خمس سنين في المدينة المنورة سنة ثلاث وعشرين في خلافة عمر - رضي الله عنه[١] .

---

(١) انتهاء الكلام من (لماذا الهجوم على تعدد الزوجات) للشيخ أحمد بن عبد العزيز الحصين بتصرف .

فظهـر من تزوجه ﷺ بسودة ، أنه قصد مكافأتها على ما تحملت من أجـل إسـلامها من الأذى وترك الوطن والهجرة إلى الحبشـة ، وفـارقت قومهـا وأبنـاءهـا حبـا وتضحيـة في الدين الإسلامي ، كما فقدت زوجها وهو العائل الوحيد لها .

فلو لم يكن قصده ﷺ مكافأتها ، لكان في وسعه أن يتزوج بكراً غيرها ، ولكن ظهرت الحكمة في ذلك بهذه المكافأة ، ثم كان ذلك خـيراً وبركة على قومها ، فقد أسـلم من أجل ذلك عدد كثير ، قال الله العظيم : (**الله أعلم حيث يجعل رسالته**)[1] .

---

(١) الأنعام : ١٢٤ .

الثالثة : عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها

هي عائشة بنت الصديق ـ رضي الله عنها ـ ، فقد كان أبوها من أوائل الذين أسلموا ، وقد ألقى الله حب أبي بكر في قلب الرسول ﷺ ، فأحبه الرسول ﷺ حبا جما .

بعث الرسول ﷺ عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل ، فجاء وقد ظهر (أى النصر) في هذه الغزوة ، فقال : يا رسول الله ، أى الناس أحب إليك ؟ قال : عائشة ، قال : لست أسألك عن النساء ، قال ﷺ : أبوها أبو بكر[1].

وفي رواية أخرى : سأله عمرو بن العاص ، يا رسول الله : من أحب الناس إليك ؟ قال : عائشة ، ومن الرجال ؟ قال : أبوها .

وكان النبي ﷺ يقول : رحم الله أبا بكر ، زوجني ابنته ، وحملني إلى دار الهجرة ، وأعتق بلالا من ماله[2] .

فقد عقد عليها رسول الله ﷺ في السنة العاشرة من بعثته ، ودخل بها بالمدينة في السنة الثانية من الهجرة وهي بنت تسع سنين ، وكانت بكراً ، ولم يتزوج بكراً غيرها .

كانت ـ رضي الله عنها ـ أفقه النساء على الإطلاق ، وهي أذكى أمهات المؤمنين ، وأحفظهن لحديث رسول ﷺ .

---

(١) أخرجه الترمزى وصححه .

(٢) أخرجه الخمسة .

يقـول الذهبي : أم عبد الله ـ أي عائشة رضي الله عنها ـ حبيبة رسول الله ﷺ ، بنت خليفة رسول الله من أكبر فقهاء الصحابة .

ويقول الزهري المحدث الشهير :

لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أمهات المؤمنين وعلم جميع النساء ، لكان علم عائشة أفضل .

ويقول عطاء بن أبي رباح :

كانت عائشة أفقه الناس ، وأعلم الناس ، وأحسن الناس رأيا في العامة .

ويقول أبو موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ : ما أشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ ، فسألنا عنه عائشة ـ رضي الله عنها ـ إلا وجدنا عندها منه علماً . رواه البخاري .

قال مسروق بن الأجدع التابعي :

رأيت مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ الأكابر يسألونها عن الفرائض .

قال هشام بن عروة عن أبيه :

ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة ، وورد عنها ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : يا عائشة : هذا جبريل يقرأ عليك السلام ، قلت : وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ، قالت : ترى مالا أرى . متفق عليه .

يقول عليه الصلاة والسلام لأم سلمة : يا أم سلمة : لا تؤذيني في عائشة ، والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها(١) .

---

(١) الترغيب والترهيب ٤/١٦٦ .

عن أنس بن خالد يقول النبي ﷺ : « حسبك من نساء المؤمنين ، مريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسية امرأة فرعون ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام »[١] .

وهي التي نزلت براءتها من سبع سموات من التهمة بالإفك من قبل المنافقين ، وكانت زاهدة في الدنيا وزخرفها .

يقول عروة : ما كانت عائشة تستجد ثوبا حتى ترقع ثوبها وتكنسه ، جاءها يوماً من معاوية ثمانون ألفا ، فما أمسى عندها درهم ، قالت لها جاريتها : فهلا اشتريت لنا منه لحماً بدرهم ؟ قالت : لو ذكرتيني لفعلت .

وتوفيت سنة ثمان وخمسين هجرية ـ رضي الله عنها وعن أبيها ـ أ . هـ[٢] .

ولما نزلت آية التخيير بدأ بعائشة ـ رضي الله عنها ـ فقال لها : إني ذاكر لك أمراً ، فلا تعجلي حتى تستأمري أبويك ، قالت : وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه ، فقرأ عليها : (**يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها** ...)[٣] الآية ، فقالت : أو في هذا أستأمر أبوي ؟!! فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة .

ولقد كانت مصاهرة رسول الله ﷺ للصديق أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ أعظم منة ومكافأة له في هذه الحياة الدنيا ، كما كان خير وسيلة لنشر سنته المطهرة ، وفضائل الزوجية ، وأحكام شريعته ، ولاسيما ما يتعلق منها بالنساء أ . هـ[٤] .

---

(١) انظر (أسد الغابة) لابن الأثير .

(٢) من (أسد الغابة) .

(٣) الأحزاب : ٢٨ .

(٤) من (شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم) لمحمد علي الصابوني .

الرابعة : السيدة حفصة بنت عمر رضي الله عنها

لم يخف مقام عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في نصر رسول الله ﷺ ونصر الإسلام ، وكان ﷺ يدعو عند اشتداد أذى المشركين : اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين ، عمرو بن هشام المعروف بأبي جهل ، أو عمر بن الخطاب ، فهدى الله تعالى عمر ابن الخطاب وأسلم لما أراد الله له الخير والسعادة .

وكان المسلمون مستخفين في دار الأرقم بن أبي الأرقم ، وكان قد أسلم قبله حمزة بن عبد المطلب ، فأشار عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بالخروج من دار الأرقم جهاراً ، فمشى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ مع الصحابة الخارجين في رأس الصف ، وحمزة في الرأس الثاني ، ودخلوا المسجد وصلوا جهاراً ، وأصابت قريش كآبة لإسلام عمر ، لذلك سماه ﷺ الفاروق ، لأن الله فرق به بين الحق والباطل .

وقد قال رسول الله ﷺ في حقه : قد كان قبلكم في الأمم محدثون ـ أي ملهمون ـ فإن يكن في أمتي أحد فعمر بن الخطاب .

وكانت حفصة بنت عمر ـ رضي الله عنهما ـ زوجا لخنيس بن حذافة بن قيس بن عدي السالمي القرشي ، وكان من مهاجري الحبشة ، وقد شهد أحداً ، ثم مات بعدها في دار الهجرة شهيداً ، فترك من ورائه أرملته حفصة بنت عمر ـ رضي الله عنهما ـ وكانت

قد بلغت إذ ذاك الثامنة عشر من عمرها ، وكان عمر - رضي الله عنه - يتألم لتأيم ابنته وهى شابة ، فكلم أبا بكر بأن يزوجه بها ،فسكت أبو بكر عنها ولم يجب بشيء ، ثم ذهب إلى عثمان بن عفان - رضي الله عنه - عارضا حفصة عليه للزواج بعد أن ماتت زوجه رقية بنت رسول الله ﷺ ، وكان جواب عثمان - رضي الله عنه - أن استمهله أياماً جاءه بعدها وقال : ما أريد أن أتزوج اليوم ، فانطلق عمر - رضي الله عنه - إلى رسول الله ﷺ يشكو صاحبيه وأخبره بموقفيهما ، فابتسم رسول الله ﷺ قائلا : يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمان من هو خير من حفصة (يعني بنته ﷺ) ، وتم زواج رسول الله ﷺ - بحفصة رضي الله عنها - .

فزواجه ﷺ بحفصة - رضي الله عنها - مكافأة لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لمكانته الرفيعة عند رسول الله ﷺ ، الذي نصر رسول الله ﷺ والإسلام بنفسه وبماله .

ومواقفه - رضي الله عنه - غير خافية على أحد ممن قرأ سيرة الرسول ﷺ وأصحابه - رضي الله عنهم - .

كما أن حفصة - رضي الله عنها - ترملت بعد زواجها وهي في مقتبل العمر ، ولاشك أن دخلها الحزن العميق والألم الشديد على فراق زوجها ، فأراد رسول الله ﷺ أن يواسيها ويخفف من ألمها وحزنها ، فليس في هذا الزواج ما يشم منه رائحة حب النساء والشهوات كمايقول المغرضون . أ . هـ[1] .

وبعد أن تم زواج رسول الله ﷺ بحفصة - رضي الله عنها - ، لقي أبو بكر عمر - رضي الله عنهما - فقال : لعلك وجدت علي حين عرضت علي حفصة ، فلم أرجع إليك شيئاً ؟ قال : نعم ،

---

(١) من (شبهات وأباطيل) .

قال : إنه لم يمنعني أن أرجع إليك إلا أني علمت أن النبي ﷺ ذكرها ، فلم أكن لأفشي سره ، ولو تركها لقبلتها .

هذه هي الشهامة الحقة ، بل هذه هي الرجولة الصادقة ، تظهر في فعل الفاروق عمر - رضي الله عنه وأرضاه - .

فهو يريد أن يصون عرضه ، فلا يرى في نفسه غضاضة أن يعرض ابنته على الكفء الصالح ، لأن الزواج خير وسيلة للمجتمع الفاضل ، فأين نحن اليوم من جهل المسلمين بأحكام الإسلام وجماله الناصع ؟ يتركون بناتهم عوانس حتى يأتي الخاطب ذو المال الكثير والثراء الوفير ؟! . ا هـ [1] .

---

(١) انتهاء الكلام من (شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم) للشيخ محمد علي الصابوني .

الخامسة : السيدة زينب بنت خزيمة رضي الله عنها

بعد تزوجه ﷺ بحفصة بنت عمر بن الخطاب ، تزوج بالسيدة زينب بنت خزيمة - رضي الله عنهن أجمعين - .

وهى المؤمنة البارة ، الصالحة التقية ، المجاهدة في سبيل الله ، الصابرة في البأساء والضراء .

وكان زوجها من أبطال (بدر) الأفذاذ ، الذين حفظ لنا التاريخ عظمة استبسالهم وجهادهم وتضحيتهم في سبيل الله ، حتى جاد بنفسه ، وهو أقصى غاية الجود ، فمات شهيداً سعيداً .

وهو البطل المقدام عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وقد صمد للأعداء ، وكافح كفاح المؤمنين الصابرين ، وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا .

روي أنه بدأت المبارزة في وقعة بدر بين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - والوليد بن عتبة المشرك ، وبين حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ ، وشيبة بن ربيعة عم الوليد ، فقتل بطل الإسلام علي بن أبي طالب مبارزه الوليد المشرك ، وقتل حمزة شهيد الإسلام والمجاهد الأول مبارزه شيبة بن عتبة ، واختلف عبيدة بن الحارث ومبارزه عتبة بن ربيعة أخي شيبة بضربتين كلاهما أثبت صاحبه فرماه ، فكر الإمامان علي وحمزة بأسيافهما على عتبة فقتلاه ، واحتملا عبيدة الجريح إلى النبي ﷺ فوضع خده على ركبة رسول الله ﷺ ، ثم رفع بصره ليودع حبيبه الأكبر محمد

المصطفى ﷺ بنظراته الأخيرة ، ولم يخطر بباله حينذاك - رضي الله عنه - أن يسأل عن أهله وعشيرته ، ولا عن جرحه وألمه ، ولا عن أي شيء آخر في الدنيا وهو يودعها الوداع الأخير ، ولكنه سأل حبيبه بقوله : ألست شهيداً يا رسول الله ؟ فأجابه النبي الأعظم ﷺ ، الذي لا ينطق عن الهوى ، بتلك البشرى السعيدة التي اصطحبها معه إلى جنة الفردوس : أشهد أنك شهيد .

وهذه المرأة زينت بنت خزيمة كانت زوجة لهذا البطل الشهيد ، وكانت حين استشهد زوجها تقوم بواجبها الإسلامي تجاه أخوتها في الله من المجاهدين ، ولم يلهها استشهاد زوجها عن القيام بواجبها ، والاستمرار في عملها ، والمضي في جهادها ، حتى كتب الله النصر للمسلمين في تلك الموقعة الكبرى .

ولما علم المصطفى عليه الصلاة والسلام بحالها واستبسالها وصبرها وثباتها ، وأنه لم يعد هناك من يعولها ويذود عنها ويحميها ، أراد الرسول ﷺ أن يجزيها على إسلامها وجهادها وصبرها ومصابها خيرا ، فخطبها لنفسه ، وأواها إليه ، وجبر خاطرها ، بعد أن انقطع عنها الناصر والمعين ،وكافأ زوجها وهو في قبره .

وكانت قد بلغت الستين من عمرها حينما تزوجها النبي ﷺ .

ولم تعمر-رضي الله عنها-سوى عامين عند النبي الكريم ﷺ ثم توفاها الله إليه راضية مرضية .

فما رأي الخراصين بهذا الزواج الشريف وغايته النبيلة، وهل يجدون فيه شيئاً مما يأفك الأفاكون ؟

أيجدون فيه أثراً للهوى والشهوة ؟ أم هو النبل والعفاف والعظمة والرحمة والفضل والإحسان من رسول الإنسانية الأكبر ،

الذي جاء رحمة للعالمين ونوراً للناس أجمعين ، قال تعالى : **(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)**[1] .

فليتق الله المستشرقـون المغـرضـون ، وليـؤدوا أمانة العلم ولا يخـونـوها في سبيل غايات خبيثة ، استشرقوا ودرسوا العلوم الإسلامية خاصة للدس والكيد والنيل من سيد الإنسانية ﷺ .

ولقـد طاشت سهامهم ، وخابت آمالهم وأحلامهم ، فرسول الرحمة أجلّ من أن يناله شيء مما يقول المرجفون ، إن يقولون إلا كذباً وظناً ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . ا . هـ[2] .

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ .

(٢) من (زوجات النبي الطاهرات وحكمة تعددهن) . للشيخ محمد محمود الصواف .

السادسة : السيدة أم سلمة هند بنت أمية المخزومية رضي الله عنها

تزوج الرسول الكريم ﷺ بأم سلمة وهي أرملة عبد الله بن عبد الأسد ، وكان زوجها من السابقين الأولين إلى الإسلام ، وهاجر إلى الحبشة ، وكانت زوجته معه خرجت فراراً بدينها ، وولدت له سلمة في أثناء ذلك ، واستشهد زوجها في غزوة أحد ، فبقيت هي وأيتامها الأربعة بلا كفيل ولا معيل ، فلم ير عليه الصلاة والسلام عزاء ولا كافلا لها ولأولادها غير أن يتزوج بها ، ولما خطبها لنفسه ، اعتذرت إليه ﷺ وقالت : إني مسنة ، وإني أم أيتام ، وإني شديدة الغيرة .

فأجابها عليه الصلاة والسلام ، وأرسل لها يقول : أما الأيتام فأضمهم إلي ، وأدعو الله أن يذهب عن قلبك الغيرة ، ولم يعبأ بالسن ، فتزوجها عليه الصلاة والسلام بعد موافقتها ، وقام على تربية أيتامها ، ووسعهم قلبه الكبير ، حتى أصبحوا لا يشعرون بفقد الأب ، إذ عوضهم أبا أرحم من أبيهم صلوات الله وسلامه عليه .

وقد اجتمع لأم المؤمنين النسب الشريف ، والبيت الكريم ، والسبق إلى الإسلام ، على أن لها فضيلة أخرى هي جودة الرأي ، ويكفينا دليلا على ذلك استشارة النبي ﷺ لها في أهم ما حزنه وأهمه من أمر المسلمين ، وما أشارت به عليه في صلح الحديبية ، فقد تأثر المسلمون بالغ التأثر من ذلك الصلح مع المشركين ، وذلك على ترك الحرب عشر سنين بالشروط التي قدموها ، ورأوا في ذلك

هضما لحقوقهم ، مع أنهم كانوا في أوج عظمتهم ، وكان من أثر هذا الاستياء أنهم تباطؤوا عن تنفيذ أمر رسول الله ﷺ حين أمرهم بالحلق أو التقصير لأجل العودة إلى المدينة المنورة ، فلم يمتثل أمره أحد ، فدخل رسول الله ﷺ على زوجه أم سلمة ، وقال لها : هلك الناس ، أمرتهم فلم يمتثلوا ، فهونت عليه الأمر ، وأشارت عليه بأن يخرج إليهم ، ويحلق رأسه أمامهم ، وجزمت بأنهم لا يترددون حينذاك عن الاقتداء به ﷺ ، لأنهم يعلمون أنه صار أمراً مبرماً لا مرد له ، وكذلك كان ، فما إن خرج الرسول ﷺ وأمر الحلاق بحلق رأسه ، حتى تسابقوا إلى الاقتداء به ﷺ ، فحلقوا وتحللوا ، وكان ذلك بإشارة أم المؤمنين أم سلمة - رضي الله عنها وأرضاها[1] .

---

(١) (من شبهات وأباطيل للصابوني) .

السابعة : أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان بن حرب

زعيم قريش والعدو اللدود للنبي ﷺ وللمسلمين رضي الله عنها

هذه المرأة المؤمنة التي عادت قومها في الجاهلية والإسلام ، وكانت عند عبيد الله بن جحش ، فأسلما وهاجرا إلى الحبشة الهجرة الثانية ، وهناك تنصر زوجها ، وثبتت هي على الإسلام .

فهل تترك امرأة مؤمنة تضيع بين أبيها الذي يعادي النبي ﷺ وبين زوجها الذي ارتد عن الإسلام ؟ .

لذلك ضمها النبي ﷺ إلى كفالته بالزواج ، فرفع قدرها ، وعزز مكانتها ، ووكل نجاشي الحبشة في تزويجها منه ، وقد كان لهذا الزواج أثره البالغ في تقليب قلب أبي سفيان ، حيث رأى ابنته يؤويها رسول الله ﷺ ويحميها من الذل والمهانة ، فقال : نعم الفحل محمد ، ثم تحولت عداوته للإسلام ونبيه فيما بعد إلى مودة ، ودخل هو وقومه في دين الله أفواجاً ، ولم تكن أم حبيبة ذات شباب ولا جمال ولا مال .

فكان المقصود من هذا الزواج تأليف قلوب بعض زعماء المشركين بمصاهرتهم ، مع إكرام المرأة وحمايتها من الفتنة[1] .

---

(١) من (البحوث والدراسات المقدمة للمؤتمر الثالث للسنة النبوية) .

الثامنة : السيدة / جويرية رضي الله عنها

واسمها برة بنت الحارث سيد بني المصطلق[1] ، وكان المسلمون قد أسروا منهم مائتي بيت من النساء والذراري ، وكان من بين السبي جويرية أم المؤمنين - رضي الله عنها - ، فأعتقها النبي ﷺ ، وتزوج بها في أواسط السنة السادسة من الهجرة إكراماًلها أن تذل ذل السبايا .

وقال الصحابة : أصهار رسول الله ﷺ لا ينبغي أسرهم ، وأعتقوهم، فأسلموا جميعاً ، وحسن إسلامهم ، وصاروا عوناً للإسلام والمسلمين بعد أن كانوا حرباً عليهم ، وكان لذلك أحسن الأثر في سائر العرب .

ثم خيرها أبوها بين العودة إليه والبقاء عند رسول الله ﷺ ، فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة .

وهنا قد تجلت الحكمة العالية من هذا الزواج المبارك الذي أعتق به مائتا بيت من ذل العبودية في الدنيا ومن عذاب النار في الآخرة .

وقد شهدت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - وهي ضرة جويرية بهذه الحقيقة ،فقالت ما معناه : ما كانت امرأة أبرك على قومها من جويرية بنت الحارث ، لقد عتق بها مائتا بيت من بيوت العرب .

والفضل في عتق بني المصطلق وجويرية من ذل الدنيا وعذاب الآخرة ، هو زواجه ﷺ بجويرية - رضي الله عنها - .

فكان المقصود من هذا الزواج هو تحرير الرقاب من رق الدنيا وعذاب الآخرة ا . هـ .

---

(١) كانت رضي الله عنها أرملة مسافع بن صفوان المصطلقي ، وكان زوجها من ألد أعداء الإسلام وأكثرهم خصومة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقتل يوم المريسيع (اسم ماء لقبيلة خزاعة) وتركها فوقعت أسيرة بيد المسلمين ، والنقل من زوجات النبي الطاهرات .

التاسعة : أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها

تزوج النبي ﷺ بصفيـة بنت حيي أرملة كنـانـة بن أبي الحقيق،وكانت قد أسرت بعد قتل زوجها في غزوة خيبر ، ووقعت في سهم بعض المسلمين ، فقال أهل الرأي والمشورة : هذه سيدة بني قريظة لا تصلح إلا لرسول الله ﷺ ، فعرضوا الأمر على الرسول الكريم ﷺ ، فدعاها وخيرها بين أمرين :

أ - إما أن يعتقها عليه الصلاة والسلام فتكون زوجة له .

ب - وإما أن يطلق سراحها فتلحق بأهلها .

فاختارت ـ رضي الله عنها ـ أن يعتقها ، وتكون زوجة له ، وذلك لما رأته من جلالة قدره وعظمته وحسن معاملته ، وقد أسلمت وأسلم بإسلامها عدد من الناس .

روي أن صفية ـ رضي الله عنها ـ لما دخلت على النبي ﷺ قال لها : لم يزل أبوك من أشد اليهود لي عداوة حتى قتله الله ، فقالت : يا رسول الله ، إن الله تعالى يقول في كتابه : **(ولا تزر وازرة وزر أخرى)** .

فقـال لهـا الرسـول الكـريم ﷺ : اختـاري ، فإن اخترت الإسـلام ، أمسكتـك لنفسي ، وإن اختـرت اليهودية ، فعسى أن أعتقـك فتلحقي بقـومـك ، فقـالت : يا رسـول الله ، لقد هويت

الإســلام ، وصــدقت بك قبـل أن تدعوني إلى رحلك ، ومالي في اليهودية أرب ، ومالي فيها والد ولا أخ ، وخيرتني الكفر والإسلام ، فالله ورسوله أحب إلي من العتق وأن أرجــع إلى قومي ، فأمســكها رسول الله ﷺ لنفسه[1] ا . هـ .

فكان المقصود من هذا الزواج أسباب سياسة ، مع جبر خاطر المرأة ، ورفع قدرها عن مذلة السبي .

---

(١) من (زوجات النبي الطاهرات) .

العاشرة : أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية رضي الله عنها

في أواخــر السنــة السابعة للهجرة تزوج النبي الكريم ﷺ بالسيدة ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية ، وكان اسمها برة ، فسماها ﷺ ميمونة ، والذي عرضها عليه ﷺ هو عمه العباس بن عبد المطلب الذي كان متزوجاً بأختها ، وكانت قد جعلت أمرها إليه بعد وفاة زوجها (أبي رهم ابن عبد العزى) ، وجرى هذا الزواج المبارك بمكة المكرمة في إبان عمرة القضاء .

وكــانت أم المـؤمنــين ميمونة ـ رضي الله عنها ـ آخر امرأة تزوجهــا الرسول ﷺ ، وكانت زاهدة عابدة ، وقد قالت فيها أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ : أما إنها كانت من أتقانا لله ، وأوصلنا للرحم .

وفي غزوة تبوك كانت ميمونة في صفوف المجاهدين ، تسعف الجرحى ، وتواسي المرضى ، وتجاهد في سبيل الله حق الجهاد[١] ا . هـ .

قال العلامة السيد محمد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ :

ورد أن عم النبي ﷺ العباس رغبه فيها ، وهي أخت زوجه لبابة الكبرى أم الفضل ، وهو الذي عقد له عليها بإذنها ، ولولا

(١) من (زوجات النبي الطاهرات) .

أن العباس رأى في ذلك مصلحة عظيمة ، لما عني به كل هذه العناية ، وفعلا كانت المصلحة في هذا النكاح المبارك ، فقد تقرب النبي ﷺ إلى الهلاليين قومها ، فأكبروا فيه ﷺ هذه المروءة والحمية والنجدة ، ثم أقبلوا يدخلون في دين الله أفواجاً ، وآزروا الرسول ﷺ ونصروه ، وساروا معه ﷺ حيثما سار .

فكان المقصود من هذا الزواج تأليفا لقومها ، وإنقاذا لها من الذل والمهانة ، حيث لم تكن ذات جمال ولا مال ، وتزوجها ﷺ بعد أن بلغت من الكبر عتيا[1] ا . هـ .

---

(١) من (بحوث المؤتمر الثالث للسنة النبوية) بتلخيص وتصرف وزيادة .

الحادية عشرة : أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها

لم نذكر في هذا الموضع أم المؤمنين زينب بنت جحش زوج النبى ﷺ وبنت عمته ، حيث قد سبق الكلام عنها بالتفصيل - رضي الله عنها - عند ذكر الشبهة السابعة .

الثانية عشرة : السيدة مارية القبطية رضي الله عنها

جاءت هدية من المقوقس عظيم مصر ، مع رسول رسول الله ﷺ (حاطب بن أبي بلتعة) جاءت ومعها أختها (سيرين) وعبد خصي ، وألف مثقال ذهباً وعشرون ثوباً ليناً من نسج مصر .. بلغ الركب المدينة المنورة وفي نفس الشقيقتين ألم للفراق والغربة ، فأخذ النبي مارية من الهدية ، ووهب أختها لشاعره (حسان بن ثابت) .

كان لهذا الزواج صلة رحم مع مصر[1] : « الله الله في أهل الذمة .. ويقول ﷺ : استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحما » .

طلب الحسن بن علي من معاوية في مفاوضات الصلح بينهما : أن يرفع الخراج عن أهل قرية (حفن) ـ مسقط رأس مارية ـ ففيها خؤولة إبراهيم : (ابن رسول الله) .

لما جاء عبادة بن الصامت رضي الله عنه إلى مصر بعد فتحها بحث عن قرية (حفن) وسأل عن موضع بيت « مارية » فبنى به مسجداً .

---

(١) راجع (نساء النبي) ص ١٩٢ إلى ص ٢٠٥ .

تنبيهـــات مهمـة

١ - إن النبى ﷺ تزوج إحدى عشرة سيدة بعد خديجة ، منهن ست من قريش ، وخمس من سائر العرب ، وواحدة قبطية ، فكـان النبي ﷺ يرى أن يجمع نسـاء من قبائل العرب المختلفة ليكون ذلك من باب التأليف لعشائرهن ، لقد صاهر النبي ﷺ أكبر القبـائـل من قريش وأقوى البطون من سائر العرب ، ثم كانت ظروف معينـةأوضحنـاهـا بحينها لزواجه من بعضهن كما في : جويرية وزينب وصفية .

٢ - تـألف القلوب بالمصـاهرة لم يتبعه النبي ﷺ لنفسه فقط ـ مع أن لشخصـه بالذات بين القبـائـل مكـانـة خاصـة عنـد المصاهرة[1] ـ بل اتبعه الصحابة بأمر من رسول الله ﷺ .

ورد في الطبري الجزء الثالث الصفحة ٨٣ : إن الرسول ﷺ حين بعث عبـد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل قال له : إن أطاعـوك فتزوج ابنة ملكهم ، مما يدل على أن ذلك سياسة من الرسول يقيدهم بها ، فلا يفكرون بنقض عهد ، وكيف ينقضـون عهداً وبينهم وبين الفاتح مصاهرة وخؤولة[2] .

٣ - لقد أحال المستشرقون جوانب الإسلام المنيرة ظلاماً ، ولكنه سيبقى مخيما في رؤوسـهم ورؤوس من يشايعهم :

---

(١) لم يتزوج النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن استقر له الأمر ودخلت القبائل في دين الله أفواجاً ، ولم تعد هناك حاجة لتأليف القلوب .

(٢) راجع الهامش ص ١٨٤ من كتاب (تاريخ الإسلام) حـ ١ .

أ - لقد أحالوا صدق النبي ﷺ في سلوكه وفي حياته وفي رسالته وفي عموم دعوته إلى كذب .

ب - وأحالوا رحمة النبي ﷺ ، ورقة قلبه ، وكثرة شفقته إلى قسوة ، بل جعلوها قسوة بالغة .

ت - وأحالوا زهده عليه السلام ـ عبدا نبيا ـ وتواضعه إلى شهوة جامحة إلى الحكم والسلطان .

ث - ولكنهم نسوا في ذلك ـ وغيره ـ رعاية الحق ، وأمانة التاريخ ، ونصفة الحكم ، ونزاهة العلم ، بل نسوا أبسط قواعد الذوق والمجاملة والأدب في التهجم على منازل الأنبياء ، فما من صفة في نبي إلا وهي في محمد بن عبد الله ﷺ ، فأين موضوعية وأمانة البحث ؟ .

٤ - اتهموا رسول الله ﷺ بالميل إلى النساء بشهوة جامحة ، واتخذوا من تعدد زوجاته دليلا حسبوه يكسبهم القضية ، وهو دليل واه في ميزان الحكم السليم والرأي القويم ، وقالوا : إنه أباح لنفسه من التعدد والزيادة على أربع في عصمة يده ما حرمه على المسلمين ، وهذا فيه من المغالطة وإغفال التاريخ ما يسقط معه القول ، فإن الآيات الخاصة بالزواج من أربع ، والتي تؤثر الواحدة خوف عدم العدل ، قد نزلت في أواخر السنة الثامنة من الهجرة ، بعد أن كان النبي عليه السلام قد بنى بنسائه جميعاً ، وقد كان العدد قبل ذلك غير محدد بأربع زوجات ، وإذاً فلا مجال للاتهام بتحليل الزيادة على أربع لنفسه وتحريمها على بقية المسلمين ممن يشرع لهم ، ويضع عنهم أحدهم[1] .

٥ - لم يكن النبي ﷺ في عصره (قبل مئات السنين) الوحيد الذي تزوج نساء كثيرات ، إنه العصر وظروفه .

---

(١) راجع كتاب (الإسلام بين الجحود والإنصاف) ص ١٣٦ إلى ص ١٣٩ .

٦ - وإذا اطلعنا على تراجم رجال ذاك العصر لرأينا هذا الزواج متعارفاً عليه ولم يكن فيه غضاضة ، فلماذا رأى المستشرقون والمغرضون النبي ﷺ وحده ، ولم يروا العصر كله ؟ لماذا لم يطلعوا على الظروف المرافقة وينظروا بعين العصر ذاك وبروح مجردة ليروا أن النبي ﷺ : « جُعِلَتْ قرة عينه بالصلاة » ، لا بالنساء ، النبي ﷺ له ساعة مع ربه لايدانيه فيها ملك أو رسول مرسل ، وليست أسعد ساعاته مع النساء ، ولكنه الهوى الذي أعمى المستشرقين .

٧ - قال « توماس كارليل » في هذا المقام : ما كان محمد أخا شهوات ، برغم ما اتهم به ظلماً وعدواناً ، وشد ما نجور ونخطيء إذا حسبناه رجلا شهوياً ، لا هم له إلا قضاء مآربه من الملاذ ، كلا ! فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أية كانت ..»[(١) ، (٢)] .

ومما سبق ذكره ظهر جليا لكل ذي عقل وإنصاف ، أن تعدد زوجات الرسول ﷺ كان لحكم ومصالح متعددة كما مر البيان .

ثم إن للرسول ﷺ خصوصيات خصه الله بها :

منها : تعدد الزوجات ،ومنها : تحريمهن بعد موته على غيره ، ومنها : حرمة الصدقة عليه وآله ﷺ ، ومنها : وجوب صلاة الوتر .

وقد ألف العلماء في خصوصيات النبي ﷺ كتبا كثيرة ، فمن كان يؤمن بالله ورسوله ، لا يعتريه شك ولا ريب في أن أقواله وأعماله كلها بإذن الله ، إذ لا يعقل أن رسولا من الرسل يخالف ما أمر الله به ، أو يفعل ما نهى الله عنه ، كما مر في بيان العصمة ، وكما سيأتي بيانُ خصوصياته ﷺ تفصيلا في الجزء الثاني .

---

(١) الأبطال ، ص ٨٣ ، نشر دار الكتاب العربي .

(٢) ا ـ هـ من (الإسلام في قفص الاتهام) للأستاذ شوقي أبو خليل ، بتصرف وتلخيص في بعض المواضع .

أما القضية الثانية وهي تعدد الزوجات في الإسلام بصفة عامة ، فإليك البيان :

تعـــدد الزوجـــات

لم يوجبه الإسلام ، وإنما أجازه لما فيه من المصالح العديدة ، ولـكن قيـد الجواز بأن لا يخاف الرجـل من عدم العدل بينهما أو بينهن ، كما قال الله تعالى : (**فإن خفتم ألا تعدلـوا فواحدة**)(١) والعـدل في الإنفـاق والإسكـان والمبيت والـكسوة والقيـام بواجب الزوجية لا في المحبة القلبية ، لأن تلك ليست باختياره .

ولكن من خبث المستشرقـين أنهم يطعنـون في دين الإسلام بتشريعـه تعـدد الزوجـات ، وقلدهم بعض المنتسبين إلى الإسلام الجـاهلين بحقيقتـه ومحاسنه ، وما يرمي إليه التعدد من أهداف نبيلة ، وكـأن هؤلاء الجهلة لم يقرأوا قوله تعالى : (**فانكحـوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم**)(٢) .

وعمل الرسول ﷺ وبعض أصحابه بالتعدد ، فقد روى الإمام أحمد والترمذي وصححه ابن حبان والحاكم : إن غيلان الثقفي قد أسلم وله عشرة نسوة ، فأسلمن معه ، فأمره الرسول ﷺ أن يتخير منهن أربعاً .

ومن الجدير بالذكر أن يفهم أن التعدد ليس مما انفرد به الإسلام ، بل عرف التعدد من قرون غابرة ، وكان له في كثير من الشرائع السماوية وجود واسع وامتداد إلى عدد كثير ، كما يحدثنا التاريخ عن إبراهيم ويعقوب وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء والمرسلين ـ عليهم الصلاة والسلام ـ .

---

(١) ، (٢) النساء : ٣ .

التاريخ عن إبراهيم ويعقوب وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء والمرسلين ـ عليهم الصلاة والسلام ـ .

وفي التعدد حكم كثيرة ، وأكتفي بأربع منها ، وإليك البيان :

١ - إن الحكمة من الزواج تحصين الرجل والمرأة من الوقوع في المحرم ، وإنجاب الذرية لتكثير سواد الأمة ، وكلما كانت الأمة أكثر عدداً ، كانت أقوى وأهيب عند الدول ، وأثقل في ميزان الأمم .

ومن المعلوم لدى كل عاقل فهيم أن التعدد سبب لكثرة النسل المطلوب والمرغوب شرعاً وعقلا ، ولهذا جاء الحديث : « تناكحوا تكاثروا ، فإني مباه بكم الأمم » .

فالصين لماكثر عددها كثرة هائلة فاقت بها كل الأمم ، حسب لها ألف حساب وحساب ، بعد أن كانت الدول الأوروبية لا تنظر إليها بعين الاعتبار ، ولا ترى لها قيمة .

٢ - قد تصاب الزوجة الأولى بالعقم ، وأكبر لذة للإنسان وأكبر سعادة لنفسه وللمجتمع أن يكون له نسل .. فهل من المعقول والعدل في شيء أن يصبر على هذه الزوجة العقيم أو العجوز التي بلغت سن اليأس ، وليس لديها استعداد للإنجاب ، أو أن يفارقها ويتركها هائمة على وجهها حائرة في أمرها خصوصاً إذا لم يكن لها من يعيلها إذا فارقها زوجها ؟

٣ - قد تكون حالة المرأة في الحيض والنفاس تأخذ أياماً عديدة ، لا يجوز للرجل أن يقاربها ، وعنده من شهوة الجماع مالا يستطيع الصبر ، هل يقع في حمأة الحرام ، أو يتزوج زواجاً شرعياً يحصن نفسه ونفسها ، ولا أظن أن عاقلا يخالف في حسن هذا ؟ .

٤ - إن للشريعة في إباحة التعدد نظراً عمرانياً خلقياً آخر ،

وهـو أن عدد النسـاء أكثر من عدد الرجال قطعاً ، لأن الرجال معـرضون للحروب والخدمة العسكرية والمشاق ، فلو قصرنا كل رجل على امرأة واحدة ، لبقي عدد كثير من النساء بلا أزواج ، وهؤلاء بحكم الطبيعة ميالون إلى ما تميل إليه النساء ، فإن لم يكن لهـن أزواج ، فربـمـا جنـت تلك المحـرومـات من الزواج على أعراضـهن ، إما لكسب نفقة أو لقضاء شهوة ، ومتى كان ذلك كما هو شائع في أوروبا ـ خصوصاً في فرنسا ـ فقد اكتفى الكثير من الرجال بهؤلاء البغايا ، فلا يميلون إلى الزواج تخلصاً من حقوق الزوجية ، فيكثر عدد من ليس لهن أزواج ، فيتسع الخرق حينئذ على الراقع ، وفي ذلك تقليل للنسل الذي فيه خراب العمران وفساد الكون .

من هنـا تعلم أن إبـاحة تعدد الزوجات مفخرة من مفاخر الإسلام ، لأنه استطاع أن يحل مشكلة عويصة من أعقد المشاكل الإجتمـاعية التي تعانيها الأمم والمجتمعات اليوم ، فلا تجد لها حلولا إلا بالرجوع إلى حكم الإسلام(١) .

وإن تعجب فالعجب من قول هؤلاء الذين يمنعون التعدد ، ولكنهم يبيحـون لأنفسهم المسـافحـات من غير عد ، وتشجعهم القوانين الوضعية بإباحتها لهم ، هذا الأمر المنافي للحياء والعقل والطبع السليم ، فضلا عن الشرائع السماوية .

فإن قيـل : ما ذكر من الحكم والمصالح في تعدد الزوجات تحصل بزوجة ثانية ، فلم أباح الدين الإسلامي أربع زوجات ؟ .

فالجــــواب :

١ - إن الدين الإسـلامي عدل وسط في جميع تشريعاته ، ومنها تجويزه تعدد الزوجات إلى أربع وبيانه :

(١) من أجل ذلك فقد سمحت الكنيسة الكاثوليكية بتعدد الزوجات بقرارات صادرة من الفاتيكان في روما ، وقصرت ذلك على الأفريقيين .

إن الشرائع السابقة على الإسلام ـ كاليهودية والنصرانية ـ لم تحرم التعدد ، حتى زعيم حركة الإصلاح المسيحي (مارتن لوثر) لم يكن يرى في التعدد ما يدعو إلى تحريمه .

يقول (وسترماك) : إن تعدد الزوجات باعتراف الكنيسة بقي إلى القرن السابع عشر الميلادي ، ويبدو أن التحريم المنسوب للمسيحية ابتدعه رجال الكنيسة ، كما ابتدعوا الرهبانية ولم يلتزموا بها هم أنفسهم ، وكان ما كان من فضائحهم مع الراهبات[1] .

بالإضافة إلى أن تلك الديانات لم تقيد التعدد ، كما أن ديانة الفرس كانت تجيز التعدد على حسب مقدرة الرجل ، والعرب في الجاهلية أجازوا التعدد بغير حصر .

فجاء الإسلام بالحد الوسط ، لا إفراط ولا تفريط ، لم يبح التعدد من غير حصر ، ولم يقيده بواحدة ، كما زعمت رجال الكنيسة المسيحية ، ولا يستريب في هذا عاقل أنه من العدل الواضح الذي لا يقبل النقاش والجدل .

٢ - إن الذي شرع نكاح الأربع هو الله ـ جل جلاله ـ ومن المسلم لدى كل من يؤمن بالله أنه أعدل وأعلم بطبائع خلقه وبما يصلحهم ، وإذا كان الأمر كذلك والسائل قد سلم بمبدأ التعدد ، فلا يرد هذا السؤال .

٣ - قد تكون واحدة مريضة أو في حالة الطمث لا يحل له أن يقربها ، وبعض الرجال به من الشبق ما لاتكفيه الزوجة الثانية أو واحدة مريضة والأخرى حائض أو نفساء أومسافرة فيحتاج إلى ثالثة ورابعة ، على أن في هذا التشريع مصلحة كبيرة للنساء اللاتي يموت أزواجهن في الحروب أو في الأوبئة وتبقى آلاف النساء لا قيم لهن .

---

(١) من (مفتريات على الإسلام) .

فإن قيـل : قد تكـون الزوجـات الأربع كلهن مريضات أو بعضهن مصابة بمرض ، وبعضهن بأعذار أخرى ، إذاً فينبغي تجويز أكثر من أربع .

فالجـــــواب :

إن هذا نادر والحكم للأغلب وليس للنادر حكم .

والحاصل أن الله لم يشرع لنا التعدد لإشباع رغبات الرجال والمضي في شهـواتهم ، ولكن ليكبح جماح اندفاعاتهم الجنسية ، التي إذا لم يقيدها الشارع اندفعت اندفاعاً لا حد له ولا حصر ، كما وقع فيه الغرب ، كما أن في نفس الوقت شرع أيضاً ليحمي المرأة من شر مستطير وقعت فيه المرأة الغربية ولقيت فيه من العنت ومرارة العيش ما لقيت ، نعم إن في أوروبا وأمريكا عشرات الملايين من النســاء اللاتي يعشن من حرفـة العهر ، وقد يرزقن أولاداً يحـرمون من حقوق الوراثة ، فالإسلام يريد أن تعامل المرأة في جميع الأحوال باعتبار أنها زوجة شرعية ذات حقوق ، لا باعتبار أنها ساقطة من كل حماية من الشرع ، فأي الحالتين أجدى على المرأة وأحفظ لكرامتها ؟ ، أن تصبح زوجة ثانية أو ثالثة أو رابعة لرجل يستطيع أن تطالبه بنفقتها ونفقة أولادها ، وترث منه ، ويرث أولادها منه ، أو تضحي في عداد المبتذلات لا حق لها عنده ، ولا ترثه ولا أولادها منه ، فتمسي هي وهم في حالة من البؤس مجردين من الكرامة في نظر العقلاء والخلطاء ، فمصلحة المرأة في التعدد أرجح من مصلحة الرجل في نظر العاقل الفهيم ، وإن كان للرجل فيه مصلحة أيضاً .

ولا ينكر محاسن التعدد ومصالحه إلا جاهل غبي أو مضل عنيد ، أو مضلل مسمم الفكر والذهن بسموم الاستشراق ، وإلا فلا تخفى محــاسن التعدد ، ولهذا لما عرف المنصفون من أهل

أوروبـا ذلك ، تمنوا الرجوع إلى تعاليم الدين الحنيف وفضائله الحقيقية ، حتى بعض فضليات نساء الإفرنج صرحت بتمنى تعدد الزوجات للرجل الواحد ليكون لكل امرأة قيم وكفيل من الرجال .

قال السيد رشيد رضا ، نقلا عن جريدة (لندن ثروت) بقلم كاتبة فاضلة ملخصاً :

لقد كثرت الشاردات من بناتنا ، وعم البلاء ، وقل الباحثون عن أسباب ذلك ، وإذ كنت امرأة تراني أنظر إلى هاتيك البنات وقلبي يتقـطع شفقـة عليهن وحـزنـاً ، وماذا عسى يفيدهن بثي وحزني ، وتوجعي وتفجعي ، وإن شاركني فيه الناس جميعاً ، فلا فائدة إلا في العمل بما يمنع هذه الحالة الرّجسة ، ولله درّ العالم الفاضل « تومس » ، فإنه رأى الداء ، ووصف له الدواء الكافل للشفاء ، وهو (الإباحة للرجل بالتزوج بأكثر من واحدة) ، وبهذه الواسطة يزول البلاء لا محالة ، وتصـبح بناتنـا ربات بيـوت ، فالبلاء كل البلاء في إجبار الرجل الأوروبي على الاكتفاء بامرأة واحدة ، فهذا التحديد هو الذي جعل بنأتنا شوارد ، وقذف بهن إلى التماس أعمال الرجال ، ولابد من تفاقم الشر إذا لم يبح للرجل التزوج بأكثر من واحدة[١] .

وفي عام ١٩٤٨ م أوصى مؤتمر الشباب العالمي المنعقد بألمانيا بإبـاحـة التعـدد حلا لمشكلة تكاثر النساء ، وقالت مجلة (لواء الإسـلام) المصرية : إن كبير أساقفة إنجلترا أعلن أنه لا يجد علاجـاً لمنـع التحلل الخلقي والانهيـار العائلي اللذين فشيا بعد الحرب العالمية الثانية إلا إباحة تعدد الزوجات[٢] .

وقال (جوستاف ليون) : إن نظام تعدد الزوجات هو في

(١) أ هـ من (تفسير المنار) ـ جـ ٤ .

(٢) أ هـ من (مفتريات على الإسلام) لأحمد محمد جمال .

الحقيقة نظام مستقل وجد قبل محمد ﷺ بين شعوب الشرق وأممه[1] .

كان مسنوناً بين اليهود ، مشروعاً بين الفرس ، سارياً بين العرب ، فلم تكتسب الأمم التي دخلت في دين القرآن شيئاً من هذا النظام القديم ، ولم يكن في مقدرة أي دين من الأديان ، وإن أوتي قدرة كبرى على تغيير الآداب والأنظمة والأخلاق ، أن يلغي نظاماً مثل هذا ، ويعمل على إبطاله ، لأنه النتيجة الضرورية للجو ، والغاية المجتمعة لمزاج الشرق ، ونوع الحياة التي يعيشها ، ثم تحدث عن تأثير الجو في الشرق وطبيعة المرأة وما يعتريها من الأوجاع والأمراض وآلام الولادة ، وأن مزاج الشرق يقتضي التعدد ، ثم تحدث عن الغرب قائلا : وإن كان الجو أهدأ تأثيراً إلا أنك لا تجد فردية الزوجية إلا في القوانين ، يعني أن الاقتصار على زوجة واحدة لا يوجد في أوروبا إلا في القوانين ، ولا يعمل به إلا الأقلون ، وأن تعدد الزوجات واقع في الغرب بين أهله ، وإن لم يكن مشروعاً ، ثم قال : لا أعرف لماذا يعتبر التعدد الشرعي للزوجات عند الشرقيين أحط منزلة من هذا التعدد الكاذب الفاحش عند الغربيين ، وإن كنت أعلم بالأسباب التي تجعل الأول أسمى مكاناً وأرفع قدراً من الآخر [2] ؟ ا . هـ .

ومن هنا نعلم أنه لم يحقق تحريم تعدد الزوجات في المسيحية الغرض المقصود منه ، بل انعكست الآية عندما اصطدمت بضرورات الفطرة ، فأسفرت عن نتائج خطيرة من الدعارة والعوانس من النساء والأبناء غير الشرعيين ، ولم نجد مثل هذه

---

(١) يفهم منه أن الشرق هو الذي كان مختصاً بنظام التعدد ، وليس الأمر كذلك ، بل كان في الغرب أيضاً ، فقد كانت ملوك فرنسا يعددون الزوجات ، ومع ذلك كانت الكنيسة تكن لهم كل تعظيم واحترام .

(٢) من (حكمة التشريع) لعلي الجرجاوي .

الأمراض الاجتماعية في البلاد التي طبقت فيها الشريعة الإسلامية تمام التطبيق .

وأقول : ليس عجيباً أن ينادي المسيحي بحظر التعدد ، لأنه مضلل بتعاليم الكنيسة والقسيسين والرهبان ، والذين ملأوا دماغه بأن هذه التعاليم هي تعاليم المسيح ـ عليه السلام ـ والإنجيل ، وبرأ الله المسيح والإنجيل .

ولم يثبت عنه ، كما لم يثبت في كتابه ، ما زعموه من تحريم التعدد ، ولكن العجب كل العجب ممن يتنسب إلى الإسلام ويزعم أن التعدد ظلم للمرأة وإهانة لكرامتها ، وأنه لدليل على شهوانية الرجل وبهيميته التي ينبغي أن يتنزه عنها كل عاقل ، كيف يصدر هذا الزعم الفاسد ، وهو يرى الاقتصار على واحدة قانوناً ، إنما هو مجرد حبر على ورق لا نصيب له في الصحة ولا ظل له في الواقع ، ويشاهد ما وقع في أوروبا من الجرائم الخلقية وكثرة الأولاد غير الشرعيين ، أما ما يقال : قل أن يحصل العدل من الرجل الذي في عصمته زوجتان أو ثلاث ؟ .

فالجـــواب :

نحن قلنا : إن الشريعة أجازت التعدد للرجل الذي لا يظن في نفسه الجور والظلم في حقهن ، لكنها وكلت هذا الأمر للرجل ووقوفه عند الحدود الشرعية ، والظلم قد يحصل حتى ولو عنده زوجة واحدة ، فعلى منطق هؤلاء يمنع الرجل من التزوج من امرأة واحدة خوفاً من ظلمه لها ، وعدم الإنصاف في حقها ، ولكن لا يقول هذا من يفهم ما يقول ، وإذاً فافتراض الظلم أو حصوله بالواقع يكون لغيبة الحكم الشرعي ، وإلا فما دام الحكم الشرعي قائماً ، فسيردعه الحكم من الظلم ، وإذا رأى القاضي الشرعي أنه لا ينزجر ولا يفيد فيه الردع والتعزير ، ففي إمكانه أن يفسخها بالمخالعة وغيرها ، ولا تضيق الشريعة بمثل هذه القضية الجزئية .

ويتفرع عن التعدد موضوع آخر لازم وهو الطلاق .

محاسن الطلاق

إن الدين الإسلامي وإن أباح الطلاق لكنه كرهه ، حتى جاء في الحديث : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » ، وإباحة الطلاق من الضروريات الإجتماعية ، لما فيه من المصلحة العائدة إلى الزوجين ، فلو لم يشرع لكان بقاء عقدة الزواج بينهما شراً مستطيراً ، ومن أجل ذلك أخذت به القوانين الغربية ، وخالفت ديانتها المسيحية ، وتوسعت فيه توسعاً كبيراً فوق الحاجة .

بل نستطيع أن نقول : جاء الإسلام فألفى العالم كله يبيحه منذ القدم إلا أمة أو أمتين ، فهذه الأمة اليونانية ـ ارتقت في علوم الفلسفة وازدهرت حضارتها ـ كان الطلاق شائعاً فيها دون قيد أو شرط ، وكان الطلاق لدى الرومانيين يعتبر من كيان الزواج نفسه ، حتى أن القضاة كانوا يحكمون ببطلان الزواج إذا اشترط كلا الطرفين عدم الطلاق فيه ، والديانة الموسوية وإن حسنت من حالة الزوجة ، ولكنها أباحت الطلاق وتوسعت في إباحتها ، وكان في شريعة اليهود يجبرون الزوج على طلاق زوجته إذا أتت بجريمة الفسق ولو عفا الزوج عنها ، كما يجبر على طلاقها إذا مضت عشر سنوات ولم تنجب أولاداً ، فظهر للقاريء جلياً أن دين الإسلام لم يبتدع الطلاق ، بل هذبه وجعله دفعاً للضرر الحاصل بالزوج أو الزوجة .

فمن حكم الطلاق :

١ – إنه إذا استحكمت النفرة بين الزوجين ، وحل الخصام محل الوئام ، وعجزت الوسائل للتوفيق بينهما ، فقل لي بربك هل

يعيشان في جحيم لايطاق وعذاب أليم نتيجة تنافر الطباع وعدم التئام القلوب ؟ أو يرجعان إلى الطلاق ، ليرفع الحرج عن كليهما ، ويعيشان في هدوء ضمير وسكينة بال .

٢ – إذا رأى زوجته خائنة بالزنا ـ وهيهات أن يثبت زناها ثبوتاً شرعياً ـ فهو إما أن يقتلها ، ويعرض نفسه للمطالبة والسجن والقتل ، أو يصبر عليها ، وهو يعلم زناها وخيانتها ، ويدخل في نسبه ما ليس منه ، فيصبح ديوثاً يرى الفاحشة منها فيرضى .

وإما أن يطلقها ، ويستريح من عنائها ، ويستر عليها ، ويسلم من عقوبة الله ، ويبقى رجلا شهماً لا يرضى أن يدنس فراشه أو عرضه ، ولاشك أن كل عاقل يختار الحل الثالث ، لأنه موافق للعقل والنقل وجالب للمصلحة وداريء للمفسدة .

٣ – من المعلوم أن كمال سعادة الدنيا أن يكون للرجل وللمرأة ذرية يأنس بها وتخلفه من بعده ، ويبقى ذكره ما بقي الدهر ، كيف لا يكون كذلك والله يقول : (**المال والبنون زينة الحياة الدنيا**)[1] .

فإذا كانت الزوجة عقيماً ، فإن بقاءها مع البعل فيه تكدير لصفاء العيش في الغالب لانقطاع النسل الذي هو من حكم الزواج وفوائده ، فالطلاق في هذه الحالة فيه فائدة للرجل حتى يتزوج بأخرى إذا لم ير في بقاء الأولى معه صلاحاً ، كما إذا كان الرجل عقيماً والمرأة تحب أن تنجب ذرّية تسعد بها وتقوم بواجباتها ، فالطلاق في هذه الصورة فيه فائدة كبيرة للمرأة ، فلو لم يشرع لكانت المرأة في عيش نكد وحياة تعيسة .

٤ – كما أنه قد يكون أحد الزوجين مصاباً بمرض يحول دون

---

(١) الكهف : ٤٦ .

المباشرة ، أو بمرض من الأمراض المعدية التي يخشى من عدواه أن ينتقل إلى الثاني ، فللمعافى حق الفسخ أو الطلاق .

٥ - وكذلك إذا كانت المرأة لا تحب زوجها ، وتكرهه لخُلقه ولخلقه ، فلها أن تطلب المخالعة وتدفع له شيئاً من المال لكي يفارقها ، كما ثبت في الصحيح عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي ﷺ - فقالت : يارسول الله ، ثابت بن قيس ما أعيب عليه في خلق ودين ، ولكني أكره الكفر في الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « أتردين عليه حديقته ؟ ، فقالت : نعم ، فقال رسول الله ﷺ : اقبل الحديقة وطلقها تطليقة » . رواه البخاري ، وفي رواية له : « وأمره بطلاقها » .

٦ - قد يسافر الزوج سفراً طويلاً ، أو يحكم عليه بالسجن لمدة سنوات ، أو يمتنع عن الإنفاق عليها لمدة طويلة ، أو يكون معسراً غير قادر على الإنفاق والكسوة أو سكناها في بيت لائق ، ففي هذه الصور من حق الزوجة أن تطلب الطلاق عن طريق القضاء الشرعي ، لكي لا تتضرر معيشياً أو نفسياً بسبب هذه الحالات المذكورة .

ومما أسلفنا يتبين أن الزواج والطلاق في الإسلام إنصاف للمرأة ولمصلحتها الشخصية [١] ، وتحقيق لإنسانيتها وتقرير

---

(١) **بيان ذلك بإمعان النظر في الرقم الأول** : أن الطلاق الناتج عن استحكام الشقاق والخصام وعدم الوفاق ، لا ريب إن كان فيه مصلحة للزوج فكذلك تكون المصلحة للزوجة ، وهكذا القول في الرقم الثاني ، وأما الرقم الثالث ففيه صورتان : صورة ما إذا كان الزوج عقيماً وطلبت الزوجة الفراق ، فهنا لالبس في أن الطلاق لمصلحة المرأة أكثر من الرجل ، وأما الصورة الثانية وهي ما إذا كانت الزوجة عقيماً ، فالطلاق يبدو هنا لأول وهلة أنه ليس في صالح المرأة ، ولكن بتفكير قليل يتضح أن لها مصلحة في ذلك ، لأنه يصبح غير راغب فيها ، فلو لم يشرع الطلاق لكانت عيشتها معه غير هنيئة ، ولا تقضي حياتها معه

لكرامتها على مستوى واحد مع الرجل ، إذ هما مخلوقان من نفس واحدة تطلب الخير وتكره الشر ، وليس كما زعم المغرضون والحاقدون على الإسلام ، أن إباحة الطلاق في الإسلام قسوة وظلم وتحكم في النساء ، وإهدار لكرامة المرأة .

فوالله لولا حقد أولئك الطاعنين في الإسلام ، وسوء طويتهم ، والتعصب الممقوت الذي ابتلوا به ، لما كانت محاسن الطلاق خفية تحتاج إلى تدليل وبرهان .

فأي عاقل يملك ذرة من الإنصاف يقارن بين الشريعة الإسلامية والمسيحية ، ولا يحكم للإسلام بالفضل والموافقة للطبائع والعقول والأفهام ، والمناسبة لكل عصر وجيل وأقوام .

قارن أيها المنصف بين شريعة الإسلام التى أجازت الطلاق لأسباب يؤيدها العقل ، وتسندها الطبائع ، وأحوال الزوجين في بعض الظروف التي من شأنها ـ لولا حل عقدة الزوجية ـ أن يتضرر الزوجان ، وأن يكونا في عيشة شقية وحالة نكدة ، وبين الشريعة المسيحية التي تقول طائفة الكاثوليك بمنع الطلاق بتاتاً مهما حل بالزوجين من المتاعب والمصائب والمحن ، فليس لدى هذه الطائفة من حل لما يحدث من مشاكل بين الزوجين ـ مهما كانت شدة قسوتها ـ إلا حلا واحداً في حالة ما إذا زنت الزوجة في بيت الزوج أن يفترقا جسدياً ، ويعيش كل منهما على حدة ، لكن يحرم على الزوج أن يتزوج بأخرى ، ويحرم عليها التزوج بآخر ، لكن لها وله أن يطرقا سبيل العشق والمحبة ، إن أراد كل واحد منهما ذلك .

= سعيدة ، فما أحسن الطلاق ليختار زوجة أخرى ، كما تختار هي زوجاً آخر ، تتلائم أخلاقهما ، وتتناسب طبائعهما ،.ويعيشان في حب ووفاق ، وقل مثل ذلك في الرقم الرابع ، وأما الرقم الخامس والسادس : فمصلحة الطلاق للزوجة فيهما أكثر وأرجح من مصلحة الزوج كما لا يخفى .

وبين طائفتي البروتستانت والأرثوذكس اللتين أباحتا الطلاق بسبب الزنا أو تغيير الدين ، لكن لايجيزان أن يتزوج كل واحد منهما بعد ذلك الطلاق .

وإذا قارنت بين هذا التشريع الذي يأباه العقل ، وتنفر منه الطباع السليمة ، وهذا التشريع الذي لا يمكن أن يجلب سعادة للزوجين ، ولا أدنى مصلحة للطرفين ، بل يجلب لهما الدمار والشقاق والعواقب السيئة والنتائج الضارة ، وبين التشريع الإسلامي الذي يوافق العقل ، ويلائم طباع الناس وأحوالهم ، ويجلب لهما السعادة والهناء ، والتمتع بالحرية الشخصية ، والعيشة المرضية ، ظهر لك محاسن الطلاق ، وأنه قد يكون نعمة ورحمة لا وبالا ونقمة .

ومن أجل ذلك أقر مجلس الشيوخ الإيطالي ـ على الرغم من معارضة الفاتيكان وهو السلطة الدينية المسيحية العليا ـ مشروعاً لإباحة الطلاق في أكتوبر سنة ١٩٧٠ م .

وفي بريطانيا وافق مجلس العموم البريطاني على قانون يبيح للزوجين الطلاق بعد أن ينفصل أحدهما عن الآخر لمدة عامين إذا وافق الزوجان على الطلاق ، ولمدة خمسة أعوام إذا وافق أحدهما دون الآخر . ا . هـ[١] .

---

(١) من (الإسلام والرسول) للمؤلف .

عصــمة الملائكة

والقول في عصمة الملائكة كالقول في عصمة الرسل .

فقـد وقع الإجماع على أن الرسل منهم معصومون في باب التبليغ عن الله .

ثم وقع الخلاف في غير المرسلين منهم ! ولم يأت المجوزون للذنوب بحجة نيرة ، وما استدل به المجوزون بقصة هاروت وماروت .

فالجـــواب :

إنهـا لم تثبت بسنـد صحيح إلى النبي ﷺ ، وكل ما ورد فمرجعها إلى كعب الأحبار ، وفي بعضها إلى علي بن أبي طالب ، وابن مسعود ، ولكن الظاهر أنها من أخبار اليهود ، وإليهم يرجع المصدر ، وقد علم كذبهم وافتراؤهم ، فلا ثقة بنقلهم .

وكيف يجوز صدور الذنب منهم ، وقد قال الله تعالى : (**لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون**)[١] !؟ .

قلت في النظم :

فواجب لرسـله الكرام	الصدق والتبليغ للأقـوام
فطانة والرابع الأمـانة	ويستحيل الكذب والخيانة
كذلك الكتمان والبـلادة	نالوا العلا والمجد والسعادة

---

(١) التحريم : ٦ .

اعلم أن للأنبياء والرسل صفات واجبة وصفات جائزة .
وتستحيل عليهم الصفات التي هي ضد الصفات الواجبة .

فالصفات الواجبة أربعة ، وقد سبق ذكرها بالتفصيل ، ويستحيل عليهم ضد كل تلك الصفات ، فضد الصدق الكذب ، لأن المفروض أنهم مخبرون عن الله ، صادقون في كل ما أخبروا به .

فإذا كان الصدق واجباً لهم ، فيستحيل عليهم الكذب .

ولو جوزناه عليهم لكانوا رسل إثم وشر ، ولبطلت الثقة بأخبارهم ، ولما وجب على الأمة قبول ما يبلغونه .

كما أن الأمانة ـ التي هي العصمة ـ واجبة لهم ، يستحيل عليهم ضدها .

لأنهم أرسلوا لكي يرشدوا الأنام إلى الأعمال الطيبة والأخلاق الفاضلة ، وترك الشر والأعمال المحرمة والأفعال المنكرة .

فلو اتصفوا بارتكاب محرم ، أواعتقاد باطل ، لكانوا مضلين لا مرشدين !

وقد وصفهم القرآن وأثنى عليهم ، كما سبق فيما أوردناه من الآيات ، مثل ماذكر الله عن أيوب : (**نعم العبد إنه أواب**)[1] .

ولاشك أن الله لا يختار للواسطة بينه وبين خلقه إلا من كان في نهاية الكمال ، من الأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة والسيرة الطاهرة .

وقل كذلك في صفة تبليغ ما أمروا به من الله ، وذلك باستحالة

---

(١) ص : ٤٤ .

كتمان ما أوحى الله إليهم وأمرهم بتبليغ القوم ، وإلا لم تكن ثمة فائدة من اختيارهم .

وكتمان العلم النافع محرم ، وحاشاهم أن يفعلوا محرماً .

ولا يمكن ألا يقوموا بوظيفة التبليغ ، إذ أنهم اختارهم الله واصطفاهم ، وكلفهم بأعباء الرسالة وتبليغ الأمة ، ولابد من أن يقوموا بوظيفتهم التي اختارها الله لهم ، وقد بينا فيما سبق أن الله شهد لهم البلاغ : (ومن أصدق من الله قيلا) [1] .

وهكذا يستحيل عليهم ضد الفطانة ، وهي الغباوة والبلادة ، لأن الرسول لابد أن يكون ذكياً ، في إمكانه أن يقرع الحجة بالحجة ، ويكشف الشبهة ، ويأتي بالبرهان الدال على صدق رسالته ونبوته .

وبالجملة : لابد أن يكون ممتازاً على قومه بالعلم الإلهي ، وبالذكاء الخارق ، وبفصاحة اللسان ، وقوة الحجاج والبيان .

فلو كان بليداً وغبياً ، لما أمكن أن يقيم الحجة ، وينير المحجة ، ويكشف الشبهة ، ويقيم الأدلة ، ويلجم الخصم .

وانظر إلى محاجة إبراهيم الخليل حيث قال : **(ألم تر إلى الذي حاج [2] إبراهيم في ربه أن أتاه [3] الله الملك ، إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت ، قال أنا أحيي وأميت [4] ، قال**

---

(١) النساء : ١٢٢ .

(٢) جادل .

(٣) حمله بطره بنعم الله على ذلك ، وهو نمرود بن كنعان ، وهو أول من لبس التاج المكلل ، وكانت هذه المحاجة بعد إلقاء إبراهيم في النار .

(٤) أي بالقتل والعفو ، ودعا برجلين ، فقتل أحدهما ، وترك الآخر ، فلما رآه إبراهيم غبياً ، سارع منتقلا إلى حجة أوضح منها ، وهي : **(فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب)** .

إبـراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق ، فأت بهـا من المغرب فبهت[1] الذي كفر ، والله لا يهدي القوم الظالمين)[2] ، [3].

الجـائز في حقهم :

قد مضى القول في الواجب والمستحيل ، ونشرع الآن في بيان الصفات الجائزة فنقول :

اعلم أن هؤلاء الرسـل هم بشر مثلنـا ، وتعتريهم الأحوال البشريـة مثلنـا ، من اللذة والألم ، والصحـة والسقم ، والحياة والموت ، والراحة والتعب ، والحاجة إلى الزواج والتوالد ، والأكل والشرب ، كما قال في النظم :

وجـائـز في حقهم ما قد عرض   مثـل جماعهم وأكل ومرض

وبـرهـان هذا مشـاهدة وقوعها منهم للتشريع ، أو لتعظيم أجرهم ، أو للتسلي عن الدنيا ، والتنبيه على خسة قدرها عند الله .

كما أن فيه التنبيه لتلك الفرق الضالة ، التي ألهّت الأنبياء والصالحين ، وعبدوهم وأشركوهم برب العالمين ، بأن من تعتريه تلك العـوارض البشريـة ، وخاضعاً للنواميس الكونية ، لا يصلح أن يكون إلهاً يعبد ! ورباً يلجأ إليه .

وإذا بطلت عبـادة هؤلاء الأصفياء ، فمن باب أولى بطلان عبـادة من دونهم من الأوليـاء أو الكـواكب والشمس والأحجار والأوثان والقبور .

فقد غرق الكثيرون في بحور الشرك الأعظم ، بصرفهم الدعوات

---

(١) أى تحير ودهش .

(٢) أي الظالمين أنفسهم بالكفر لا يهديهم إلى محجة الاحتجاج الصحيح .

(٣) البقرة : ٢٥٨ .

والنذور واعتقاد الضر والنفع بيد ذلك المقبور ، ويزين الشيطان لكثير من الدجاجلة المتسمين بسمة العلم ، تحسين تلك الأفعال ، وإغراء الجهال والأنذال باسم محبّة الصالحين ، والتوسل بصفوة عباد الله ، وكأنهم لم يسمعوا قوله تعالى : (**ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله**)[١] .

ولم يسمعوا قوله تعالى : (**له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء ، إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال**)[٢]

ولا أدري لماذا يستغيثون بغير الله ، والله منهم قريب !! ألم يسمعوا قول الله تعالى : (**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان**)[٣] .

وقوله تعالى في آية أخرى : (**وقال ربكم ادعوني أستجب لكم**)[٤] .

أيحتاج الإله إلى من يبلغه حاجة المضطرين ، حتى يوسطوا بينه وبينهم هؤلاء المقدسين ؟!! هل يشكون في قدرة الله !؟ أم يمترون في علمه ؟ أم يرتابون في رحمته ؟ أم يعتريهم الشك في إجابته ؟ فلجأوا إلى الترهات ، وعاذوا بالخرافات والأمور الموبقات ، (**وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون**) .

---

(١) يونس : ١٨ .
(٢) الرعد : ١٤ .
(٣) البقرة : ١٨٦
(٤) غافر : ٦٠ .

فصــــل

النبوة لا تنــال بالاكتســاب

اعلم أن النبـوة لا تنــال بمبـاشرة الأسبـاب المخصوصة ، كملازمة الخلوة والعبادة ، وتناول الحلال ، وتنقية البدن وتصفية الأخـلاق من الرذائل ، والاتصاف بالأوصاف الجميلة ، والنعوت الجليلة ـ كما زعمت الفلاسفة ـ ، بل هي من فضل الله ، يخص بها من يشاء ، كما في النظم :

نبــــوة ليست بالاكتســــاب　　　لكن بفضــــل الملك الوهــــاب

قال في الدرة المضيئة :

ولا تنــــال[1] رتبــة النبــــوة　　　بالكسب والتهذيب والفتــــوة[2]
لكنها فضل من المولى الأجـل　　　لمن يشأ من خلقه إلى الأجـل

وقال في الجوهرة :

ولم تــكن نبـــوة مكتســــبة　　　ولورقى في الخير أعلى عقبــــة
بل ذاك فضل الله يؤتيــــه لمن　　　يشــاء جل الله واهــب المــنن

أي : أنها فضل من الله يؤتيه من يشاء ، ممن سبق علمه وإرادتـه الأزليـان باصـطفـائـه لها : (**الله أعلم حيث يجعل رسالته**)[3] .

---

(١) بضم التاء مبني لما لم يسم فاعله .
(٢) كرم النفس بتخليصها من الأوصاف المذمومة .
(٣) الأنعام : ١٢٤ .

وقد زعمت الفلاسفة ، أن النبوة تنال بالاكتساب ، وصفاء النفس !

وزعموا أن من شرط الرسول اطلاعه على المغيبات بالأزمنة الثلاثة ، لصفاء جوهر نفسه ، وشدة اتصاله بالروحانيات العالية من غير سابقة كسب ولا تعلم ولا تعليم ، فقد تتصل النفس الناطقة بتلك المجردات - يعنون بها الملائكة - اتصالاً معنوياً ، لتنجذب إليها بواسطة الجنسية ، ويشاهد ما فيها من صور الحوادث ، فيرتسم فيها كمرآة يحاذي بها لمرآة أخرى !! .

ويرد عليهم بأن الاطلاع على جميع المغيبات لا يجب للنبي والرسول ، ولهذا قال اللهحكاية عن سيد الأنبياء : **(ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء)**(١) .

والاطلاع على البعض لا يختص بالرسول ، كما اعترفوا بأن المرضى والنائمين والمرتاضين قد يطلعون على بعض المغيبات ، وهذا شيء مشاهد ، وإذاً فبأي شيء يمتاز النبي عن غيره ؟! .

وباقي ما ذكروا من الاتصال بالنفوس المجردة .. إلخ ، لا يفيد إلا ظناً ، والظن لا يغني من الحق شيئاً .

وزعمهم ذلك الاتصال المعنوي ، والانتعاش المزعوم ، ما هو إلا من الخيالات التى تصورتها تلك الأذهان الخالية عن الإيمان ، لا وجود لها في الخارج !

وكلامهم صريح في أن من وجدت له تلك الصفات يكون نبياً !

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

---

(١) الأعراف : ١٨٨ .

وهـؤلاء عندهم النبوة مكتسبة ، إذ كان جماعة من زنادقة الإسلام يطلبون أن يصيروا أنبياء !! .

ومن زعم أنها مكتسبة ، فهو زنديق يجب قتله ، لأن كلامه يقتضي اعتقاده ألا تنقطع . ! بل يكون باب النبوة مفتوحاً ! فهو مخالف للنص القرآني والأحاديث المتواترة بأن نبينا ﷺ خاتم النبيين .

فصـــل

« في بيان بعض الفروق بين الأنبياء والمرسلين وبين الحكماء والفلاسفة والمصلحين »

فنقول وبالله التوفيق : وإذ بينا طريقة الفلاسفة وزعمهم أن النبوة قد تدرك بالاكتساب بأنواع الرياضة وملازمة الخلوات ، إلى غير ذلك مما سبق ذكره .

فجدير بنا أن نبين الفرق بينهم وبين الأنبياء ، حيث أنه قد يزعم زاعم ، أنكم تدعون أن الأنبياء متصفون بمحاسن الأخلاق والصفات ، داعون إلى الخير ، ناهون عن الشر ، فكذلك الحكماء ، فإنهم يحثون على الكمالات النفسية ، وعلى حسن المكارم ، وأحاسن الصفات كالصدق والعدل ، وترك الظلم والبغي والكذب والرذائل ، فإليك البيان :

الفرق الأول :

أن تعلم أن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ والحكماء ، وإن اشتركوا في تلك الصفات التي مر بيانها ، فإن أكبر مميز وفارق بينهم هو :

أن الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لا يقتصرون على الدعوة إلى الكمالات النفسية ، والدعوة إلى الخير ، بل أهم مبدئهم وأساس دعوتهم هو : توحيد الله وإفراده بالعبادة ، والعمل الصالح ، والإيمان بالمغيبات ، كالإيمان بالبعث والحساب والجنة والنار ، مما

لا تجده في كلام الحكماء ، ولايدعون إليه ، بل أكثرهم يكفر بالبعث وبيوم الجزاء .

وما أحسن ما قال بعضهم :

بثلاثة كفر الفلاسفة العدى إذ أنكروها وهي حقاً مثبتة
علم بجزئي حدوث عوالم حشر لأجساد وكانت ميتة

الفرق الثاني :

أ - **الأنبياء والرسل** : قوم يصطفيهم الله ويختارهم ، ليبلغوا عنه عباده شرائعه التي بها سعادتهم الدنيوية والأخروية .

فمصدرهم إذاً الوحي الإلهي ، لا دراسة العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والفلسفية .

ب - **أما الفلاسفة** : فهم أناس يقرأون العلوم الكونية ، ويتعمقون فيها ، ويعتمدون على معارفهم وعلومهم فيما يقولونه فليس لهم صلة بالوحي الإلهي ، بل كثير من آرائهم يكون مضاداً لما جاءت به النبوات والرسالات ، كإنكارهم لعلم الله بالجزئيات ، وإنكارهم للحشر ، وما إلى ذلك من الخزعبلات .

ت - **أما المصلحون** : فهم كذلك قوم متعلمون مثقفون ، قد يرون بعقولهم الزكية وبصائرهم النافذة ، أن مجتمعهم الذي يعيشون فيه قد انتشرت فيه الأخلاق الرذيلة ، والعادات السافلة ، والمظالم الفاشية ، وعدم وجود العدالة ، فيثور المصلح على هذه الأعمال المنكرة .

وحينئذ : إما أن يكون سياسياً ، فيأتي بإصلاح سياسي لتغيير السلطة ومناهج الأحكام .

وإما أن يكون دينياً ، فيثور على هذه العادات والخرافات

والضلالات ، ويقود الناس إلى الطريق المستقيم ، ويرشدهم إلى الدين القويم .

ولابد أن يكون متبعاً لرسول من الرسل ، فلا ينسب لنفسه نبوة ولا رسالة ولا يزعم لنفسه معجزة .

وكل ما في الأمر أن يقول : إن الشريعة الصحيحة والملة المستقيمة تبرأ مما أنتم فيه أيها القوم من هذه الضلالات ، فدعوا هذه الطريقة المعوجة ، واسلكوا الطريق المستقيم .

وإما أن يكون دينياً وسياسياً في آن واحد ، فيجمع بين الأمرين : بأن يدعو إلى توحيد الله ، وتغيير السلطة ، وإبدال الأوضاع ، وتغيير سبل الحكم وطرقه .

كما أنه في نفس الوقت ، يدعو إلى اتباع الشرع الحنيف ، والاهتداء بهدي الرسل الكرام ، وترك ما عليه أكثر الأقوام من عبادة الأوثان والأصنام ، وتبديل الشرائع بنصوص مبتدعة وتأويلات باطلة .

فيبين لهم أن ما هم عليه من ذلك التغيير والتبديل والتحريف والتأويل والبدع الضالة ، مخالف لما عليه الشريعة الصحيحة والملة القومية .

وفي كل أموره ودعوته وإصلاحه السياسي والديني ، لا ينسب لنفسه استقلالاً ، ولا يدعي بأن أرسله الله .

بل كل ما يقول : إنه عبد من عباد الله ، رأى بثاقب فكره وبمبلغ علمه الصحيح ، أن قومه خارجون عن منهج الحق والصواب ، فأراد أن يردهم إلى الطريق المستقيم ، ويرشدهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم دنيا وأخرى .

الفرق الثـــالث :

إن من نظر في سيرة الأنبيـاء والمـرسلين ، وسيرة الفلاسفة والمتنبئين ، والكهنة والمشعوذين ، يرى فرقاً كبيراً ! .

الأمر الأول : إن الأنبياء خصوا بمواهب وبأخلاق فاضلة ، لا يمكن أن يساويهم في تلك الصفات والمواهب من ليس نبَياً ولا رسولا .

الأمر الثاني : إنهم يتصفون بالزهد الكامل ، والإعراض التام عن الدنيا وزخارفها وبهجتها ورونقها ، منقطعون إلى الله سبحانه وتعالى بعبادات وأذكار وصلوات وصيام وخلوات وتضرعات .

وهــذا بخــلاف الفــلاسفــة الذين أكثــرهم كفرة مشركون ، لا يعـرفون الله فضلاً عن أن يعبدوه ، والمقرون منهم بالربوبية لايعبدونه كما ينبغي ، ولا تجد لديهم من الزهد ومكارم الأخلاق والبعد عن سفاسف الدنيا ما تجده لدى الأنبياء والمرسلين .

وبــالجملة : فسيرتهم وأخلاقهم وعلومهم وعاداتهم كلها أو أكثرها على الضد من سيرة الأنبياء والمرسلين بل والمصلحين .

ولا أظن أن عاقلاً يعرف سـيرة الأنبياء ، ويعرف شـيئاً عن الفلاسفة ، ولا يميز بينهما ! ويجعل ما أتت به الأنبياء وما أتت به الحكماء سواء ، إلا من فقد عقله ، وعمت بصيرته ، وطبع على قلبه ، حيث أصبح لايميز بين السماء والأرض ، والجوهرة والبعرة .

وأمــا المصلحــون : فكثـير منهم قد يكـون على جانب من الصــلاح والتقـوى والعفـاف والزهد ، ولكن مهما سمت درجته لا يمكن أن يكون كنبي ، حاشاً وكلا ! بل كل ما هنالك أن يكون رجلاً صالحاً ، وداعياً مرشداً ، متبعاً لأحد من المرسلين .

الفرق الرابع :

إن أول وأهم ما يمتاز به معشر الأنبياء ، أن العلم الذى ينشرونه بين الناس ، والعقيدة التي يدعون إليها ، والدعوة التي يقومون بها ، لا تنبع من ذكائهم أو حميتهم ، أو تألمهم بالوضع المزري الذي يعيشون فيه ، ومن شعورهم الرقيق الحساس ، وقلبهم الرقيق الفياض ، وتجاربهم الواسعة الحكيمة ، لا شيء من ذلك كله .

إنما مصدره الوحي والرسالة التي يصطفون لها ، ويكرمون بها ، فلا يقاسون أبداً على الحكماء أو الزعماء أو المصلحين ، وجميع أصناف القادة الذين جربتهم البشرية وتاريخ الإصلاح والكفاح الطويل ، والذين هم نتيجة بيئتهم ، وغرس حكمتهم ، وصدى محيطهم ، ورد فعل لما كان يجيش به مجتمعهم من فساد وفوضى .

والقول الفصل في ذلك قول القرآن الكريم على لسان سيد الرسل ﷺ : **(قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون)**(١) .

وقول الله تعالى : **(وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم)**(٢) .

ويقول القرآن الكريم عن طبيعة الرسالة التي يختار لها الرسل ، وعن مبدئها ومصدرها : **(ينزل الملائكة بالروح من**

---

(١) يونس : ١٦ .

(٢) الشورى : ٥٢ .

أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون)[1] .

لذلك لا يخضع الرسول لعوامل نفسية داخلية أو حوادث وقتية خارجية ، ولا يدير رسالته حيث دارت الأحوال والأوضاع وشاء المجتمع ، وقد قال الله تعالى عن رسوله الأمين ﷺ : (**وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى**)[2] .

الفرق الخامس :

لا يستطيع أن يحدث تغييراً أو تبديلا أو تحويلا أو تعديلا في رسالته في أحكام الله ، وقال الله آمراً رسوله ﷺ : (**قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي أن أتبع إلا مايوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم**)[3] .

ونفى الله عنه المداهنة ، وعصمه منها فقال تعالى : (**ودّوا لو تدهن فيدهنون**)[4] .

وقد أنذره سبحانه بالعقاب الأليم المخزي إذا تجنى على الله ، أو قال ما لم يقله ، أو زاد أو نقص شيئاً من وحيه وكلامه ، فقال تعالى : (**تنزيل من رب العالمين ، ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين**)[5] .

وقد أمره تبارك وتعالى بتبليغ الرسالة بنصها وفصها وبرمتها وجملتها ، فقال تعالى : (**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من**

---

(١) النحل : ٢ .
(٢) النجم ٠ ٤ .
(٣) يونس : ١٥ .
(٤) القلم : ٤ .
(٥) الحاقة : ٤٤ .

ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، إن الله لا يهدي القوم الكافرين)[1] .

وهذه هي السمة الفاصلة الأساسية المميزة بين الأنبياء صلوات الله عليهم وبين القادة والزعماء ، الذين تكون رسالتهم وكفاحهم وحي بيئتهم وثقافتهم ومشاعرهم ، واستجابة للقلق الذي يساور المجتمع والظروف والأحوال ، فيتنازلون عن أشياء كثيرة ، وقد يساومون الأحزاب ، ويتبادلون معها المنافع ، ومبدأ الكثير منهم الذي يأخذون به : « در مع الدهر كيف دار » !

الفرق السادس :

إن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كان أول دعوتهم ، وأكبر هدفهم في كل زمان وفي كل بيئة ، هو تصحيح العقيدة في الله ، وتصحيح الصلة بين العبد وربه ، والدعوة إلى إخلاص الدين ، وإفراد العبادة لله وحده رب العالمين ، فإنه النافع الضار ، المستحق للعبادة والدعاء والالتجاء والنسك والاستغاثة والحلف والنذر ، ونحو ذلك من إفراد العبادة .

وكانت حملتهم مركزة وموجهة إلى الوثنية القائمة في عصورهم ، الممثلة بصورة واضحة في عبادة الأصنام والأوثان والصالحين المقدسين من الأحياء والأموات ، الذين كان يعتقد أهل الجاهلية أن الله قد خلع عليهم لباس الشرف والتأله ، وجعلهم متصرفين في بعض الأمور الخاصة ، ويقبل شفاعتهم فيهم بالإطلاق !

والقرآن العظيم مملوء من بيان دعوة الأنبياء لأقوامهم إلى التوحيد كقوله تعالى : **(وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)**[2] .

---

(١) المائدة : ٦٧ .

(٢) الأنبياء : ٢٥ .

وكقوله تعالى : (**وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إن أنتم إلا مفترون**)(١) .

وكقوله تعالى : (**وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب**) (٢) .

وهكذا سائر دعوة الأنبياء ، إذا تتبعتها عرفت أن القضاء على الوثنية والإنكار عليها ومحاربتها وإنقاذ الناس من براثنها ، كان هدفِ النبوة الأساسي ، ومقصد بعثة الأنبياء وأساس دعوتهم .

وهذا بخلاف الفلاسفة ، فإنهم لا يدعون إلى توحيد الله ، وليس لهم في ذلك اعتناء ، بل أكثرهم مشركون .

فقد كان أرسطو مشركاً يعبد الأصنام ، وهو من أكابر الفلاسفة .

الفرق السابع :

هو أن من سمات النبوة وشعارها : دعوة الناس إلى الاعتقاد باليوم الآخر ، من البعث والحساب ، والثواب والعقاب .

وكانت عقيدة البعث ، وعقيدة الألوهية ، هما المحور الذي يدور عليه النقاش بين المرسلين وأقوامهم الوثنيين ، بينما الفلاسفة ينكرون المعاد !

فإذا أردت أن تعرف ما كان عليه الأنبياء من التشديد على جانب الآخرة ، والإشادة بذكرها ، فاقرأ ما حكى الله عنهم ، ترى

---

(١) الأعراف : ٦٥ .
(٢) هود : ٦١ .

أن الآخرة دائماً نصب أعينهم ، لا تزال ماثلة أمامهم بنعيمها وجحيمها .

اقرأ قوله تعالى إخباراً عن نبيه إبراهيم ، وقد جاشت نفسه ، وفاضت عواطفه حين ذكر الآخرة ، وتمثل هولها وفزعها : (**والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ، رب هب لى حكماً وألحقني بالصالحين**)[1] .

واسمع ما قص الله عن نبيه يوسف ـ عليه السلام ـ ، حيث أخبر عنه وهو إذ ذاك في أوج بهجته وسيادته ، له الكلمة النافذة ، وله الأمر المطاع في مصر : (**رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين**)[2] .

الفرق الثامن :

إن الله تعالى خص أنبياءه ورسله بالمعجزات الباهرة عندما تتحداهم الأقوام ، كما قال ابن رسلان رحمه الله :

أرسل رسله بمعجزات[3] ظاهرة للخلق باهرات
وخص من بينهم محمدا فليس بعده نبي أبدا

ولم يخف ما قصه الله تعالى عن قصة إبراهيم حينما ألقاه نمرود في النار ، حيث قال الله تعالى : (**يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم**)[4] .

قالوا : إن النار لم تمس إلا الحبال التي أوثقوه بها ، وكأنه كان في روضة من الرياض .

---

(١) الشعراء : ٨٣ .
(٢) الفرق الثالث وما بعده ملخص من رسالة « النبوة والأنبياء » .
(٣) والمعجزة هي أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدي ، هكذا عرفها علماء الكلام ، ولكن قولهم مقرون بالتحدي غير سديد ، فقد تأتي المعجزة بغير تحد .
(٤) يوسف : ١٠١ .

وأيد الله موسى ـ عليه السلام ـ بمعجزات عديدة ، وأعظمها العصا التي ألقاها فانقلبت ثعباناً تلقف ما صنعت سحرة فرعون من تلك الحبال التي خيلت للناظرين بأنها ثعابين تسعى ، وشق له البحر حتى عبر موسى وبنو إسرائيل .

وأيد الله عيسى بإبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى بإذن الله .

وأيد نبينا محمداً ﷺ بمعجزات عديدة أعظمها القرآن ، ثم نبع الماء من بين أصابعه ، وشق القمر ، إلى غير ذلك .

وأنى للفلاسفة والمصلحين أن يأتوا بمثل هذه المعجزات ، ولا تشتبه المعجزة وأفعال السحرة والمشعوذين إلا على من لا علم له ولا عقل ولا دين .

وسيأتي في الجزء الثاني بسط الكلام عن المعجزات ، لاسيما معجزات الرسول ﷺ .

الإسلام والإيمان

وعند أهل الحق أتباع الأثر ... إيمانهم قول وقصد معتبر
وثلثن عمل الأركان ... قال بذا ذو العلم والعرفان
كمالك والشافعي الألمعي ... وأحمد ذاك الإمام اللوذعي
وغيرهم من سائر الأئمة ... ذوي الهدى الناصحين الأمة
وخالف النعمان في الأعمال ... ولم يصب في ذلك المقال
وقوله مخالف الدليل ... من سنة البشير والتنزيل
وقال جهم إنه العلم فقط ... أقبح به من جاهل وذي شطط
وليس بالنطق ولا بالعمل ... فياله من مارق مضلل
وقال قوم إنه الإقرار ... أهل النفاق عندهم أبرار
أتباع كرام بهذا اعتقدوا ... وخالفوا الصواب فيما اعتمدوا

ش :

الإيمان والإسلام من المسائل العظيمة التي أخذت جل اهتمام أهل العلم من السلف الصالح وغيرهم ، حيث أن الله تعالى علق بهما السعادة والشقاوة واستحقاق الجنة والنار ، وفي مسمى الإسلام والإيمان أول خلاف وقع في هذه الأمة ، وهو خلاف الخوارج ، لأنهم أول من قال بكفر مرتكب الكبيرة ، وإخراجه من حيز الإيمان والإسلام ، وتخليده في عذاب النار ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

والإيمان لغة : التصديق ، لقوله تعالى إخباراً عن إخوة يوسف لما أتوا أباهم مخبرينه أن يوسف قد أكله الذئب : **(وما**

أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) [1] ، أى بمصدق لنا ، هذا من حيث اللغة .

وأما في الاصطلاح : فهو تصديق ما جاء به الرسول تصديقاً تاماً ، مستلزماً لما وجب من الأعمال ، ومحله القلب .

ثم هو مركب من ثلاث :

١ - **قول** :أي نطق باللسان ، بأن يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فمن لمن يقر ويصدق بلسانه مع القدرة ، لا يسمى مصدقاً ، وليس مؤمناً ، كما اتفق على ذلك سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان .

٢ - **وقصد معتبر** : أي تصديق بالجنان تصديقا جازماً غير متردد ، وإلا فليس بمعتبر ، فمن تكلم بكلمة التوحيد غير معتقد لها ، فهو منافق[2] ، وليس بمؤمن ،وليس ناجيا من النار ،

---

(١) يوسف : ١٧ .

(٢) **النفاق** : إظهار الخير ، وإسرار الشر ، وهو قسمان :

القسم الأول : اعتقادي ، وهو الذي يخلد صاحبه في النار ، لأنه يظهر الإسلام ، ويبطن الكفر ، كالمنافقين الذين ذكرهم الله في صدر سورة البقرة ابتداء من قوله تعالى : **(ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر)** ، إلى ختام قوله تعالى : **(أو كصيب من السماء)** ، كما ذكرهم الله في سورة المنافقين ، كما ذكرنا أولها في الشرح - أعني أول سورة المنافقين - وفي كثير من الآيات القرآنية .

القسم الثاني : النفاق العلمي ، كالمذكور في الحديث الصحيح عن النبي عليه الصلاة والسلام : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا أؤتمن خان ، وإذا وعد أخلف » ، وفي حديث آخر عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خَصْلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » . متفق عليه .

ولا تنفعه كلمة الشهادتين ، ولا إتيانه بأركان الإسلام ،لأن هذا كان شأن المنافقين ، كانوا ينطقون بالشهادتين ، ويصلون مع النبي ﷺ الصلوات ، وقد يصومون ، ولكن الله تعالى فضحهم ، وكشف أستارهم ، وبين كذب دعواهم الإيمان والإسلام ، وذلك في قوله تعالى : (**إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبوَن ، اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون**)[١] ، أي أن تلفظهم بالشهادتين ونطقهم بهما كان وقاية وحفظاً لدمائهم وأموالهم ، وإلا فهم أشد كفراً من الكفار الأصليين .

ولذا قال الله تعالى في شأنهم : (**إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار**)[٢] .

وقال الله تعالى في سورة البقرة : (**ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون**)[٣] ، أي يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بقولهم آمنا ، ظانين أن ذلك نافعهم عنده ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون .

٣ - **العمل بالأركان** : هذا هو اللفظ الوارد عن السلف ، قال الإمام البخاري في كتاب الإيمان « باب قول النبي ﷺ بني الإسلام على خمس » :

وهو قول وفعل ، ويزيد وينقص ، ثم ذكر بعض الآيات الدالة على زيادة الإيمان ، كما سنبين ذلك في باب زيادة الإيمان ونقصانه إن شاء الله تعالى .

---

(١) المنافقون : ١ .

(٢) النساء : ١٤٥ .

(٣) البقرة : ٩ .

قال الحافظ ابن حجر : (قوله : قول وفعل ويزيد وينقص) ، وفي رواية الكشميهنى (قول وعمل) ، وهو اللفظ الوارد عن السلف الذين أطلقوا ذلك ، فأما القول فالمراد به النطق بالشهادتين ، وأما العمل فالمراد به ما هو أعم من عمل القلب والجوارح ليدخل الاعتقاد والعبادات ا . هـ[1].

قال الحافظ ابن رجب في شرح الأربعين وغيره : المشهور عن السلف وأهل الحديث ، أن الإيمان قول وعمل ونية ، وأن الأعمال كلها داخلة في مسمى الإيمان ، وحكى الشافعى رضي الله عنه إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ممن أدركهم على ذلك .

قال الحافظ ابن رجب : أنكر السلف على من أخرج الأعمال من الإيمان إنكاراً شديداً ، وممن أنكر ذلك على قائله وجعله قولا محدثاً سعيد بن جبير وميمون بن مهران وقتادة وأيوب السختياني والنخعي والزهري ويحيى بن أبي كثير وغيرهم .

وقال الثوري : هو رأي محدث أدركنا الناس على غيره .

وقال الأوزاعي : كان من مضى من السلف لا يفرقون بين الإيمان والعمل ، فمن استكملها استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان ا . هـ[2] .

ومن الجدير أن يفهم القاريء أن ما ذكرته من أن الإيمان مركب من ثلاث : اعتقاد وقول وعمل ، هو مذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين وتابعيهم وسائر الأئمة المهتدين ، كما سلف ذكر بعضهم ، وبه قالت الخوارج والمعتزلة .

ولكن الفارق بيننا وبينهم ، هو أن عمل الجوارح من

---

(١) (فتح الباري) ج ١ .

(٢) من (لوامع الأنوار) بتلخيص .

العبادات وترك المحرمات ، وإن كان ثالثاً ، ولكنه شرط كمال لا شرط صحة .

وقالت الخوارج والمعتزلة : بل العمل شرط صحة .

ومن هنا قلنا : إن الفاسق بإتيانه الكبيرة ليس كافراً ، وليس مخلداً في النار .

وقالت الخوارج : هو كافر ، ومخلد في النار ، هذا بالنسبة لما عند الله والدار الآخرة ، ولكن تجري عليه الأحكام الإسلامية الظاهرة في الحياة الدنيا .

وقالت المعتزلة بالواسطة : يعني لا هو مؤمن ولا هو كافر ، وعللوا ذلك بأن نفي الإيمان عنه من أجل أن الإيمان اسم مدح ، والفاسق لا يستحق المدح ، فلا يكون مؤمنا ولا كافراً ، لإيمانه بما يجب الإيمان به ، وإقراره بالشهادتين ، ولوجود سائر الأعمال فيه ، وإذا مات بلا توبة خلد في النار ، إذ ليس في الآخرة إلا فريقان ، فريق في الجنة ، وفريق في السعير ، لكن يخفف عليه ، ويكون دركته فوق دركات الكفار ، وكأنهم غفلوا عن قوله تعالى : (**ويعفو عن كثير**) وقوله تعالى : (**يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً**[1] **إنه هوالغفور الرحيم**) . ا . هـ[2] .

وسيأتي زيادة تفصيل وبيان في شرح قولي في النظم :

فمؤمن مرتكب الكبيرة ... كذا إذا أصر بالصغيرة

---

(١) مقيد بما إذا لم يشرك بالله وإلا فلا ، لقوله تعالى : (**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**) .

(٢) من شرح شيخنا الشيخ أحمد نور ـ رحمه الله ـ على منظومته في الفرق الإسلامية المسماة (المواهب الإلهية) تحت قوله في النظم في بيان معتقدات المعتزلة عندهم مرتكب الكبيرة .. لا مؤمن لا كافر السريرة .

هذا بالنسبة لعمل الجوارح ، أما بالنسبة للنطق باللسان والتصديق بالجنان ، فالمفهوم من كلام أئمة السلف وعلماء الأثر ، كما قال الحافظ ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في كتاب الصلاة :

إن حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل ، والقول قسمان ، قول القلب وهو الاعتقاد ، وقول اللسان وهو التكلم بكلمة الإسلام ، والعمل قسمان ، عمل القلب وهو نية وإخلاص ، وعمل الجوارح ، فإذا زالت هذه الأربعة ، زال الإيمان بكماله ، وإذا زال تصديق القلب ، لم تنفع بقية الأجزاء ، فإن تصديق القلب شرط في اعتقادها وكونها نافعة .

إلى أن قال : وإذا كان الإيمان يزول بزوال عمل القلب ، فغير مستنكر أن يزول بزوال[1] أعظم أعمال الجوارح ، ولاسيما إذا كان ملزوماً لعدم محبة القلب وانقياده الذي هو ملزوم لعدم التصديق الجازم . ا . هـ .

فالشيخ وإن لم يصرح بزوال نطق اللسان ، لكنه مفهوم بالبديهة ، أن من لم ينطق بالشهادتين ، فليس مؤمناً ولا مسلماً ، وذلك لما يلي :

١ - إنه جاء في الحديث الصحيح : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك ، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله » متفق عليه .

---

(١) يقصد الحافظ ابن القيم بزوال أعظم أعمال الجوارح الصلاة ، لأنها أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين ، فالمحبة القلبية الإيمانية تستلزم فعل الصلاة وسائر الأعمال المشروعة ، والشيخ يدندن حول تكفير تارك الصلاة كسلاً لا اعتقاداً ، فإذاً يزول إيمان تارك الصلاة للأدلة من القرآن والسنة ، ويخرج من الإيمان ، ويكون كافراً ، فلأن نحكم على من لم ينطق بالشهادتين بالكفر مع القدرة من باب أولى .

٢ - إن كل من أتى إلى النبي ﷺ راغباً في الإسلام ، كان أول ما يأمره به أن ينطق بالشهادتين ، وهذا مما اشتهر في الأحاديث والتفاسير والسير ، بحيث لا يخفى على أحد شم رائحة دين الإسلام ، أما قال لقريش : قولوا كلمة تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم ، فلما استفسروا عنها ، فسرها بكلمة التوحيد : لا إله إلا الله ، وهنا قالوا كما أخبر الله عنهم : (**أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشيء عجاب**)[١] .

٣ - لما أرسل النبي ﷺ معاذا إلى اليمن قال : إنك تأتي قوماً أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله ، فإن هم أطاعوك لذاك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة .. الحديث .

٤ - **قال الحافظ ابن القيم** : إن حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل ، فإذا كانت حقيقته من هذين الاثنين ، فإنه ينتفي بانتفاء أحدهما ، ولكن بما أن العمل قسمان ، وهما : عمل القلب ويراد به النية والإخلاص ، وعمل الجوارح وهو العبادات الظاهرة ، فبانتفاء عمل الجوارح ، أو عمل القلب وهو النية والإخلاص[٢] ، لا يزول الإيمان للأدلة الدالة على أن العمل شرط كمال لا شرط صحة[٣] .

وأما النطق باللسان فليس فيه خلاف عندهم أنه شرط صحة ، وقد سبق في شرح قولي في النظم : قول وقصد معتبر ، إن من لم يصدق بقلبه ويقر بلسانه مع القدرة لا يسمى مؤمناً ، وذهب

---

(١) ص : ٥ .

(٢) هذا إذا فسر عمل القلب بالنية والإخلاص ، أما إذا فسر عمل القلب بالتصديق الجازم ، فإن بزواله يزول الإيمان ، فتنبه .

(٣) أ - هـ كلام ابن القيم من (كتاب الصلاة) . هذا القول غير صحيح .

محققو الأشاعرة والماتريدية وغيرهم ، أن النطق شرط في إجراء الأحكام الدنيوية ، وقال فريق منهم : إنه شرط في صحة الإيمان(١) .

---

(١) قال ابن رسلان في زبده :

أول واجب على الإنسان معرفة الإله باستيقان
والنطق بالشهادتين اعتبرا لصحة الإيمان ممن قدرا

قال في غاية البيان في شرحه على الزبد تحت هذين البيتين : والمراد بتصديق القلب ، إذعانه وقبوله ، ولما كان تصديق القلب أمراً باطناً لا اطلاع لنا عليه ، جعله الشارع منوطاً بالشهادتين .

وهل النطق بالشهادتين شرط لإجراء أحكام المؤمنين في الدنيا ـ من الصلاة عليه والتوارث والمناكحة وغيرها ـ غير داخل في مسمى الإيمان أو جزء منه داخل في مسماه .

قولان ، ذهب جمهور المحققين إلى أولهما ، وعليه من صدق بقلبه ، ولم يقر بلسانه مع تمكنه من الإقرار ، فهو مؤمن عند الله ، وهذا أوفق باللغة والعرف ، وذهب كثير من الفقهاء إلى ثانيهما ، وألزمهم الأولون بأن من صدق بقلبه ، فاخترمته المنية قبل اتساع وقت الإقرار بلسانه يكون كافراً ، وهو خلاف الإجماع على ما نقله الرازي وغيره ، لكن يعارض دعواه قول الشفاء الصحيح : إنه مؤمن مستوجب للجنة ، حيث أثبت فيه خلافاً ، وخرج بقوله : ممن قدرا ، العاجز لخرس أو سكتة أو اخترام منية قبل التمكن منه فيصح إيمانه ، أ هـ .

ويُبْطِل قول محققيهم القائلين باكتفاء التصديق القلبي ، وإن لم ينطق بلسانه مع تمكنه من الإقرار ، وأنه مؤمن عند الله :

هو أنه كم من كافر كان في الباطن مصدقاً بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم ، ولكن لما لم ينطق بالشهادتين ، حكم بكفره ، لأنه لم يكن معذوراً في عدم النطق بعذر اخترام المنية أو خرس اللسان .

فإن أجابوا : الحكم بكفر أولئك بالنسبة للأحكام الدنيوية ، لأن الإقرار باللسان شرط لإجراء الأحكام الإسلامية ؟

قلنا : فهذا أبو طالب عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، كم حمى الرسول ، ودافع عنه صلى الله عليه وسلم ، وقال :

ولقد علمت أن دين محمد من خير أديان البرية ديناً
لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً

وقالت جماعة من الأشاعرة : إن النطق شطر ، بمعنى أنه جزء من حقيقة الإيمان ، لا يعتد بإيمان من فقده ، وعليه فالقول بكـونه شرط صحة ، أو القول بالشطرية ، فمآل القولين واحد ، والخلف بينهما في اللفظ والعبارة لا في المعنى .

وتوضيحه : إن التارك للنطق مع القدرة غير معتد بإيمانه ، لأنــه لم يأت بشرط صحتــه ، وهو الإقرار باللسان ، وعلى القول بالشــطريــة ليس بمـؤمن لفقد جزء من الإيمان ، وهو جزء من حقيقته ، وإذا فقد جزء الحقيقة فقدت الحقيقة كلها .

مخالفة النعمان لمذهب سلف الأمة في الأعمال

وخالف النعمان في الأعمـــال   ولم يصب في ذلك المقـــال
وقولـــه مخالف الدليـــل   من ســنة البشــير والتنزيل

= ولما سأل العباس بن عبد المطلب الرسول صلى الله عليه وسلم : هل نفعت عمك بشيء ؟

قال ما معناه : « شفعت فيه ، ولولا شفاعتي لكان في الدرك الأسفل من النار ، ولكن هو الآن في ضحضاح من النار » .

فأين إذاً قول محققي الأشاعرة : إن المصدق بقلبه مؤمن عند الله ؟

أما قال الله : (**وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين**) . سورة النمل (١٤) .

وشبهتهم على هذا القـول البـاطل هي : إن الإيمان في اللغة عبارة عن التصـديق ، فهو مرادف له ، ويقابل الإيمان بالتكذيب والجحود ، والتصديق والتكذيب محلهما القلب ، لا شغل للسان بهما .

والجواب : لا يقابل لفظ الإيمان قط بالتكذيب ، وإنما يقابل بالكفر ، والكفر لا يختص بالتكذيب ، بل لو قال : أنا أعلم أنك صادق ، ولكن لا أتبعك ، لكان كافراً ، فعلم أن الإيمان ليس التصديق فقط ، ولا الكفر والتكذيب كفراً فقط ، بل إذا كان الكفر يكون تكذيباً ، ويكون مخالفة ومعاداة بلا تكذيب ، فكذلك الإيمان يكون تصديقاً وموافقة وموالاة وانقياداً ، ولا يكفي مجرد التصديق .

ش : ذهب الإمام أبو حنيفة وكثير من أصحابه ـ رحمهم الله ـ إلى أن الإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان ، وليس الأعمال من الإيمان ، وهذا القول كما ترى مخالف لمذهب سلف الأمة وأئمتها القائلين بأن الأعمال من الإيمان .

قال العلامة السفاريني في الكلام عن الإيمان : وتحقيق مذهب السلف : قال أبو القاسم الأنصاري : وذهب أهل الأثر إلى أن الإيمان جميع الطاعات فرضها ونفلها ، وعبروا عنه بأنه إتيان ما أمر الله فرضا ونفلا ، والانتهاء عما نهى عنه تحريماً وأدبا ، قال : وبهذا كان يقول أبو علي الثقفي من متقدمي أصحابنا ، وأبو العباس القلانسي ، وقد مال إلى هذا المذهب أبو عبد الله بن مجاهد ، وهذا قول مالك بن أنس إمام دار الهجرة ، ومعظم أئمة السلف ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ ، فكانوا يقولون : الإيمان معرفة بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان ا . هـ[1] .

والإمام أبو حنيفة وأصحابه ، وإن أخرجوا العمل[2] من

---

(١) من (لوامع الأنوار البهية) ج ١ .

(٢) لعل القائلين : إن الإمام أبا حنيفة كان يقول بالإرجاء ، بمعنى أنه من أتباع الفرقة المسماة بالمرجئة القائلين : « لا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة » ، وقولهم هذا باطل بالكتاب والسنة ، والأدلة على بطلانه كثيرة ، ومنها : أن الله علق النجاة من النار بالإيمان والأعمال الصالحة في آيات تفوق العد والحصر ، وستقرأ بعضها في صلب الكتاب ، ومنها أنه ليس من المعقول أن الإسلام جاء للنطق باللسان والتصديق بالجنان ، وليس بعد ذلك عمل ، فلماذا شرع الله ورسوله هذه الشرائع ، وتوعد تارك الصلاة في الآيات والأحاديث ، وتارك الزكاة والصوم ، ومقترف جريمة الزنا والربا ، وسائر المحرمات ، فقال الله تعالى : (**أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لايستوون ، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون ، وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون**) سورة السجدة الآية : ١٨ .

الإيمـان ، لكن بما أنهم والسلف والأشاعرة متفقون أن العاصي لا يخلد في النار ، بل يعذب إن لم يغفر الله له بقدر ما يستحقه ، فمن هنا يكاد أن يكون الخلاف لفظياً ، فلا يترتب على ذلك فساد عقيدة ، غير أن ذلك تقوية لمذهب المرجئة ، وتشجيع للفساق على اجتـراح السيئـات والمعـاصي ، فلعل الإمام وأصحابه نظروا إلى الإيمـــان من حيث اللغــة ، ومن حيث أنــه عطف الأعمــال على الإيمـان ، والعطف يقتضي المغايرة ، ولذلك قالوابما سبق ذكره ، وبقية الأئمة نظروا إلى حقيقته في عرف الشارع ، فإن الشارع ضم إلى التصديق أوصافا وشرائط ، كما في الصلاة والصوم والحج .

كما وأنهم قد أجابوا عن العطف ، كما قال العلامة ابن أبي العز الحنفي :

إن الإيمـان تارة يطلق مطلقاً عن العمل وعن الإسلام ، وتارة يقـرن بالعمـل الصالح ، وتارة يقرن بالإسلام ، فالمطلق يستلزم للأعمـال ، قال الله تعـالى : (**إنمـا المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلـوبهم وإذا تليت عليهم آيـاته زادتهم إيمانـاً وعلى ربهم يتوكلون**)[1] .

وفي الحديث : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » ، وهو من الأحاديث المتفق عليها ، وحديث : « لا تؤمنوا حتى تحابوا » ، والأحـاديث والآيـات في هذا المعنى كثـيرة من استلزام الإيمان للأعمال الصـــالحة .

قال الشيخ ـ رحمه الله ـ :

أما إذا عطف عليه العمل الصالح ، فاعلم أن عطف الشيء

---

(١) الأنفال : ٢ .

على الشيء يقتضي المغـايـرة بين المعـطوف والمعـطوف عليه ، مع الاشتراك في الحكم الذي ذكر لهما ، والمغايرة على مراتب :

أعلاها : أن يكونا متباينين ، ليس أحدهما هو الآخر ، ولا جزءاً منه ، ولا بينهما تلازم كقوله تعالى : (**الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور**)(١) ، وقوله تعالى : (**وأنزل التوراة والإنجيل**)(٢) ، وهذا هو الغالب .

ويليـه : أن يكون بينهما تلازم ، كقوله تعالى : (**ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون**)(٣) وقوله تعالى : (**وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين**)(٤) .

والثالث : عطف بعض الشيء عليه ، كقوله تعالى : (**حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى**)(٥) ، وقوله تعالى : (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين)(٦) ، وقوله تعالى : (**وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك**)(٧) ، وفي مثل هذا وجهان : أحدهما : أن يكون داخلا في الأول ، فيكون مذكوراً مرتين ،والثاني : أن عطفه عليه يقتضي أنه ليس داخلا فيه هنا ، وإن كان داخلا فيه منفرداً ، كما قيل مثل ذلك في لفظ « الفقراء والمساكين » ونحوهما ، تتنوع دلالته بالإفراد والاقتران .

---

(١) الأنعام : ١ .
(٢) آل عمران : ٣ .
(٣) البقرة : ٤٢ .
(٤) المائدة : ٩٢ .
(٥) البقرة : ٢٣٨ .
(٦) البقرة : ٩٨ .
(٧) الأحزاب : ٧ .

الرابع : عطف الشيء على الشيء لاختـــلاف الصفتين ، كقوله تعـــالى: (**غافر الذنب وقابل التوب**) ا . هـ[1] .

ومما أوردتـه من كلام شارح الطحاويـة ، يعلم أن عطف الأعـمـال على الإيمـان هو من باب عطف بعض الشيء عليـه كالقسـم الثـالث ، كقـوله تعـالى : (**حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى**)[2] .

ويؤيد ذلك ما جاء في الحديث الصحيح قول النبي ﷺ لوفد عبـد القيس : « آمركم بالإيمان بالله وحده ، أتدرون ما الإيمان بالله ؟ شهـادة أن لا إله إلا الله ، وحـده لاشريك له ، وإقـام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأن تؤدوا الخمس من المغنم » .

ومعلوم أنه لم يرد أن هذه الأعمال تكون إيماناً بالله بدون إيمان القلب ، لما قد أخبر في مواضع أنه لابد من إيمان القلب ، فعلم أن هذه مع إيمان القلب هو الإيمان .

ويزيدك إيضاحاً وبياناً ماسأسوقه إليك من الأدلة على دخول الأعمال في الإيمان .

بعض أدلة السلف أن الأعمال من الإيمان :

الأدلة على ذلك أكثر من أن تحصر :

منها قوله تعالى : (**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آيـاتـه زادتهم إيمـانـاً وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقنـاهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً**)[3] .

---

(١) من (شرح الطحاوية) ، طبعة المكتب الإسلامي ، والآية في سورة غافر رقم : ٣ .

(٢) البقرة : ٢٣٨ .

(٣) الأنفال : ٢ .

ومنها قوله تعالى : **(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين)**(١) .

ومنها قوله تعالى : **(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون)**(٢) .

وتقدم قريباً حديث وفد عبد القيس ، وحديث الإيمان بضع وستون شعبة ... إلخ .

فإن قيل : إذا قلتم بدخول الأعمال في الإيمان ، وذلك يتناول جميع ما أمر الله به ورسوله ﷺ ، فمتى ذهب بعض ذلك ، بطل الإيمان ، فيلزم تكفير أهل الذنوب ، وسلبهم اسم الإيمان بالكلية ، وتخليدهم في النار ، وهذا قول أهل البدع والضلال ؟ .

قلنا : لم يوافق أحد من أهل السنة أهل البدع في تكفير أهل الذنوب ، وتخليدهم في النار ، بل اتفقوا على عدم الخلود لمن كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، كما اتفقوا على شفاعة الرسول ﷺ لأهل الكبائر من أمته ، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة ، وهو ﷺ لا يشفع لكافر ، ولا يلزم من عدم قيام الشخص لبعض المأمورات أو ارتكابه بعض المحرمات ذهاب إيمانه بالكلية ، بل نقول ناقص الإيمان ، مؤمن بإيمانه ، فاسق بكبيرته ، كما أن الشجرة لا يلزم من ذهاب غصن منها أو غصنين أو أكثر ذهابها بالكلية ويبسها ، وكما أن الإنسان إذا قطعت منه يده أو رجله ، لا يلزم منه أن يموت ، وكذلك الإيمان لا يذهب كله بذهاب بعضه ، فالإيمان بمنزلة الإنسان ، فلا يموت إلا بقطع رأسه أو

(١) البقرة : ١٧٧ .
(٢) التوبة : ٦٢ .

ما يذهب حياته بالكلية ، لا مجرد قطع بعض أعضائه ، فكذلك الإيمان لا يذهب كله إلا بالكفر ، بمنزلة قطع الرأس من الجسد ، والدليل القاطع قوله تعالى : **(وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا)**(١) فسماهم مؤمنين مع قتال بعضهم لبعض ، وما قدمنا من شفاعته ﷺ لأهل الكبائر ، وحينئذ فما ورد من نفي الإيمان ممن ارتكب بعض المخالفات مثل قوله ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن .. إلخ » ، وقوله ﷺ : « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه » ، وقوله ﷺ « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، محمول على الإيمان الكامل ، كما أن قوله ﷺ : « لا ترجعوا بعدي كفارا ، يضرب بعضكم رقاب بعض » ، ومثل قوله ﷺ « اثنتان في الناس هم بهما كفر ، الطعن في النسب ، والنياحة على الميت » ، ـ أخرجه مسلم ـ محمول على كفر النعمة ، أو أنه مثل عمل الكافرين .

والخلاصة : أن الخلاف في كون الإيمان مركباً أو بسيطاً يرجع إلى خمسة أقوال :

١ – مبني على كونه بسيطاً ، كالتصديق وحده بالقلب ، وهذا مذهب جهم ومن وافقه من الأشاعرة وغيرهم ، وعلى هذا يكون اليهود الذين عرفوا بقلوبهم رسالته مؤمنين ، وكفى بذلك قبحاً قال تعالى : **(فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين)**(٢) .

٢ – هو القول فقط ، وهذا قول الكرامية ، وعلى قولهم فالمنافقون مؤمنون ، والله قد نفى عنهم الإيمان بقوله تعالى :

---

(١) الحجرات : ٩ .

(٢) البقرة : ٨٩ .

(ومن الناس من يقـول آمنا بالله وباليـوم الآخـــر وما هم بمؤمنين) [1] .

٣ – العمل وحده ، وقد نسب لبعض المعتزلة ، وهذا واضح البطلان .

٤ – مبني على كونــه مركبا ، القول والاعتقاد فقط ، وترد عليهم الآيات المتقدمة ، وهذا مذهب الحنفية .

٥ – قول واعتقـاد وعمـل ، وهذا مذهب السلف والخوارج والمعتزلة ، والخلاف بيننا وبينهم : هل العمل شرط كمال ، أم شرط صحة ، أم لا ؟ وسبق الكلام عن ذلك .

مـذهب الجهم بن صـفوان

وقال جهم إنه العلم فقط ... أقبح به من جاهل وذى شطط
وليس بالنطق ولا بالعمـــل ... فيـــاله من مــارق مضـــلل

ش : مذهب جهم بن صفوان ، أن الإيمان هو العلم القلبي ، وهــذا من البـطلان بحيث لا يخفى إلا على خفـافيش الأبصـار والعميـان ، ولا غرابة من جهم ، إذ أنه أتى بمقالات لم يسبق إليها ، وسأذكر بعضها .

أما قوله هنا : إن الإيمان هوالمعرفة القلبية لله وللرسول ﷺ ففي الآيات القرآنية مما يرد هذا ما لا يحصى إلا بكلفة ، فعلى قول جهم : إن فرعون وقومه كانوا مؤمنين ، فإنهم عرفوا صدق موسى لفرعون ، حتى قال له كما قال الله تعالى : (قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) [2] ، وقال تعالى :

(١) البقرة : ٨ .
(٢) الإسراء : ١٧ .

(وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين)[١] ، وأهل الكتاب كانوا يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبنـاءهم ، ولم يكونوا مؤمنين بـه ، بل كانوا كافرين به ، معادين له .

ومن اعتقـاداتـه الفاسدة : قوله بالجبر المحض ، فالعباد كالجماد فيما يصدر منهم من الأفعال من غير اختيار ولا كسب ، وقال : لا يعلم الشيء ربنا قبل وقوعه ، وكفى بهذا كفراً وضلالا ، وقال : بفناء الجنة والنار .

ومن أقواله الكفرية : إن الله لا يجوز أن يتصف بصفات تكون في غيره ، كالحياة والعلم والإرادة والقدرة والرحمة ، وإلى غير ذلك من الصفات .

قال شيخنـا الشيـخ أحمـد نور ـ رحمه الله ـ في منظومته (الفرق الإسلامية) ، في سياق مذهب الجهم :

والرب لا يجـوز أن يتصـفا	بما يكون غـيره متصـفا
والشيء لا يعلم قبل أن[٢] يحل	وعلمه حادث [٣] ليس في محل
وماتـرى أى ذاتـه العينـان	والنـار والجنـة تفنيـان

مذهب أبي عبد الله محمد بن كرام وأتباعه

قلت في النظم :

وقـال قـوم إنـه الإقـرار	أهـل النفاق عندهم أبـرار
أتبـاع كرام بهذا اعتقدوا	وخالفوا الصواب فيما اعتمدوا

---

(١) النمل : ١٤ .

(٢) أى قبل وقوعه .

(٣) يترك التنوين للوزن .

ش : الكرامية أتباع محمد بن كرام ، قالوا : إن الإيمان هو الإقـرار باللسـان ، ونفوا التصديق بالقلب والعمل بالأركان من الإيمان ، وتصور هذا القول كاف في فساده ، ولا أدري كيف يدين بهذا الاعتقاد من يدين بالإسلام ، بل من يتصف بالعقل فضلا عن الدين والإيمـان ، فعـلى قولهم : المنـافقـون مؤمنـون كاملو الإيمان ، والله حكم بكفرهم وضلالهم في عدة آيات من القرآن ، وسبق بعضها .

أما قولهم : إنهم مع إيمانهم يستحقون الوعيد ، فقول ظاهر البـطلان ، وذلك أنهم لما أخـرجـوا التصـديق والعمل من دائرة الإيمان ، واكتفوا بتصديق اللسان ، فأي لوم يتوجه على من نطق بلسانه ، ولم يصدق بقلبه ، ولم يأت بالأعمال ؟ ، ولكن لا يقول هذا إلا من أعمى الله بصيرته ، وأضله عن سواء السبيل .

ونسبـوا إلى الكـراميـة[1] تشبيـه الله بخلقه ، وخالفوا قوله تعـالى : (**ليس كمثله شيء وهـو السميع البصير**)[2] ، وقوله تعالى : (**فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا**)[3] وقوله تعالى : (**قـل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد**) .

---

(١) الحقيقة أن الكرامية فرق عديدة تبلغ اثنتي عشرة فرقة ، وهؤلاء الفرق عندهم مقـالات فيها تشبيه ، إلا أن محمد بن كرام ليس مشبها كما نقلت ذلك عن الشهرستاني ، نقلا عن ابن الهيصم الذي كان هو من أكابر أتباع محمد بن كرام .

(٢) الشورى : ١١ .

(٣) مريم : ٦٥ .

فصـــل

نبــذة مختصرة عن الكراميــة

الكرامية : هم أتباع أبي عبد الله محمد بن كرام ، كان من سجستان ، وكان عابداً ، وممن يثبت الصفات ، وهم طوائف عديدة .

قال الشهرستاني : يبلغ عددهم إلى اثنتي عشرة فرقة ، ولهم أقوال غريبة .

ونص أبو عبد الله ـ يعني محمد بن كرام ـ على أن معبوده على العرش استقراراً .

ونقل عن كتابه المسمى (عذاب القبر) ، أنه تعالى أحدي الذات ، وأحدي الجوهر ، وأنه مماس للعرش من الصفحة العليا ، وجوز الانتقال والتحول والنزول .

ونقل عن كل فرقة معتقداً غير معتقد الثانية .

ومن أتابعه محمد بن الهيصم ، وقد اجتهد ابن الهيصم في إرمـام مقـالة أبي عبـد الله في كل مسألة حتى ردها من المحال الفاحش إلى نوع يفهم فيما بين العقلاء ، مثل التجسيم ، فإنه أراد بالجسم القائم بالذات(١) ، ومثل الفوقية ، فإنه حملها على العلو ، ومثل الاستواء ، فإنه نفي المجاورة والمماسة والتمكن بالذات .

---

(١) يعني ليس عرضاً ، لأن العرض لا يقوم بذاته .

مذهب الكرامية في إثبات الصفات

ومما أجمعوا عليه في إثبات الصفات قولهم : الباري عالم يعلم ، قادر بقدرة ، حي بحياة ، شاء بمشيئته ، وجميع هذه الصفات قديمة أزلية ، قائمة بذاته ، وربما زادوا اليدين والوجه ، صفات قائمة به ، وقالوا : له يد لا كالأيدي ، ووجه لا كالوجوه .

كلام ابن الهيصم

ويقول ابن الهيصم ما معناه : الذي أطلقه المشبهة على الله من الهيئة والصورة والجوف ونحو ذلك لا نقول به ، وإنما نقول : إنه خلق آدم بيده ، وإنه استوى على عرشه ، وإنه يجيء يوم القيامة لمحاسبة الخلق ، وذلك أننا لا نعتقد من ذلك شيئاً على معنى فاسد ، من جارحتين وعضوين تفسيراً لليدين ، ولا مطابقة المكان واستقلال العرش بالرحمن تفسيراً للاستواء ، وإنما ذهبنا في ذلك إلى إطلاق ما أطلقه القرآن فقط من غير تكييف ولا تشبيه ، وما لم يرد به القرآن والخبر فلا نطلقه كما أطلقه سائر المشبهة والمجسمة .

قال : (**يعنى ابن الهيصم**) : نحن نثبت القدر خيره وشره من الله .

وقالوا : (**أي الكرامية**) : الإيمان هو الإقرار باللسان فقط ، دون التصديق بالقلب ، ودون سائر الأعمال .

وفرقوا بين تسمية المؤمن مؤمنا فيما يرجع إلى أحكام الظاهر والتكليف ، وفيما يرجع إلى أحكام الآخرة والجزاء ، فالمنافق عندهم مؤمن في الدنيا حقيقة ، مستحق للعقاب الأبدي في الآخرة . ا . هـ[1] .

---

(١) ملخصاً من ج ١ من الملل والنحل للشهرستاني .

تنبيــه مهم

إن إطلاقهم على الله تعالى بأحدي الجوهر ، وأنه تعالى مماس للعرش من الصفحة العليا ، من البدع التي لم ترد في كتاب الله العظيم ، ولا في سنة رسوله الكريم ﷺ ، وإن فسرها ابن الهيصم أنه القائم بذاته .

ومما ينبغي أن يعلم ، أن الكثـيرين ممن يكتب في توحيد الصفات ، إذا جاء إلى ذكر الفرق ، ينقل عن كتب سابقة تذكر عقائد الفرق ، لكنهم لايذكرون المصدر ، لأننا لم نجد ولم نسمع أن للمشبهة كتباً ، إنما ينقل الآخر عن الأول .

فالشهرستاني ذكر فرق الكرامية ، وذكر معتقد كل فرقة ، لكن لم يذكر أنه نقل عن كتبهم بأسمائها ، إلا أنه كتب بعض النقول من كتاب أبي عبد الله محمد بن كرام المسمى (عذاب القبر) ، وعنوان هذا الكتاب لا يدل على كل المعلومات التي ذكرها ، إنما يدل على أمور البرزخ .

شبهة للكرامية والجواب عنها

فتفسير ابن الهيصم لمقالة متبوعه تفسيراً مقبولا ـ إن صح ـ لكن قولهم بأجمعهم : إن الإيمان مجرد الإقرار باللسان ، دون التصديق بالقلب ، دون الأعمال ، فهذا القول من الأخطاء الكبار .

الجــواب

هل يعقل أن نسميه مؤمناً وهوغير مصدق بقلبه بالإيمان بالله العظيم أو برسوله الأمين ﷺ ، وقد قال الله تعالى : **(إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ، اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا**

عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ، ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون)[١] .

فالله سبحانه وتعالى كذبهم في دعوى الإيمان ، ثم حكم بكفرهم بقوله تعالى : **(ذلك بأنهم آمنوا)** ، أى بلسانهم ، **(ثم كفروا)** ، أى بقلوبهم وجوارحهم .

فقوم يحكم الله عليهم بالكذب وبعدم الإيمان ، كيف يطلق عليهم بأنهم مؤمنون ؟ وقد قال تعالى : **(ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون)**[٢] ، إلى أن قال تعالى : **(وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون)**[٣] .

وقد ذكر الله المنافقين في سورة البقرة في ثلاث عشرة آية ، وصفهم بعدم الإيمان ، وأنهم يخادعون الله ، وأنهم مرضى القلوب ، وأنهم مفسدون ، وأنهم سفهاء ، وأنهم يستهزؤون بالمؤمنين ، وأنهم اشتروا الضلالة بالهدى ، وأنهم صم بكم عمي ، إلى غير ذلك .

فإذا كان هذا قول الله تعالى فيهم ، فكيف نحكم بإيمانهم ؟

وأما تفرقتهم بين الأحكام الدنيوية والأحكام الأخروية ، فهذه لا تجدي شيئاً .

فكيف نحكم لهم بالإيمان ، ثم نقول : إنهم مخلدون في النار ؟

---

(١) المنافقون : ١ ، ٢ ، ٣ .
(٢) البقرة : ٨ ، ٩ .
(٣) البقرة : ١٣ .

شبهة أخرى للكرامية

ولعلهم يحتجون بأن المنافقين الذين كانوا في المدينة في عصر الرسول ﷺ ، كان يعاملهم معاملة المسلمين ، فهذا دليل على أنه يكفي في الإيمان الإقرار ؟

والجواب أن نقول :

أولا : الإيمان كما سبق بيانه يتركب من ثلاث : قول باللسان ، واعتقاد بالجنان ، وعمل بالأركان .

فالذين كانوا في عصر النبي ﷺ ، كانوا ينطقون بالشهادتين ، ويقومون بأعمال الإسلام ، كالصلاة والصيام وسائر الأركان ، وحتى الجهاد ، فحصل منهم الركنان ، القول والعمل ، وبقي التصديق بالجنان ، فذاك موكول إلى الله تعالى .

وأما قول الكرامية : الإيمان هو الإقرار ، فمقتضى هذا الكلام ، أنه متى ما تلفظ بالشهادتين ، فهو مؤمن وإن لم يمارس شيئاً من الأعمال ، كأن لم يصل ، أو لم يصم ، أو لم يحج ، وإلى غير ذلك من الأعمال ، ولاشك أن هذا باطل ، بل وترك الصلاة فقط كفر عند الإمام أحمد وسائر المحدثين ، فضلا عن سائر الأعمال ، فكلامهم هذا خطأ كبير .

ومعاملة الرسول ﷺ للمنافقين بالمدينة معاملة المسلمين ـ والله تعالى أعلم ـ لما قلته أولا : من أنهم كانوا يقومون بأعمال الإسلام .

وثانياً : إن المصلحة تقتضي ذلك ، لئلا يقال أن الرسول ﷺ يقتل أصحابه ، أو يعاملهم معاملة سيئة ، وهم في الظاهر من أتباعه .

وبذلك تنزاح شبهتهم وتبطل .

زيادة الإيمان ونقصانه

إيماننا ينقص بالعصـــيان	تزيده الطاعات بالبرهـــان
كم آية تقول بالزيادة	هذا الصواب واغنم الإفادة
ولم يقل بالزيد والنقصـــان	الماتريدي عظيم الشـــان
إذ فســـر الإيمان بالتصديق	والنطق لا غـــير بـلا تحقيق

ش : أراد بقـوله « إيماننا ينقص بالعصيان ... إلخ » أن الإيمان قابل للزيادة والنقصان .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد حدثنا حريز بن عثمان قال : سمعت أشياخنا ، أو بعض أشياخنا ، أن أبا الدرداء قال : إن من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه ، وإن من فقه العبد أن يعلم أيـزداد إيمانه أم ينقص ؟ ، وإن من فقه الرجل أن يعلم نزغات الشيطان أنى تأتيه .

وروى إسماعيل بن عياش ، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال : الإيمان يزيد وينقص .

وروى الإمام أحمد عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال : كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول لأصحابه : هلموا نزدد إيماناً ، فيذكرون الله عز وجل .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : مذهب أهل السنة والحديث أن الإيمان يتفاضل ، وجمهورهم يقولون : يزيد وينقص ، ومنهم من يقول : يزيد ولا ينقص .

وإليك الدليل على زيادته

قال تعالى : (**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً**) [١] ، وقال الله تعالى : (**وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً**) [٢] ، وقال الله تعالى : (**إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى**) [٣] .

وقد اتفق الصحابة والتابعون على ما قلنا من زيادته ونقصه .

وقال كثير من المتكلمين ـ ومنهم الماتريدية ـ : لا يزيد ولا ينقص ، لأنه مجرد التصديق والإذعان ، فهو حقيقة واحدة ، فكيف يمكن أن يقبل الزيادة والنقص ؟ وهذا بناءً على قولهم من عدم دخول الأعمال في الإيمان ، فمن قال بدخول الأعمال ، يقول بزيادته ونقصه ، ومن لا فلا .

وقولهم : إن التصديق لا يقبل الزيادة والنقص مردود بما قال النووي : الأظهر المختار أن التصديق يزيد وينقص بكثرة النظر ووضوح الأدلة ، ولهذا كان إيمان الصديق أقوى من إيمان غيره بحيث لا تعتريه شبهة .

وقال : ويزيده بياناً أن كل واحد يعلم أن ما في قلبه يتفاضل ، حتى أنه يكون في بعض الأحيان أعظم إخلاصاً وتوكلا منه في بعضها ، وكذلك التصديق والمعرفة بحسب ظهور البراهين وكثرتها . ا . هـ .

وقد ألف شيخ الإسلام ابن تيمية كتاباً حافلا في الإيمان وأتى بما لا مزيد بعده .

---

(١) الأنفال : ٢ .

(٢) التوبة : ١٢٤ .

(٣) الكهف : ١٣ .

ومحله غير الأنبياء والملائكة ، لأن الأنبياء يزيد إيمانهم ولا ينقص ، ولا يقال : ما يقبل الزيادة يقبل النقص ، لأننا نقول : إيمانهم مستثنى لوجوب العصمة المانعة ، وإيمان الملائكة لا يزيد ولا ينقص ، لأن إيمانهم جبلي بأصل الطبيعة ، وما كان كذلك لا يقبل التفاوت ، وقال بعضهم : هم كالأنبياء يزيد ولا ينقص ، وما هنا دليل على نفيه .

الاستثناء في الإيمان

وجاز الاستثناء في الإيمان ولم يجب بواضح البرهان
ليس محرما بلا اشـتباه والقول بالتحريم ياذا واهي

ش : الاستثناء في الإيمان ، كأن يقول : أنا مؤمن إن شاء الله ، هو من المسائل التي اختلفوا فيها على ثلاثة أقوال :

الأول : الجواز ، ولذا قال : « وجاز الاستثناء في الإيمان » .

وعليه فليس إذاً بواجب ولا بمحرم ، والقول بالجواز هو قول السلف وأهل الحديث والأشاعرة .

الثاني : الوجوب ، وبه قال بعض الكلابية وبعض أتباع المذاهب .

الثالث : التحريم ، وهو قول الجهمية والمرجئة ، ووافقهم الإمام الماتريدي وأتباعه ، وعليه الحنفية .

دليل المجوزين للاستثناء

هو أن الإيمان المطلق فعل جميع المأمورات ، وترك جميع المحظورات ، فإذا قال الرجل : أنا مؤمن بهذا الاعتبار ، فقد شهد لنفسه بأنه من الأبرار المتقين القائمين بفعل جميع ما أمروا به ، وترك كل ما نهوا عنه ، فإذا قال الرجل : أنا مؤمن ، فكأنه زكى نفسه ، وشهد لنفسه بأنه من الأبرار المتقين ، وهذه شهادة لنفسه بما لا يعلم ، ولو ساغ له أن يشهد لنفسه ، لساغ له أن يشهد بالجنة لنفسه ، ومعلوم تقصير الإنسان في بعض المأمورات ، فيقول الرجل : أنا مؤمن إن شاء الله ، أى بأن يوفقني لجميع خصال الإيمان ، أو يحمل على القبول ، فإذا قال : إن شاء الله ، أي إن

شاء الله قبوله منا ، وكان سليمان بن حرب يحمل هذا على التقبل يقول : نحن نعمل ، ولا ندري أيقبل منا أو لا ؟

ومحل الجواز إذا لم يرد المستثني الشك وإلا فلا ، فالإمام أحمد وغيره من السلف كانوا يجزمون ولا يشكون في وجود ما في القلوب من الإيمان في هذا الحال ، ويجعلون الاستثناء عائداً إلى الإيمان المطلق المتضمن فعل المأمور ، ويحتجون أيضاً بجواز الاستثناء في مالاشك فيه ، وهذا مأخذ ثان ، وإن كنا لانشك في ما في قلوبنا من الإيمان ، فالاستثناء في ما يعلم وجوده مما قد جاءت به السنة لما فيه من الحكمة ، قال تعالى : (**لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين**)[1] .

وقال ﷺ في الميت : « وعليه يبعث إن شاء الله » ، وقال ﷺ : لما وقف على المقابر : « وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » ، وقوله ﷺ « إني اختبأت دعوتي وهي نائلة إن شاء الله من لايشرك بالله شيئاً » ، وهذا كثير .

دليل الموجبين للاستثناء

إن الإيمان هو ما مات عليه الإنسان ، والإنسان إنما يكون عند الله مؤمناً أو كافراً ، باعتبار الموافاة وما سبق في علم الله أنه يكون عليه ، وما قبل ذلك لا عبرة به ، وبناء على ذلك فالسعيد من مات على الإيمان ، ولا عبرة بما قبله من الكفر ، لأنه بموته كان متصفاً بالإيمان ، تبينت سعادته ، وأنه كان سعيداً في الأزل ، والشقي بعكسه .

قال ابن رسلان ـ رحمه الله ـ :

إن الشقي لشقي الأزل   وعكسه السعيد لم يبدل

(١) الفتح : ٢٧ .

فالسعادة والشقاوة عندهم لا تتبدلان ، واستثناؤهم بمعنى إن شاء الله إيماننا في الأزل ، أو إن شاء الله موتنا على الإيمان ، لأنه لا يعلم أحد أحداً مؤمناً إلا بموته على الإيمان ، وعلى هذا كثير من أتباع المذاهب ، واطرد بعضهم حتى في الأعمال الصالحة فإنه يقول : صليت إن شاء الله ، وأفرط بعض غلاتهم حتى قال : هذا ثوبي إن شاء الله طرداً في كل شيء .

ولكن ليس هذا قول أحد من السلف ، لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم ، ولا كان الذين يستثنون في الإيمان أو يجوزونه يعللونه بهذا التعليل ، وإنما يعللونه بماسبق من أن من قال : أنا مؤمن ، فإن هذه الدعوى تتضمن فعل جميع المأمورات ، وترك جميع المنهيات ، فكأنه زكى نفسه ، وشهد لها بالولاية والصلاح ، كما سلف .

شبهة المحرمين للاستثناء

حيث أن الجهمية والمرجئة قالوا : إن الإيمان شيء واحد ، يعلمه الإنسان من نفسه كالتصديق بالرب ، فعلمنا بإيماننا كعلمنا بتكلمنا بالشهادتين وحبنا للرسول ﷺ ، كما نعلم بأننا قرأنا الفاتحة ، ونحو ذلك من الأمور المقطوع بها ، فلا معنى للاستثناء ، ويأتي الاستثناء فيما يشك به ، وإيماننا لاشك فيه ، فمن استثنى في إيمانه فهو شاك فيه ، وسموهم الشاكة ، وبناء على هذا الأصل الفاسد ، قال بعض غلاة الحنفية بعدم جواز نكاح المرأة الشافعية ، لأنها تستثني في إيمانها ، والاستثناء شك من القائل ، فلم يصح إيمانها ، وبالتالى لايصح نكاحها ، وكفى بهذا القول قبحاً وضلالاً وجهلا .

وبعد عرض هذه الأقوال الثلاثة تجد أن القول بجواز الاستثناء هو الصواب ، وهو الوسط بين الطرفين المتطرفين ، وأعني بهما القائلين بالوجوب والقائلين بالتحريم .

الإســـلام

وفسر الإسلام بالأعمـــال والانقياد زد لذي الجلال
كالنطق بالشهادة والصـــلاة والصوم والحج مـــع الزكاة
وأمر معروف ونهي المنـــكر وإن يظن النهي لم يؤثـــر

ش : لما أنهيت الكلام عن الإيمان ، شرعت في بيان الإسلام ، فالإسلام في اللغة يأتي بمعنى الاستسلام والانقياد ، كما يأتي بمعنى الصلح والأمان .

وشرعاً : الاستسلام لله ، والانقياد له بالخضوع والإذعان ، بامتثال الأوامر ، وترك المنهيات .

والإســلام هو دين جميع الأنبياء والمرسلين ، كما أخبر الله تعالى عن نبيه نوح أنه قال : (**وأمرت أن أكون من المسلمين**)[1]

وكمــا أخبــر الله عن نبيــه إبــراهيم بقــوله تعالى : (**ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون**)[2] .

وقال تعالى عن يوسف مخاطباً ربه : (**أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين**)[3] .

---

(١) يونس : ٧٢ .
(٢) البقرة : ٣٢ .
(٣) يوسف : ١٠١ .

وقال تعالى عن موسى قائلا لقومه : **(يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين)**(١) .

وقال تعالى عن عيسى : **(فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله ، قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون)**(٢) .

والإسلام وإن كان دين جميع الأنبياء والمرسلين لوحدة الأديان في أصولها ، ولكن الإسلام هو الاسم الذي عرف به الدين الذي جاء به محمد ﷺ ، فكأنه صار عليه علماً بالغلبة .

ولم تكن هذه التسمية من الرسول ﷺ نفسه ، وإنما كانت من الله سبحانه وتعالى ، قال الله تعالى : **(وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس)**(٣) .

وقال الله تعالى : **(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا)**(٤) .

وقال سبحانه : **(إن الدين عند الله الإسلام)**(٥) ، وقال تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين)(٦) .

وإذ عرفت ما سبق تحريره ، فاعلم أن الإيمان يرتكز على

---

(١) يونس : ٨٤ .
(٢) آل عمران : ٥٢ .
(٣) المؤمنون : ٧٨ .
(٤) المائدة : ٣ .
(٥) آل عمران : ١٩ .
(٦) آل عمران : ٨٥ .

تصديق الجنان ، والإقرار باللسان ، والعمل بالأركان ، والإسلام يرتكز ، أو نقول : يطلق على أعمال الجوارح الظاهرة من القول والعمل ، وهو الجزء الثالث من الإيمان(١) .

وما لنا نذهب يمينا وشمالا في تفسير الإيمان والإسلام ، وقد فسرهما النبي ﷺ تفسيراً ظاهراً واضحاً يفهمه الذكي والبليد ، فقال لما سأله جبريل عن الإيمان : « أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » ، وهذه من وظائف القلب ، وهو المعبر منه بالتصديق .

وفسر الإسلام بأعمال الجوارح الظاهرة من القول والعمل ، فأجاب لما سأله جبريل عن الإسلام : « أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا » ، لأن من امتثل أمر الله ورسوله ، وأتى بهذه الأركان الخمس ، فقد استسلم وانقاد وخضع لله ، وهو معنى الإسلام .

كما فسر الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه ، وإن لم تكن تراه ، فإنه يراك ، ثم قال : يا عمر أتدري من السائل ، قلت (٢) : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » ، فثبت أن الدين يعم الثلاث ، فأعلاها الإحسان ، وأوسطها الإيمان ، وأدناها الإسلام .

ثم إنه مما يجمل بي القول ، أن أبين للقاريء أن النبي ﷺ وإن كان قد فسر في حديث جبريل الإيمان بالاعتقادات القلبية ، والإسلام بالأعمال الظاهرية ، ولكنه قد فسر الإيمان في حديث وفد عبد القيس بتفسير الإسلام ، كما في الصحيحين عن ابن عباس

---

(١) لأن العمل شرط كمال في الإيمان لا شرط صحة ولا شطر منه كما سبق .

(٢) أى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

أنه قال لوفد عبد القيس : « آمركم بأربع : الإيمان بالله وحده ، وهل تدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا من المغانم الخمس » .

وكما في الحديث : « الإيمان بضع وستون شعبة ، أو سبعون ، أعلاها لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » .

وكما فسر في حديث آخر الإسلام بما فسر به الإيمان ، كما في مسند الإمام أحمد ، عن عمرو بن عنبسة ، قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال يا رسول الله : ما الإسلام ؟ قال : « أن تسلم قلبك لله ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك ، قال : فأي الإسلام أفضل ؟ قال : الإيمان ، قال : وما الإيمان ؟ ، قال : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ورسله ، والبعث بعد الموت » .

تنبيه أول :

قد علمنا من تفسير الإيمان والإسلام أن الإسلام أعم ، والإيمان أخص ، فكل مؤمن مسلم ولا ينعكس ، هذا من حيث مفهوميهما ، وأما الحكم الشرعي فلا يصح أن يقال : هو مؤمن لا مسلم ، أو مسلم لا مؤمن [١] .

قال شيخ الإسلام : قال أبو طالب المكي : مثل الإسلام من الإيمان كمثل الشهادتين ، إحداهما من الأخرى في المعنى

---

(١) وذلك لتفسير الإيمان في حديث وفد عبد القيس بأعمال الإسلام ، وكذا في حديث الإيمان بضع وستون شعبة .. إلخ ، كما فسر الإسلام بما فسر به الإيمان كما ورد في الحديث من رواية عمرو بن عنبسة كما سطرته في الصلب .

والحكم ، فشهادة الرسول غير شهادة الوحدانية ، فهما شيئان في الأعيان ، وإحداهما مرتبطة بالأخرى في المعنى والحكم كشيء واحد ، كذلك الإيمان والإسلام أحدهما مرتبط بالآخر فهما كشيء واحد ، لا إيمان لمن لاإسلام له ، ولا إسلام لمن لا إيمان له ، إذ لا يخلو المسلم من إيمان به يصح إسلامه ، ولا يخلو المؤمن من إسلام به يحقق إيمانه ، ثم قال : وقد أجمع أهل القبلة على أن كل مؤمن مسلم ، وكل مسلم مؤمن .ا ـ هـ .

تنبيه ثان :

هل الإسلام والإيمان شيئان ، أم شيء واحد ؟

قيل : هما شيء واحد ، ونقل عن محمد بن نصر المروزي وابن عبد البر .

وقيل : هما شيئان ، وهو قول الأكثرين كأحمد بن حنبل ، وابن أبي ذئب ، وأبي خيثمة ، ويحيى بن معين ، والمعنى على قولهم : شيئان في المفهومية ، ومن حيث هما لا من حيث الحكم ، لما قدمنا من كلام شيخ الإسلام .

وكأن حجة محمد بن نصر المروزي ، أن الرسول ﷺ فسر الإيمان وأطلقه على ما أطلق عليه الإسلام ، كما في حديث وفد عبد القيس ، وفسر الإسلام بما فسر به الإيمان ، كما في مسند الإمام أحمد عن عمرو بن عنبسة .

ولعل جواب الأكثرين أن الإسلام والإيمان من الأسماء التي تشمل مسميات متعددة عند إفرادها وإطلاقها ، فإذا قرن ذلك الاسم بغيره ، صار دالا على بعض تلك المسميات ،والاسم المقرون به دال على باقيها ، وهذا كاسم الفقير والمسكين ، فإذا أفرد أحدهما ، دخل فيه كل من هو محتاج ، فإذا قرن أحدهما بالآخر ، دل أحد الاسمين على بعض أنواع ذوي الحاجات ، والآخر على

باقيها ، فهكذا اسم الإسلام والإيمان ، إذا أفرد أحدهما كما في حديث وفد عبد القيس حيث أفرد الإيمان دخل فيه الإسلام ، فإذا قرن بينهما كما في حديث جبريل ، دل أحدهما على بعض ما يدل عليه بانفراده ، ودل الآخر على الباقي ، وأخص من هذين أن يقال إذا اجتمعا تفرقا ، وإذا تفرقا اجتمعا ، وحينئذ يقال : ما الفرق بينهما ؟ فنقول : تقدم ما يفهم منه الفرق ، وهو أن الإيمان وهو التصديق من وظائف القلب ، والإسلام وهو الخضوع وذلك يكون بعمل الجوارح ، فإذا جاءا معاً كما في حديث جبريل ، دل على أن الإيمان جنس تصديق القلب ، وأن الإسلام جنس العمل ، ولو قال قائل : رأينا الأحاديث والآيات ظاهرها التعارض كما في قوله تعالى : (**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ...**)[1] الآية .

فهنا خصت الآية الإيمان بالاعتقادات الباطنة كما في قوله تعالى : (**قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم ..**)[2] الآية ، وأما قوله تعالى : (**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال**) - **إلى قوله تعالى** - : (**وأقام الصلاة وآتى الزكاة**)[3] ، فهنا أدخل في الإيمان ما هو من وظائف الإسلام ، كإيتاء المال ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والأحاديث كما في حديث جبريل ، وحديث وفد عبد القيس ، وحديث الصحيحين : « الإيمان بضع وسبعون ، أو بضع وستون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » ، ولفظه لمسلم ، فالجواب هو الجواب السابق .

---

(١) البقرة : ٢٨٥ .

(٢) البقرة : ١٣٦ .

(٣) البقرة : ١٧٧ .

حكم مرتكب الكبيرة بأنه مؤمن

فمؤمن مرتكب الكبيرة ... كذا إذا أصر بالصغيرة
بذا أتت آي من القرآن ... لكن يعد من ذوي النقصان
كما يعد من ذوي العصيان ... وليس خارجا من الإيمان
ليس مخلدا مع الكفار ... والمشركين في عذاب النار
إلا إذا أشرك بالرحمان ... فإنه مخلد النيران
أو استحل فعل شيء حرما ... فكافر عند جميع العلما
وكفروا مرتكب الكبائر ... من خرجوا على الإمام الباهر
أعني بذاك نجل عم المصطفى ... رابع أصحاب النبي الخلفا
من أجل ذا مخلد قد قالوا ... وإنهم عن الصواب مالوا

ش : **مذهب أهل السنة والجماعة سلفا وخلفا** ، أن مرتكب الكبيرة ، أو المصر على الصغيرة ، لا يكون كافرا خارجا عن نطاق الإسلام والإيمان ، فلذا ينصون في كتب العقائد بأنهم لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر ، كما قال السفاريني في منظومته :

لا يخرج المرء من الإيمان ... بموبقات الذنب والعصيان

ولأهل السنة والجماعة أدلة من القرآن والسنة على كون العاصي غير كافر ، وإذا كان غير كافر ، فليس مخلدا في النار مع الكفار والمشركين ، وسيأتي بيان تلك الأدلة ، لكن وإن لم يكن كافراً فهو فاسق ، ويقال فيه مؤمن ناقص الإيمان ، كما قلت في النظم : لكن يعد من ذوي النقصان ، فهو مؤمن بإيمانه ، فاسق بكبيرته .

وقالت الخوارج : إنه كافر ، ومخلد في النار .

وقالت المعتزلة : لا كافر ولا مؤمن ، ننزله منزلة بين المنزلتين ، لكنهم وافقوا الخوارج في كونه مخلداً في النار .

أدلة الخوارج على كفر العاصي

١ - قوله تعالى : (**إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا**)[١] .

٢ - وقوله تعالى : (**هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن**)[٢]، حيث لم يجعل الله بين الكفر والإيمان منزلة ثالثة ، ومن كفر وحبط عمله فهو مشرك ، والإيمان رأس الأعمال ، وأول الفرائض ، ومن ترك ما أمره الله به ، فقد حبط عمله ، فهو بلا إيمان ، والذي لا إيمان له مشرك .

ويمكن أن نضم إلى ذلك بعض الآيات التي تدل على كفر من ارتكب كبيرة مما ذكره غيرهم من العلماء مثل قوله تعالى :

٣ - (**ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين**)[٣] .

٤ - وقوله تعالى : (**إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون**)[٤] .

٥ - وقوله تعالى : (**إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله**)[٥] .

---

(١) الدهر : ٣ .
(٢) التغابن : ٣ .
(٣) المائدة : ٤ .
(٤) يوسف : ٨٧ .
(٥) النحل : ١٥ .

٦ – وقوله تعالى : (**ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين**)[١] ، إلى غير ذلك من الآيات .

وقد يتعلقون في رأيهم هـذا بما ورد في الأحاديث التي تسير على هذا النمط ، وتـدمغ مرتكبي الكبائر بالشرك أو ما يقتضيه ، مثل ما يأتي :

٧ – قول النبي ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر » .

٨– وقول النبي ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه : « إنك امرؤ فيك جاهلية » .

٩ – وقوله ﷺ : « إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » .

١٠ – وقوله ﷺ : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » .

١١ – وقوله ﷺ : « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » .

١٢ – وقوله ﷺ ، « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مـؤمن ، ولا يشرب الخمـر حين يشربها وهو مؤمن » .

أدلة أهل السنة على أن العاصي ليس بكافر :

١ – قوله تعالى : (**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**)[٢] .

---

(١) آل عمران : ٩٧ .

(٢) النساء : ٤٨ .

فقد صرحت الآية أن غير الشرك من سائر المعاصي قابل لأن يغفره الله لمن يشاء .

٢ – وقوله تعالى : (**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم**)[١] .

فترى الآية تصرّح بغفران الذنوب ، وأكّدت بقوله جميعاً ، ولكنها مقيدة بغير الشرك للآية السالفة .

٣ – وقوله تعالى : (**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما**)[٢] ، فسمّاهم رغم الاقتتال مؤمنين ، والطائفة تطلق على الواحد والجمع ، ويزيدك إيضاحاً وبياناً أن الله ذكر بعد ذلك قوله تعالى : (**إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون**)[٣] .

٤ – وقوله تعالى : (**يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيآتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار**) **الآية**[٤] ، وهل التوبة إلا من ذنب ؟ ومع ذلك خاطبهم بالإيمان بقوله تعالى : (**يا أيها الذين آمنوا ...**) .

٥ – وقوله تعالى : (**يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ، فمن عفي له من أخيه شيء ، فاتباع بالمعروف وأداء إليه**

---

(١) الزمر : ٥٣ .
(٢) الحجرات : ٩ .
(٣) الحجرات : ١٠ .
(٤) التحريم : ٩ .

بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة)[1] ، فسمى الله القاتل مؤمنا ، وجعله أخا لولي المقتول ، ولم يخرجه بالقتل من الإيمان .

الأدلة من السنة كثيرة ، وها أنا ذا أذكر بعضها :

١ - « في الصحيحين ، عن النبي ﷺ من حديث عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - أنه قال وحوله عصابة من أصحابه : « بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوني في معروف ، فمن وفى منكم ، فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك ، فعوقب به في الدنيا ، فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ، ثم ستره الله ، فهو إلى الله ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقبه » ، قال : فبايعناه على ذلك .

٢ - وقال ﷺ فيما يروي عن ربه تعالى : « ابن آدم لو لقيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم أتيتني لا تشرك بي شيئاً ، أتيتك بقرابها مغفرة » ، أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وأخرجه الطبراني من حديث ابن عباس ، وأبو عوانة في مسنده من حديث أبي ذر ، وأيضاً الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي ذر أيضاً .

٣ - وأخرج مسلم في صحيحه ، عن أبي ذر - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : يقول الله تعالى : « من تقرب مني شبرا ، تقربت منه ذراعاً ، ومن تقرب مني ذراعا ، تقربت منه باعا ، ومن أتاني يمشي ، أتيته هرولة ، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة ، لا يشرك بي شيئاً ، لقيته بقرابها مغفرة » .

---

(١) البقرة : ١٧٨ .

٤ - وأخرج الإمام أحمد من رواية أخشن السدوسي ، قال : دخلت على أنس - رضي الله عنه - فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « والذي نفسي بيده ، لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ، ثم استغفرتم الله ، لغفر لكم » .

٥ - وقال ﷺ : « من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة » .

٦ - وقال ﷺ : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » .

٧ - وقال ﷺ : « إن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله ، يبتغي بذلك وجه الله » .

٨ - وفي حديث الشفاعة : « أخرجوا من النار من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » ، وفيه يقول الله عز وجل : « وعزتي وجلالي لأخرجن من النار من قال : لا إله إلا الله » .

فالتوحيد من أعظم بل أعظم أسباب المغفرة ، فهو السبب الأعظم ، فمن فقده فقد المغفرة ، ومن جاء به فقد أتى بأعظم أسباب المغفرة .

فصل
في ذكر الخلاف في إيمان المقلد

والجزم بالتقليد في الأصول ... قد صححوا للنقل والمعقول
فالجازمون من عوام الخلق ... موحدون للإله الحق
بعدم الجواز بعض العلما ... قال به فلتنبذن ولتعلما
ثم على هذا المقال اختلفا ... بالكفر قال بعض من قد أسرفا
وبعضهم قد قال بالعصيان ... كلاهما مخالف البرهان
وفي الفروع جاز أن تقلدا ... من الأئمة الكرام أحدا
لكن إذا قد ظهر الدليل ... فلا يجوز ذاك يا خليل

اعلم أن التقليد هو قبول كلام الغير من غير معرفة دليله .

وقد وقع النزاع بين العلماء في الشخص المقلد : هل يصح إسلامه وإيمانه ؟ على أقاويل .

وقد منع كثير من العلماء التقليد في الأصول والفروع ، ومنهم من حرمه في الأصول فقط .

وإليكم مآخذ من حرم التقليد :

الأول : إن الله أمرنا بالتدبر والتفكر والنظر في مخلوقاته وآياته من السموات والكواكب والأرضين وغير ذلك .

الثاني : إن الله ذم التقليد ، وسفه رأي من قلد آباءه

وأجداده ، فقال تعالى : (**بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون**)[1] .

الثالث : يقول الله تعالى : (**فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك**)[2] ، فألزمنا بالعلم ، ويلزمنا ذلك لقوله تعالى : (**اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون**)[3] ، فتعين طلب اليقين في الوحدانية ، ويقاس عليها غيرها ، والتقليد لا يفيد إلا الظن ، والظن لا يكفي هنا .

الرابع : إن التقليد لو أفاد علماً ، فإما بالضرورة وهو باطل ، وإما بالنظر فيستلزم الدليل والأصل عدمه ، ولهذا قال ابن حمدان في نهاية المبتدئين : كل ما يطلب فيه الجزم ، يمتنع التقليد فيه، والأخذ بالظن ، لأنه لا يفيده ، قال كثير من أهل النظر : يحرم التقليد في معرفة الله والتوحيد والرسالة ، وكذا في أركان الإسلام الخمسة ونحوها مما تواتر . ا . هـ .

وبناء على حرمة التقليد وعدم الاكتفاء به ، قال بعضهم بكفر المقلد ، وعليه السنوسي في الكبرى ، ولا يخفى ما في هذا القول من المجازفة والإسراف ، وتكفير الأكثرين ، لأنه من البديهي أن الذين دخلوا في الدين ، كان أكثرهم من الجهال والأعراب والأجلاف ، وقد حكم النبي ﷺ والصحابة ـ رضي الله عنهم ـ من بعده بصحة إيمانهم ، ولم يوجب عليهم معرفة الدليل والبرهان .

وقال بعضهم بعصيانه مع الاكتفاء به ، سواء كان فيه أهلية النظر أم لا ؟ وبعضهم قيد عصيانه إن كان فيه أهلية النظر .

والحق الذي لا محيد عنه ، أن الجازمين من عوام المسلمين

---

(١) الزخرف : ٢٢ .
(٢) محمد : ١٩ .
(٣) الأعراف : ٣ .

موحـدون ومـؤمنـون ، وإن كان جزمهم عن تقليد ، وعليه أكثر المحققين ، ولا يجب النظر ولا الاستدلال ، بل قال بعضهم : إن إيمان المقلد صحيح ، ويحرم عليه النظر ، لأنه مظنة الوقوع في الشبه والضلال لاختلاف الأذهان .

قال بعض علماء الشافعية ومنهم النووي : الآتي بالشهادتين مؤمن حقا ، وإن كان مقلداً على مذهب المحققين والجماهير من السلف والخلف ، لأنـه ﷺ اكتفى بالتصديق بما جاء به ، ولم يشتـرط المعرفة بالدليل ، وقد تظاهرت بهذه الأحاديث الصحاح التي حصل بمجموعها التواتر والعلم القطعي . ا. هـ .

قال أبو منصور الماتريدي : أجمع أصحابنا على أن العوام مؤمنون ، عارفون بربهم ، وأنهم حشو الجنة ، والخلاف في إيمان المقلد ، إنما بالنظر لأحكام الآخرة ، وأما أحكام الدنيا من التناكح والتـوارث وحـرمـة المـال والدم ونحـو ذلك فيكفي فيهـا الإقرار للشهادتين ، ما لم يأت بمناقض .

التقليد في الفروع :

تشعبت الآراء في هذه المسألة ، فقال كثيرون بوجوبه على من ليس مجتهداً مستدلين على ذلك بأمور :

١ - إن الإجمـاع منعقـد على أن العامي مكلف بالأحكام ، وتكليفه طلب رتبة الاجتهاد محال ، لأنه يؤدي إلى أن ينقطع الحرث والنسل ، وتتعطل الحرف والصنائع ، ويؤدي إلى خراب الدنيا لو اشتغل الناس بجملتهم بطلب هذه الرتبة ، ولا يخفى على كل عاقل مشـاهـد أحـوال الناس ، وتباين أفهامهم ، وتخالف درجاتهم ، واشتغالهم لما يقوم بمؤنهم ، وعلو هذه الدرجة التي لا تنال إلا بعد مضي سنـين في الدراسـة في أنواع العلوم من لغة وصرف ونحو وحديث وأصول وتفسير وغير ذلك يفوت بعض تلك الفوائد .

٢ – إن الطالب لهذه الصفة وهي درجة الاجتهاد إنما يطلب أمراً عسيراً ومنصباً كبيراً ، ولا ينالها إلا أفراد قلائل لا كل فرد .

وإذا استحال هذا لم يبق إلا سؤال العلماء وهو التقليد ، لقوله تعالى : (**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**)[١] ، والذي يسأل إنما يسأل عن ما لا يعلم .

٣ – إجماع الصحابة ، فإنهم كانوا يفتون العوام ، ولا يأمرون بنيل رتبة الاجتهاد .

وذلك معلوم بالضرورة والتواتر من علمائهم وعوامهم .

وذهب قوم إلى وجوب التقليد مطلقا وبحرمة النظر ، حكاه صديق في حصول المأمول ، ولا أدري كيف أوجبوا التقليد على من يكون مجتهداً ، وإذا حرموا النظر ، فمن يكون مجتهداً حتى يقلده الناس ؟ ، وذهب قوم إلى أنه لا يجوز التقليد مطلقاً .

قال القرافي : مذهب مالك وجمهور العلماء وجوب الاجتهاد وإبطال التقليد ، وادعى ابن حزم الإجماع على النهي عن التقليد .

وقد صرحت الأئمة الأربعة بالنهي عن التقليد ، وأجابوا عما استدل به الموجبون من أن العامي لا يمكنه نيل الاجتهاد ، وهو محال لكونه درجة عالية .. إلخ .

ولكن ليس الأمر كما ذكر ، لأنه لا يخلو من حالتين :

١ – إما أن يريد البحث والنظر ، فهذه أدوات الاجتهاد مبذولة له وميسرة ، لأن العلوم دونت وضبطت وشرحت ، وليس عليه أن يحفظ أو يتقن كل العلوم أو جميع الحديث والتفسير ، بل عليه أن يعرف من العربية درجة وسطى ، ومثله الأصول ، ومن

---

(١) الأنبياء : ٧ .

الحديث والقرآن ما يتعلق بالأحكام فقط ، وهذا كما ترى ليس كما ذكروه ، وبعدوا الطريق حتى غلا بعضهم وقال : إن رتبة الاجتهاد قد انقطعت من مدة تسعة قرون أو أكثر ، ولا يمكن أن يكون اليوم مجتهد ، ويكفي في بطلانه تصوره ، وهل هذا إلا تحجر على الفضل الإلهي والقدرة الربانية ؟ .

ومن رأى هذا العصر ووسائل العلم ووفرة الكتب في كل فن ، وكتابات المؤلفين بأسلوب رائق وسهل يفهمه أدنى طالب علم ، علم فساد هذه المقالة وبطلانها ، فلا حاجة إلى ردها والاشتغال ببيان فسادها[1] .

٢ - وإما أن يكون عامياً ، فوظيفته السؤال ، لأنه لا يريد أن يقرأ ، أولا يتمكن أن يبحث ، فعليه أن يسأل أهل العلم المعروفين بالدين ، وكمال الورع ، عالمين بالكتاب والسنة ، فيسألهم عن حادثته طالباً منهم حكمها من الكتاب والسنة ، فحينئذ يأخذ الحق من معدنه ، ويستفيد الحكم من موضعه ، ومن مشى في هذا الطريق لا يفقد من يرشده إلى الحق ، فإن الله أوجد لهذا الشأن من يقوم به ، ويعرفه حق معرفته ، وعلى هذا ينزل قولهم : إن الصحابة كانوا يفتون العوام ، ولا يأمرونهم برتبة الاجتهاد ، لأن المفتين من الصحابة كانوا يجيبون السائلين ، ويرشدونهم بنص السنة والكتاب .

واستدلالهم بقوله تعالى : (**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**)[2] .

جواب هذا ذكرناه آنفاً .

---

(١) راجع إعلام الموقعين للعلامة ابن القيم ، وإيقاظ همم أولي الأبصار للفلاني ، والقول المفيد في حكم التقليد ، لتعلم ما قلناه .

(٢) النحل : ٤٣ - الأنبياء : ٧ .

وقال بعضهم : يجوز التقليد في الفروع كما ذكرناه في النظم ، وبناء على القول بالتقليد ، هل يلزم التمذهب بمذهب معين ؟ فيه نزاع بين متأخري أصحاب أحمد والشافعي وغيرهما .

الحق أنه لا يجب ، كما أنه ليس له أن يقلد من يوافق غرضه .

قال شيخ الإسلام : التمذهب بمذهب بحيث يأخذ برخصه وعزائمه طاعة غير النبي في كل أمره ونهيه هو خلاف الإجماع .

وتوقف أيضاً في جواز ذلك ، فضلا عن وجوبه ، وقال : إن خالف لقوة الدليل ، أو زيادة علم أو تقوى ، فقد أحسن ولم يقدح ذلك في عدالته بلا نزاع ، بل يجب في هذا الحال ، وأنه نص الإمام ، وعلى كل إذا استبان له الدليل من الكتاب أو السنة بخلاف مذهبه ، وجب عليه أن يتبعه ويترك المذهب ، لقوله تعالى : **(اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء)**[1] ا . هـ .

وحكى ابن عبد البر الإجماع على أنه من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد كائناً من كان .

قال صدر الوزراء عون الدين أبو المظفر بن هبيرة : إنه من مكائد الشيطان أن يقيم أوثاناً في المعنى تعبد من دون الله ، مثل أن يتبين له الحق فيقول : هذا ليس بمذهبنا تقليداً لمعظم عنده قد قدمه على الحق ا . هـ .

وقال قوم بلزوم التمذهب بمذهب ، فعليه هل يجوز الانتقال عنه إلى مذهب آخر ؟ منهم من منعه مطلقاً ، ومنهم من أجاز .

والثالث التفصيل : وهو إن كان عمل بمقتضى ذلك المذهب

---

(١) الأعراف : ٣ .

الذى اعتنقه ، وتعبد بصلاة وصيام ونحو ذلك غير ملتفت لغيره ، لزمه الوقوف عليه ، وامتنع عليه الانتقال .

والصواب عند من جوز الانتقال بلا تفصيل ، وما سواه عار عن الحجة والدليل .

الأخذ بقول إمام معتبر

وإذا عجز عن استنباط مسألة من الكتاب والسنة ، ورجع الأمر بين أن يأخذ برأيه ، وبين أن يأخذ بقول إمام من الأئمة ؟ .

فهنا نقول له : الأخذ بقول إمام أحسن وأولى من الاكتفاء برأيك ، بل يجب التقليد على العاجز عن معرفة الدليل ، وذلك لأن القول الوسط في هذا الباب هو :

أن العوام لابد لهم من سؤال العلماء والاقتداء بهم ، وتقليد الأئمة المهتدين .

وأما من نال حظاً في الفقه والتفسير والحديث والأصول والعربية ، وأمكنه أن يعرف الناسخ والمنسوخ ، والمقيد والمطلق ، والعام والخاص ، واستطاع أن يقف على خلاف العلماء وأدلتهم ، فيجب عليه أن يأخذ بالدليل الذي يراه صحيحاً أو أقوى من المذهب ، ويترك المذهب ، وإن لم يصل درجة الاجتهاد المطلق أو الاجتهاد المذهبي ، ومن منع بلوغ درجة الاجتهاد المطلق أو المذهبي أو الأخذ بالدليل ، فقد أخطأ خطأ كبيراً .

فاتضح مما سقناه من الأقوال في التقليد في الفروع أن ها هنا طرفين ، ووسط .

الطرف الأول : من يمنع الاجتهاد مطلقاً ، ويحكم بغلق باب

الاجتهاد منذ قرون ، وأن الواجب تقليد أحد الأئمة الأربعة ، كما قال اللقاني في الجوهرة :

وواجب تقليد حبر منهم كذا حكى القوم بلفظ يفهم

وهذا القول كما يرى القاريء ، فيه من الغلو والشطط ، والتحجير على رحمة الله وفضله على عباده ، وخطئه الواضح ، ما لا يخفى .

الطرف الثاني يقول :

يجب الاجتهاد على كل فرد من المسلمين في القرى والبادية والحاضرة ، الجاهل منهم والمتعلم .

وهذاالقول كذلك فيه من التكليف بما لا يمكن لكل أحد ، وفيه من الشدة والغلو ما لا يقبله العقل الصحيح ولا الدليل الراجح .

القول الوسط يقول :

يجب الاجتهاد لمن بلغ درجة الاجتهاد المطلق أو المقيد .

كما أن من لم يبلغ هذه الدرجة ، ولكنه استطاع أن يأخذ بالدليل من القرآن والسنة ، فعليه أن يتبع الدليل ولو خالف المذهب كما سبق البيان .

وأما من لم يستطع بلوغ درجة الاجتهاد ، ولم يستطع حتى الأخذ بالدليل ولو في بعض المسائل كحال أكثر العوام ، بل وأكثر العلماء في هذه العصور ، فهذا وظيفته التقليد ، بل يجب عليه ، وعلى هذا عَمَلُ المسلمين من قرون عديدة .

فصـــل
القضـــاء والقـــدر

وكل شيء بقضاء وقدر   ليس الرضى بواجب على البشر
بكل مقضي ولكن حتّمـــا   رضـــاء خلق بالقضاء فاعلما

يقول : إن كل شيء كائن بقضاء وقدر ، كما قال الله تعالى :
(ما أصـــاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير)[1] .

ومعنى القدر : إيجاد الله الأشياء على قدر مخصوص ووجه معين .

والقضـــاء : إرادة الله الأشياء في الأزل على ما هي عليه فيما لا يزال ، فالقضاء من صفات الذات ، والقدر من صفات الأفعال .

وهناك أقوال أخر تركناها كما في تحفة المريد للباجوري .

قوله : ليس الرضى بواجب على البشر :

معناه : أنه ليس محتم على العبد أن يرضى بالمقضي الذي هو من فعل العبد ، لكن فيه تفصيل سيأتي ، وإنما يجب عليه الرضا بالقضاء الذي هو من صفات الله .

وإليك التفصيل :

قال الحافظ ابن عبد الهادي : القضاء يراد به ثلاثة أشياء .

(١) الحديد : ٢٢ .

أحدها : الأمر والنهي ، فهذا الرضا به واجب .

والثاني : الكفر والمعاصي ، فهذا الرضا به ليس بواجب أقول ولا بجائز .

والثالث : المصائب التي تصيب العبد ، فهل الرضى بها واجب أو مستحب ؟

وأما المقضي وهو الكفر والمعاصي التي هي أفعال العباد ، فالرضا بها ليس بواجب .

ولنا أن نقول بعبارة أخرى : نرضى بالقضاء الذي هو تقديره تعالى ، ولا نرضى بالمقضي الذي من أفعالنا القبيحة ، وبهذا أجاب بعض أهل السنة للمعتزلة عن قولهم : لو كان الكفر بقضاء الله لوجب الرضا به ، لأن الرضا بالقضاء واجب ، ولكن بالكفر كفر ، فأجابهم بالفرق بين القضاء والمقضي .

وقال بعضهم : نرضى بالمقضي من حيث أنه خلق الله ومراده ، ونسخطه من حيث هو مكتسب لنا ، وهذا من باب اختلاف الجهتين ، كما قال الفقهاء في الوضوء من آنية الذهب والفضة .

وفي مسند الإمام أحمد ، ومسند الترمذي ، من حديث سعد ابن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « من سعادة ابن آدم استخارة الله عز وجل ، ومن سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله ، ومن شقوة ابن آدم سخطه مما قضاه الله ، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله » . والله أعلم .

أفعـــال العبـــاد

أفعالنا معــاشر العبــاد	مخلوقة لربنــا الجــواد
لكن للعبد فكسب حاصـــل	بالاختيار غير ذا فباطـــل
من قول أهـــل الجبر واعتزال	قد خالفوا الإله ذا الجــلال
وخالق للخـــير والشـــرور	كما أتى بواضـــح المســطور

هذه مسألة خلق الأفعال وكسب العباد ، قد وقع فيها النزاع بين طوائف المسلمين ، وهي من الغوامض التي ضل في بيدائها الأكثرون .

اتفق أئمــة السلف قبل ظهور أهل البدع والأهواء على أن الخالق هو الله لا سواه ، وأن الحوادث كلها حادثة بقدرة الله ، لا فرق بين فعـل العبد وغيره . إذاً فأفعالنا معاشر العباد جميعها خيرها وشرها مخلوقة لله .

وإليك الدليل على ذلك :

١ - الـكتـــاب :

قال الله تعالى : **(ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو)**[١] ، فأتى بكلمة كل الدالة على الإحاطة والعموم ، وأفعالنا من جملة الأشياء المسورة بالسور الكلي ، وقال الله تعالى : **(وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم)**[٢] ، وقال تعالى : **(والله خلقكم وما**

---

(١) غافر : ٦٢ .
(٢) الأنعام : ١٠١ .

تعملون)[1] ، وقال تعالى : **(هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض)**[2] ، وصرح بخلق الشر كقوله تعالى : (قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق) .

٢ - السـنة :

أ - جاء في الحديث الذي رواه عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ : « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » .

ب - وحديث : « أول ما خلق الله القلم فقال : اكتب ، قال : وما أكتب ؟ . قال : ما هو كائن إلى يوم القيامة » .

واعلم أن فعل المخلوق يضاف إلى الله خلقا وإلينا كسباً ، هذا معنى قوله : لكنه للعبد كسب حاصل .

وهنا ثلاث طوائف :

القـدرية تقول : إن العبد خالق فعل نفسه ، وإن الله ما أحـدث الشر ولا الخير ، بل أمر بالطاعة ، ونهى عن المعصية ، وزعمـوا أن إثبـات مشيئته العامة ، وخلقه لكل شيء ، يلزم منه القدح في عدل الرب ، فعظموا الأمر والنهي ، وضلوا في القدر .

وقابلتهم الجبرية فقالوا : إن العبد كالحجارة ، وأنه لا فعل للعبـد أصلا ، ولا قدرة له عليه ، ولا قصد ،ولا اختيار ، وأقروا بالمشيئة العامة ، وأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه ، فأحسنوا في إثبات القدر ، وأساؤوا في الأمر والنهي والوعد والوعيد ، وأفرطوا حتى غلا بهم الأمـر في الإلحـاد ، فصـاروا من جنس المشركين القائلين : لو شاء الله ما أشركنا ، ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من دونه من شيء .

---

(١) الصافات : ٩٦ .

(٢) فاطر : ٣ .

وتوسطت أهل السنة فأقرت بالقدر ، وقالوا : إن جميع أنواع الطاعات والمعاصي والكفر والفساد واقع بقضاء الله وقدره لا خالق سواه ، والعبد غير مجبور على أفعاله ، بل هو قادر عليها ومريدها ، هذا متفق عليه بين سلفهم وخلفهم ، ولكن اختلفوا في الكسب بعدما اتفقوا على إثبات القدر .

فالكسب : هو عبارة عن اقتران المقدور بالقدرة الحادثة ، والخلق : هو المقدور بالقدرة القديمة ، وقالوا أيضاً : الكسب هو الفعل القائم بمحل القدرة عليه ، والخلق هو الفعل القائم بالمحل الخارج عن القدرة .

والفرق بين الكسب والخلق ، أن الكسب ما وقع بآلة ، والخلق ليس بآلة ، والكسب لا يصح انفراد القادر به ، والخلق يصح انفراده .

واختلافهم في الكسب بمعنى : هل يكون له تأثير في فعل العبد أم لا ؟

الإمام الأشعري ومن وافقه من أصحاب مالك والشافعي وأحمد من الذين لا يثبتون قوى ولا طبائع ، ويقولون : إن الله فعل عندها لابها ، وقالوا : إن قدرة العبد لا تأثير لها في الفعل .

ويقول الأشعري : إن الله فاعل فعل العبد ، وأن عمل العبد ليس فعلا للعبد ، بل كسباً له ، ومع إثباته الكسب يقول : لا تأثير لقدرة العبد ، وهذا القول في الحقيقة والمعنى كقول الجبرية ، والأمور بحقائقها » لا بالألفاظ المرونقة ، إذ إنكاره تأثير القدرة ، كأنه يقول : أن ليس لقدرة العبد إلا مجرد الاقتران ، والاقتران كما هو واضح لا اختصاص له بالقدرة ، فإن فعل العبد يقارن حياته وعلمه وإرادته وغير ذلك من صفاته ، فإذا لم يكن للقدرة تأثير إلا مجرد الاقتران ، فلا فرق بين القدرة وغيرها ، وسلف الأمة

وأئمتها يقولون : إن العبد فاعل لفعله حقيقة ، وأن له قدرة حقيقية واستطاعة حقيقية ، ولا ينكرون تأثير الأسباب الطبيعية ، بل يقرون بما دل عليه الشرع والعقل ، من أن الله يخلق السحاب بالرياح ، وينزل الماء بالسحاب ، وينبت النبات بالماء ، ولا يقولون : القوى والطبائع الموجودة في المخلوقات لا تأثير لها ، بل يقرون بأن لها أثراً لفظاً ومعنى ، لكن يقولون : هذا التأثير هو تأثير الأسباب في مسبباتها ، والله خالق السبب والمسبب ، فلابد للسبب من سبب آخر يشاركه ، ولابد له من معارض يمنعه ، فلا يتم أثره إلا مع خلق الله له ، بأن يخلق الله السبب الآخر ، ويزيل الموانع .

قال شيخ الإسلام : الأعمال والأقوال والطاعات والمعاصي هي من العبد ، بمعنى أنها قائمة به ، وحاصلة بمشيئته وقدرته ، وهو المتصف بها ، والمتحرك بها ، الذي يعود حكمها عليه ، وهي من الله ، بمعنى أن الله خلقها قائمة بالعبد ، وجعلها عملا له وكسباً ، كما يخلق المسببات بأسبابها ، كما إذا قلنا : هذه الثمرة من هذه الشجرة ، وهذا الزرع من هذه الأرض ، بمعنى أنه حدث منها ، ومن الله بمعنى أنه خلقه منها ، ولم يكن بينهما تناقض ، فالحوادث تضاف إلى خالقها باعتبار ، وإلى أسبابها باعتبار ، كما قال الله تعالى : (قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين)[1] ، وقال تعالى : **(وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره)**[2] مع قوله تعالى : **(قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً)**[3] .

---

(١) القصص : ١٥ .

(٢) الكهف : ٦٣ .

(٣) النساء : ٧٨ .

شبـــه القدريـــة

الشبهة الأولى والجواب عنها

احتجت القـدرية لمذهبها : أنها ترى الآيات القرآنية تسند الفعـل إلى العبـد ، كمـا في قوله تعـالى : (**لمن شاء منكم أن يستقيم**) ، هذه بالمشيئة ، وبالإرادة كقول الخضر : (**فأردت أن أعيبها**) ، وبالفعل والكسب والصنع كقوله تعالى : (**يفعلون**) ، وقـوله تعـالى : (**يعـملون**) ، وقـوله تعـالى : (**وبمـا كنتم تكسبـون**) ، وقـوله تعـالى : (**ومـا الله بغـافـل عمـا يعمـل الظالمون**) ، وقوله تعالى : (**وما تفعلوا من خير يعلمه الله**) ، هذه من حيث الإضافة العامة .

وأمـا الإضـافـة الخـاصـة : فمثل إضافة الصلاة والزكاة والصيـام والزنـا والسرقـة ، ومعلوم أن هذه الإضـافة الخاصة لا يجوز أن تضاف إلى الله .

والجـــواب : نعم لا تضاف ، بمعنى منع قيامها به ، ووصفه بها ، وجريان أحكامها عليه ، واشتقاق الأسماء منها له ، فلا يقال مزك ومصلٍّ ... إلخ .

ولكن تضاف إلى علمه بها ، وقدرته عليها ، ومشيئته العامة ، فإنهـا معلومـة له ، مقـدورة له ، وإضـافته إليهم لا تمنع هذه الإضـافـة ، كالأموال فإنها مخلوقة له ، وهي ملكه حقيقة ، وقد أضافها إليهم .

فالأعمال والأموال خلقه وملكه ، وهو سبحانه يضيفها إلى عبيده ، وهو الذي جعلهم مالكيها وعامليها ، فصحت النسبتان ، وحصول الأموال بكسبهم وإرادتهم ، كحصول الأعمال .

الشبهة الثانية والجواب عنها

احتجوا أيضاً بأن العبد يحدث إرادته ، وليست مخلوقة لله ، والله مكنه من إحداث إرادته ، بأن خلقه كذلك ، وإلا لو لم يكن متمكنا من إحداث ذلك ، فكيف يعاقبه على العصيان ، ويثيبه على الطاعة ؟ .

ومعلوم بداهة أن لو كان فعل العبد بإرادة الله وخلقه ، لما جاز الثواب والعقاب ، فكيف يخلق فيه إرادة الشر والخير ويسوقه إليه ، ثم يثيبه أو يعاقبه ؟

والجواب أن نقول : العبد بجملته مخلوق لله ، جسمه وروحه وصفاته ، وخلق على نشأة وصفة يتمكن بها من إحداث إرادته وأفعاله ، وتلك النشأة بمشيئة الله وقدرته ، وجعله محدثاً لإرادته وأفعاله ، ولذلك أمره ونهاه ، والعقاب والثواب يكون على هذه الأفعال والتروك التي مكنه منها وأقدره عليها ، فكان مريداً شائياً بمشيئة الله له ، فالرب أعطاه مشيئة وقدرة وإرادة ، وعرفه ما ينفعه وما يضره ، وأمره أن يجري مشيئته وإرادته في الطريق التي يصل بها إلى غاية صلاحه ، فإجراؤها في طريق هلاكه ، هو بمنزلة من أعطى عبده فرساً يركبها ، وأوقفه على طريق نجاة وهلاك وقال : أجرها في هذه الطريق ، فعدل بها إلى الطريق الأخرى ، وأجراها فيها ، فغلبته بقوة رأسها وشدة سيرها ، وعز عليه ردها ، وحيل بينه وبين إدارتها مع اختيارها وإرادتها .

أو نقول : إن الله لم يسلب العبد حريته وإرادته كما تقول

الجبرية ، ولم يطلق له التصرف والحرية التامة كما تقول القدرية ، بل أعطاه حرية وإرادة محدودتين ، فجاء الثواب والعقاب على ما منح من تلك الحرية المحدودة ، لأنه لو سلبه الحرية لأصبح كالجماد ، أو كالريشة المعلقة في الهواء ، تصرفها الأرياح كما تشاء ، فلا يكون مسؤولا عما يأتي ويذر ، ولا يستحق ثواباً ولا عقاباً ، لأنه غير مختار ، كما قيل على لسان الجبرية :

ما حيلة العبد والأقدار جارية   عليه في كل حال أيها الرائي
ألقاه في اليم مكتوفا وقال له   إياك إياك أن تبتل المـاء

ولو أطلق له الحرية لاستلزم الاستقلال التام والقدرة القاهرة والعلم المحيط ، وذلك ليس إلا لله .

فالعبد وإن كان حراً في الإرادة بقدر ما ، لكنه واقع تحت إرادة الله ومشيئته .

وإلى القاريء مثالا للتوضيح :

نقول : مثله كمثل بعض الحكومات التي هي مستقلة في داخليتها ، مختارة فيما تدير به شئون رعاياها ، لكنها مشمولة بحماية بعض الدول الكبرى ، مسئولة إذا لم تقم بما يفرض عليها من تلك الدولة الكبرى ، مع أنها مختارة فيما تحت يدها .

من شبه الجبرية

الشبهة الأولى والجواب عنها

قالوا : قال الله تعالى : (**فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء**)[1] ، أفلا يدل ذلك على أن الهدى والضلال بيد الله ، وليس للعبد فيهما كسب ولا عمل ؟ .

الجـــــواب :

إنـه من الثـابت بالبداهة والعقل والمشاهدة والإحساس أن للعبد عملا اختياريا ، يفعل ما يشاء ، ويترك ما لا يشاء ، فمن حيث أن الله سبحانه دعاهم إلى طريق الخير وسبيل الهداية على لسان رسله وفي كتبه المنزلة ، بعد أن منحهم من أنواع الهدايات ما فيه بلاغ ، فأبوا أن يستجيبوا لداعي الحق ، واستكبروا أن يسلكوا سبل الرشد ، فلا جرم أنه يتركهم وما اختاروا لأنفسهم ، فلا يأتي إضلاله إياهم إلا بعد اتجاههم إلى الشر ، وإعراضهم عن الخير ، قال تعالى : (**وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضـون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسـدون في الأرض أولئك هم الخـاسرون**)[2] .

فتــرون ـ في هذا النص الكـريم ـ أن الذين وقــع عليهم الإضلال هم الموصوفون بما ذكر ، فالإضلال قد وقع على فاسقين

---

(١) إبراهيم : ٤ .

(٢) البقرة : ٢٧ .

ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض ، فهو نتيجة مترتبة على مقدمات أتوا بها ، ومسبب عن أسباب ، وهو ليس إلا تركهم يسيرون في الطريق الذي اختاروا سلوكه .

ولو وقع الإضلال على صالحين ، يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويصلحون فى الأرض ، لقلنا : إن الله أرغمهم على الضلال .. وحاشا لله .

فمن اتجه إلى الخير وأخذ بأسبابه هيأ الله له ، ومن اتجه إلى الشر وتعلق بوسائله ولاه الله ما تولى ، وتركه وما اختار .

كما أن من حرث التين زرع الله له التين ، ومن حرث الشوك زرع الله له الشوك ، وكل يجني ما غرست يداه ، ولا يظلم ربك أحداً .

الشبهة الثانية والجواب عنها
وهى حول قول الله تعالى

(أتعبـدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون)

فقالوا : إن (ما) مصدرية ، والتقدير خلقكم ، وخلق عملكم .

الجـــــواب :

ما كان الله ليلهم الكفار من قوم إبراهيم الحجة عليه بعد أن آتاه الحجة عليهم ، وأراه ملكوت السموات والأرض ، فكان من الموقنين .

إذ لو كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ يريد المعنى الذي ذهب إليه أولئك المفسرون ، لرد عليه قومه قائلين : فما بالك تلومنا على

أمر لا إرادة لنا فيه ، ولا قدرة لنا عليه ، ولا حيلة لنا في الخلاص منه ، فالله خلقنا ، وخلق عملنا ، أي عبادتنا للأصنام ، فلا توجه إلينافي ذلك كلام ، ولا تصوب إلينا سهام العتاب والملام .

ولو كان إبراهيم يقصد ذلك المعنى لقامت الحجة عليه ، ولاستطاع قومه أن يفحموه ، وما استطاع أن يرد عليهم .

ولكن التفسير الصحيح للآية الكريمة ، التفسير الحق الذي يساير نصوص القرآن الكريم ولا يجافيها ، ويوافقها ولا ينافيها ، أن تقدر (ما) اسما موصولا واقعاً على الأصنام المنحوتة ، ويكون التقدير : أتعبدون هذه الأصنام التي تنحتونها بأيديكم ، والله خلقكم وخلقها ؟

فالأصنام مخلوقة لله بمادتها ، وهي الحجر ، ومعمولة لهم بصورتها ، فالله تعالى خلق الحجارة ، وهم نحتوها وعملوها تماثيل وأصناماً يعبدونها من دون الله .

وبهذا التفسير نهضت حجة إبراهيم على قومه ، وكانت حجتهم داحضة .

هذا هو المنطق الذي يساير حجة القرآن الناهضة وآياته البينات .

هذا هو التفسير الموائم لهذا الاستفهام الإنكاري الذي يوجهه إبراهيم إلى قومه ، منكراً عليهم عبادة أصنام ينحتونها بأيديهم ، فكأنه يقول لهم : أيسوغ في قضية العقل ، أن تعبدوا الأصنام التي تنحتونها بأيديكم ، وتتركوا عبادة الله الذي خلقكم وخلقها ؟ ، أي خلق الحجارة التي تتخذون منها الأصنام التي تنحتونها ، وتعملونها تماثيل لأوليائكم ومعتقديكم تعبدونها من دون الله .

الشبهة الثالثة والجواب عنها

إرادة الله

قد يلوم أحدكم بعض من يقترفون المنكر ، فيدفع عن نفسه بقوله : هذه إرادة الله ؟

الجـــواب :

أجل هذه إرادة الله ، ولكن الله يكره من عباده أن يعملوا الشر ، وإن وقع بإرادته ، إذ لا يقع في ملكه إلا ما يشاء ، وليس معنى المشيئة أنه يحب ذلك الشر ، بل معناها أن الشر لا يقع على الرغم منه ـ وحاشا له ـ .

وإرادة الله تعالى لا ترغم العبد على فعل الشر ، ولو أن العبد فعل الخير بدل الشر ، لكان فعل الخير بإرادته سبحانه أيضاً .

فالله سبحانه بعد أن أنزل الكتاب ، وأرسل الرسول ﷺ ، وبين الحلال والحرام ، وأخبر بما أعد للمطيعين ، وما اعتد للعصاة المارقين ، ترك العباد لاختيارهم ، كما قال تعالى : **(وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر)**[1] .

ترك الله العباد لاختيارهم ، وإن كان يحب منهم أن يأتوا الطاعات ، ويكره أن يأتوا المعاصي .

فالطاعات والمعاصي تقع من العبد بإرادة الله ومشيئته ، أي بغير أن يكون مكرها على وقوعها ، كما أن مشيئته تعالى لم تكره العبد على المعصية التي تقع منه .

وبعد أن قدمت الكلام في القضاء والقدر وأفعال العباد ، وقفت على كلام نفيس للشيخ أبي الوفاء محمد درويش في رسالة مستقلة وإلى القارىء تلخيص ماذكره .

---

(١) الكهف : ٢٩ .

الإنســـان والأقـــدار

الأقدار المحيطة بالإنسان على ثلاثة أنواع : ـ

الأول : نوع لا يستطيع الإنسان دفعه مهما يكن له من القوة والبطش ، ولابد أن ينفذ وأنف الإنسان راغم .

الثاني : نوع لا يمكن الإنسان أن يقاومه كل المقاومة ، ولكن يمكنه تخفيف حدته وتلطيف شدته .

الثالث : نوع جعل الله في وسع الإنسان أن يدفعه ، بل أوجب عليه أن يدفعه ، وأن يبذل في سبيل ذلك كل ما يملك من قوة وجهد .

وهـذا إجمال يحتـاج إلى تفصيل ، وإلى حضراتـكم تفصيل هذا الإجمال .

النـــوع الأول :

أما القدر الذي هو وراء قدرة الإنسان ، ولا تناله قوته ، ولا يستـطيـع دفعـه مهما يكن له من القوة والسلطان ، فهو القدر المتصل بنواميس الكون وقوانين الوجود ، وهو القدر الغالب ابتداء وانتهاء ، فليس في وسع إنسان أن يوقف دورة الفلك ، أو يأتي بالربيع مكان الخريف ، أو بالشتاء مكان الصيف .

ســنن الوجود :

ومن ذلك : أن يولد الإنسان لفلان دون غيره ، ومن فلانة دون غيرها ، وفي هذا البلد بالذات ، وفي هذا الإقليم دون سواه ، وفي هذا العصر دون سابقه أو لاحقه .

وأن يكون أبيض اللون أو أسمره ، طويل القامة أو قصيرها ، ذكياً أو غبياً ، أو غير ذلك من الأمور التي هي فعل الأقدار وحدها ، وليس للإنسان يد في إحداثها ، ولا قدرة له على تغييرها أو الخلاص منها .

ومن أجل ذلك لم يكلف الله الناس شيئاً من هذا في أية شريعة من شرائعه المنزلة ، إذ ليس في وسع أحد أن ينهض به ، (**لا يكلف الله نفساً إلا وسعها**)[1] .

ذلكم هو القدر الذي يشير إليه الله سبحانه بقوله تعالى : (**ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور**)[2] ، وبقوله تعالى : (**ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، والله بكل شيء عليم**)[3] .

فلو تدبرنا هذه الآيات حق تدبرها ، لوجدناها تنطق بالحق ، وتشهد بالصدق ، وتعلن في صراحة وجلاء أن الله تبارك وتعالى يدير الكون بعلمه وحكمته وقدرته ومشيئته ، فلا يقع فيه شيء إلا بإذنه ، ولوجدنا فيها عزاء للذين تعتريهم الكوارث ، وتمسهم النكبات ، إذ تنزل السكينة في قلوبهم ، وترد إليهم عازب الصبر ، وتلهمهم الرضا والتسليم ، ولوجدنا فيها كذلك كبحاً لجماح النفوس السادرة في غلوائها ، المدللة بما خولها ربها من الخير والنعمة ، والتي يستهويها شيطان الغرور ، فينسيها شكر المنعم وحمد المتفضل .

---

(١) البقرة : ٢٨٦ .
(٢) الحديد : ٢٣ .
(٣) التغابن : ١١ .

النـــوع الثـــاني :

أما القدر الذي لا يستطيع الإنسان أن يقاومه كل المقاومة ، ولكن في إمكـانـه تخفيف حدته وتلطيف شدته ، فهو ما يتصل بالغرائز والبيئة والوراثة وما إلى ذلك ، فهو غالب ابتداء ، ولكنه مخير انتهاء .

وتوضيح ذلك : إن الله تعالى قدر على الإنسان غريزة حفظ الذات ، وهذه الغريزة جامحة طاغية عنيفة ، لو ألقى حبلها على غاربها لاقتحمت بالإنسان مخاطر ومهلكات ، ودفعته إلى أن يظفر بكل ما تمكنه قوته من الظفر ، غير مبال ولا حافل بسواه . .

لم يفرض الله تعالى على الإنسان أن ينتزع هذه الغريزة من جذورها ، أو يقتلعها من أصولها ، لأنها قدر غالب ، لا سبيل إلى دفعه ، ولكنه أمره أن يكبح جماحها ، ويردها عن طغيانها ، وعلمه كيف يخفف من حدة هذا القدر ، وكيف يلطف من جموحه ، فقال تعالى : (**يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ، ولا تقتلوا أنفسكم ، إن الله كان بكم رحيما**)[1] .

وقال تعالى : (**إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً**)[2] .

وقال تعالى : (**يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيبا ولا تتبعـوا خطوات الشيطان إنه لـكم عـدو مبين**)[3] .

فترون في هذه النصوص الحكيمة أن الله سبحانه حظر على

---

(١) النساء : ٢٩ .

(٢) النساء : ١٠ .

(٣) البقرة : ١٦٨ .

الإنسان أن يعتدي على حق غيره ، وأن لا يأكل ما لم يكسبه من طريق طيب مباح ، وبذلك خفف من حدة هذه الغريزة ، وحد من طغيانها .

وهنا يشعر الإنسان بأنه حر ، مخير بين أن يستجيب لداعي الغريزة الجموح ، وأن يستجيب لأمر الله الحكيم الذي لم يكلفه إلا ماله به طاقة .

وقدر سبحانه عليه غريزة حفظ النوع ، وهي كذلك جامحة شرود طاغية ، فلو أرخى لها العنان لأصاب الرجل كل امرأة تروقه ، واستسلمت المرأة لكل رجل يحظى بإعجابها .

وكذلك لم يكلف الله الإنسان أن يجتث هذه الغريزة من عروقها ، لأن ذلك قدر غالب لا قبل للإنسان بمقاومته والخروج على أحكامه ، ولكنه تعالى كلفه المستطاع ، وهو الحد من طغيان هذه الغريزة ، وكبح جماحها ، وتدبير أمرها ، فحرم الزنا ، وحرم أنواعاً من النساء تحريماً مؤبداً ، وحرم أنواعاً منهن تحريماً مؤقتاً، وأباح سائرهن بشرط الإيجاب والقبول والمهر والشهود وإذن الولي ، وإيراد النصوص يطول به الحديث ، ولا يتسع له الوقت ، وهي معلومة لحضراتكم جميعاً .

النوع الثالث :

وهو الأقدار التي أوجب الله على الإنسان أن يدفعها ، فهي الأقدار المخيرة ابتداء وانتهاء .

وإليكم البيان :

جاء رسول الله ﷺ قومه بالهدى ودين الحق ، فكذبوه ورموه به ، وحالوا دون نشر دعوته وإعلان كلمة الحق ، ولا جرم أن ذلك كله من قدر الله ، فماذا كان أمره عليه الصلاة والسلام ؟ .

أتظنون أنه خضع لأحكام هذا القدر ، أو استسلم

لسلطانه ؟ ! أتظنون أنه ترك حبل الدعوة على غاربها ، وقبع في كسر بيته انتظاراً لما تأتي به الأقدار ؟

كلا ، بل قاوم وجاهد وقاتل وأنفق جهد طاقته لينحي أعداء الحق من طريقه حتى أيده الله بنصره ، وذلك من قدر الله أيضاً ، فها نحن رأينا الرسول ﷺ قد دفع قدراً بقدر ، ونحن في كل حين ندفع أقداراً بأقدار .

فالجوع مثلا من القدر ، وندفعه بقدر الطعام ، والعطش من القدر ، وندفعه بقدر الشرب ، والمرض من القدر ، وندفعه بالدواء ، وهو من القدر ، ولو أن امرءاً استسلم لقدر الجوع أو الظمأ وهو قادر على دفعه أو دفعهما ثم مات ، فإنه قد مات عاصياً لله تعالى الذى نهاه عن أن يلقي نفسه إلى التهلكة ، وقد قال الله : **(ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين)**(١)

وقد أفصح رسول الله ﷺ عن هذا كل الإفصاح ، وأوضحه كل الإيضاح ، حين قيل : يا رسول الله ، أرأيت أدوية نتداوى بها ؟ ورقى نسترقي بها ؟ وتقى نتقي بها ؟ أترد من قدر الله شيئاً ؟ فقال ﷺ : هي من قدر الله .

فاسمعوا إلى هذا الجواب الحكيم ، الذي يحفز الأمم إلى العمل النافع ، واتخاذ الأسباب ، والإمعان في الحذر ، وقد قال أبوعبيدة لعمر بن الخطاب حين أراد الفرار من الطاعون من الشام : أتفر من قدر الله ؟ .

قال : نعم ، أفر من قدر الله إلى قدر الله ، فيا له من جواب سديد .

قال تعالى في الثناء على المؤمنين : **(والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية**

---

(١) البقرة : ١٩٥ .

ويدرأون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار)[1] ، فقد أخبر عن المؤمنين أنهم يدرأون بالحسنة السيئة ، والسيئة من قدر الله ، والحسنة التي يدفعون بها من قدر الله ، فهم يدفعون قدرا بقدر .

وقال تعالى : (**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرون لا تعلمونهم الله يعلمهم)**[2] ، فقد أمر الله بإعداد المستطاع من العدة إرهاباً للعدو ، والمستطاع هو ما يدخل في قدرة الإنسان وإمكانه واختياره ، وكل هذه من دفع الأقدار بالأقدار ، قدر الله سبحانه أن الحذر سبب الظفر في الدين ، وبالنعيم في الآخرة ، فإن قصرنا في عمل كان في وسعنا أن نعمله ، وحاق بنا تقصيرنا ، كنا خلقاء باللوم والتثريب ، وأحرياء بما أعد الله للمقصرين من الخيبة في الدنيا ، والعذاب الأليم في الآخرة ، فكل امرئ يدرك إدراكاً تاماً الفرق بين ما يأتيه وما يذر ، وما يصيبه وليس له فيه اختيار ، ومن أنكر هذا فقد سفه نفسه وأنكر عقله .

ومن عجب أن القدر لا يخطر ببال إنسان في كل هذه الأمور إلا إذا اقترف سيئة ، ليحمل الأقدار تبعة ما جنى وجريرة ما اقترف ، ولولا أن الإنسان يشعر كل الشعور بأنه مختار فيما يأتي وما يذر ، ولولا أن الطاعات في وسعه وفي إمكانه ، لما نزلت الشرائع ، ولا جاءت الأوامر والنواهي ، ولا أنزل الله الكتب ، وأرسل الرسل ، ولا جعل جنة ونعيما ، وناراً وجحيماً .

ولو كان مجبراً على الأعمال الاختيارية ، لبطل الثواب والعقاب ، والأمر بالنهي عن المنكر .

---

(١) الرعد ٢٢ .

(٢) الأنفال : ٦٠ .

ســـؤال وجـــواب

كيف توفق بين قول الله تعالى :

(**قل كل من عند الله**)[1] وقوله له العزة : (وما أصابك من سيئة فمن نفسك)[2] ؟

الجـــواب :

ذلك أن المنافقين والكافرين الذين كانوا بالمدينة بعد أن هاجر النبي ﷺ إليها ، كانوا إذا أصابتهم حسنة من نزول غيث ونماء زرع وجودة حاصل ، قالوا : هذه من عند الله ، زاعمين أن الله تعالى ما أنعم بها عليهم إلا لكرامتهم عليه ومنزلتهم عنده ، وإذا أصابتهم شدة من احتباس مطر أو جفاف زرع ، قالوا : هذه من عنـد محمـد ، أى أنهم كانـوا يتشـاءمـون بقدومه ، ويتطيرون بدعـوتـه ، فرد الله عليهم مقـالتهم الخاطئة الآثمة ، وقال تعالى مخاطبا نبيه الكريم : (**قل كل من عند الله ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً**) ، أي أن كلا من الحسنة والسيئة من عند الله ، لوقوعها في ملكه على حسب ما وضع من النواميس ورتب من السنن .

وبعـد أن بين سبحـانـه حقيقـة الأمر في الحسنة والسيئة بالنسبة إلى موضوعهما وقوانين الوجود ، وسنن الله تعالى فيهما ، وأوضح تعالى أن كل شيء مما يحسن وقعه عند الناس أو يسوؤهم

---

(١) النساء : ٧٨ .

(٢) النساء : ٧٩ .

بهـذا الاعتبـار ، يضـاف إلى رب العـزة ، لأنه مسبب الأسباب وواضع النواميس والسنن ، أراد سبحانه أن يبين حقيقة الأمر فيهما من وجه آخر فقال تعالى : (**ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ، وأرسلناك للناس رسولا ، وكفى بالله شهيداً**) ، ومعنى هذا أن كل حسنة تصيب العبد ، من صحة وعافية ورزق واعتدال زمان وخصب أرض ونزول غيث وغـير ذلك ، مما يحسن عنده وقعه ، فهي من محض فضل الله عليه ، فهو الذي سخر له المنافع التي بها حياته وحياة ما ينتفع به من حيوان ونبات .

وكل سيئة تصيب العبد فهي من نفسه ، لأنه أوتي قدرة على العمـل ، واختيـاراً في تقدير الباعث عليه من درء المضار وجلب المنافع ، وإيثار بعض المقاصد ، فيخطيء ويوقعه الخطأ فيما يسوؤه .

فإذا أساء العبد التصرف في عمله ، وفرط في النظر في شئونه ، فوجهها بسوء اختياره إلى ما يضره ، فحق أن ينسب إليه ما جنى على نفسه ، ويقال له : (**وما أصابك من سيئة فمن نفسك**) .

وهنا حقيقتان متفقتان ينبغي تدبرهما وفقههما :

الأولى : إن كل شيء من عند الله ، بمعنى أنه خالق الأشياء التي هـي مواد المنـافـع والمضار ، وأنه واضع النظام والسنن ، ومـسـبب الأسـبـاب ، التي توصـل إلى هذه الأشـيـاء بسعي الإنسـان واختياره ، وكل شيء بهـذا الاعتبار فهو حسن ، لأنه مظهر الحكمة والنظام والإبداع الإلهي .

الثانية : إن الإنسان لا يقع في شيء يسوؤه إلا بتقصيره في استبانة الأسباب ، وتقصيره في تعرف السنن والأحكام .

فالمـرض ـ مثلا ـ من الأمور التي تسوء الإنســان ، وهو

لا يصيبه إلا بتقصيره مع في السير على سنن الفطرة في الغذاء والعمل ، فقد ينشأ من تخمة سببتها شهوته ، أو من إفراط في التعب أو الراحة ، أو من عدم اتقاء أسباب الضرر كالتعرض للحر أوالبرد الشديدين ، فإذا قصر الإنسان في العلم ، وأساء الاختيار في استعمال قواه في غير ما يقتضيه نظام الفطرة وحاجة الطبيعة ، وقع فيما يسؤوه ، وكان على نفسه جانياً .

مثـــال :

أضرب لحضراتكم مثلا : شاب منحه والده مالا يستثمره ، ويصلح به شأنه ، فصار به غنياً ، فيحق أن يقال : إن هذا الخير من عند أبيه .

فإن هو أساء التصرف في هذا المال ، وطفق ينفقه في اللهو والفساد ، وعرضه بذلك للضياع ، فعلم به والده ، فاسترد منه ما بقى ، وتركه يعاني الحرمان ، فلا جرم أنه يحق أن يقال : إن نفسه هي التي جنت عليه .

فالواهب والمسترد في الحقيقة واحد وهو الوالد ، ولكن نفس الولد جنت عليه حين عرضته لاسترداد المال منه لما ورطته فيه من أسباب الفساد .

وإذاً فسيئة هذا الولد من نفسه .

وأظنني بهذا البيان قد تمكنت - بتوفيق الله - أن أوفق بين هاتين الآيتين الكريمتين .

فكل شيء من الله أصلا ووضعاً .

والعبد هو الذي يجلب الشر لنفسه ، لأنه لم يصرف نعم الله إلى ما وهبت من أجله ا . هـ[1] .

---

(١) ا - هـ من القضاء والقدر للشيخ أبي الوفاء محمد درويش .

فصـــل

موقف السلف من القضاء والقدر

وبعـد فالواجب على المسلم التسليم بما جاء عن النبي ﷺ والسلف - رضي الله عنهم - في القضاء والقدر ، والبعد عن الجدل والنقاش العقيم الذي لا جدوى منه حتى يسلم في دينه ، وإليك البيان بإيجاز :

موقف السـلف :

يرى السلف أن الخوض في القدر على هذا النحو الذي تناوله به المتكلمون ، هو خروج عن الشرع الذي جعل القدر من الأصول الإيمانية التي يجب اعتقادها ، والتسليم بها دون مماراة أو جدل ، ولم يأذن الشرع للعقـل بالخـوض فيه ، لما يترتب على ذلك من الهـلاك في الدين ، فالقـول بالاختيار المطلق واستقلال الإنسان بإرادته وقدرته يؤدي إلى الغرور والاستعلاء ، مما ينتهي بالإنسان إلى التكبـر والاستهتار بالدين ، والقول بالجبر المطلق يؤدي إلى التنطع والاستهتار والإلحاد والزندقة .

فالقول إذاً بالاختيار مثل القول بالجبر المطلق ، كلاهما يؤدي إلى نفس النتيجة ، وما ذاك إلا بسبب الخوض في أمور نهى الشرع عن الخوض فيها .

فالقدر سر من أسرار الله في خلقه التي لا يجب بل لا يجوز الاشتغال بكشف الحجاب عنها ، لأنه إن حاول ذلك لن يكون إلا كناظر في عين الشمس ، لن يزيده النظر إلا حيرة وعماء .

يقول الشيخ الطحاوي : « وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه ، لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل ، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان وسلم الحرمان ودرجة الطغيان ، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة ، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن آنامه ، ونهاهم من مرامه ، كما قال تعالى في كتابه : (**لا يسأل عما يفعل وهم يسألون**)[1] .

فمن سأل لم فعل ؟ فقد رد حكم الكتاب ، ومن رد حكم الكتاب ، كان من الكافرين[2] .

وموقف السلف هذا أخذوه عن صاحب الشرع ﷺ ، ففيما رواه مسلم وأحمد أن الرسول ﷺ خرج على أصحابه ، وهم يتناظرون في القدر ، ورجل يقول : ألم يقل الله كذا ؟ ورجل يقول : ألم يقل الله كذا ؟ فكأنما فقيء في وجهه حب الرمان ، فقال : « أبهذا أمرتم ؟! إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً ، لا يكذب بعضه بعضاً ، انظروا ما أمرتم به فافعلوه ، وما نهيتهم عنه فاجتنبوه » .

وأخرج الهروي من طريق عمر بن شعيب عن أبيه عن جده فيما رواه الترمذي ، قال : خرج رسول ﷺ على أصحابه ذات يوم ، وهم يتراجعون في القدر ، فخرج مغضباً حتى وقف عليهم ، فقال : « يا قوم ، بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتاب بعضه ببعض ، وإن القرآن لم ينزل ليضرب بعضه ببعض ، وإنما نزل القرآن يصدق بعضه بعضاً ، ما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه فآمنوا به » .

---

(١) الأنبياء : ٢٣ .

(٢) شرح الطحاوية ص ٤٩٣ .

وعن أبي هريرة فيما رواه الترمذي ، قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ، ونحن نتنازع في القدر ، فغضب حتى احمر وجهه ، ثم قال : « إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر ، عزمت عليكم أن لا تنازعوا » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا داود بن أبي هند ، عن عمر بن شعيب عن أبيه ، عن جده ، قال : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر ، قال : فكأنما فقيء في وجهه حب الرمان من الغضب ، قال : فقال لهم : « مالكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض ؟! بهذا هلك من كان قبلكم ، قال : فما غبطت نفسي بمجلس فيه رسول الله لم أشهده ، بما غبطت نفسي بذلك المجلس أني لم أشهده » . ورواه ابن ماجه أيضاً .

والرسول ﷺ يحدد بنفسه المنهج المناسب الذي يجب على المسلم اتخاذه في هذه المسألة حين يقول فيما رواه الطبراني : « إذا ذكر القدر فأمسكوا » .

من كل هذا يتضح لنا أن الطريق الصحيح في كل الأصول العقدية ومنها مسألة القدر ، هو الالتزام بالوحي ، أما العدول عن هذا الطريق فهو خطأ علمي وديني ، من أجل هذا التزم السلف الوحي في كل ما يتصل بالله وصفاته من غير سؤال بكيف ولم ؟ .

يقول صاحب شرح الطحاوية : اعلم أن مبنى العبودية والإيمان بالله وكتبه ورسله على التسليم وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع ، ولهذا لم يحك الله سبحانه عن أمة نبي صدقت بنبيها وآمنت بما جاء به ، أنها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به ونهاها عنه وبلغها عن ربها ، ولو فعلت ذلك لما كانت مؤمنة بنبيها ، بل انقادت وسلمت وأذعنت ، وما عرفت من الحكمة عرفته ، وما خفي عنها لم تتوقف

في انقيـادها وتسليمها على معرفته ، ولا جعلت ذلك من شأنها ، وكـان رسـولهـا أعـظم عندها من أن تسأله عن ذلك ، كما في الإنجيل : « يا بني إسرائيل لا تقولوا لم أمر ربنا ؟ ولكن قولوا : بم أمر ربنا » ، ولهذا كان سلف هذه الأمة ، التي هي أكمل الأمم عقولا ومعارف وعلوماً لا تسأل نبيها : لم أمر الله بكذا ؟ ولم نهى عن كذا ؟ ولم قدر كذا ؟ ولم فعل كذا ؟ لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمـان والاستسلام ، وأن قدم الإسلام لا تثبت إلا على درجة التسليم ، فأول مراتب تعظيم الأمر التصديق به ، ثم العزم الجازم على امتثاله ، ثم المسارعة إليه والمبادرة به ، والحذر عن القواطع والموانع ، ثم بذل الجهد والنصح في الإتيان به على أكمل الوجوه ، ثم فعله لكـونـه مأموراً ، بحيث لا يتوقف الإتيان به على معرفة حـكمته ، فإن ظهرت له فعله وإلا عطله ، فإن هذا ينافي الانقياد ويقدح في الامتثال ، وقال ﷺ : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » رواه الترمذي وغيره ا . هـ[1] .

فالواجب على كل مسلم الإيمان بالقدر خيره وشره دون جدل أو بحث ، وأن يتجه بدل ذلك بكل طاقته إلى العمل بما أمر الله ، ثم يترك النتائج له سبحانه وتعالى ، مع الإيمان والتسليم بأن كل ما يقع له أو يصيبه هو مثل كل ما في الكون بقضاء الله وقدره ، فعلينا أن نشغل أنفسنا بما أمرنا به الله وأراده منا ، ولا نشغل أنفسنا بما أراده الله بنا ، لأنه كما قيل : إن الله أراد بنا شيئاً ، وأراد منا شيئاً ، فما أراده منا أظهره لنا ، وما أراده بنا طواه عنا ، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا ؟!

والمسلمون يوم أن كانوا يشتغلون بما أراده الله منهم لا بما أراده لهم ، سادوا العـالم ، وكـانت عقيدة الإيمان بالقدر طاقة دافعة لهم إلى الرقي والتقدم والسيادة بالحق والعدل ، فالإيمان

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص : ٢٩٠ ـ ٢٩١ .

بالقدر إذا تمكن في قلب المسلم ووعيه ، تحول إلى طاقة دافعة له نحو العمل والكسب والإقدام وإلى إزاحة كل العوائق التي تحول بينه وبين التقدم والرخاء والسيطرة والسيادة ، تملأ قلبه طمأنينة وثقة وعزماً وجراءة لاعتقاده أن لن يصيبه إلا ما كتب الله له ، فيصبح يد القدر الباطشة الغالبة .

وقد التقى رستم قائد الفرس بعربي من طلائع جيش المسلمين ، فقال له : ما الذي أخرجكم من دياركم ؟ فقال العربي المسلم : ما لهذه الدنيا خرجنا ، بل كنا ضعفاء فقوانا الله ، وكنا ضالين فهدانا الله ، وأمرنا أن نبلغ الرسالة ، فإن دخلت فيما دخلنا ، فنحن وأنتم سواء ، وإلا فالسيف بيننا وبينكم ، فقال رستم : انظر إلى هذه الجيوش ، فنظر الرجل ساخراً ، ثم قال : يا هذا ، إنك لا تحارب الناس ، ولكنك تحارب القدر ، فنحن قدر الله سلطنا عليكم[1] .

أما وبعد أن انشغل المسلمون بما أراده الله بهم عما أراده الله منهم ، انطفأت هذه الجذوة في قلوبهم ، وأصبحت رماداً ، وتحولت عقيدة القدر من قوة مساندة دافعة إلى قوة مضادة معاكسة وإلى عامل من عوامل الإحباط والخمول واليأس والقنوط ا . هـ[2] .

---

(١) نظرات في السيرة ص ٣٦ . حسن البنا ـ مكتبة الإعتصام ـ القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

(٢) من (منهج السلف في العقيدة) د . حمدي عبد العال .

وبعد الانتهاء من الكلام في القضاء والقدر ، استلزم الأمر الكلام في الرزق :

فصـــل في الرزق

والرزق ما به انتفاع قد حصل	فخذ بقولنا ودع أهل الخطل
وعندنـــا الحـــلال والمحظور	رزق وقول غيرنـــا محـــذور
فالرزق ما يســـوقه الكريم	لعبـــده الضـــعيف ياعليم
من الحـــلال أو من الحـــرام	بغير رزق ليس في الأنـــام

ش : الرزق بمعنى الشيء المرزوق عند أهل السنة ، وهو ما ساقـه الله إلى الحيـوان ، فانتفع به بالفعل ، وبين في النظم أن الرزق ما انتفع به العبد بالفعل سواء كان من حلال أو من حرام .

وقالت المعتزلة : الحرام ليس برزق ، وفسروه تارة بمملوك يأكله المالك ، وتارة بما لا يمنع عن الانتفاع به ، وذلك لا يكون إلا حلالا .

ويرد عليهم على التفسير الأول : إنما ما تأكله الدواب ليس برزق ، وعلى الثاني : إن من أكل الحرام طول عمره لم يرزقه الله أصلا ، وتصور هذا القول كاف في فساده ، لأن الله تعالى يقول : **(وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها)**[1] ، وفي آية أخرى يقول تعالى : **(إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين)**[2] ، ولا يرد على قولنـا السـابق ما انتفـع به العبـد ، فقوله تعالى : **(ومما**

---

(١) هود : ٦ .

(٢) الذرايات : ٥٨ .

رزقناهم ينفقون)[1] ، فإنه يقتضي أنه لا يعتبر في الرزق الانتفاع بالفعل ، لأن المراد به المعنى اللغوي ، فالمعنى ومما أعطيناهم ينفقون ، أو المراد به ما هيئ لكونه رزقاً .

فقولنا : والرزق ما به انتفاع قد حصل خرج به مالم ينتفع به بالفعل ، فمن ملك شيئاً ، وتمكن من الانتفاع به ، ولم ينتفع به ، فليس ذلك الشيء رزقا له ، وإنما يكون رزقا لمن ينتفع به فعلا .

وللشيخ تقي الدين تفصيل نفيس قال : والرزق يراد به شيئان ، أحدهما : بيان ما ينتفع به العبد ، وهذا هو المذكور في قوله تعالى : (**وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها**)[2] .

والثاني : ما يملكه العبد وهذا هوالمذكور في قوله تعالى : (**ومما رزقناهم ينفقون**)[3] ، وقوله تعالى : (أنفقوا مما رزقناكم)[4] ، والعبد قد يأكل الحلال والحرام فهو رزق باعتبار الأول لا الثاني . ا . هـ .

---

(١) البقرة : ٣ .

(٢) هود : ٦ .

(٣) البقرة : ٣ .

(٤) البقرة : ٢٥٤ .

خاتمـــــة

انتهى الجزء الأول بعون الله ورعايته ، ويليه الجزء الثاني وأوله حالة العالم قبل البعثة المحمدية ، والحاجة الماسة إلى إرسال رسول ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المــؤلف

فهرس الجزء الأول من العقائد السلفية
بأدلتها النقلية والعقلية

الموضـــوع | الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

طبع بمطابع علي بن علي